برج الحوت وقصص أخرى

(أفضل ٥٠ قصة في الأدب العالمي)

الكتاب : برج الحوت وقصص أخرى (أفضل ٥٠ قصة في الأدب العالمي)

تأليف: مجموعة من الكُتَّاب

ترجمة وإعداد : د/ هاني حجاج

تصميم الغلاف : د/ هاني حجاج

تنسيق داخلي : يوسف الفرماوي

مراجعة لغوية : د/ هاني حجاج

الطبعة : الأولى٢٠٢٠

رقم الإيداع: **2020/21272**

الترقيم الدولي : 978-977-6727-86-1

الناشر : السعيد للنشر والتوزيع

المدير العام : لمياء السعيد

برج الهادي – الدور الأول - 36 ش عبد الحميد الديب – شبرا مصر

0222017260 – 01550096215

elsaidpublisher@gmail.com

جميع الحقوق محفوظة للناشر

برج الحوت وقصص أخرى

(أفضل ٥٠ قصة في الأدب العالمي)

تأليف

مجموعة من الكُتَّاب

ترجمة وإعداد:

د. هاني حجاج

السَّعيد

للنشر والتوزيع

مقدمة

في اللغة نقول: قص الرجل، أي تتبع أثره، وقص القصة أي رواها. القصص هي رواية الخبر. القصة هي حكاية نثرية طويلة. الجمع: قصص. الفعل منها: يقص. قص. سيقص. وعن روح التأليف نجيز القول أن القصة كتابة أولى، ونقد القصة كتابة ثانية، ويشيع بين الدارسين في مجال النقد أن القصة هي التعبير عن الحياة كما تمر في الزمن، بتفصيلاتها ودقائقها وجزئياتها، تمثلها الأحداث الخارجية، والحوادث العابرة، والمشاعر الداخلية، ويراعى الفارق؛ أن الحياة مطلقة، والقصة محدودة، وتراعى الفروق بين الأقصوصة والقصة والرواية. فالأقصوصة تدور في فلك واحد وحول محور واحد ومجال واحد وفي خط سير واحد، ولا تمل من حياة أشخاصها إلا فترة محدودة، أو حادثة بعينها، أو حالة شعورية معينة، ولا تقبل التشعُّب والاستطراد إلى ملابسات كل حادث، وظروف كل شخصية، إذا كان ذلك يوجه النظر بعيداً عن الشخصية الأساسية أو الحالة الأساسية، ولا يشترط في الأقصوصة ما يشترط في الرواية من ابتداء ونهاية، فقد تصف حالة نفسية اعترت شخصاً ما في لحظة ما، فإذا صورتها صورة مؤثرة موحية؛ فقد انتهت مهمتها على أكمل وجه.

بينما تعالج الرواية فترة من الحياة بكل ظروفها وملابساتها وجزئياتها واستطراداتها وتشابكها. ولابد فيها من بدء ونهاية للحوادث لتصل إلي غاية مرسومة. أما القصة فهي وسط بين الرواية والأقصوصة – إلا في الحجم؛ فالحجم لا يعني شيئاً بالنسبة للقصة – ولكن في المحيط الذي تشمله .. يكون لها بدء ونهاية في الزمن حتماً كالرواية، إنما تقوم على محور ضيق، ومحيط محدود من الشخصيات والأحداث والمشاعر.

ويستخدم الباحثون في القصة هذا المصطلح: القصة ؛ أحياناً لوصف الأقصوصة، أو ما شاع بتسميته القصة القصيرة وهي قطعة من الحياة، كيفما كانت، قصيرة أو طويلة، والحياة لا تكون إلا حياة الجماعة، ضيقة أم واسعة، غنية أم فقيرة، في حالة سلم أم في حالة حرب. في مقدمة مجموعة (من يذكر تلك الأيام) لنجاح العطار وحنا مينا يقولان في تقديمها: وهذه الأحداث، في القصص التي يضمها هذا الكاتب، نتاج واقع وذات في آن، واقع حرب تشرين التحريرية، وذاتنا حيال هذه الحرب. الخامات من الآخرين. والصياغة منا. هذه ترجمة عن ذات اللذين قاتلوا إلى ذات اللذين كانوا وراء المقاتلين.

ولابد للقصة القصيرة من أن تأخذ حالات وأشكالاً متنوعة، ألم نتفق أنها صورة للنشاط الإنساني؟! وللسبب ذاته هي أول الأنواع الأدبية وأكثرها طبيعية وطواعية واستمراراً؛ فضلاً عن جاذبيتها الكامنة في حقيقة تركيزها وإيجازها وكونها أكثر الفنون ديمقراطية، فأنت وأنا وهو وهي كل منا يمكنه أن يحكي قصة. حدوتة. ليس من الضروري أن تكون

معقـدة أيديولوجيـاً أو متعـددة الطبقـات، وحسـب مهاراتـك تسـتطيع أن تجعـل قصتـك جيـدة تختـزل تجربـة إنسـانية عامـة أو حيـاة شـاملة عـن طريـق موهبتـك الخاصـة، وخبرتـك في التكثيـف الدرامـي، والصـدق التعبـيري، والـذكاء الفنـي. تسـتطيع أن تـأسرني. أن تسـحرني.. وبمناسـبة السـحر؛ فيـما يـلي باقـة حافلـة بقصـص كتبتهـا أقـلام عالميـة عظيمـة مثـل فولكـنر ومورافيـا، بالطبـع هنـاك ماركيـز وكافـكا وتولسـتوي، ويمكنـك أن تخمـن أننـا لا ننـسى تشـيكوف وموباسـان.

مع أرق أمنياتي

د. هاني حجاج

1993- 2017

دعابة
أنطوان تشيخوف

سطع النور في أحد أيام الشتاء شديدة البرد، صقيعٌ حاد قارس، وكانت ندف ثلجية كقطعٌ فضية تغطي الخصلات المتحدرة على جبين (نادينكا)، وعلى ذقنها وأسفل شفتها العليا. كانت تتعلَّق بذراعي ونحن واقفان فوق ربوةٍ عالية. ومن مكاننا حتى قاع الأرض امتد سهلٌ انعكستْ عليه الشمسُ بوضوحٍ وكأنه مرآة صافية. وإلى جانبنا كانت مزلجةٌ عليها قماشٌ أحمر اللون فاتح. وكنت أرجوها:هيا بنا لنتزحلق للأسفل يا نادينكا. مرةً واحدة فقط. أؤكد لكِ أنه لن يحدث أي مكروه.

ولكن (نادينكا) كانت تُصر على موقفها، كانت خائفة. إذ أن المنحدر الذي يبدأ من تحت حذائها الطويل إلى أسفل التلة الثلجية بدا مريعًا لها يثير الرهبة كأنه هاوية سحيقة إلى بحر الظلمات. لاح عليها التردد وخانتها ثقتها برأيها وحبست أنفاسها وهي تنظر إلى الأسفل تحاول جمع أطراف شجاعتها، بعد أن اكتفيتُ بأن اقترحتُ عليها امتطاء المزلجة، ولكن ماذا لو كانت هناك مخاطرة بالسقوط إلى الهاوية والغوص في الظلام؟ كانت ستموت، كانت ولا ريب ستُجن.

قلتُ لها في لهجة أقرب إلى التوسُّل:من أجل خاطري، لا تخافي. لا يجدر بك الخوف، فهو مرضٌ للنفس ووهم لعين.

وفي النهاية استسلمت (نادينكا)، وأخيرًا من أدركتُ قسمات وجهها أنها استسلمت وهي تختنق فزعًا. أجلستها على المزلجة، وهي شاحبة مرتعدة الأوصال، ثم طوّقتها بذراعي، ودفعتها وأنا معها إلى أسفل بحر الظلمات. وانطلقت المزلجة كقذيفة مدفع، و ضرب تيار الهواء المندفع بفعل تحليقنا في وجوهنا بكل عنفوانه وصخبه، ثم أطلق صفيره الحاد المدوِّي في آذاننا، وثقب أجسادنا كطلقات الرصاص، ثم اشتدت وخزاته في وهج هديره الهائج وكأنه يحاول أن يقتلع رأسينا من على أكتافنا. كنا بالكاد نتنفس تحت ضغط الريح. بدا الأمر وكأن عفريتا من قاع الجحيم نفسه أمسك بنا بمخلبيه وأخذ يسحبنا إلى سقر تتبعه زمجرته. كل ما كان يحيط بنا ذاب وتلاشى في خطٍ رفيع طويل حاد يتسارع بشدة. لحظة أخرى وبدا أننا لا بد فانيان.

قلتُ بصوتٍ هامس لا يناسب الموقف:

-أحبكِ يا ناديا!

بدأت المزلجة تتباطأ في حركتها رويدا رويدا، وخَفتَ زعيق الريح وهدير الهواء، وبدأ

التنفس يعود إلى معدله الطبيعي، وأخيرًا وصلنا إلى الأسفل. كانت (نادينكا) شاحبة كالأشباح، ترتجف كورقة وهي أقرب للموت منها إلى الحياة. كانت عليلة لا تكاد تتنفس، فساعدتها على النهوض. قالت وهي تنظرُ إليّ بعينين ملؤهما الرعب:لا شيء سيجعلني أكرر ذلك. لا شيء في هذا العالم كله. كدتُ أموت.

بعد دقائق استعادت اتزانها ونظرت إليّ غير فاهمة، هل نطقتُ فعلا بتلك الكلمات الثلاث، أوأنها تخيلتْ ذلك في غمرة الهيجان الغاضب لتيار الريح؟ جلستُ بجانبها أدخّن وأنظر بإمعانٍ في قفازي. ثم أنها تأبطتْ ذراعي وقضينا وقتا طويلا نتمشى قرب الربوة الثلجية. من الواضح أن المعضلةالنفسية أرهقتها. هل سَمِعَتْ تلك الكلمات أم لا؟ نعم أم لا؟ نعم أم لا؟ كانت مسألة كبرياء أوشرف، مسألة حياة أو موت..كانت مسألة في غاية الأهمية، بل أهم مسألة في الكون كله. وطفقت (نادينكا) تنظرُ في وجهي بنفاد صبرٍ وغم نظرة حادة متشككة. كانت تجيبُ بعشوائية وبدون ترتيب، تنتظر ما إذا كنت سأتكلم أم لا. يا الله، يا لهذا اللعب بالمشاعر على هذا الوجه الجميل! لاحظتُ أنها كانت تخوض معركة عظيمة داخل نفسها، وأنها كانت تريد قول شيء ما، تريد أن تسأل سؤالا ما، ولكنها لم تجد التعبير المناسب. على أنها اعترفت في قرار نفسها أنها شَعَرَتْ بأن النشوة تبعث في أوصالها حَيرةً وفرقًا وارتباكًا. وقالت من دون أن تنظر إليّ:عندي فكرةفسألتها:ما هي؟وأجابت بلهجة عجيبةهيا بنا..نتزحلق للأسفل مرة أخرى.

عانينا في تسلق الربة الثلجية من الدرجات مرة أخرى. أجلستُ (نادينكا)، وهي ممتقعة العينين شاحبة الوجه مرتعدة الأوصال على المزلجة. مرةً أخرى طرنا نحو الهاوية المخيفة، ومرة أخرى قابلنا هدير الريح وطنين الهواء في أعماق الهاوية، ومرة أخرى عندما كان انحدارنا في أصخب لحظاته وأسرعها، قلتُ بصوتٍ هامس خفيض كالفحيح:

-أحبكِ يا ناديا.

عندما توقفت المزلجة، ألقتْ (نادينكا) بصرها على الربوة التي انزلقنا عليها، ثم تأملتني بنظرة طويلة متفرِّسة، وأرهفت السمع لصوتي الذي لم يكن فيه وزن أنملة من اهتمام أو حس. وكلّ جسمها، كل جزء منه، كل مثقال ذرة فيه، حتى الفراء والقبعة عليها أصدر أقصى علامات التعجب، وعلى وجهها أسئلة محيّرة مرتبكة: ما معنى هذا؟ من نطق بتلك الكلمات؟ هل قالها، أو أنني فقط تخيلتها؟

أقلقها ذلك الشكُ وأفقدها الهاجس صبرها. لم تجب الفتاة المسكينة على أسئلتي، وعبست، وبلغت عبراتها طرف جفنيها. فسألتها:

-ألم يكن من الأفضل لو عدنا إلى الدار؟

فأجابت بحرارة:

-أنا..أنا أحب هذا التزحلق. هلا تزحلقنا مرة أخرى؟

لقد راق لها التزحلق وركوب الهاوية، ولكنها عندما ركبت على المزلجة، كما في المرتين السابقتين، كانت شاحبة مرتعدة الأوصال بالكاد تتنفس من فرط الهلع. وعندما تزحلقنا للمرة الثالثة، لاحظتُ أنها كانت تحدق في وجهي وتراقب شفتيّ. ولكنني وضعتُ منديلي على شفتي، وسعلتُ، وعندما وصلنا إلى منتصف التلة استطعتُ أن أهمسأحبكِ يا ناديا.

وبقت الأحجية كما هي. كانت (نادينكا) صامتة، تتفكر في شيءٍ ما. رافقتها إلى البيت، وحاولتْ أن تمشي ببطء، تخفف سرعتها وتنتظر ما إذا كنت سأقول لها تلك الكلمات أم لا، ولاحظتُ كيف أن روحها كانت تعاني، وكيف كانت تجتهد كي لا تقول لنفسها:لا يمكن أن تكون الريح قد قالتها. ولا أريد أن تكون الريح هي التي قالتها.

في الصباح التالي تركتْ لي رسالة جاء فيها:إن كنت ذاهبًا للتزحلق اليوم، خذني معك. ن.

ومنذئذٍ بدأتُ أذهب كل يومٍ للتزحلق مع (نادينكا)، وبينما نحن نطير بالمزلجة، كنتُ أقول في كل مرة بصوتٍ خفيض هامس ناعم نفس الكلمات:أحبكِ يا ناديا.وسرعان ما اعتادت (نادينكا) على تلك العبارة وأدمنتها كالخمر المسكر أو المخدر القوي الذي لا مهرب من أثره. لم تستطع العيش من دونها. نعم كان التزحلق فوق الربوة الثلجية يرعبها كما كان في السابق، ولكن الخوف والخطر أضفيا سحرًا غريبًا على كلمات الحب. تلك الكلمات كما كانت دومًا، لغزًا يحير النفس ويعذبها بنشوة حرَّاقة. وبقيَ المشتبهان كما هما، أنا والريح. لم تكن تعرف أيا منا كان يمارس الحب معها، ولكنها بالتأكيد بدأت تفقد الاهتمام بذلك. ما دام الخمرُ مُعتقا مُسكرًا كلُ الكؤوسِ سواءُ. وحدث يومًا أن ذهبتُ إلى ساحة التزلج وحيدًا، وبينما أنا بين الجموعِ رأيتُ (نادينكا) تصعد الربوة الثلجية وتبحث عني، ثم نزلتْ من على الدرجات في خفر وحياء. كانت تخافُ أن تذهب بمفردها. ياالله كم كانت تخاف! كانت بيضاء كالثلج، ترتعد، وكأنها تقود نفسها إلى مقصلتها. ولكنها ذهبت، ذهبت دون أن تنظر وراءها، بإصرار. من المؤكد أنها قررت وضع الأمر في محك الاختبار أخيرًا. هل كانت تلك الكلمات الجميلة ستُسمع من دون وجودي؟ رأيتها شاحبة، انفرجت شفتاها بفزع، وركبت على المزلجة، فأغمضتْ عينيها لتقول للأرضِ وداعًا إلى الأبد. تزحلقت.. لا أعرف ما إذا كانت (نادينكا) سمعت تلك الكلمات أم لا. رأيتها فقط تنهض من على المزلجة باهتة المنظر شديدة الإعياء. وكان من السهل الجزم بالنظر إلى وجهها أنها لم تكن متأكدة ما إذا سمعت شيئا أم لا. لقد حرمها فزعُها وهي تطير إلى الأسفل حاسة السمع، وتمييز الأصوات، وإدراك ماهية كل شيء.

وجاء شهرُ مارس في النهاية، ومعه أتى الربيع بألوانه الزاهية. أظلمت ربوتنا الثلجية

وفقـدت بهاءهـا، وذابـت. وهكـذا توقَّفنـا عـن التزحلـق. لم يكـن هنـاك مـكانٌ آخـر تسـتطيع فيـه المسـكينة (نادينـكا) سـماع تلـك الكلـمات، وبالتأكيـد لا شـخص آخـر يقولهـا، حيـث لم تكـن هنـاك ريـح، وكنـتُ أنـا ذاهبـا إلى (بطرسـبورج) لمـدة طويلـة، وربمـا للأبـد. وحـدث قبـل يومـين مـن رحيـلي أن كنـتُ جالسًـا عنـد الغـروب في الحديقـة الصغـيرة التـي يفصلهـا عـن فنـاء منـزل (نادينـكا) سـورٌ عـالٍ عليـه مسـامير. كان الجومـا يـزال بـاردًا، وبعـض الثلـج ركامٌ هنـاك قـرب كومـة السـماد، وبـدت الأشـجار ميتـة، ولكـن عبـق الربيـع كان منتـشرًا، والغربـان تنعـق وهـي تـأوي إلى منامتهـا. صعـدتُ عـلى السـور ووقفـتُ هنـاك طويـلا وأنـا أختلـس النظـر مـن خـلال فتحـة. رأيـتُ (نادينـكا) تخـرج إلى الفنـاء وتحـدق في السـماء بعينـين ملؤهـما الشـوق والحـسرة المؤلمـة. كانـت ريـاح الربيـع تهـب في وجههـا الباهـت الكئيـب. ذكّرَتهـا بالريـحِ التـي كانـت تهـبّ علينـا عـلى الربـوة الثلجيـة عندمـا سَـمِعَتْ تلـك الكلـمات، اكفهـر وجههـا بالوجـع وصـارت ملامحـه حزينـة لأقـصى درجـة، وانحـدرت دمعـة عـلى وجنتهـا، ورفعـت الطفلـة المسـكينة ذراعيهـا وكأنهـا تتوسـل إلى الريـاح أن تجلـب لهـا تلـك الكلـمات مـرة أخـرى. وفي انتظـار الريـاح قلـت بصـوتٍ هامس:أحبـكِ يـا ناديـا.

وجـاء الفـرج. يـا لـذاكَ التغـير الـذي حـدث لـ(نادينـكا)! اغرورقـت عيناهـا بالدمـوع، ثـم ملأت وجههـا ابتسـامة عريضـة، فبـدت مرحـة وسـعيدة وجميلـة، ورفعـت ذراعيهـا لتسـتقبل الريـاح. بينـما عـدتُ أدراجـي لأحـزم أمتعتـي.

كان هـذا منـذ زمـنٍ بعيـد. (نادينـكا) الآن متزوجـة. لقـد تزوجـت -ولا يهـم مـا إذا كان ذلـك باختيارهـا أم لا- ولديهـا الآن ثلاثـة أطفـال. ولم تنـسَ أننـا ذهبنـا ذات مـرة للتزحلـق، وأن الريـاح حملـت لهـا الكلماتأحبـكِ يـا نادينـكا. بالنسـبة لهـا، كانـت هـذه هـي أكـثر اللحظـات المؤثـرة والجميلـة في حياتهـا. ولكـن الآن وأنـا أكـبر سـنًا أعجـز عـن أفهـم لمـاذا نطقـتُ بتلـك الكلـمات، ومـاذا كان هـدفي مـن تلـك المزحـة.

وشاية
أنطوان تشيكوف

(سيرجي كابيتونيتش أهينوف) أستاذ اللغة، كان يزوج ابنته إلى مدرس مادتي التاريخ والجغرافيا. وقد مرت معظم مراسم حفلات الزفاف بسلام، وفي القاعة كان هناك الكثير من الغناء والعزف والرقص. الخدم المأجورون كانوا كالطيور يحلقون بين الحضور بانتظار تلبية إشارة صغيرة من إصبع أحدهم، يرتدون الزى الرسمي الأسود - الحلة ذات الذيل المشقوق وربطات عنق بيضاء - وكان هناك طنينًا كثيرًا بين الحاضرين، وكلمات متطايرة تتناثر من أطراف الحديث.

جنبًا إلى جنب، جلس أستاذ الرياضيات، ومعلم اللغة الفرنسية ومساعد العمدة، يثرثرون فيما بينهم، يتحدثون بسرعة ويقاطع أحدهم الآخر وهم يتكلمون بصوت عال شارحين للضيوف حالات دُفن فيه البشر أحياء! وأعطوا آرائهم إلى المهتمين بالروحانيات. ولا واحد منهم يؤمن بالروحانيات، لكنهم جميعًا اقتنعوا بأن هناك العديد من الأمور في هذا العالم تحدث - دائمًا - من وراء قدرة عقل الإنسان.

وفي الحجرة المجاورة كان مدرس الأدب يصف للزوار كيف أن من حق الحارس إطلاق النار على العابرين في الطريق. الموضوع - كما يمكنك أن تتوقع - يحمل رائحة التهديد. لكنه كان مقبولًا من الموجودين. حضرات السادة المستعمين، منعهم وقارهم الاجتماعي من القفز إلى الفناء الخارجي هربًا عبر النوافذ! وبمجرد أن دقت الساعة تعلن منتصف الليل، ذهب سيد الدار إلى المطبخ ليرى إذا ما كان كل شيء جاهزًا من أجل العشاء. كان المطبخ، من الأرض إلى السقف يحتشد بالبط المدخن والأرز المحمر وروائح أشياء عديدة. وعلى مائدتين رُصت المقبّلات وفواتح الشهية، المرطبات والمشروبات المنعشة، حيث جلست - إلى جانب كل ذلك - الطاهية (مارفا)، المرأة حمراء الوجه، التي تبدو كبرميل حوله حزام، وكانت تتحرك بنشاط الآن بين الموائد.

قال (أهينوف) وهو يفرك كفيه ويلعق شفتيه:حسنًا يا (مارفا)، أريني الطبق الرئيسي!ثم تابع في نشوة:يا لها من رائحة! يمكنني أن آكل المطبخ بأكمله.. تعالي أريني الطبق الرئيسي!

رفعت (مارفا) أحد الأطباق، ثم - بحرص - أزاحت صفحة من الورق المشحّم. وتحت صفحة الورق كان هناك طبقًا حافلًا، ارتكزت في منتصفه قطعًا وفيرة من اللحم، هائلة الحجم، تغطت بـــ (الجيلي) وتزينت بالبقدونس والكرفس والزيتون والخيار. حدق (أهينوف) في الطبق، وتأوه، لمع وجهه، ورفع عيناه عاليًا. ومال لأسفل بشفتيه مطلقًا صوت عجلة غير مزيته. وبعد أن وقف دقيقة كاملة، مص أصابعه في سرور وطقطق بلسانه ثم

لعق بـه شـفتيه وأفـرج مـن بينهـما صفـير استحسـان.

وفي هـذه اللحظـة جـاء صـوت مـن بـاب الحجـرة المجـاورة:آه، هـذا صـوت قُبلـة حـارة ! مـن تُقبّلـين يـا (مارفـا) عنـدك؟!وكان المتكلـم هـو المسـاعد (أوشر) الـذي أخـرج رأسـه مـن فرجـة البـاب لينظرمـن هـذا؟ آه - هـا - ظريـف أن أقابلـك يـا (سـيرجي). يجـب أن تقـول أنـك جـدّ لطيـف للغايـة.. هـذا حـق!

قـال (أهينـوف) في حيرة:أنـا لا أُقبّـل، مـن قـال لـك هـذا أيهـا الأحمـق؟ إننـي فقـط.. لقـد كنـت.. أصفـر مـن بـين شـفتي.. كنـت أعـبر عـن إعجـابي بــــ.. كنـت أريـد أن أقـول.. أنـه إحسـاس بــــ.. بالسـعادة.. عـن منظـر.. عـن منظـر اللحـم.

قل هذا للآخرين إذن!ثم اختفى الوجه المتطفل وانغلق الباب.. واحمر وجه (أهينوف)!

هـذا اللعـين، فكّر،الوحـش سـوف يذهـب الآن نـاشرًا الفضيحـة، سـوف يخسـف بسـمعتي الأرض بـين أفـراد المجتمـع. ثـم تسـلل (أهينـوف) بحـذر وخـوف إلى القـاع وراح يبحـث متلصصًـا عـن (أوشر). كان (أوشر) واقفًـا عنـد (البيانـو)، يهمـس بـشيء مـا لأخـت زوجـه المفتـش، وكانـت هـي تضحـك بينـما يبـدو عليـه الاغتبـاط والخبـث.

عـم يتكلم!فكـر (أهينوف)،عنـيّ، سحقًا لـه، وهـي سـوف تصدقـه.. سـوف تصـدق كل هـذا! إنهـا تضحـك! ارحمنـي يـا ربي! كلا، لا يمكننـي أن أدع هـذا يحـدث.. لا يمكننـي.. لابـد أن أفعـل شـيئًا حيـال هـذا.. سـوف أتحـدث إليهـم جميعًـا، وعندهـا سـوف يبـدو للجميـع أنـه ليـس إلا أحمـق مروجًـا للشـائعات.

مـد (أهينـوف) رأسـه، ومـا زال يشـعر بوطـأة الحـرج، ثـم توجّـه إلى مـدرس اللغـة الفرنسـية. لقـد كنـت منـذ قليـل بالمطبـخ، أتفقـد العشـاء، قـال لرجـل الفرنسـية،أعرف أنـك مغـرم باللحـم المشـوي، لقـد أعـددت لـك طبقًـا حافـلًا، يـا رفيقـي العزيـز، يفـوق كل شيء! هـا هـا هـا! وبالمناسـبة.. كـدت أنـسى.. في المطبـخ.. منـذ قليـل.. مـع هـذا اللحـم.. قصـة صغـيرة جـدًا! ذهبـت إلى المطبـخ الآن وأردت أن ألقـي نظـرة عـلى أطبـاق العشـاء، نظـرت إلى اللحـم المطهـو، ومصصـت شـفتي بإعجـاب عنـد مشـهده، وفي هـذه اللحظـة بالـذات.. هـذا الأحمـق (فانكـين أوشر) جـاء وقال:هـا، هـا، هـا! إذن أنـت تُقبّلهـا هنا!أُقبّـل (مارفـا)، الطاهيـة! هـل تصـدق هـذا؟ الأحمـق السـخيف.. المـرأة مرعبـة تمامًـا، كأنـك جمعـت كل الوحـوش معًـا في شـخص واحـد.. وهـو يتحـدث عـن تبـادل القبـلات.. هـذا الشـاذ المعتـوه!

من هو هذا الشاذ المعتوه؟سأله أستاذ الرياضيات، وهو يقبل عليهما..

إنـه هـو، (فانكـين) الأحمـق.. لقـد ذهبـت إلى المطبخ..وحـكى قصـة (فانكـين أوشر) معه..لقـد أمتعنـي هـذا المعتـوه،.. مـن الأفضـل أن أُقبّـل كلبًـا عـلى أن أُقبّـل (مارفـا)، لـو سـألتني رأيي.أضـاف

(أهينـوف). ونظـر حولـه فـرأى خلفـه مسـاعد العمدة..كنـا نتحـدث عـن (فانكـين)، قال،الشـاذ المعتـوه! هـو كذلـك! لقـد ذهـب إلى المطبـخ.. ورآني إلى جـوار (مارفـا)، وبـدأ يخـترع كل أنـواع القصـص البذيئة!لمـاذا تُقبّلها؟لابـد أنـه تنـاول الكثـير مـن الخمـر. فقلت:الأفضـل أن أُقبّـل ديـكًا روميًـا عـلى أن أُقبـل (مارفـا)، أن لـدي زوجـة خاصـة بي أيهـا الأحمـق.. لقـد أمتعنـي حقًـا.. وأضحكنـي كثـيرًا!

من الذي أضحكك.سأله المدرس الشاب الذي التحق بالمدرسة حديثًا..

(فانكين).. كنت أقف في المطبخ، أنت تعرف، أنظر إلى اللحم..

وهكذا، في خلال نصف الساعة أو نحو ذلك عرف كل الضيوف حكاية (فانكين) واللحم..

دعـه يثرثـر الآن،فكـر (أهينـوف) وهـو يفـرك كفيهدعـه! سـوف يبـدأ في قـص حكايتـه وسـوف يقولـون لـه دفعـة واحدة.كـف عـن هـذا الهـراء الغـير لائـق، أيهـا الأحمـق، إننـا نعـرف كل شيء عنهـا!

وفي فـورة نشـوة (أهينـوف)، احتـسى أربعـة كـؤوس مـن الخمـر وبعـد أن قـاد الضيـوف عـبر الحجـرات، ذهـب إلى الفـراش ونـام كطفـل بـرئ، وفي اليـوم التـالي، لم يفكـر أكـثر في هـذه الواقعـة مـع اللحـم. ولكـن، وا أسـفاه، يدبـر الإنسـان ويقـدر اللـه.. لسـان الشر ينطـق ولا تصبح إسـتراتيجية (أهينـوف) ذات قيمـة.. فبعـد ذلـك بأسـبوع – وكان يـوم الأربعـاء، بعـد الحصـة الثالثـة، بينـما كان (أهينـوف) يقـف في منتصـف حجـرة المدرسـين يراجـع عمـل صبـي يدعـى (فسـكين)، عندمـا دخـل ناظـر المدرسـة وسـحبه جانبًـا وقال:اسـمع.. (سـيرجي كابيتونيتـش).. أعـذرني.. إنـه ليـس مـن شـأني.. ولكـن يجـب أن أجعلـك تـدرك.. أنـه واجبـي، أنـت تفهـم هـذا، هنـاك الكثـير مـن الهمهمـة واللغـط هنـا وهنـاك حـول غرامياتـك مـع.. مـع الطاهيـة.. إن هـذا لا يعنينـي البتـة.. اغوهـا، قبّلهـا.. كـما تشـاء، ولكـن لا تـدع هـذا معروفًـا للجميـع، أرجـوك. إننـي أنبهـك! لا تنـسى أنـك مـدرس في مدرسـة محترمـة.

شـحب وجهـه (أهينـوف) وكاد يغـشى عليـه، وذهـب إلى داره كرجـل قرصـه نحـل مزرعـة بأكملهـا، كرجـل سـقط في حـوض مـاء يغـلي، وبينـما هـو في طريقـه إلى الـدار، بـدا لـه وكأن المدينـة بأكملهـا ترمقـه.. كـما شـعر وكأنـه مغطـى بالوحـل مـن قمـة رأسـه حتـى أخمـص قدميـه..وفي المنـزل كانـت مشـكلة طازجـة تنتظره..شـاحبًا هكـذا؟!.. هـل أرهقتـك غرامياتـك؟.. هـل هجرتـك (مارفـا)؟.. إننـي أعـرف كل شيء عـن هـذا. يـا إلـه المسـلمين، لقـد فتـح الأصدقـاء المخلصـين عينـاي.. أيهـا الهمجي!ثـم بصقـت في وجهـه.. نهـض مـن عـلى المائـدة.. لا يشـعر بـالأرض مـن تحـت قدميـه.. وبـدون قبعتـه أو معطفـه سـلك طريقـة إلى (فانكـين) ووجـده في بيتـه..

أيهـا الملعون!صـاح بـه مناديًالمـاذا غطيتنـي بالطـين أمـام المدينـة كلهـا؟ لمـاذا أطلقـت هـذه

الوشـاية عنـي؟

أية وشاية؟.. ما الذي تتحدث عنه؟

من أشاع قصة تقبيلي لـ (مارفا)؟ ألم يكن أنت؟ اخبرني بها. ألم تكن أنت أيها الحقير؟

اضطـرب (فانكـين) وتلفـت حولـه ثـم رفـع عينيـه إلى السـماء وهتفـربي, انسـفني، أو اصبنـي بالعمـى أو دعنـي أمـوت أن كنـت قـد تفوهـت بكلمـة واحـدة عنـك! بـل شردني يـا رب عـن بيتـي وأهـلي، بـل أجعلنـي أصـاب بالكولـيرا حتـى!

بدا (فانكين) صادقًا، ليس في هذا... من الواضح أنه ليس هو صاحب الوشاية..

ولكـن، مـن؟ مـن إذن؟تسـاءل (أهينـوف).. ذاهبًـا إلى كل ركـن بداخـل عقلـه وذاكرتـه وراح يـضرب صدرهمـن هـو إذن؟

اليانصيب
أنطوان تشيكوف

إيفان دميتريتش، رجل من الطبقة المتوسطة، يعيش هو وأسرته على دخل قدره ألف ومائتي جنيه سويًا وكان راضيًا بنصيبه، جلس على الأريكة بعد العشاء وبدأ قراءة الجريدة.. قالت له زوجته إذ تنظف المائدة:نسيت أن ألقي نظرة على الجريدة اليوم.. ابحث عن قائمة سحب اليوم.

قالإيفان دميتريتش:نعم.. ها هي.. ولكن، ألم تفقدي ورقتك؟

-بلى.. لكني أخذت ورقة جديدة ليوم الثلاثاء.

-وها هو الرقم؟

-بند 9/499 رقم 26.

-حسن جدًا.. سنبحث عنها.. 9/499 و 26.

إيفان دميتريتشلم يكن لديه أمل في حظ اليانصيب.. ولن يكون.. مسألة مبدأ ليس إلا! رضي بالنظر إلى قائمة الأرقام الفائزة الآن فقط، إذ لم يجد شيئًا آخر يفعله، كما أن الجريدة أمام عيناه تمامًا.. مر بإصبعه من أعلى الورقة إلى أسفلها على عمود الأرقام. وكأن الأمر سخرية من ارتيابه، ما كاد ينتقل إلى السطر الثاني، حتى التقطت عيناه هذا الرقم: 9/499!

لم يقدر أن يصدق عيناه، وبسرعة أسقط القصيدة على ركبتيه، دون أن ينظر إلى رقم الورقة، شعر كأن شخصًا أعطاه (دشًا) من الماء البارد، وبقشعريرة باردة في معدته.. غريبة ومرعبة ولذيذة!

قال في صوت عميق:(ماشا).. 9/499.. هنا!

نظرت زوجته إلى وجهه المندهش الذي تجعّد من الفزع وأدركت أنه لم يكن يمزح..

؟9/-499

شحب وجهها وسقطت من بين يديها قماشه المائدة.

-نعم.. نعم.. إنه هنا حقًا!

-ورقم الورقة؟

-آه نعم! هناك رقم الورقة أيضًا. لكن انتظري.. مهلًا! لا.. لقد قلت!.. على أي حال.. رقم البند.. هنا.. على أي حال!.. أنت تفهمين..

ظـل (إيفـان ديميتريتـش) ينظـر إلى زوجتـه..لا إحسـاس فيهـا، كطفـل برقـت أمامـه لعبـة. ابتسـمت زوجتـه ابتسـامة أيضًـا، والسـبب أنـه تذكـر فقـط رقـم بنـد اليانصيـب دون أن يهتـم بالبحـث عـن رقـم الورقـة نفسـها.. كـم هـو لذيـذ، كـم هـو مثـير!

قـال (ديميتريتـش) بعـد فـترة صمـت طويلة:إنـه رقـم البنـد الـذي لدينـا - إذن مـن المحتمـل أن نكـون قـد فزنـا.. إنـه فقـط احتـمال، لكنـه موجـود!

-حسن، والآن انظر.

-انتظـري قليـلًا، عندنـا مهلـة مـن الوقـت ليخيـب أملنـا.. إنـه السـطر الثـاني مـن القائمـة، والجائـزة خمسـة وسـبعين ألفًـا.. إنهـا ليسـت نقـود، إنهـا رأس مـال، قـوة! وفي دقيقـة أراجـع القائمـة وهنـاك - 26! حقًـا؟ قلـت، مـاذا لـو ربحنـا؟

بـدأ الـزوج والزوجـة يضحـكان وجعـل كل منهـما يرمـق الآخـر في صمـت، احتماليـة الفـوز افترسـتهما، لم يقـدرا عـلى الـكلام، لم يقـدرا عـلى الأحـلام، مـا الـذي سـوف يفعلانـه بالجائـزة؟ مـاذا سـوف يشـترونه؟ إلى أيـن يذهبـان..؟ كل تفكيرهـما انحـصر في العدديـن 9/499 و 75.000 وتخيلاهـما في عقليهـما..لم يتوقعـا أبـدًا أن تكـون السـعادة ممكنـة عـلى هـذا النحـو..

قبـض (إيفـان ديميتريتـش) عـلى الصحيفـة في يـده، وسـار عـدة مـرات مـن ركـن إلى ركـن، ومـا أن أفـاق مـن الانفعـال الأول، بـدأ يحلـم قليـلًا..ولـو أننـا قـد ربحنـا حقًـا،قالسـتكون حيـاة جديـدة، سـيكون تحـولًا! إنهـا ورقتـك، ولكـن لـو كانـت ملـكي، سـوف - قبـل كل شيء - أكـوّن فكـرة عامـة عـما سـأفعله بخمسـة وعشريـن ألفًـا؛ عـشرة آلاف لتوسـعات عاجلـة.. رحـلات.. تسـديد الديـون.. أمـا الأربعـون ألفًـا الباقيـة سـأضعها في البنـك وأسـتفيد مـن فوائدهـا.

قالت الزوجة وهي تجلس وأسقطت كفيها في حجرها:نعم، ممتاز.

-مكان في مقاطعة (تيولا) أو مقاطعة (أوريولا).. حيث لن نحتاج إلى شاليه صيفي!

وتزاحمـت عـدة صـور في خيالـه، كلهـا أكـثر جـمالًا وشـاعرية مـن الصـور السـابقة، وفي كل هـذه الصـور رأى نفسـه يـأكل جيـدًا، هـادئ البـال، بصحـة عظيمـة، يشـعر بالـدفء، إن لم يكـن بالحـرارة!

هنـا، بعـد أن تنـاول حسـاء الصيـف، بـارد كالثلـج، يرقـد عـلى ظهـره فـوق الرمـال المحرقـة يغـلي، أو في الحديقـة تحـت شـجرة الليمـون - إنهـا حـارة، طفلـه الصغـير وطفلتـه يحبـوان نحـوه، يحفـران الرمـل بالقـرب منـه، أو يطـاردان الطيـور فـوق العشـب، شـاعرًا بلـذة النعـاس، يفكـر في لا شيء، يشـعر بـأن كل مـا يريـده هـو ألا يذهـب إلى المكتـب اليـوم.. أو غـدًا.. أو بعـد غـد.. يتعـب مـن الرقـاد، يذهـب إلى باحـة القـش.. أو إلى الغابـة يبحـث عـن فطـر عيـش الغـراب، أو يراقـب الفلاحـين ينصبـون شـباك للأسـماك، وإذ تغـرب الشـمس يأخـذ منشـفة وقطعـة صابـون ويقـف

تحت (الدش)، حيث يخلع ملابسه في خلوة، ويدلك صدره العاري برفق بيديه في الماء بين حلقات الصابون المعتمة، تقفز سمكة صغيرة، تبرز رؤوس الضفادع من سطح المياة الخضراء.. بعد الحمام.. هناك الشاي بالكريمة واللبن.. في المساء تمشية أو ثرثرة مع الجيران.

-نعم، من البديع أن نشتري ضيعة.قالت الزوجة.. هي الأخرى تحلم، ومن وجهها كان واضحًا انسجامها مع أفكارها.

(إيفان ديميتريتش) تخيّل الخريف بأمطاره، بمساءه البارد، بموسم القديس (مارتن).. الفصل الذي اعتاد فيه التمشية حول الحديقة وعلى حافة النهر.. يرتجف من البرد، ثم يشرب كأسًا كبيرًا من (الفودكا) ويأكل عيش الغراب المملح.. ثم يشرب كأسًا آخر..الأطفال يأتون جريًا من حديقة الخضروات، يجلبون معهم جزرًا وفجلًا له رائحة التراب الندية..بعد ذلك، يتمدد على الأريكة وفي غطرسة يقلّب صفحات مجلة مصورة، أو يغطي بها وجهه ويحل أزرار صديريته.. وينسحب من سخافات الكون.

صيف القديس (مارتن) يأتي بجوه المكفهر، وسحبه الكثيفة. يمطر بالنهار والليل. الأشجار الجرداء ترتجف، الريح الباردة تعوي.. الكلاب، الجياد، الدواجن – كلها مبتلة، مقهورة، مهزومة.. لا مكان للسير.. لا يستطيع أن يتحمل هذا.. يوصد الحجرة بإحكام، يرمق الخارج من خلال النافذة الرمادية.. هذا رهيب!.. توقف (إيفان ديميتريتش) ونظر إلى زوجته وقال:يجب أن أذهب بعيدًا، كما تعرفين يا (ماشا).وبدأ يفكر أنه من اللطيف في نهاية الخريف أن يسافر إلى مكان مثل جنوب فرنسا.. إيطاليا.. أو الهند!

قالت زوجته:يجب أن أسافر أيضًا.. ولكن أنظر إلى رقم الورقة.

-مهلًا.. مهلًا..

سار في أرضية الحجرة وبدأ يفكر من جديد.. هذا يحدث له؟! ماذا لو أن زوجته سافرت بالفعل؟.. من الممتع أن يسافر بمفرده، أو بصحبة امرأة مرحة، لا تبالي، تعيش الحاضر لا تفكر ولا تتحدث عن أي شيء إلا الأطفال، المرض، تتأوه وترتجف من فكرة أن يحدث شيء! تخيّل زوجته في القطار بين أكوام الطرود والسلال والحقائب.. ستصرخ من شيء ما.. تشكو من أن القطار يصدّع رأسها.. بينما أودعت لهم في المحطة الكثير من المال.. يذهب هو للماء الساخن والخبز والزبد وترفض هي تناول العشاء لأن الحساب سيكون مريعًا.

فكَّر أنها سوف تعكر عليه صفو كل شيء.. لمحها بطرف عينيهإن ورقة اليانصيب ملكها لا ملكي. إلى جانب، ما فائدة أن تذهب معه إلى الخارج؟ ما الذي تريده هناك؟.. سوف تحبس نفسها في الفندق ولن تدعني أغيب عن بصرها.. أعرف!.. وللمرة الأولى في حياته ينتبه إلى حقيقة أن زوجته تتقدم في السن بشكل ملحوظ.. وتتشبّع أكثر وأكثر برائحة الطهي..

بينـما مـازال هـو صغـيرًا، نـضرًا، بصحـة جيـدة.. ربمـا يتـزوج ثانيـة!

بالطبـع كل هـذا مجـرد هـراء سـخيف،فكّرلكن.. مـا حاجتهـا إلى السـفر؟.. مـاذا سـتفعل هنـاك؟.. يمكننـي أن أتخيـل.. إن كل الأماكـن سيان لديهـا.. سـواء كانـت تلبـس (نابلـس) أو (كلين). لكنهـا لابـد أن تكـون في طريقـي.. لابـد أن أعتمـد عليهـا.. يمكننـي أن أتخيـل كيـف – كامـرأة محترمـة – كيـف سـتقبض عـلى المـال عندمـا تحصـل عليـه.. سـوف تهتـم بعلاقاتهـا أكـثر وتهملنـي أكـثر.

فكرإيفـان ديميتريتشـفي علاقاتهـما.. كل أولئـك الأخـوة والأخـوات، الأعمام والعـمات، المحطمين والمحطـمات سـوف يتزاحمـون عـلى الـدار حالمـا يسـمعون بالورقـة الرابحـة.. سـوف يبـدأون في مـد أيديهـم كشـحاذين، وتظهـر عـلى وجوههـم الابتسـامات البشـعة، اللزجـة.. البؤسـاء! لـو أخـذوا أي شيء، سـوف يطلبـون المزيـد.. ولـو أغلـق البـاب في وجوههـم، سيقسـمون ويغتابـون ويتمنـون لهـم كل أنـواع سـوء الحـظ.

تذكرإيفـان ديميتريتشـعلاقاته الخاصـة، ووجوههـم.. يرونـه بينهـم في المـاضي، ويرمقونـه الآن بـكل حقـد، بـكل كراهية..يـا لهـم مـن زواحف!ووجـه زوجتـه – أيضًـا – يبـدو باعثًـا على الاشـمئزاز والكراهيـة.. الغضـب يفعـم قلبـه منهـا.. فكـر بخبث:إنهـا لا تعـرف أي شيء عـن المـال.. كـما أنهـا بخيلـة.. لـو امتلكتـه.. سـوف تمنحنـي مائـة روبـل.. وتغلـق عـلى الباقـي بالقفـل والمفتـاح.

ونظـر إلى زوجتـه، بـدون ابتسـامة الآن.. بـل ببغضـاء.. رمقتـه هـي الأخـرى، أيضًـا ببغضـاء وغضـب، لديـه هـي الأخرى أحلامهـا.. خططهـا الخاصـة.. انفعالاتهـا.. فهمـت جيـدًا نيـة زوجهـا.. عرفـت كيـف تحصـل أولًا عـلى أرباحهـا.

-جميل جدًا أن تحقق أحلامك على نفقة الآخرين،قالت عيناها هذالكنك لا تجرؤ!

فهـم زوجهـا نظرتهـا.. البغضـاء تقتحـم صـدره.. وليطيـع زوجتـه نظـر إليهـا بسرعـة – ولـكي يثـير حنقهـا راح يقـرأ الصفحـة الرابعـة بانتصاربنـد 9/499 رقـم – 46 لا 26.. الكراهيـة والتمنـي تلاشـيا في لحظـة.. وبـدا لـــــ (إيفـان ديميتريتـش) في نفسـه اللحظة (ولزوجتـه أيضًـا) أن حجرتهما كانـت مظلمـة وصغـيرة ومنخفضـة.. وأن العشـاء الـذي تناولانـه كان سـيئًا.. جعلهـما يرقـدان عـلى بطنهـما.. وأن الليلـة طويلـة.. مرهقـة..

مـاذا تعنـي بحـق الشـيطان؟بدأت بشاشـة (إيفـان ديميتريتـش) تشـحب.. أينـما يخطـو المـرء يجـد قصاصـات الـورق وكسر الزجـاج والقشـور.. الحجـرات غـير نظيفـة! ربمـا يذهـب المـرء بعيـدًا. اللعنـة تقبـض روحـي بالكامـل.. ينبغـي أن أذهـب وأشـنق نفـسي عـلى أول شـجرة!

الكوخ
أنطوان تشيكوف

يتمشى العروسان المتزوجان حديثًا جيئة وذهابًا بالقرب من رصيف المحطة الصغيرة الخاصة بالقرية وقد أحاط خصرها بذراعه بالكامل, بينما أراحت هي رأسها على كتفه. وكان القمر في تلك الأثناء يبزغ برقة من بين الغيوم ثم يختفي وكأنه قد أصابته نزوة غضب بسبب غيرته من السعادة التي ينعمان بها معًا. الهواء مُثقل بعبق الزنبق والكريز البري, إلا أن شيئًا ما يبدو وكأنه يعكّر صفو المكان ويلوح في الأفق على مسافة ليست ببعيدة.

تمتمت العروس الشابة هامسة في أذن زوجها:وكأنني أحلم, أنظر يا (ساشا) إلى تلك الشجيرات الصغيرة, ما أجمله من منظر! كأن تلك الشجيرات تنادينا من مكانها.. كم هو رائع وجود مكتب البريد والتلغراف في هذا المكان! إنه يضيف لمسة خاصة لتلك الطبيعة البديعة! لمسة بشرية قي حضن الطبيعة الربّانية.وتلفتت حولها ثم أردفت،ألا ترى معي إنه لشيء بديع أن يحمل الريح معه صوت القطار المندفع القادم من بعيد؟

أجاب العريس:نعم ولكن ما هذه السخونة في يديك الصغيرتين؟ هل هذا بسبب حماستك وسعادتك بكل ما ترينه يا عزيزتي (فاريا)؟ ولكن أخبريني؛ ماذا أعددت لنا للعشاء هذه الليلة؟

أجابت (فاريا) باسمة:دجاج وسلطة.. دجاجة تكفى لاثنين فقط ومعها بعض السلمون وقطع السردين الذي أرسلوه لنا من البلدة.

كان القمر قد ملأه الغيظ والحنق فأخفى وجهه من سعادة البشر التي ذكّرته بوحدته القاسية المغلّفة بالبرد والتي يكابدها من خلف السحب والضباب ومن فوق التلال والهضاب. وهنا قالت (فريا) باندفاع:هاهو القطار قادم! ما أروعه!

استطاعا رؤية ثلاث فوهات من الدخان تلوح من بعيد, وجاء القطار المهيب بأنواره الأمامية التي تومض باستمرار. تثاءب (ساشا) وقال:لنر هذا القطار الجميل ونذهب إلى البيت. إنه وقت رائع ذلك الذي نقضيه سويًا يا (فاريا). لا أكاد أصدّق ما أنا فيه! وكأنه حلم!

توقف الوحش الأسود الأسطوري بمحاذاة الرصيف. واستطاع العروسان تمييز بعض الوجوه الناعسة والقبّعات وأكتاف بعض المسافرين من خلال النوافذ ذات الإضاءة الخافتة. وتناهت إلى سمعها في هذه الجلبة بعض أصوات:أنظروا! أنظروا! إنهما (فاريا) و(ساشا)! لا

ريب أنهما جاءا إلى هنا لاستقبالنا! انظرا هناك! إنهما هما.. (فاريا) و(ساشا)! انظروا!وهنا قفزت فتاتان صغيرتان من القطار لتعانقا (فاريا) وتعلقتا برقبتها وفى ذيلهما جاءت امرأة بدينة في أواسط العمر وتبعها رجل طويل القامة ونحيل الجسم له شارب أشيب, وبعد هؤلاء ولدان في سن المدرسة يحملان حقائب مدرسية ثقيلة على ظهريهما ومن بعد هؤلاء سيدة تبدوا معلّمة وفي النهاية أطلت الجدة.

بدأ الرجل ذو الشارب الأشيب الكلام مصافحًا (ساشا) بقوة قائلًا:ها نحن أولاء يا بني, أخيرًا وصلنا, ماذا؟! هل تعبتما من طول الانتظار؟ حسنًا, كنت أتوقع ذلك, أنت غاضب منى, أنا عمك, لأني لم أزرك حتى الآن كما أظن, (كوليا), (كوسيا), (نينا), (فينا).. أيها الأطفال.. هيا جميعًا قبلوا (ساشا) ابن عمكم! نحن جميعًا هنا يا وحوش! ثلاثة أو أربعة أيام آمل ألا يكون عدنا كبير بالنسبة لكم, ها.. عليكم ألا تدعونا نطردكم خارج بيتكم!

صُدم العروسان برؤية العم وعائلته وذعروا خلال العناق والمصافحة والقبلات من جانب العم, وألقى (ساشا) نظرة على كوخه الصغير. لقد أعطى الغرف الصغيرة الثلاث جميعها للضيوف إلى جانب كل ما يحويه البيت من خدديات ووسائد وبطانيات, أما الدجاجة فقد التهمها الضيوف في لحظات ومعها السلمون والسردين, ولا تسأل عن الأزهار والحديقة الصغيرة حول الكوخ.. كلها سحقت تحت الأقدام, وأريق الحبر هنا وهناك وعمت الفوضى وعلا الصراخ في أرجاء الكوخ بلا استثناء. وزوجة العم تثرثر بلا انقطاع عن عائلتها وعن والدها الذي أصبح أثرى كبار الشخصيات في (فون فينيتش).

ألقى (ساشا) نظرة كارهة إلى زوجته الشابة وهمس إليها:كلهم جاءوا لرؤيتك, اللعنة عليهم!

أجابت بوجه شاحب:إنهم أقرباؤك وعائلتك وليسوا أهلي أنا!ثم ابتسمت للضيوف مرحبة. ومن فوق أطل القمر باسمًا؛ لعل السبب أنه بلا أقارب بينما حاول (ساشا) أن يبتسم وهو يخفي وجهه المحبط بمزيد من الجهد ليرحب:إنها حركة كريمة منكم أن تشرفونا بالزيارة, أهلًا بكم في كوخنا!

القوقعة
أنطوان تشيكوف

كان الظلام قد ادلهم بالقرب من قرية (ميرونوستسكوي)، حيث عقد المسافران الرياضيان العزم على قضاء الليل في حظيرة يملكها (بروكوفي) عمدة القرية. كانا اثنين: (إيفان إيفانتش) يحمل لقبًا مركبًا غريبًا هو (شمشار هيمالايسكي)، ويبدو أن هذا اللقب لم يكن لائقًا عليه، إذ كان كل من يلقاه يكتفي بندائه باسمه وكنيته (إيفان إيفانتش)..وكان يعمل طبيبًا بيطريًا يعيش في ضيعة لتربية الخيل غير بعيدة عن المدينة..وقد خرج الآن للصيد خاصة في هذا الهواء الطلق الجميل. الثاني كان (بوركين) أستاذ المدرسة الثانوية..وكان من عادته أن يقضي فترة الصيف في ضيعة الكونت (ب) وكان سكان هذه المنطقة يعتبرونه واحدًا منهم.

وكلاهما لم يناما.. (إيفان إيفانتش) كان كهلًا طويل القامة، نحيل الجسد، له شارب طويل، جلس يدخن غليونه أمام الباب في ضوء القمر..أما (بوركين) فقد اضطجع داخل المخزن فوق كومة من التبن تحت ستار الظلام. وراحا معًا يمضيان الوقت بتبادل الحكايات فيما بينهما.

وكان معظم حديثهما عن (مافرا) زوجة العمدة.. كانت (مافرا) امرأة سليمة البدن، موفورة الصحة، ذكية، لم تغادر القرية التي ولدت فيها قط!..عاشت العشر سنوات الأخيرة داخل الدار أمام موقد الطعام دون أن تغامر بالخروج منه ليلًا! قال (بوركين):ومع ذلك، فهذا أمر في منتهى الغرابة، ففي هذا العالم كثير من الناس تضطرهم الطبيعة والكفاح إلى حياة العزلة كالحيوانات التي تعيش بداخل قوقعة وتظل بداخلها مدى حياتها..ولعل ذلك يعود إلى أسباب وراثية وتقاليد الأزمان التي لم يكن فيها أجدادنا قد أصبحوا حيوانات اجتماعية بعد..في ذلك الوقت الذي كانوا يعيشون فيه بداخل الكهوف!..أو لعل هذا النوع من الناس هو نوع قائم بذاته من أنواع الجنس البشري..من يدري؟..فأنا لست عالمًا من علماء التاريخ الطبيعي، ولا أملك القدرة على أن أحاول حل مثل هذه المسائل..وكل ما أريد أن أقول هو أن الناس الذين هم من نوعية (مافرا) ليسوا من الظواهر الغامضة النادرة، فقد مات في مدينتنا منذ شهر أو شهرين فحسب زميل لي كان يقوم بتدريس اللغة الإغريقية اسمه (بيليكوف)..

لا بد أنك سمعت به..لقد كان مشهورًا بأنه لا يتحرك من منزله قط، حتى عندما يصفو الجو ويعتدل، دون مظلة وخُف ومعطف مبطن بالفراء..وكان من عادته أن يحفظ مظلته في صندوق، وساعته في صندوق آخر مصنوع من الخشب السويدي الأشهب..وإذا أخرج مبراته ليبري القلم الرصاص أخرجها من صندوق هي كذلك..حتى وجهه هو الآخر كان يبدو كأنه

بداخـل صنـدوق!..إذ كان مـن عادتـه أن يرفـع ياقـة معطفـه ليخفـي رأسـه بداخلهـا.. وكان يضـع عـلى عينيـه نظـارة سـوداء، ويلبـس صدريـة مـن الصـوف الثقيـل ويسـد أذنيـه بقطـع مـن الصـوف المنـدوف..وكان إذا خـرج في عربـة غطـى رأسـه ووجهـه بقلنسـوة.. والحقيقـة أنـه كان يكشـف عـن حـذر لا يُقـاوم عـلى وضـع نفسـه في مـا يمكـن أن نقـول عنـه صندوقًـا واقيًـا، وأن يعـزل نفسـه عـن العـالم الخارجـي.. وكان الواقـع الـذي يحيـط بـه يثـير في نفسـه قلقًـا عارمًـا.. ويلقـي في قلبـه الرعـب ويجعلـه في حالـة مـن الذعـر المسـتمر..ولم يكـن يكـف أبـدًا عـن امتـداح المـاضي والثنـاء عـلى أشـياء لم يكـن لهـا وجـود قط..لعلـه كان يقصـد بذلـك تبريـر الخـوف والتقـزز الذيـن كان يثيرهـما الحـاضر في روعه..فـكان عـلى سـبيل المثـال يقـول في صـوت العاشـق الولهان:مـا أجمـل اللغـة الإغريقيـة، ومـا أروع موسـيقاها!..ولكي يبرهـن عـلى صـدق مـا قالـه كان يسـبل جفنيـه ويرفـع سـبابته ويتمتـم بنطـق كلمـة إغريقيـة مثـل: (أنثروبـوس). وكان (بيليكـوف) يحـاول أن يجعـل أفـكاره في صنـدوق عـازل هـي أيضًـا..فـلم يكـن يفهـم إلى المنشـورات ومقـالات الصحـف التـي تزخـر بالنـواه والأوامـر والمحرمات..فـإذا خـرج عـلى النـاس منشـورًا يحـرّم عـلى الطلبـة أن يكونـوا في الشـوارع بعـد السـاعة التاسـعة، أو إذا نـشرت مقالـة تنهـي عـن التسـامح في ممارسـة الجنـس أصبـح الأمـر في نظـره واضحًـا محـددًا تمـام التحديـد، وهـو أن هذيـن الأمريـن قـد تـم تحريمهـما إلى الأبـد..وكان يبـد لـه أن التصريـح بـشيء مـا أو التسـامح في شيء مـا مؤامـرة، فـكان إذا سـمع بـأن تصريحًـا قـد صـدر بفتـح نـادٍ مسرحـي أو مقهـى أو مكتبـة عامـة، توقـع أن هـذا يخفـي وراءه أمـرًا مريبًـا غامضًـا لم يتـم التصريـح بـه ثـم يهـز رأسـه ليغمغـم:لا ريـب أن هـذا حـدث جلـل ولكن..لنأمـل ألا ينجـم عنـه أي شيء..وكانـت أقـل مخالفـة للقواعـد الموضوعـة أو انحـراف عنهـا تسـبب لـه أشـد حـالات النفور..حتـى ولـو لم يكـن الأمـر لـه علاقـة بـه مـن الأسـاس. فـكان إذا علـم أن أحـد زمـلاءه لم يذهـب إلى الصـلاة في الوقـت المرسـوم أو تناهـت إلى أسـماعه إشـاعة بـأن أحـد التلاميـذ أتى بـشيء مـن الشـغب أو قيـل لـه أن إحـدى زميلاتـه لم تذهـب إلى المدرسـة ورؤيـت مـع أحـد الضبـاط في وقـت متأخـر مـن الليـل، ثـارت ثائرتـه وراح يكـرر أنـه يخـشى أن يـؤدي ذلـك إلى مـا لا تحمـد عقباه..حتـى في اجتماعـات مجلـس الأسـاتذة..كان لا يفتـأ يثـير قلقنـا ومخاوفنـا بحـذره الزائـد وشـكوكه المسـتمرة ومخاوفـه واقتراحاتـه (وكلهـا تـدل عـلى عقـل محفـوظ بداخـل صندوق!)..فـكان يـردد دائمًـا أن الشـباب في مـدارس الأولاد والبنـات عـلى حـد السـواء يسـلكون سـلوكًا غـير محمـود، كـما أنهـم يحدثـون ضوضـاء مزعجـة في الفصـول، وأنـه يتمنـى، إذا علمـت السـلطات بذلـك، ألا ينجـم عـن شر، وأنـه لا ضرر مـن فصـل (بـتروف) مـن الصـف الثـاني و(بيجـوروف) مـن الصـف الرابـع، والحقيقـة أنـه كان ينجـح عـن طريـق زفراتـه وتنهداتـه ومنظـاره الكاتـم عـلى عينيـه ووجهـه الأبيـض الصغـير الباحـث عـن الأخطـاء والجرائـم! كان بذلـك في إرهاقنـا إلى درجـة نُسـلّم معهـا لـه بمنـح (بـتروف) و(بيجـوروف) درجـات قليلـة مـن السـلوك وبحبسـهما ثـم فصلهـما في نهايـة المطـاف. وكان مـن عاداتـه الثابتـة أن يـزور الواحـد

منا في داره! فكان يذهب إلى مساكن المدرسين حيث يجلس صامتًا يراقب كل ما يقع أمامه – وبعد ساعة أو ساعتين ينهض ثم ينصرف. وكان يسمى ذلك (العمل على الاحتفاظ بعلاقات الود بين الزملاء). ومن الواضح إنه كان يرى في ذلك حملًا ثقيلًا ولم يكن يقوم به إلا لاعتباره إياه واجبًا مفروضًا عليه نحو زملاءه!!..كنا جميعًا نخاف منه!!..حتى ناظر المدرسة نفسه كان يخشاه..!هل تتصور ذلك؟!.. في الواقع إن مدرسينا كانوا في عمومهم من الرجال الأذكياء المهذبين الذين قرأوا أفكار (تورجنيف) و(شخدرين).. إلا أن شبه الإنسان هذا استطاع بمظلته وخفه الخالدين أن يعمل على جعل المدرسة كلها تحت سيطرته طوال خمسة عشرة عامًا..ولم يكتف بذلك.. بل أخضع المدينة بالكامل تحت إمرته!!.. فقد عدلت سيداتنا عن حفلات يوم السبت المسرحية الخاصة خوفًا من أن يسلقهن بلسانه.. وكان رجال الدين يخشون أكل اللحم أو لعب الورق أثناء وجوده.. وبدا أن أهل المدينة بأسرها تحت سيطرة (بيليكوف) وأمثاله.. يشعرون بالرعب في كل لحظة.. ويتوجسون خفية من كل شيء.. فكانوا يخافون الكلام بصوت عال وكتابة الخطابات واتخاذ الأصدقاء وقراءة الكتب ومعاونة الفقراء وتعليم الأميين..

وتنحنح (ايفان ايفانتش) ليسلك حنجرته، كما لو كان يستعد لإطلاق ملحوظة مهمة، إلا أنه بدأ في اشعال غليونة، وحملق في القمر بكلتا عينيه، ثم أخذ يقول بنغمة هادئة وديعة وببطء:نعم.. هم مجموعة من الرجال المهذبين اللطفاء الأذكياء الذين يقرأون أفكار (تورجنيف) و(شخدرين) و(بوكل).. ولكنهم مع ذلك كانوا يستسلمون له ويتأففون منه.. وكانت الحال دائمًا على هذا المنوال..وتابع بعد لحظة صمت:كنا.. أنا و(بيليكوف) نعيش في بيت واحد، وفي دور واحد، وكان باب مسكنه مواجه لباب مسكني تمامًا.. ومن ثم استطاع كل منا أن يطلع على كثير من تفاصيل حياة الآخر.. وتمكّنت أنا نفسي من أن أُكوّن فكرة لا بأس بها عن حياته البيتية التي كانت تدور على نمط واحد لا يتغير أبدًا: الروب دي شامبر، قلنسوة النوم، الأبواب المغلقة، والأقفال والأرتجة، وقائمة عملاقة من النواهي والمحرمات.. وذلك القول المأثور عنه: (لنأمل ألا ينجم عن ذلك أي شر!).. ولم يكن (بيليكوف) يؤمن بفكرة الصيام، ولكنه كان يمتنع عن تناول اللحم، فقط حتى لا يقول عنه الناس أنه لا يكن احتراما للصوم..فكان يُقبل على أكل السمك المقلي في الزبد، وبالطبع لم يكن هذا النوع من الطعام مما يتحقق معه الصوم، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن لحمًا!..ولم يكن يحتفظ لديه بخدم من الإناث أبدًا، حتى لا يظن به الناس الظنون، فكلما يستخدم طباخًا من جنس الرجال اسمه (أفانسي).. وهو رجل هرم سكير مخبول في نحو الستين من عمره.. تعلم طهي الطعام من عمله صبيًا في ناد، في فترة خلت من حياته..وكان من عادته أن يُرى دائمًا واقفًا أمام الباب وقد شبّك ذراعيه أمام صدره وراح يتأوه ويتنهد متمتمًا بتلك الجملة التي لا يكف عنها: (آه.. في هذه الأيام يمكننا أن نلمح منظرهم فيما حولنا!)

وكانـت غرفـة نـوم (بيليكـوف) الصغـيرة تشـبه الصنـدوق، وكان يغطـي سريـره بناموسـية تشـبه المظلـة!.. وقـد اعتـاد أن يجـر مـلاءات السريـر حتـى تغطـي رأسـه بالكامـل.. أمـا جـو الغرفـة فـكان دائمـا حـارا خانقـا بالرغـم مـن تنـاوح الريـح في الخـارج خلـف شـبابيكها، وأزيزهـا في مدخنـة مدفأتهـا وكانـت تسـمع مـن المطبـخ زفـرات حزينـة حـارة..وكان يتـكيء مرتجفًـا تحـت غطائـه خشـية أن يدهمـه لـص أو أن ينقـض عليـه (أفانـسي) ليزهـق روحـه أو يهاجمـه شر مـا!.. وكانـت هـذه المخـاوف هـي موضـوع أحلامـه الدائـم!..في الصبـاح كنـا نسـير سـويًا.. معًـا جنبًـا إلى جنـب في الطريـق إلى المدرسـة وكان دائمًـا شـاحب الوجـه ممتقـع العييـان، وكان الرعـب مرسـومًا عـلى كل ملامحـه والقلـق يجتـاح كيانـه مـن فكـرة أنـه يقـترب مـن المدرسـة التـي تعـج بالتلاميـذ وأنـه سـوف يـرى أمـرًا يثـير اشـمئزازه ونوعًـا مـن تقييـد حريتـه..وكانـوا يعرفـون أنـه يقـول (كـما لـو كان يريـد إيجـاد تفسـيرًا لهـذا الغـم الـذي ينتابـه):إنهـم يثـيرون ضوضـاء لا تحتمـل في الفصـل، وهـذا أمـر بغيـض للغايـة !.. و هـل يـدور بخلـدك أن مـدرس اللغـة الإغريقيـة، هـذا الحلـزون الحقـير كان عـلى وشـك أن يتـزوج في يـوم مـن الأيـام؟!

التفت (ايفان إيفانتش) بحدة نحو المخزن هاتفًا:إنك تمزح ولا شك!

أومـأ برأسـه إيجابًا:نعـم.. لقـد أوشـك أن يتـزوج بالفعـل.. مهـما كان في هـذا الموضـوع مـن غرابـة. فقـد اتفـق أن جاءنـا بمـدرس جديـد للتاريـخ والجغرافيـا اسـمه (ميخائيـل سـافتش كوفالنكـو) مـن مواطنـي (أوكرانيـا)، فـأتى معـه بأختـه (فاريـا) وكانـت عـلى عكـس أخوهـا إذ كان شـابا حديـث السـن، طويـل القامـة أسـمر اللـون، ضخـم الكفـين ولـه صـوت عميـق يليـق بملامحـه، كان صوتـه مـدو كأنـه ينبعـث مـن قـاع دن.. أمـا أختـه فلـم تكـن في حداثـة سـنه، إذ كانـت تبلـغ نحـو الثلاثـين مـن عمرهـا، ولكنهـا كانـت مثلـه طويلـة القامـة، وكانـت مسترسـلة الشـعر، سـوداء الحاجبـين، متـوردة الوجنتـين، مرحـة دائمًـا، جذلـة، صاخبـة، موفـورة النشـاط والحيويـة، لا تراهـا إلا وهـي تضحـك أو تغنـي بعـض الأغـاني والأناشـيد الأوكرانيـة وكانـت أقـل اسـتثارة تجعلهـا تنفجـر في الضحك..وعـلى قـدر مـا أتذكـر كان أول تعارفنـا بالأخويـن في الحفـل الـذي أقيـم في بيـت الناظـر بمناسـبة عيـد ميـلاده، وهنـاك رأينـا فينـوس الحقيقيـة تخـرج مـن بـين الزَبَـد بـين حشـد المدرسـين مـن المتعنتـين الأشـداء الذيـن يجعلـون مـن كل شيء يؤدونـه واجبًـا حتـى مـن حضـور الحفـلات، وراحـت فينـوس الجديـدة هـذه تسـير متبخـترة ويداهـا عـلى فخذيهـا.. تضحـك.. وتغنـي وترقـص.. غنـت (الريـاح تعصـف) بإحسـاس عـال ثـم غنـت أغنيـة أخـرى وثالثـة وسـاد المـرح والـسرور الحاضريـن، حتـى (بيليكـوف) كان مـسرورا وجلـس بجوارهـا يقـول في تملـق:إن اللغـة الأوكرانيـة بعذوبتهـا وألفاظهـا الحلـوة مشـتقة مـن الإغريقيـة القديمة..وسـعدت الفتـاة بهـذه المجاملـة!.. وراحـت تتحـدث إليـه بحـرارة وتحـكي لـه عـن ضيعتهـا في إقليـم (جاديـاتـشى) حيـث تعيـش والدتهـا وحيـث تنمـو أجـود أنـواع الكمـثري, والبطيـخ والقـرع الأحمـر الـذي يسـمونه في أوكرانيـا (النخـاع) ويضيفونـه إلى الفلفـل الأحمـر وعنـب الذئـب الأزرق ليصنعـون منـه طبقًـا

لذيـذًا للغاية..وجلسـنا حولهـا نسـتمع إليهـا.. وفي لحظـة واحـدة قفـزت إلى أذهاننـا جميعًـا فكـرة واحـدة: لمـاذا لا يتـزوج هـذان الاثنـان؟، هكـذا همسـت لي زوجـة الناظـر..ولسـبب مـا تنبـه الجميع إلى أن (بيليكـوف) رجـل أعـزب، ودهشـنا إلى أننـا لم نتذكـر هـذا الأمـر منـذ وقـت طويـل! وأننـا تناسيناه رغـم أهميتـه في حيـاة هـذا الرجـل، يبـدو ذلـك لأننـا لم نتسـاءل مـن قبـل: كيـف تبـدو حيـاة هـذا الرجـل بالنسـبة للمـرأة؟ أو مـا هـي المـرأة بالنسـبة لـه؟ مـا هـو موقفـه تجـاه المـرأة؟ وكيـف يمكنـه أن يحـل هـذه المعضلـة الحيويـة المؤثـرة في حياتـه؟.. وربمـا كان ذلـك لأنـه لم يخطـر ببـال أحـد منـا أن رجـلًا يلبـس خفًـا طويـلًا في فصـول الصيـف وبقيـة فصـول السـنة جميعهـا وينـام في سريـره تحـت سـتارة غـير مؤهـل للحـب والزواج!..وواصلـت زوجـة الناظـر كلماتهـا بصوتهـا الخفيض:لقـد تجـاوز الأربعـين مـن العمـر وهـي في نحـو الثلاثـين، أعتقـد أنهـا قـد توافـق بـه!، والواقـع أن الأشـياء التـي تعمـل في الريـف بدافـع الملـل هـي أشـياء سـخيفة لا معنـى لهـا! وذلـك أن كل مـا يجـب أن يفعـل لا يفعـل.. فلـماذا؟.. لمـاذا نشـعر بـأن علينـا أن نقـوم بمهمـة تزويـج (بيليكـوف) الـذي لا يمكـن أن يحتملـه مخلـوق ولا يتصـوره أحـد في دور الرجـل المتـزوج؟.. إن زوجـة الناظـر وزوجـة المفتـش والسـيدات الـلاتي تربطهـن بالمدرسـة أيـة صلـة قـد تحولـن الآن جميعًـا إلى مشرقـات الوجـوه، مسـتبشرات كأنهـن قـد عـثرن في نهايـة المطـاف عـلى جـدوى لحياتهن!..وبـادرت زوجـة الناظـر باحتجـاز (لـوج) في المسـرح، حيـث جلسـت (فاريـا) عـلى أحـد مقاعـده تهـز مروحتهـا الضخمـة وعـلى محياهـا بـدت علامـات السـعادة والحبـور، وإلى جوارهـا جلـس (بيليكـوف) النحيـل الضئيـل، المضطـرب الحـال كـما لـو أنهـم قـد أخرجـوه مـن حجـرة نومـه بكلابات!..أمـا أنـا فقـد أقمـت مأدبـة أصرت السـيدات عـلى أن أدعـو إليهـا (بيليكـوف) و(فاريا)..وهكـذا بدأنـا لعبـة الكـرة الطائرة!..هـذا وقـد خطـر لي أن (فاريـا) لا تمانـع عـلى الاطلاق في فكـرة الـزواج، إذ أن حياتهـا مـع أخيهـا لم تكـن حيـاة سـعيدة بالمـرة، فهـما كانـا يقضيـان يومهـما بالكامـل في شـجار وعـراك.. وهـا أنـا ذا أعـرض عليـك موقفًـا مكـررًا مـن حياتهما:...(كوفالنكـو) يـذرع الشـارع بجسـمه الضخـم وقامتـه الفارعـة وعـلى صـدره قميـص مطـرز وقـد تدلـت ذؤابتـه مـن تحـت حافـة قلنسـوته وراحـت تتأرجـح فـوق حاجبـه، وفي إحـدى يديـه أمسـك حزمـة مـن الكتـب وبالأخـرى عـكازًا هائـلًا، ومـن خلفـه تسـير أختـه متأبطـة هـي الأخـرى حزمـة مـن الكتـب، وتهتـف بـه قائلة:ولكنـك يـا (ميخـا) لم تقـرأه!.. قلـت لـك أنـت لم تقـرأه!.. أنـا واثقـة مـن أنـك لم تقـرأه أبـدًا!، ويـصرخ (كوفالنكـو) وهـو يـضرب الأرض بعكازه:وأنـا أؤكـد لـك أني قرأتـه!، وتـرد عليـه بـإصرار أشـد:يا إلهـي الرحيـم!.. (ميخـا)!.. لا أعـرف لمـاذا يصـل بـك العنـف إلى هـذه الدرجـة!.. إن هـذه هـي مسـألة مبـدأ لا أكـثر ولا أقـل!، ويجيبهـا (كوفالنكـو) بصـوت أعـلى مـن صوتها:وأنـا أقـول لـك أننـي قرأتـه!

أمـا في المنـزل فـلا يـكاد يزورهـما أحـد حتـى يبدئـا أمامـه في الشـجار كالعـادة!.. ويبـدو أنهـا كانـت تمقـت هـذه الحيـاة وتتـبرم منهـا وتتـوق إلى أن يكـون لهـا دارًا خـاص.. هـذا ولا تنـس

فارق السن.. فحينما لا يكون هناك وقت للبحث والاختيار، توافق الفتاة على الارتباط بأي إنسان و لو كان مدرسا للغة الإغريقية.. والحقيقة أن هذه هي الحال بالنسبة لبناتنا على حد سواء، أنهن يوافقن على الارتباط بأي رجل مهما كان، لا لشيء إلا ليتزوجن!..ومهما يكن من أمر فإن (فاريا) بدأت تبدي اهتمامًا وميلًا ملحوظين نحو (بيليكوف)!

-ولكن ماذا عن (بيليكوف) نفسه؟

-الحقيقة أنه كان يزور (كوفالنكو) بنفس القدر الذي يزور به بقية زملاؤه.. يذهب لرؤيته ويجلس دون أن ينبس ببنت شفة، على حين تسترسل (فاريا) في ترنيم أغنية: (الريح تعصف) وهي لا تكف عن متابعته بعينيها السوداوين، أو تنفجر ضاحكة دون أية مقدمات!.. إن للإيحاء قوة فعالة خارقة في كل المسائل المتعلقة بشئون القلب.. ولا سيما موضوع الزواج.. وقد بدأ كل زملاء (بيليكوف) والسيدات جميعهن يؤكدون له أنه يجب أن يتزوج على الفور..ورحنا جميعًا نشجعه وندفعه إلى الأمام في هذا قدمًا ونمدح الزواج أمامه ونقنعه بأنه خطوة ضرورية وجادة وما إلى ذلك.. إلى جانب أن (فاريا) ليست دميمة على الإطلاق، بل كانت على العكس تمامًا.. في غاية الرقة واللطف.. هذا بالإضافة إلى أنها ابنة أحد مستشاري الدولة.. والأهم من ذلك كله أنها كانت المرأة الوحيدة التي أظهرت ميلًا نحو (بيليكوف).. ولكل هذه الاعتبارات غلب (بيليكوف) على أمره وأقنع نفسه بأنه يجب أن يتزوج بالفعل!

قال (إيفان ايفانتش):كانت هذه نفس اللحظة التي يجب فيها أن يتخلى إذن على خفه ومظلته!!

-أبدًا!.. لقد بدا أن هذا الأمر مستحيلًا تمامًا! لقد وضع صورة شمسية لـ(فاريا) على مكتبه، ثم راح يأتي إلى مرارًا ليكلمني عن (فاريا).. وعن الحياة العائلية وتكوين أسرة وأهمية الزواج..، وأيضًا راح يتردد على آل (كوفالنكو).. ولكن لم تتغير حياته أدنى تغيير..بل لقد كان العكس هو الصحيح.. إذ أن نيته في الزواج كان لها الأثر السيئ عليه..لقد ازداد جسمه نحولًا وازداد وجهه شحوبًا عن ذي قبل وبدا وكأنه يزداد تشبثًا بقوقعته وتوغلًا فيها!..وذات مرة جاءني يقول وعلى وجهه ابتسامة الشاحبة المعوجة:إني أرى (فاريا سافيشنا) فتاة لا بأس بها، وأنه من المفترض أن يتزوج الجميع. نعم.. أنا أعرف ذلك جيدًا.. الفكرة جاءت بغتة كما تعرف.. وعلى الرجل أن يفكر أولًا, و...، فأجبته:وفيم تفكر؟ في الزواج؟ تزوج!.. هذا هو كل ما في الأمر!لوح بكفيه وقال:كلا.. كلا. إن الزواج أمر جاد للغاية، ولابد للرجل أن يبدأ بالتفكير في المسئوليات التي سوف تقع على عاتقه والواجبات التي يجب عليه أن يقوم بها وذلك حتى لا ينجم عن هذا الزواج أي شر.. والواقع أن هذه المسألة تشغل بالي إلى أقصى حد لدرجة أنني لا أنام الليل.. وإذا أردت أن أقول لك الحقيقة، فإنني أرتجف رعبًا!، فهي وأخوها لهما طراز غريب في التفكير.. ومظهرهما الغريب لا يخفى عليك، كما أنها موفورة

الصحة والنشاط فإذا فرضنا أنني تزوجتها واشتبكت في أمر ما...وأخذ يؤجل مسألة طلب يدها ويؤخره من يوم إلى يوم، مما أحزن زوجة الناظر والسيدات الأخريات..واستمر يزيد مسئولياته وواجباته المستقبلية ويواظب على الخروج معها يومًا بعد يوم..ربما كان يعتقد أن الموقف يتطلب منه أن يقوم بكل هذا..كما أنه كان يكثر من زيارتي ليدخل معي في مناقشات حول الحياة الزوجية من كافة الأوجه! حتى توقعت في النهاية أنه – في أغلب الظن – سوف يتقدم بطلب يدها في النهاية ليعقد زيجة حمقاء أخرى لا ضرورة لها ولا معنى من تلك الزيجات السيئة السخيفة التي تتم هنا بالآلاف لا لشيء إلا لمجرد الملل والضجر من الوضع الحالي والحياة الراهنة والرغبة في القيام بعمل أفضل...

لولا أن انفجرت فضيحة مدوية..!! فضيحة رجت أرجاء المدينة.. وبهذه المناسبة دعني أخبرك أن قلب (كوفالنكو) شقيق (فاريا) – قد امتلأ بالكراهية لـ(بيليكوف) منذ اليوم الذي عرفه فيه.. ولم يعد يطيق حتى رؤيته!..كان (كوفالنكو) يهز كتفيه في بعض الأحيان ويقول في استنكار:أنا لا أعرف كيف تفكرون. كيف تكتمون وجود مثل هذا الحيوان القوقعي، هذه الحشرة المتعفنة؟ كيف يمكنكم العيش هنا أيها السادة؟.. إن هذا الجو خانق مسموم.. كيف تأتيكم الجرأة على القول بأنكم مدرسين ومربين؟.. واقع الأمر يقول أنكم لستم أكثر من جماعة صيادين تافهين، وأن مدرستكم هذه ليست معبدًا للعلم، بل هي مجرد مؤسسة خيرية تفوح منها رائحة تثير الشك مثل أقسام الشرطة..كلا أيها الرفاق، أنا لن أمكث معكم طويلًا، بل سأعود إلى غربتي لأشتغل بصيد السمك وتعليم الأطفال الأوكرانيين.. نعم.. سوف أرحل عن هنا..بعيدًا عنكم.. ولتبقوا أنتم مع (يهوذا) هذا الذي كان من نصيبكم!وفي مرة أخرى تراه يزأر بصوته الأجش المجوف الذي يتحول إلى صفير ماء حتى تسيل الدموع من عينيه ويقول:لماذا يمكث معكم ها هنا؟.. هه؟..ماذا يريد من جلوسه وحملقته؟، وقد أطلق على (بيليكوف) لقبًا من عنده.. فسماه: (الخفاش العنكبوتي)!..وحينما ألمحت إليه زوجة الناظر أنه يكون من الأفضل أن نرى أخته تحيا حياة مستقرة مع رجل محترم قوي الخلق مثل (بيليكوف) عقد حاجبيه بشدة وقال:إن هذا الأمر لا يعنيني مطلقًا.. في وسعها أن تتزوج ثعبانًا.. فلست أنا بذلك الرجل الذي يدس أنفه شئون الآخرين!

والآن اسمع ما حدث بعد ذلك..لقد رسم أحد المصورين صورة هزلية ترى فيها (بيليكوف) بخفه وحوافي سرواله مقلوبة إلى أعلى ومظلته مفتوحة فوق رأسه، وقد تأبط ذراعه ذراع (فاريا) وراحا يسيران جنبه إلى جنب..وتحت الصورة كتبت هذه الجملة:الأنثروبوس عاشق!.. وكان تعبير وجهه حقيقيًا مبتهجًا يفيض بالبشر والأمل..هذا ولابد أن الفنان الذي رسم هذه الصورة قد سهر عدة ليال على اتمامها.. لأن المدرسين في مدرسة الأولاد ومدرسة البنات قد وصلتهم هم أيضًا نسخ لهذه الصورة..كما تلقى (بيليكوف) نسخته هو الآخر!..وكان لهذه الصورة أسوأ الأثر عليه..

في ذات يـوم خرجنـا معًـا مـن الـدار.. وتصـادف أن يكـون هـذا اليـوم هـو يـوم الأحـد وأول يـوم في شـهر مايـو..وكان عـلى المدرسـة بأسرهـا، طـلاب ومدرسـين - أن يجتمعـوا أمـام مبناهـا لـكي يتجهـوا إلى غايـة خـارج حـدود المدينة..وذهبنـا بالفعـل وكان وجـه (بيليكـوف) يبـدو أخـضر!.. أخـضر ضاربًـا إلى السـواد!! وكان سـبب هـذا هـو عندمـا تقـع عينـاه عـلى فتـاة.. ثـم نظـر إلي وقـال وشـفتاه لا تكفـان عـن الارتجـاف: كـم في هـذا العـالم مـن قسـاة أشرار!!

ولم أتمالـك إلا أن أشـفق عليـه وأرثي لحاله..وواصلنـا سـيرنا، ولم يمـض وقـت طويـل حتـى رأينـا (كوفالنكـو) يمـر بنـا ممتطيًـا دراجتـه و(فاريـا) خلفـه عـلى ظهـر دراجـة أخـرى وقـد بـدا عليهـا الانبهـار وتـورد خديهـا مـن شـدة الحـماس والنشـاط، ولكنهـا عـلى أيـة حـال كانـت مرحـة يفيـض وجههـا بالحبـور!.. وقـد هتفـت فينا:سـنكون هنـا قبلكـم جميعًـا!.. أليـس هـذا يومًـا جميـلًا؟!.. إنـه يـوم سـاحر!

وإن هـي إلا لحظـات واختفيـا عـن البصر..أمـا زميلنـا (بيليكـوف) الـذي تبـدل لونـه مـن الخـضرة إلى شـحوب الأمـوات فقـد أرتـج عليـه لحظـة ثـم توقـف عـن المـشي وراح يحـدق في وجهـي ويتسـاءل:ما معنـى هـذا؟ أيليـق بمعلمـي المـدارس وبالنسـاء أن يركبـوا الدراجـات؟، فغمغمت:ومـاذا في هذا؟..ليـس هنـاك مـا يتعـارض مـع اللياقـة والأدب، ولمـاذا لا يركبـون الدراجـات؟، صـاح معترضًا:ولكـن ذلـك الأمـر لا يحتمـل! فكيـف نسـتطيع أن نقـول هـذا القـول؟

ويبـدو أن الصدمـة كانـت شـديدة عليـه جدًا..لأنـه قـد رفـض مواصلـة المسـير وعـاد مـن فـوره إلى الـدار!..وفي اليـوم التـالي ظـل طـول الوقـت مفزوعًـا يفـرك كفيـه ببعضهـما، ولم يكـن مـن الصعـب أن تـرى عـلى وجهـه كـم كان في حـال سيئة.. وقـد غـادر المدرسـة حتـى قبـل انتهـاء اليـوم الـدراسي، وهـو مـا لم يحـدث منـه مـن قبـل أبـدًا.. كـما أنـه لم يتنـاول أي طعـام.. وعندمـا بـدأ يهبـط المسـاء ارتـدى ملابـس ثقيلـة بالرغـم مـن أن الجـو كان حـارًا.. ثـم إنـه قـد اتجـه إلى بيـت (كوفالنكـو) في النهايـة!..

لم تكـن (فاريـا) هنـاك، فقابلـه أخوهـا، وقـال لـه بفتـور وجبـين مقطب:تفضـل بالجلـوس.، وكان يبـدو أن (كوفالنكـو) قـد اسـتيقظ حـالًا مـن نـوم قيلولـة الظهـيرة فـلا يـزال النـوم يغلـق عينيـه و يخامـره شـعور بالذعر!..وظـل (بيليكـوف) صامتًـا لعـشرة دقائـق كاملة!..ثـم بـدأ يتكلـم أخيرًا:لقـد جئـت إليـك حتـى أريـح ضمـيري، فأنـت لا تعلـم مـدى التعاسـة التـي أحيـا فيهـا هـذه الأيـام. فقـد قـام هجّـاء مجهـول الاسـم برسـم صـورة كاريكاتيريـة سـاخرة تمثلنـي أنـا وشـخص آخـر تربطـه بنـا نحـن الاثنـين بعـض العلاقـات.. وأعتقـد أن مـن واجبـي أن أؤكـد لـك أني لسـت الملـوم في ذلـك، فأنـا لم أفعـل مـا يتوجـب كل هـذه السـخرية، ولكـن كل تصرفـاتي كانـت عـلى العكـس مـن ذلـك تمامًـا سـلوك رجـل نزيـه أمـين لا تشـوب سـمعته أيـة شـائبة في أي يـوم مـن أيـام حياتـه.

وظـل (كوفالنكـو) مطرقًـا صامتًـا.. وبعـد برهـة اسـتأنف (بيليكـوف) حديثـه بصـوت خافـت

شاك:وهناك أمر أخر أريد أن أحدثك في شأنه.. فأنا رجل محنك قديم.. وأنت لا تزال غر ساذج في مستهل حياتك الوظيفية، ومن واجبي - كزميل هرم من زملائك أن أحذرك!.. إنك تركب الدراجة وهذا نوع من الترفيه محظور تمامًا على كل من يتولى مسألة تعليم النشء!وبصوته العميق الأجش سأله (كوفالنكو):ولمه؟، أجابه في اندهاش مستنكر:وهل يحتاج هذا إلى توضيح...وضح له:لقد كنت تظن يا (ميخائيل سافيتش) أنه أمر بسيط وعادي.. لو سمح المدرس لنفسه بركوب الدراجة لما بقى للتلاميذ إلا أن يسيروا على رؤوسهم!.. و ما دام لم يصدر أي منشور بإباحة ذلك فإنه يظل محظورًا.. والحقيقة أنني قد ذهلت بالأمس!.. بل كدت أسقط مغشيًا على حين رأيت أختك أيضًا..آنسة فوق دراجة! يا للعار!

قال (كوفالنكو) في قنوط:ماذا تريد مني بالضبط؟

أجاب (بيليكوف) في حزم:لا أريد إلا أن أنبهك يا (ميخائيل سافتش)..أنك شاب في مقتبل العمر..وحياتك كلها أمامك ولهذا فيجب أن تتعامل معها بغاية الحذر..ولكنك مستهتر..مستهتر للغاية !.. فها أنت ذا تروح وتجئ في أقمصة مطرزة مبهرجة ولا ترى في الشارع إلا ومعك أنواع مختلفة من الكتب ثم ختمت هذا كله بالدراجة!.. إن واقعة ركوبكما، أنت وأختك على دراجتين سوف تصل إلى أسماع الناظر! بل إنها سوف تصل إلى الرئيس شخصيًا.. وليس عمل هذا من صواب الرأي!فقال (كوفالنكو) والدماء تغلي في عروقه:إن ركوبنا الدراجات أو عدم ركوبنا إياها لا يعني أحد سوانا في الواقع! وإذا كان الناس سيدسون أنوفهم في حياتي الشخصية أنا شقيقتي فليذهبوا إلى الجحيم!وهنا راح لون (بيليكوف) وشحب وجهه وانتتر واقفا على قدميه وهتف:حسنًا!.. مادمت تتكلم معي بهذه الطريقة، فلم أستطيع أن أواصل كلامي!.. لكن أرجوك أن تكون حذرًا حينما تتكلم عن رؤسائنا في وجودي!.. نعم.. يجب أن تتعامل مع السلطات بالاحترام الذي يليق بها!

امتلأ (كوفالنكو) بالغضب، وهو يكاد يتميز من الغيظ قال:وهل سمعتني أتفوه ببنت شفه بشيء غير لائق عن السلطات!!.. اتركني وشأني أيها المحترم، فأنا رجل شريف وليس عندي ما أقوله لشخص مثلك..إن نفسي تشمئز من الثعابين!

ارتبك (بيليكوف) بشدة وبان على وجهه، الخوف الشديد والرعب الهائل والتوتر العصبي وسارع بارتدائه لمعطفه.. نعم، فلم يكن قد سمع شخصًا يخاطبه بكلمة كهذه من قبل! قال وهو يتجاوز عتبة الدار:ولكن لابد لي أن أحذرك، إذ ربما يكون بعض الناس قد سمع كلامًا.. ويجب عليَّ لكي أمنع حديثنا ذلك من أن ينتقل محرفًا ولا منع ما قد ينتج من جراء ذلك، أن أتوجه إلى ناظر المدرسة بفحوى هذا الحوار.. بالنقط الرئيسية.. هذا هو واجبي!

سأله (كوفالنكو) مندهشًا وفي شيء من الكراهية:ماذا تقول.. تقرير!.. إذن..اذهب إلى حال

سبيلك! قال ذلك ثم قبض على تلابيبه ودفعه بعنف إلى الخلف دفعه ألقت به فوق السلم فراح يتدحرج على دراجاته وراح قبقابه يقرع الدرابزين!.. وقد كان السلم طويلًا زلقًا شديد الانحدار، ولكنه رغم ذلك قد وصل إلى القاع دون أية إصابات من أي نوع !..فنهض على قدميه وراح يتحسس قصبة أنفه ليرى ما إذا كان منظاره قد كسر أم لا..ولكن..بينما كان (بيليكوف) يتدحرج فوق السلم، إذ دخلت (فاريا) من باب السلم ومعها سيدتان أخريان! وتوقفت السيدات الثلاث في قاع السلم ينظرن إليه..وكانت هذه هي الكارثة العظمى!.. كان (بيليكوف) المسكين يتمنى لو دق عنقه وتكسر ساقاه على أن يشاهد في هذا الوضع المضحك!..وفي ظني أن الرئيس والمدينة بأسرها سوف يعرفون ما حدث له، والناظر أيضًا.. ومن يدري ما الذي يترتب على ذلك من نتائج!..فقد يقوم رسام كاريكاتير أخر برسم صورة أخرى له..وقد ينتهي الأمر إلى إقالته من العمل!!..وحين نهض عرفته (فاريا)..نظرت إلى وجهه المضحك ومعطف المجهد..ودون أن تعرف ملابسات الموقف فقد اقترحت أن قدمه قد زلت به أثناء نزوله السلم فلم تتمالك نفسها من الانفجار في ضحكة مجلجلة!..وكانت هذه القهقهة المدوية الرنانة هي القشة التي قصمت ظهر البعير.. إنها النهاية..نهاية قصة الحب التي كانت بين (بيليكوف) و(فاريا)..ونهاية وجوده في هذا العالم!..

لم يعد إلى رؤية (فاريا) مرة أخرى بعد الآن..وكان أول عمل قام به حين وصل إلى داره أن أزال صورتها من فوق مكتبه.. ثم أنه ذهب إلى فراشه واضطجع فيه لكيلا يغادره مرة أخرى!..وبعد ذلك بثلاثة أيام جاءني (أفانسى) يسألني عما إذا كان يجب إحضار طبيب لسيده، ذلك لأن سلوكه في هذه الأيام كان في منتهى الغرابة..

وذهبت إلى زيارته فوجته مضطجعًا تحت الناموسية، مغطى بالملاحف الصوفية، وكان صامتًا يجيب على أسئلتي بـ(لا) و(نعم) دون أن ينبس بكلمة أخرى!...هكذا كان حاله..يرقد في الفراش بينما يطوف (أفانسى) بوجهه الشاحب المذعور حوله.. ورائحة الخمر تفوح منه كما لو كان حانة بأكملها.. ومضى شهر على هذا الحال.. ثم مات (بيليكوف)!

سار الجميع في جنازته..المدرسين وأعضاء المعهد اللاهوتي..وبعد أن وضع في تابوته الآن أصبح وجهه راضيًا مشرقًا، بل يفيض بالبهجة والسرور.. كما لو كان قد سعد أن يوضع في صندوق لن يخرج منه حتى قيام الساعة..نعم...لقد حقق مثله الأعلى!

وكأن السماء قد قررت هي الأخرى أن تشارك في تأبينه، فكان يوم جنازته غائمًا ممطرًا، مما اضطرنا جميعًا إلى أن نرتدي قباقيب حشبية ونحمل المظلات.. وقد حضرت (فاريا) أيضًا جنازته..وسالت الدموع من عينيها حين وضع تابوته في القبر..وبهذه المناسبة تمكنت من ملاحظة مهمة..وهي أن نساء (أوكرانيا) لا يعرفن إلا الضحك والبكاء..ولا يعترفن بأي منزلة وسطى!

لابـد لنـا مـن الاعـتراف بـأن دفـن الأشـخاص الذيـن هـم عـلى شـاكلة (بيليكـوف) يعتـبر مـن المناسـبات السـارة..غير أننـا جميعًـا قـد عدنـا مـن المقـبرة بوجـوه حزينـة كالحـة.. ولم يـره أحـد منـا أن يـصرح بأننـا سـعداء بالخلاص!..هـذه الراحـة التـي كنـا نشـعر بهـا ونحـن بعـد أطفـالًا عندمـا ينـصرف عنـا الكبـار وتتـاح لنـا فرصـة للجـري سـاعة أو سـاعتين حـول الحديقـة ونحـن مـسرورون بحريتنـا المطلقـة!..آه.. الحريـة! إن أقـل تلميـح عنهـا.. وأضعـف أمـل في الوصـول إليهـا لكفيـل بـأن يهـب نفوسـنا أجنحـة نحلـق بهـا!! أليـس كذلـك؟

عدنـا مـن المقـبرة مرتاحـو البـال..ولم يكـد يمـر أسـبوع واحـد حتـى عدنـا إلى حياتنـا الرتيبـة المملـة التـي اعتدناهـا.. تلـك الحيـاة الضحلـة السـخيفة التـي لا معنـى لهـا ولا يجـد فيهـا جديـد.. ولكـن لم تصبـح الأمـور أفضـل مـما كانـت عليـه..فنحـن وإن كنـا قـد دفنـا (بيليكـوف) إلا أننـا فكرنـا بعمـق ووجدنـا أنـه لا يـزال هنـاك الكثـير مـن الأشـخاص الذيـن يعيشـون في قواقـع..وأن هنـاك الكثيريـن منهـم الذيـن لم يولـدوا بعـد!

قال (إيفان إيفانتش) وهو يشعل غليونه:نعم.. إن ما تقوله صحيح.

عاد (بوركين) يكرر:الكثيرين منهم لم يولدوا بعد!

وخـرج مـدرس المدرسـة الثانويـة مـن المخـزن.. فبـدا في ضـوء القمـر رجـلًا قصـيرًا بدينًـا ذا رأس أصلـع ولحيـة سـوداء طويلـة تـكاد تصـل إلى أسـفل بطنـه، ومعـه خـرج كلبـان كبـيران..ورفـع المـدرس عينـاه إلى السـماء وقال:يـا اللـه.. مـا أجمـل ضـوء القمـر!

كان قـد انقـضى أكـثر مـن نصـف الليـل..وكانـت القريـة بأكملهـا تتكـدس نحـو الناحيـة اليمنـى بشـارعها الطويـل الـذي يمتـد عـلى مسـافة خمسـة كيلـو مـترات، فلـم يكـن يسـمع أي صـوت أو حركـة إذ كان كل شيء يغـرق في هـدوء عميـق.. وفي نـوم طويـل.. حتـى ليصعـب عـلى الـرائي أن يصـدق أن الطبيعـة قـد تتسـم بهـذا الهـدوء!.. ومـن المعتـاد أننـا إذا نظرنـا في ليلـة مقمـرة إلى شـارع قـروي متسـع بمسـاكنه وأسـيجته وأشـجاره الناعسـة، هامـت نفوسـنا في سـلام نفـسي عظيـم سـكينة لا حـد لهـا، إذ تبـدو القريـة في صفائهـا وقـد تطهـرت خـلال الليـل مـن المتاعـب والمشـاغل والأحـزان ومشـكلات الحيـاة اليوميـة فيشـع منهـا نـور الجـمال اللطيـف الممـزوج بالوقـار والبهـاء.. ويخيـل للناظـر أنـه لم يعـد عـلى وجـه البسـيطة مـن شر وأن الخـير قـد شـمل المكان..أمـا مـن الناحيـة اليـسرى حـين تنتهـي القريـة فتـتراءى الحقـول أمـام الـرائي حتـى نهايـة الأفـق، وكل شيء فيهـا هـادئ سـاكن.. ونـور القمـر يتدفـق في المـكان بجـلال. وعـاد (إيفـان إيفانتـش) يكـرر هـو الآخر:نعـم، هـذا صحيـح، ثـم أليـس عيشـنا في المدينـة في غرفنـا الضيقـة المتلاصقـة وانكبابنـا عـلى كتابـة تلـك الأوراق التـي لا جـدوى منهـا وعكوفنـا عـلى لعـب الـورق، أليـس ذلـك هـو نـوع أخـر مـن العيـش في القواقـع؟ كذلـك أليسـت حياتنـا بـين أولئـك الأجـلاف الكسـالى الذيـن لا يكفـون عن التشـاحن ومـع هـؤلاء النسـاء الحمقـاوات خاويـات العقـول، وإنفاقنـا جـل أوقاتنـا في قـول الهـراء

وسماع الهراء، أليس هذا هو أيضًا أحد أنواع القواقع التي تحيط بنفوسنا؟ إن في أمكاني أنا الآخر أن أحكي لك قصة لها مغزاها، إذا راق لك أن تسمع واحدة..

قاطعه (بوركين):أعتقد أن وقت النوم قد حان.. فاحتفظ بها للغد.

وعادا معًا إلى المخزن واضجعا فوق كومة التبن، وبدأ النوم يداعب جفونهما حين سمع وقع أقدام خفيفة في الخارج، فقد كان هناك شخص ما يسير على مقربة من المخزن. كان يسير بضع خطوات ثم يتوقف ثم يستأنف المسير وهكذا انطلقت الكلاب تعوي.. فقال (بوركين):إنها (مافرا).

ثم توقف صوت الخطوات، فقال (إيفان ايفانتش) وهو يستدير على جانبه:هكذا يضطر الإنسان إلى مشاهدة نفسه وهو يتابع الأكاذيب، ثم يرمى بالغفلة حين يحتمل كل هذه الأكاذيب! كما تقضي عليه الظروف بأن يتقبل الذل والإهانة دون أن يتفوه بكلمة أو يتفق مع الأخيار الأحرار، بل ويكذب على نفسه ويغالطها وكل ذلك من أجل كسرة خبز أو وظيفة حقيرة، تبًا لها من حياة!

فقال المدرس:هذا موضوع أخر (إيفان أيفانتش).. دعنا ننم!

ولم تمض عشر دقائق حتى كان (بوركين) قد غرق في النوم. أما (إيفانتش) فقد راح يتنهد ويسعل حتى أشرق النهار، فنهض وغادر المخزن وجلس القرفصاء أمام الباب، ثم أشعل غليونه.

الإذعان الأخير
جابرييل جارسيا ماركيز

إنها هى ذات الأصوات! تلك الضوضاء مرة أخرى، ذلك الضجيج البارد، الحار المتعامد الذى أعتاد عليه وصار يعرفه جيدًا، لكنه يشعر به الآن مؤلمًا ومزعجًا، كأنه فقد تعوُّده عليه أثناء الليل.

كانت الأصوات تطن داخل رأسه الفارغ، سخيفة، مُره. استيقظت خلية نحل بأكملها داخل الجدران الأربعة لجمجته، كانت تعمل وتتزايد في دوائر ولفّات حلزونية متوالية، كانت تضربه من الداخل، وتجعل أصل عموده الفقري يرتجف بشكل لا ينسجم مع إيقاع جسمه. ثمة شيء ما لم يعد متكيفًا مع جسده، شيء ما اختل في مادة بناءه الإنساني، هذا الشيء كان يعمل بطريقة طبيعية في أوقات أخرى، وصار الآن يواصل الدق على رأسه من الداخل، طرقات جافة، حادة، لاذعة، تصدر عن سلاميات كف خالية من اللحم، كيد هيكل عظمى، جعلته يستعيد كل مشاعر الحياة من جديد.

استولى عليه دافع حيوانى أخبره أن يزمّ قبضيته، ويعصر صدغيه اللذين أنبتا عروقًا بنفسجية وقرمزية بالضغط المتواصل الذى سببته آلامه القاسية. كان يتمنى لو أنه استطاع أن يقبض على الضوضاء، التي كانت تمزق اللحظة بنصل خنجرها الحاد، بين راحتيه.

منظر القطة الأليفة وفكرة أن تنطلق بفراءها اللزج جعلت عضلاته تنقبض، وتخيل نفسه يعدو خلفها ولا يستطيع الامساك بها، لكنه كان مستعدًا لذلك باتباع استراتيجية أتقنها جيدًا وعلى استعداد لأن يحتفظ بها لأطول وقت ممكن، وبشكل فعّال مُحكم بكل ما لديه من قوة اليأس.

لن يسمح لها أن تدخل أذنه مرة ثانية، لتخرج من فمه، عبر عينيه وكل فتحة من فتحاته. دارت عيناه في محجريهما حين عبرت الأصوات خلالهما ثم بقيت عمياء أمام هيام الأصوات في أعماق الظلام المتناثر. لن يسمح لها أن تكسر بلّور نجومها الثلجية المشذب على حائط جمجته الداخلى. ذلك ما كانت تشبهه تلك الأصوات: أبدية، كطفل يضرب رأسه في جدار صلب، ككل اللطمات التي تصطدم بموجودات الطبيعة الصلبة لكن لو استطاع الإحاطة بها وتقييدها وعزلها، لتوقفت عن تعذيبه في الحال.

اذهب واقطع ذلك الشكل المتحوِّر من ظلك، اقبض عليه، اسحقه، نعم، مرة أخرى وللأبد. الق به على الرصيف وادهسه بحذائك حتى يستطيع الاعتراف بأنه قد قتل الأصوات التي كانت تعذبه، وتدفعه إلى الجنون، والتي تتمدد الآن على الأرض مثل أى شيء يحتضر.

لكـن كان مـن المسـتحيل بالنسـبة لي أن أضغـط عـلى صدغيـه، إذ قـصرت ذراعـاه وأصبحتـا طـرفي قـزم: أذرع صغـيرة، سـمينة، ممتلئـة. حـاول أن يهـز رأسـه فظهـر صـدى الأصـوات أكـثر قـوة داخـل جـدران جمجتـه، شـعر بهـا ثقيلـة تطيـع قوانـين الجاذبيـة، كانـت الأصـوات ثقيلـة وقاسـية إلى حـد أنـه تمنـى لـو قبـض عليهـا حتـى يدمرهـا، صـار لديـه الإحسـاس أنـه قـد قـام بنـزع الورقـات عـن زهـرة مـن رصـاص.

نفـس ضجيـج الأصـوات سـمعه مـن قبـل في أوقـات أخـرى، فمثـلًا، في اليـوم الـذي مـات فيـه للمـرة الأولى، عندمـا شـاهد الجثـة، اكتشـف أنهـا جثتـه هـو. نظـر إليهـا، تأملهـا ولمسـها. شـعر أنـه غـير قابـل للمـس. لايشـغل حيِّـزًا مـن الفـراغ. غـير موجـود. كان قـد انتهـى بـه إلى الحـال إلى أن يكـون جثـة، وكان بإمكانـه بالفعـل أن يشـعر بمـرور الوقـت في جسـمه السـقيم العليـل.

حتـى الجـو داخـل المنـزل صـار قاسـيًا كأنـه مـلىء بالأسـمنت، وفى وسـط ذلـك القالـب -حيـث ظلـت الاشـياء كـما كانـت حـين كان المحيـط لا يـزال هـواء- كان هـو هنـاك موضوعًـا بعنايـة داخـل تابـوت مـن أسـمنت شـفاف لكنـه صلـب. وحتـي في ذلـك الوقـت كانـت الأصـوات تسـكن رأسـه، وكان الشـعور بباطـن قدميـه بعيـدًا وبـاردًا هنـاك في الطـرف القـصي مـن التابـوت حيـث وضعـوا وسـادة، لأن الصنـدوق كان لا يـزال كبـيرًا جـدًا وكان عليهـم أن يضبطـوه. أن يجعلـوا الجسـد الميـت في ثوبـه الجديـد والأخـير مناسـبًا،غطوه بالبيـاض وربطـوا منديـلًا حـول فكّـه، جذّابًـا بشـكل مميـت.

كان التابـوت جاهـزًا للدفـن، وعـلى الرغـم مـن ذلـك كان يعـرف أنـه لم يكـن ميتًـا. وأنـه لـو حـاول النهـوض لاسـتطاع ذلـك بمنتهـى اليُـسر، روحيًـا عـلى الأقـل. لكـن المسـألة لم تكـن تسـتحق المشـقة. مـن الأسـهل أن يـدع نفسـه تمـوت هنـا. تمـوت مـن المـوت الـذي كان مرضـه. كان قـد مـر بعـض الوقـت عندمـا قـال الطبيـب لأمـه بخشونة:سـيدتى طفلـك يشـكو مـن مـرض عضـال، إنـه ميـت عـلى الرغـم مـن ذلـك. لكننـا سـوف نفعـل كل مـا لدينـا للإحتفـاظ بـه حيًـا بعـد المـوت. سـوف ننجـح في جعـل وظائفـه العضويـة تسـتمر خـلال نظـام معقـد مـن التغذيـة الأتوماتيكيـة. الوظائـف الحركيـة فقـط هـي التـي سـتختلف، الحركـة التلقائيـة، سـوف نراقـب حياتـه مـن خـلال نمـوه، والتـي أيضًـا، سـوف تسـتمر بشـكل طبيعـي. بإختصـار إنـه (مـوت حـى)، مـوت حقيقـى...

يذكـر الكلـمات بوضـوح تـام، لكنـه ذهنـه لا يـزال مشوشًـا، ربمـا لم يسـمعها عـلى الإطـلاق، وإنمـا كانـت مـن وحـي خيالـه حـين أصابتـه الحمـى خـلال أزمـة التيفـود التـي أصابتـه.

بينـما كان سابحًـا في الهذيـان عندمـا قـرأ حكايـات التحنيـط عنـد الفراعنـة، شـعر وكأنـه بطـل الحكايـة عندمـا ارتفعـت درجـة حرارتـه، ظهـر في حياتـه نـوع مـن الفـراغ فأصبـح غـير قـادر عـلى التمييـز، أو عـلى التذكـر أي الأحـداث كانـت جـزءًا مـن الهلوسـة، وأيهـا كان جـزءًا مـن واقـع حياتـه.

ذلـك مـا بـذر الشـك في نفسـه الآن. ربمـا لم يذكـر الطبيـب تلـك العبـارة الغريبـة (المـوت الحـى) أبـدًا، فقـد كانـت غـير منطقيـة عـلى الإطـلاق، متناقضـة، وببسـاطة متعاكسـة. وجعلتـه يشـك الآن بأنـه فعـلًا ميـت. وأنـه كان كذلـك منـذ ثمانيـة عـشر عامًـا. هـذا هـو مـا حـدث في ذلـك الحـين، عندمـا كان عمـره سـبع سـنوات، حـين كانـت أمـه بتجهيـز كفـن صغـير لـه وتابـوت مـن خشـب أخـضر، كفـن طفـل، لكـن الطبيـب أمرهـم بصنـع صنـدوق أكـبر، صنـدوق لشـخص بالـغ، لأن ذلـك الآخـر قـد يـؤي إلى ضمـور النمـو، وقـد ينتـج عـن ذلـك شـخص ميـت مشـوّه أو أن يتحـول الشـخص الحـي إلى مخلـوق غـير طبيعـي. أو أن توقـف النمـو قـد يعيـق إحساسـه بالتحسُّـن. وبنـاءًا عـلى هـذه التعليـمات، طلبـت أمـه تابوتًـا أكـبر وكفـن لجثـة بالـغ ووضعـت ثـلاث وسـادات عنـد قدميـه ليناسـب مقاسـه. وبسرعـة بـدأ ينمـو داخـل الكفـن والتابـوت! بسرعة لدرجـة أنهـم قـد وجـدوا أنـه لابـد مـن إزالـة بعـض الحشـو مـن الوسـادة الأخـيرة كل عـام حتـى يمنحـوه مسـاحة مناسـبة. وعـلى هـذا النحـو قـضى نصـف عمـره. ثمانيـة عـشرا عامًـا، أصبـح في الخامسـة والعشريـن الآن، وقـد وصـل إلى طولـه الطبيعـي والنهـائي، إذ كان الطبيـب والنجـار قـد أخطئـا في حسـاباتهما، وصنعـا تابوتـا أطـول بقدمـين ظنًـا منهـما إنـه سـيرث قامـة أبيـه العملاقـة. لكـن ذلـك لم يحـدث. الـشيء الوحيـد الـذي ورثـه منـه هـو لحيـة زرقـاء كثّـه تعـودت أمـه عـلى تشـذيبها ليبـدو شـكله وقـورًا داخـل تابوتـه، لكـن تلـك اللحيـة كانـت تسـبب لـه الرغبـة في الحـك في الأيـام الحـارة.

أمـا الـذي كان يقلقـه أكـثر مـن الأصـوات، فهـو الفـئران!.. لم يكـن هنـاك مـا يثـير قلقـه في هـذا العـالم حتـى عندمـا كان طفلـلًا، لكـن الفـئران اسـتطاعت ذلـك. وكانـت تلـك الحيوانـات المقـززة البشـعة تنجـذب إلى رائحـة الشـموع التـي تنصهـر تحـت قدميـه. كانـت قـد قرضـت ملابسـه بالفعـل، وكان يعـرف أنهـا قريبـة مـن لحمـه وسـوف تبـدأ بقرضـه هـو نفسـه. كان يتخيـل هـذه التفصيـلات. في أحـد الأيـام خمسـة فـئران لامعـة لزجـة تتسـلق إلى الصنـدوق عـبر سـاق المنضـدة وتلتهمـه. وعندمـا تنتبـه أمـه يكـون مـا بقـى منـه عظامًـا: الأنقـاض البـاردة القاسـية.

لم يكـن يخـشى حقًـا أن تلتهمـه الفـئران، مـا كان يقلقـه هـو الرعـب الغريـزي الـذي اعتـاد عليـه نحـو هـذه الكائنـات المقرفـة، ففـي النهايـة بإمكانـه أن يبقـى حيًـا بهيكلـه العظمـي فقـط، لكـن مايجعـل شـعر رأسـه ينتصـب هـو عندمـا يتخيـل تلـك المخلوقـات الزلقـة وهـي تجـرى في أنحـاء جسـده، تدخـل في ثنايـا جلـده وتمـس شـفتيه بحوافرهـا الثلجيـة، أحدهـا اتجـه إلى جفنيـه وحـاول قـرض قرنيتـه عندمـا تسـلق عينيـه، كان كبـيرًا متوحشًـا يحـاول تمزيـق الشـبكية، توقَـع المـوت الجديـد واستسـلم تمامًـا للـدوار.

تذكـر أنـه قـد صـار بالغًـا، كان عمـره خمسـة وعـشرون عامًـا، وهـذا يعنـى أنـه لـن يكـبر أكـثر مـن ذلـك، ملامحـه الصلبـة تحـوَّرت، لكنـه حـين كان سـليمًا لم يكـن باسـتطاعته الـكلام عـن

طفولته. لم تكن له طفولة تذكر، لقد قضاها ميتًا.

وكانت أمه ترعاه باتقان في سنوات ما بين الطفولة والبلوغ. كانت تعتنى بالنظافة الشديدة للتابوت والغرفة بشكل عام، وكانت تقوم بتغيير الزهور في المزهريات بصفة مستمرة، وتفتح النوافذ كل يوم حتى يتجدد هواء الحجرة، كانت تفحص طوله برضا تام في تلك الأيام، حيث تتأكد بعد قياسه بالمازورة أنه قد طال بضع سنتيمترات، كان لديها ذلك الفيض من الأمومة لرؤيته يحيا. وبالرغم من ذلك، كانت تحرص على تجنب وجود الغرباء بالدار، ذلك أن وجود جثة في مسكن عائلة على مر هذه السنوات الطويلة كان بشكل عام غير مقبول ومحاطًا بالغموض. كانت امرأة تتحلى بصفة انكار الذات. إلا أن تفاؤلها راح يقل بسرعة. خلال الأعوام الأخيرة، رآها تنظر إلى المقياس بأسى، طفلها توقف عن النمو، وخلال الأشهر الأخيرة لم يزد طوله سنتيمترًا واحدًا. أيقنت أنها لن تلاحظ علامات الحياة على جثتها الحبيبة. كانت تخشى أن تجده ذات صباح ميتًا بالفعل، ربما لهذا استطاع أن يلاحظ في ذلك اليوم أنها تقترب من الصندوق بتحفظ شديد وتشممت جسده. كانت قد وقعت فريسة للتشاؤم، مما جعلها بعد ذلك تهمل رعايتها له ولم تعد تهتم بأخذ المازورة لقياسه، كانت تعرف أنه لن يكبر أكثر من ذلك. حتى هو نفسه قد عرف أنه قد صار ميتًا بالفعل. عرف ذلك من خلال الهدوء الجميل الذى استعانت له أعضاؤه. كل شىء تغير في وقت محدد. الضربات الدقيقة التي لا يمكن لمخلوق سواه أن يلاحظها اختفت من نبضات قلبه الآن. ثقل غريب أحس به مجذوبًا إلى قوة فعالة واستعادية إلى المواد الأولية في الأرض. وبدت قوة الجاذبية الآن تشده بقوة لا قبل لمخلوق بها. إلا أنه رغم كل ذلك، كان الأمر أكثر راحة، لم يكن بحاجة إلى التنفُّس ليحيا موته. وبطريقة سحرية، وبدون أن يلمس نفسه، هام في خواطره شيئًا فشيئًا. انحنت رأسه ناحية الشمال رأسه ناحية الشمال قليلًا فوق الوسادة الصلبة القاسية. تخيَّل فمه مفتوحًا بسبب شريط البرد الضيق الذي ملأ فمه بالبرد. كان قد تم قطعه بغتة كأنه شجرة عمرها خمسة وعشرون عامًا. ربما حاول أن يغلق فمه، كان المنديل الذي يسند فكه مفكوكًا، لم يكن باستطاعته أن يعدّل من وضعه، أن يرتب من هيئته، أو حتى أن يتخذ وضعًا ليظهر في صورة جثة محترمة. أعضاؤه، عضلاته، كل جزء في جسده لم يعد يسيب بدقه كما ينبغى إلى أشارات الجهاز العصبى كما سبق.

لم يعد كما كان قبل ثمانية عشر عاما مضت، طفلًا طبيعيًا بإستطاعته أن يتحرّك كما يريد. أصبح يحس بذراعيه الساقطين إلى الأبد، ملتصقين بجوانب التابوت المبطنة. بطنه جافة مثل قشرة الجوز، وأسفل منها كانت قدماه، صحيحتان،سليمتان، متممان لبناءه الجسماني الرائع.

كان جسده يرقد بتثاقل، إنما باستكانة، ودون أي استياء أو ضيق، كما لو أن العالم قد توقف فجأة، ولم يعد هناك من يكسر الصمت. كما لو أن كل رئات الأرض قد توقفت عن

التنفس حتى لا تعكر سكون الهواء الراكد البارد. كان يشعر بالحبور، مثل طفل ينام على ظهره فوق عشب مبتل وكثيف، يتأمَّل سحابة بيضاء تبتعد في سماء الأصيل. كان سعيدًا، بالرغم من أنه يعرف أنه ميت، وأنه يرقد إلى الأبد في الصندوق المبطن بحرير اصطناعي. كان يتمتع بصفاء بصيرة عظيم. لم يعد كما كان في البداية، بعد موته الأول، حيث شعر بأنه محشور، فظ، مخنوق. الشموع الأربعة التي وضعت حوله، وكانت تتبدل كل ثلاثة أشهر، بدأت تُستنفد من جديد؛ وبالتحديد عندما صارت ضرورة لا بد منها. أحس بقرب نداوة أزهار النرجس والقرنفل. لكن ذلك الواقع اللعين كله لم يعد يسبب له أى قلق؛ بل على العكس، كان سعيدًا، وحيدًا مع وحدته. هل سيشعر بالخوف بعد ذلك؟

من يدري. كان من الصعب التفكير في اللحظة التي ستضرب بها المطرقةُ المساميرَ لتدخل في الخشب الأخضر ويطقطق التابوت تحت الأمل المؤكد بأن يتحول إلى جذع شجرة جديد. جسده المشدود الآن بقوة أكبر تحت أمر جاذبية الأرض، سيوسد في حفرة رطبة، طينية وطرية؛ وهناك في الأعلى، فوق أربعة أمتار مكعبة، ستأخذ بالخمود آخر ضربات عمال الدفن. لا، لن يشعر هناك بالجزع. لأن ذلك سيكون استمرارًا لموته.. الاستمرار الأكثر طبيعية لحالته الجديدة. لن تبقى درجة حرارة واحدة في جسده، وسيكون نخاعه قد تجمَّد إلى الأبد، وستتغلغل بعض نجوم الثلج في قلب عظامه. كم سيكون جيدًا اعتياده على حياته الجديدة كميت! وفي أحد الأيام، بالرغم من ذلك، سيشعر أن درعه المتين سينهار؛ وعندما يحاول ذِكر ومراجعة كل عضو من أعضائه، لن يجد أيًا منها. سيشعر أنه بلا شكل محدد ومضبوط، وسيعرف مستسلمًا أنه فقد تكوينه الجسدي ذا الخمسة والعشرين عامًا، وأنه تحول إلى حفنة تراب بلا شكل، وبلا أبعاد هندسية، وبلا أي تكوين.

في تراب الموت التوراتي. ربما سيشعر حينذاك بحنين عابر، حنين إلى عدم كونه جثة رسمية، ذات كينونة جسدية، وإنما جثة متخيلة، تجريدية، مركَّبة فقط في الذاكرة المضببة لأقربائه المحيطين. وسيعرف عندئذ أنه سيصعد عبر أوعية الامتصاص الشعرية الدقيقة لشجرة تفاح، وسيستيقظ عندما يقضمه جوع طفل في صباح خريفي. وعندئذ سيعرف، وهذا سيُشعره بالأسى، أنه وحده فقط؛ إذ أنه لم يعد ولو مجرد ميت عادي، جثة عادية.

هكذا قضى الليلة الأخيرة سعيدًا، لا يرافق وحدته أحد سوى جثته. لكنه مع النهار الجديد، لدى رحيل آخر خيوط أشعة الشمس الفاترة من النافذة المفتوحة، أحس أن جلده يستعيد الطراوة. تفحص الوضع لحظة، وهو ساكن ومتصلب. ترك الهواء يمر فوق جسده. لم يخامره أي شك: هناك كانت (الرائحة). فخلال الليل، كانت الحالة الرمِّية قد بدأت تفعل فعلها. لقد بدأ جسده بالإنتان، بالتفسخ، بالتعفن، مثل أجساد كل الموتى. (الرائحة) هي، دون ريب، رائحة لحم نتن مؤكدة، تختفي وتعود للظهور بقوة أكثر نفاذًا. لقد تفسخ

جسده بحرارة الليلة الفائتة. أجل. إنه يتفسخ. بعد ساعات قليلة ستأتى أمه لتبدل الزهور، ولسوف تصفعها، من العتبة، رائحة اللحم النتن. وعندئذ سيأخذونه لينام موته الثانى بين أموات آخرين.

لكن الخوف طعنه غدرًا، فجأة، في الظُّهر. الخوف! يا للكلمة العميقة، شديدة المغزى! إنه يشعر الآن بالخوف، بخوف (جسدي)، حقيقي. ما هو السبب؟ إنه يفهم ذلك تمامًا، ولحم يقشعر: ربما لا يكون ميتًا. لقد وضعوه هنا، في هذا الصندوق الذي يشعر الآن أنه طري، مبطن، ومريح بصورة رهيبة؛ وفتح له شبح الخوف نافذة الواقع: سيدفنونه حيًا!

لا يمكن أن يكون ميتًا، لأنه يعي كل شي تمامًا، يعي الحياة التي تدور من حوله، مدمدمة. ورائحة أزهار الهيليوتروبو الفاترة التي تنفذ من خلال النافذة المفتوحة وتختلط ب(الرائحة) الأخرى. إنه يعي تمامًا سقوط الماء البطيء في المستنقع. وصرير الجدجد الذي ظل في الركن ومازال يواصل الغناء، معتقدًا أن الفجر لا يزال مستمرًا.

كل شيء ينكر عليه موته. كل شيء ما عدا (الرائحة). ولكن، كيف له أن يعرف أن هذه الرائحة هي رائحته؟ ربما تكون أمه قد نسيت، البارحة، أن تبدل ماء المزهريات، فبدأت سيقان الزهور فيها بالتعفن. وربما يكون الفأر الذي سحبه الهر إلى الحجرة قد تفسخ بفعل الحر. لا. لا يمكن (للرائحة) أن تكون من بدنه هو. منذ لحظات كان سعيدًا بموته، لأنه اعتقد أنه ميت. فالميت يستطيع أن يكون سعيدًا بوضعه الذي لا خلاص منه ولا مفر. أما الحي، فلا يمكنه الإذعان لأن يُدفن حيًا. ومع ذلك، أعضاؤه لا تستجيب لندائه. وهو لا يستطيع التعبير عن نفسه، وهذا هو ما يسبب له الرعب؛ أكبر رعب في حياته وفي موته. سيدفنونه حيًا. يمكنه أن يشعر. أن يعي اللحظة التي يسمرون فيها الصندوق. سيشعر بخواء الجسد المحمول على أكتاف الأصدقاء، بينما همه وغمه ويأسه وأساه يتزايد مع كل خطوة يخطوها موكب الجنازة. سوف يحاول، بلا جدوى، النهوض، والنداء بكل قواه الخائرة الفاترة، والطرق من داخل التابوت المظلم والضيق كي يعرفوا أنه كان مازال حيًا. سيكون كل ذلك بلا جدوى، لأن أعضاءه لن تستجيب لنداء جهازه العصبي العاجل والأخير.

هنا سمعَ جلبةً في الحجرة المجاورة. أيكون نائمًا؟ أتكون كل هذه الحياة كميتٍ مجرد كابوس؟ لكن قرقعة الأواني لم تستمر. أحزنه ذلك، وربما شعر بالاستياء. كان يتمنى لو أن أواني الدنيا كلها تتكسر بضربة واحدة، هناك إلى جواره، حتى يستيقظ بفعل سبب خارجي، بعد أن أخفقت إرادته في ذلك. ولكن لا. لم يكن حلمًا. وهو واثق من أنه لو كان حلمًا لما أخفقت المحاولة الأخيرة في العودة إلى الواقع. هو لن يستيقظ أبدًا بعد اليوم. إنه يشعر بنعومة التابوت وطراوته، وقد عادت (الرائحة) الآن بقوة أكبر، بقوة صار يشك معها في أن تكون رائحته. ودَّ لو أنه يرى أقرباءه قبل أن يبدأ في التفسخ، وقبل أن يجعلهم منظر اللحم

النتن يشعرون بالقرف. يمكن للجيران أن يهربوا مبتعدين عن التابوت وهم يضعون مناديل على أفواههم. وسيبصقون. لا. ليس هذا. من الأفضل أن يدفنوه. من الأفضل الخروج من (هذا الوضع) بأسرع ما يمكن. هو نفسه يريد التخلص الآن من جثته. إنه يعرف الآن أنه كان ميتًا حقًا، أو أنه حي بصورة لا يمكن التعرف عليها. لا فرق. لكن (الرائحة) تتواصل بإلحاح على كل حال.

سوف ينصت بإذعان إلى آخر الصلوات، وآخر التراتيل اللاتينية يتلوها بصورة خاطئة مساعدو الكاهن. وسينفذ حتى عظامه برد المقبرة الممتلئ بالتراب والعظام، وربما تتبدد قليلًا هذه (الرائحة). وربما، من يدري! يُخرجه إلحاح اللحظة الوشيكة من هذا السبات. عندما يشعر أنه يسبح في عرقه، في مياه لزجة وكثيفة، مثلما كان يسبح قبل مولده في رحم أمه؛ فربما يكون عندئذ حيًا.

لكنه سيكون آنذاك مذعنًا تمامًا للموت، ولعله يموت عندئذ من الإذعان!

فك الحصار
ج. ج. ماركيز

بمجرد أن كان ذلك في إمكانه نهض أوريليو أسكوفار، طبيب أسنان يعمل بلا شهادة أو ترخيص، مبكر جدا فجر الاثنين، يوم دافئ وغير ممطر هو. فتح عيادته عند الساعة السادسة. تناول بضعة أسنان اصطناعية، مازالت موضوعة في قوالب السيراميك الرخيص، من علبة زجاجية، ووضع مجموعة من الأدوات على المنضدة مرتبا إياها حسب حجمها كما لو كان يعدها للعرض. كان يرتدي قميصا بلا ياقة مغلقا عند العنق بزر ذهبي، وبنطلونا بحمالات. وكان منتصب القامة، نحيفا، تماما كما هي حالة الأصم، لا ينسجم مظهره مع الموقف أبدا!

لم يعد يحلم أو يفكر، لا في الشبان المتأنقون، ولا أوراق اليانصيب، ولا الجوائز الكبرى أو الجوائز الصغرى – لاشيء على الإطلاق، لم يعد يحلم. وعندما انتهى من ترتيب الأدوات على المنضدة، سحب المثقاب ناحية كرسي المعالجة وجلس ليباشر في صقل الأسنان الاصطناعية. وكان يبدو شارد البال كما فطره الله، لا يفكر في تفاصيل العمل الذي يؤديه بدقة وثبات متواصلين، وكانت قدمه تظل تضغط على عتلة المثقاب حتى عندما تنتفي حاجته إلى الآلة، منتشيا قليلا ناسيا الهموم التي تتصارع في صدره.

كانت الليلة السابقة من الليالي الهائنة التي يهجع فيها الناس مبكرين، حتى الموسرون منهم وأصحاب المعاطف الثقيلة. بعد الثامنة توقف لبرهة كي ينظر إلى السماء من خلال النافذة فرأى صقرين منشغلين في تجفيف نفسيهما تحت الشمس على سطح البيت المجاور. عاد إلى عمله وهو يقول لنفسه بأن المطر سيسقط قبل موعد الغداء.

-بابا!

صوت ابنه الحاد والمفاجئ شتت تركيزه؛ فصاح:

-ماذا؟

-العمدة يريد أن يعرف إذا كنت ستخلع له ضرسه.

-قل له بأنني غير موجود!

يحتدم الصراع في صدره ويطول الجدال أو يقصر وترتفع فيه الأصوات أو تنخفض ثم ينتهي كما ينتهي. كان منشغلا بصقل سن ذهبية. حملها أمامه وراح يتفحصها بعينين نصف مغلقتين. عاد ابنه ذو الأحد عشر عاما يصرخ مجددا من غرفة الانتظار.

-يقول بأنك موجود، ويقول كذلك إنه يستطيع أن يسمعك!

ألف لعنة! ظل الطبيب منشغلا بتفحص السن. وعندما أنجز عمله وأخذ السن شكله النهائي وضعه على الطاولة وقال:

-حسنا، هذا أفضل.

شَغَّل المثقاب ثانية، وأخذ بضعة قوالب من علبة كارتونية حيث يحتفظ بالأشياء التي تحتاج إلى إتمام، وباشر بعملية التعديل والصقل.

-بابا!

أجابه مستخدما نفس التعبير القانط:

-ماذا تريد يا بابا؟

-يقول بأنك إذا لم تخلع له سنه فسوف يضربك بالنار!

بهدوء تام، وبحركة شديدة الأناقة أوقف المثقاب، دفعه بعيدا عن الكرسي، وسحب الدرج السفلي للطاولة، وكان هنالك مسدس. قال:

-حسنا، قل له أن يأتي ويطلق عليّ النار!

دفع الكرسي بمواجهة الباب، وكانت يده تستقر على حافة الدرج. لاح العمدة عند الباب. كان قد حلق الجانب الأيسر من وجهه، لكن الجانب الآخر كان متورما وبلحية لم تُحلق منذ خمسة أيام. رأى الطبيب في عينيه سكرات من الألم والأرق والتأوهات، فأغلق الدرج بأطراف أصابعه وقال برفق:

-اجلس!

-صباح الخير.

أجابه الطبيب:

-صباح النور.

تنفس الطبيب فخُيِّل إليه أن الهواء ثقيل كثيف ليس من الخفة ولا السلامة بحيث ينفذ إلى الصدر بسهولة. وبينما انشغل بتسخين أدواته وتعقيمها، أسند العمدة رأسه على مسند المقعد الخلفي فشعر بشيء من الارتياح بينما كانت أنفاسه تطلق بخارا في الهواء. كانت عيادة بائسة: مقعد خشبي قديم، مثقاب يعمل بدواسة القدم، وعلبة زجاجية تحوي قناني السيراميك. وأمام الجالس على المقعد نافذة تغطيها ستارة من القماش. عندما شعر العمدة باقتراب الطبيب شبك ساقيه وفتح فمه.

أدار أسكوفار رأس العمدة باتجاه الضوء. وبعد أن تفحَّص السن الملتهبة، أغلق فك العمدة بحركة حذرة، ثم قال:

-سأقلعه ولكن من دون مخدر.

-لأي سبب؟

-لأنه لديك خُرّاج.

نظر العمدة في عيني الطبيب. قال أخيرا وهو يحاول أن يتبسم:

-طيب.

ولم يرد الطبيب على ابتسامته، بل جلب إناء الأدوات المعقمة إلى المنضدة وراح يخرجها من الماء المغلي بملقط صغير بارد، دون أن يبدو عليه بأنه في عجلة من أمره. دفع المبصقة بطرف حذائه، وذهب ليغسل يديه في المغسلة. قام بكل ذلك دون أن ينظر إلى العمدة، لكن العمدة لم يرفع عينيه عنه. كان ضرس عقل سفلي. فتح الطبيب قدميه وأمسك بالسن بالكُلّاب الساخن. تشبث العمدة بذراعي المقعد، واضعا كل قوته في قدميه. شعر عندها بفجوة من الصقيع في كليتيه، لكنه لم يصدر صوتا. حرك الطبيب رسغه فقط. ومن دون حقد، وبلهجة لاذعة قال:

-الآن ستدفع لموتانا العشرون!

شعر العمدة بانسحاق العظام في فكه، وامتلأت عيناه بالدموع. لكنه لم يتنفس حتى أدرك بأن الضرس قد أُقتلع، ثم رآه من خلال دموعه. في تلك اللحظة كان عاجزا تماما عن فهم عذاب الليالي الخمس الفائتة. ثم أنه انحنى على المبصقة، لاهثا يتصبب منه العرق. فتح أزرار سترته الضيقة ومد يدا إلى جيب بنطلونه ليخرج المنديل. ناوله الطبيب قطعة قماش نظيفة. قال له:

-جفف دموعك.

كان العمدة يرتعش وهو يجفف دموعه. وأثناء انشغاله بغسل يديه، رأى أسكوفار السقف المتداعي وشبكة العنكبوت العتيقة وبيض العنكبوت المغبَّر والحشرات الميتة في المصيدة. عاد الطبيب وهو يجفف يديه. قال للعمدة:

-خذ غرغرة ماء بالملح، ثم اذهب إلى الفراش رأسا.

نهض العمدة واقفا. أدى تحية وداع عسكرية ثم تحرك باتجاه الباب وهو يجر ساقيه جرا، ودون أن يغلق أزرار سترته الضيقة، قال:

-ابعث بالفاتورة.

بذات الهدوء والشجاعة رد:

-لمن؟ لك أم للبلدة؟

لم ينظر العمدة نحوه. لكنه أغلق الباب وراءه وهو يقول:

-سيّان!

أحلام اليقظة
جابرييل جارسيا ماركيز

بشرتها ناعمة بلون الخبز؛ عيناها مثل اللوز الأخضر وشعرها الأسود مسدول على كتفيها؛ كانت فاتنة وآية في البهاء والروعة، رشيقة القوام، ذات هيئة إندونيسية، كما لو أنها قادمة من بلاد الأنديز. انسجام ما ترتديه ينم عن ذوق رفيع لا جدال فيه؛ سترتها مصنوعة من فراء المنك، بلوزتها منسوجة من الحرير الخالص بأزهار متناسقة، سروالها من قماش طبيعي مع حذاء ذي حزام ضيق بلون نبات ست الحسن.

عندما لمحتها عيناي؛ خطر لي أن هذه هي أجمل امرأة شاهدتها في حياتي على الإطلاق؛ وهي تمر أمامي بخطوات رهيفة كأنها لبؤة حذرة، وأنا واقف في الصف أمام مكتب التسجيل لدفع الأمتعة بمطار شارل ديجول بباريس، استعدادا لرحلتي إلى نيويورك. لقد كان ظهورا خارقا لملاك فائق الجمال وللحظات فقط بحيث سرعان ما اختفى في زحمة صالة المطار.

كان الثلج يتساقط منذ الليلة الماضية، بينما الساعة الآن تدور في العاشرة صباحا، وكانت حركة المرور أبطأ من المعتاد في شوارع باريس، بل هي أكثر بطئا على الطرق السريعة حيث اصطفت الشاحنات الكبيرة على جانب الطريق، بينما احتشدت السيارات واختلط دخانها بالثلج؛ أمّا بداخل صالة المطار فكان الجو لا يزال بديعا كأنه الربيع.

انتظرت دوري في الطابور، خلف عجوز هولندية أمضت ساعة كاملة تثرثر عن حقائبها الإحدى عشر؛ وبدأت أتململ عندما وقعت عيناي على ذات الحسن والجمال الذي بهرني وقطع عليّ أنفاسي وأنقذني من ذلك الصخب، ولم أدر بعدها كيف انتهى فيلم المرأة الهولندية وحقائبها؛ ولم أنزل من تحليقي في السحاب إلاّ على صوت مضيفة المكتب وهي تعاتبني عن شرود ذهني في عالم أحلام اليقظة؛ بل وبادرتها ملتمسا عذرها بالسؤال إن كانت تؤمن بالحب من أوّل نظرة. فردّت عليّ دون أن تحوّل عينيها من شاشة الكمبيوتر:

-طبعا، أمّا بقية الأصناف فهي مستحيلة!

ثمّ سألتني إن كنت أُفضّل مقعدا في قاعة المدخنين أو عكس ذلك. لكني رددت عليها بلهجة تهجّم قصدت بها السيّدة الهولندية:

-لا يهم، ما دام أنّني لن أجاور الإحدى عشر حقيبة!

تقبّلت الدعابة بصدر رحب، ومررت على شفتيها بسمة تجارية، ثمّ قالت لي دون أن تفارق عيناها الشاشة لحظة:

-اختر أحد الأرقام التالية؛ ثلاثة، أربعة أو سبعة.

أجبتها بسرعة:

-أربعة.

قد كشفت ابتسامتها عن بهجة وانتشاء:

-منذ خمسة عشر عاما وأنا أعمل في هذا المكان، ما رأيت أحدا قبلك اختار غير الرقم سبعة. الكل يختار رقم سبعة.

كتبت رقم المقعد على بطاقة الركوب، ثم أرجعتها إليّ مع بقية الوثائق. نظرت إليّ لأوّل مرة بعينين بلون العنب أغدقتا عليّ عزاء وشفقة، وخفّفتا من حُرقتي واللوعة التي سرت في باطني ريثما يظهر الجمال الفاتن والسحر الخلّاب مرة أخرى. وفي هذه اللحظة بالذات، أخبرتني أنّ المطار قد أغلق للتو في وجه الملاحة، وأنّ كلّ الرحلات قد أجّلت إلى مواعيد لاحقة.

-إلى متى يستمر هذا التأجيل؟

ردّت عليّ وهي تبتسم هازة كتفيها:

-الله أعلم.

ثم أنها أردفت:

-لقد أذاعوا هذا الصباح بأنّ هذه العاصفة هي الأعنف خلال العام كلّه.

أنت مخطئة يا عزيزتي؛ إنها عاصفة القرن؛ إلاّ أنّ الجو ظلّ ربيعيا في قاعة الانتظار لرُكّاب الدرجة الأولى، ويمكنك أن تلاحظ وجود ورود حقيقية لازالت حيّة في إصّيصاتها، وحتى الموسيقى المنبعثة تضفي نعومة وهدوءا تماما كما تصوّرها مبدعوها؛ ثمّ فجأة قرّرت في نفسي أنّ هذه الظروف تمثّل ملاذا مناسبا للجمال الفاتن، وكذلك رحت أبحث عنها في قاعات الانتظار الأخرى هائما تائها ولهانا وغير آبه بما قد أسبّبه من لفت أنظار الجمهور إليّ.

كان معظم المنتظرين أشخاصا من الحياة الواقعية، يقرؤون صحفا مطبوعة بالإنجليزية، بينما كانت زوجاتهم يفكرن في رجال آخرين وهن يتأمّلن بشرود من خلال زجاج النوافذ الطائرات الجامدة في الثلج وإلى المصانع الخامدة المتبلِّدة والحقول الواسعة التي حطّمها ضرغام جائع.

حلّ منتصف النهار فشغلت كل أماكن الجلوس وارتفعت درجة حرارة القاعة، وصارت غير محتملة إلى درجة أنّني غادرت لأستنشق جرعة من الهواء المنعش وبالخارج شاهدت

منظرا غير عادي؛ لقد تجمهر كل أصناف البشر داخل صالات الانتظار، ومنهم من قبع في الأبهاء والأروقة وعلى المدرّجات شحيحة التهوية، ومنهم من ألقى بنفسه على الأرض رفقة الحيوانات الأليفة والأمتعة والأطفال. وانقطعت الاتصالات مع المدينة وبات القصر البلاستيكي الشفاف أشبه بسفينة فضائية ضخمة تركوها قابعة على الأرض في عين العاصفة. ولم يفارق ذهني التفكير في أن الجمال الفاتن يقبع في مكان ما وسط هذا الحشد المدجّن الأليف المروّض البليد، وألهمني ذلك شجاعة وسلوانا لأظلّ منتظرا ظهور السحر الخلّاب.

آن أوان الغذاء وحينها أدركنا أنّ حالنا أضحى شبيها بمن تحطّمت سفينتهم على صخرة في البحر، ولاحت الطوابير غير منتهيّة خارج مطاعم المطار السبعة، تمتد إلى الأبد خارج المقاهي والحانات؛ وفي أقلّ من ثلاث ساعات أوصدت أبوابها لأنّه لم يبق بها شيء قابل للاستهلاك الآدمي بعد أتوا على كل شيء. وحتى الأطفال، الذين ظهروا في لحظة ما فجأة وكأنّهم كل أطفال العالم قد اجتمعوا هنا، شرعوا في البكاء دفعة واحدة معًا. ثمّ ما لبثت أن انبعثت رائحة القطيع من الجمهور الغفير؛ لقد كان نداء الطبيعة.

وفي تلك الزحمة، لم أستطع الحصول سوى على كأسين من مُثلّجات الفانيليا من محلّ بيع للأطفال. لقد كان النادلون يضعون الكراسي على الطاولات عندما غادر أصحاب المحل، في حين كنت أتناول وجبتي ببطء عند الكاونتر وأنا أتأمّل نفسي في المرآة المقابلة مع آخر كأس وآخر ملعقة صغيرة، ولكن التفكير لم ينقطع لحظة في الجمال المُذهل.

جاءت الثامنة ليلاً، وغادرت رحلة نيويورك المبرمجة أصلاً على الساعة الحادية عشر صباحاً. وما أن امتطيت الطائرة حتى كان مسافرو الدرجة الأولى قد أخذوا أماكنهم؛ واصطحبتني المضيفة إلى مقعدي؛ وفجأة كاد قلبي يتوقّف عن النبض. يا لمحاسن الصدف! رأيت الفتنة السماوية جالسا على المقعد المجاور أمام النافذة. لقد كانت مستغرقة في ترتيب مجالها الحيوي بأستاذية المسافر الخبير؛ والسائح الأريب. وقلت في نفسي:آه، لو قدّر لي أن أكتب هذا في قصة، فلن يصدّقني أحد. ثمّ نجحت في إلقاء تحية متردّدة بعد تلعثم. كنت من الحرج في غاية؛ فلم تسمعها ولم تنتبه لها.

لقد شغلت مقعدها كما لو كانت تنوي أن تُعمّر هنالك لألف سنة؛ وضعت كلّ شيء في مكانه المناسب وفي متناول يدها حتى أنّ محيط مقعدها أصبح مصفّفا كالبيت المثالي على يد مهندس ديكور. وفي أثناء ذلك، أحضر لنا المضيف شمبانيا الضيافة. أخذت كأسا لأناولها إياه، لكنّني تريّثت قليلا وفكّرت في ذلك ثمّ عدلت عن رأيي في اللحظة الأخيرة وفي الوقت المناسب. لم تكن تريد سوى كأس ماء، ثمّ أوعزت إلى المضيف، أوّل الأمر بلغة فرنسية غير مفهومة ثمّ بلغة إنجليزية لم تكن أوضح من سابقتها إلاّ بالنذر اليسير، بأن لا يوقظها خلال الرحلة، ولأيّ سبب كان. لقد كان يشوب صوتها الدافئ النعسان بعض الحزن الشرقي الحالم

الدفين.

وعندما أحضر المضيف الماء، كانت تضع في حجرها محفظة تجميل ذات زوايا نحاسيّة مزخرفة؛ أخذت قرصين ذهبيين من علبة تحتوي على أقراص أخرى ذات ألوان مختلفة. كانت تفعل كلّ شيء بطريقة منهجيّة وبثقة أصلية أصيلة وكأن لا شيء غير متوقع قد حدث لها منذ ولادتها. وما إن انتهت حتى أسدلت الستار على النافذة، سحبت مقعدها إلى الخلف في اتجاه عمودي ومدّدته إلى أقصى ما يمكن، غطّت جسمها ببطانية إلى الخصر دون أن تنزع حذاءها، وضعت قناع النوم على رأسها، استدارت وولّتني ظهرها ثمّ سرعان ما غرقت في بحر النوم العميق. لم تصدر عنها تنهيدة واحدة، ولا أدنى همسة أو أقل حركة طيلة الساعات الثمانية الأبدية ودقائقها الإثني عشر الإضافية، زمن الرحلة إلى نيويورك.

لقد كانت الرحلة خارقة وغير مسبوقة بالنسبة إليّ. لقد كان يقيني الثابت دائما؛ ولازلت أؤمن بأن لا شيء في الوجود أبدع من امرأة جميلة؛ لقد احتلني ذلك الكائن الفاتن الذي ينام بجواري وكان يستحيل عليّ أن أهرب للحظة واحدة من أسر هذا المخلوق الجميل النبيل، هذا السحر الذي كثيرا ما تردّده الحكايات والحواديت.

ما إن أقلعت الطائرة حتى اختفى المضيف وخلفته مضيفة شابة، حاولت أن توقظ الملاك النائم لتناولها محفظة النظافة وسماعات الموسيقى. ردّدت عليها التعليمات التي أملاها الملاك الناعس على زميلها، غير أنها أصرّت على السماع منه شخصيا ممّا اضطر المضيف أن يؤكد أوامرها مع أنّه ألقى ببعض اللوم عليّ لأنّ الملاك لم يعلّق بطاقة تشير إلى:أرجو عدم الإزعاجحول عنقه كالياقة.

تناولت وجبة العشاء وحيدا، أتكلّم مع نفسي في سكون أقول كلّ ما كنت أبتغي قوله لها لو شاركتني عشائي. كان نومها هادئا منتظما إلى درجة أنّ نفسي حدّثتني في جزع مُشفق بأنّ الأقراص المنوّمة التي تناولتها لم تكن للنوم بل كانت للانتحار. ومع كلّ جرعة كنت أرفع كأسي لأشرب نخب صحّتها.

خفتت الأضواء ليعرضوا على الشاشة فيلم لم يكن لينتبه إليه أحد، و كنّا ولا أحد شريكنا في ظلمة هذا العالم. لقد ولّت عاصفة القرن وكان ليل الأطلسي صافيا خرافيا، وكانت الطائرة تبدو جاثمة كجثة محنّطة بين النجوم. انتهزت الفرصة كي أتأمّلها بتمعّن لعدّة ساعات، وأدقّق في جسمها شبرا بشبر، ولم أكن ألاحظ أية إشارة تدلّ على الحياة سوى ظلال الأحلام التي كانت تعبر من خلال جبهتها عبور ندف السحاب فوق جدول رائق. كانت تضع حول رقبتها سلسلة رقيقة تكاد لا تُرى نظرا في غياهب لون بشرتها الذهبي. لم تكن أذناها المكتملتان مثقوبتين، وأظافرها الوردية تعكس أمارات صحة لا باس بها. وكان يُزيّن يدها اليسرى خاتم بسيط؛ ولأنّها لا تبدو أكبر من العشرين عاما، كان عزائي أنّه لا يمثّل

خاتم زفاف بل لا يعدو أن يكون علامة خطبة عابرة أو ارتباط آني لا يعني الكثير عندها. ورحت على وقع تأثير الشمبانيا أردّد في سرّي مآثر جيراردو دييجو الخالدة عن المرأة والحب والجمال. خفّضت ظهر مقعدي ليصل إلى نفس مستوى مقعدها، وألقيت بجسمي عليه، فكنّا أقرب إلى بعضنا البعض من لو كنّا ممدّدين على سرير الزوجية في شهر العسل.

كانت بشرتها تحرّر عبيرا منعشا، على صورتها ومثالها، لم يكن سوى عطر جمالها الفتَّان. لقد كان شيئا مدهشا حقا. لقد قرأت في الربيع الماضي قصّة بديعة للكاتب ياسوناري كاواباتا عن أثرياء كيوتو القدامى الذين كانوا يدفعون مبالغ ضخمة من المال مقابل قضاء ليلة في التفرج على أجمل فتيات المدينة وهنّ مخدرات ومستلقيات عرايا كما ولدتهن أمهاتهن على نفس السرير، يتعذبون من نار الشوق وحرقة الشغف وعذاب الحب بلا طائل ولا يستطيعون إيقاظهن أو لمسهن، بل ولا يجرؤون حتى على المحاولة لأنّ مبعث لذّتهم و تلذذهم في الأساس هو رؤية الفتيات العاريات وهنّ نائمات.

في تلك الليلة، وأنا أراقب الجمال النائم، لم أصل فقط إلى إدراك معنى التألُّم الناجم عن الضعف النفسي والحسّي، بل مارسته وجرّبته وتذوّقت مرارته إلى أبعد مدى؛ وقلت في نفسي وقد ازدادت آلامي واتقدت حواسي بفعل الشمبانيا:ما فكّرت يوما في أن أصبح من قدماء اليابانيين عند هذا العمر المتأخّر.

أعتقد أنّني نمت لعدة ساعات تحت تأثير الشمبانيا وتفجيرات الفيلم الصامتة؛ وعندما استيقظت كانت رأسي تؤلمني بشدّة. ذهبت إلى الحمّام، وألفيت المرأة المسنّة مستلقيّة على مقعدها تماما كالجثّة الهامدة في ساحة المعركة. كانت نظاراتها متساقطة على الأرض في وسط الرواق، وللحظة، انتابني شعور عدواني ممتع ألا التقطها. ما إن تخلّصت من الشمبانيا الزائدة في دمي، حتى رحت أتأمّل نفسي في المرآة، فوجدتني قبيح المنظر كالشيطان وتعجّبت كيف يحطّم الحب صاحبه إلى هذه الدرجة.

فقدت الطائرة علوّها من دون سابق إنذار، ثمّ عادت واستوت وواصلت تسابق الأجواء بكامل سرعتها إلى الأمام. ظهرت فجأة إشارة:التزموا أماكنكم، فأسرعت إلى مقعدي على أمل أن أجد الجمال النائم قد استيقظ بفعل الاضطراب، لعلّه يلجأ إلى حضني ليحتمي به ويدفن فيه هلعه وارتعابه. وأثناء حركتي الخاطفة، كدت أن أدوس على نظارات المرأة الهولندية وكنت سأسعد لو أنّني فعلت في الواقع؛ بيد أنّني غيَّرت موضع قدمي في آخر لحظة، ثمّ التقطتها ووضعتها في حجرها شكرا لها وامتنانا لعدم اختيارها للمقعد ذي الرقم أربعة.

كان نوم الملاك الجميل أعمق من أن تعكر صفوه حركة الطائرة. وعندما استوت الطائرة في مسارها من جديد، كان عليّ أن أقاوم رغبتي الكاسحة في إيقاظها بافتعال أي عذر من أي

نـوع، لأنّ كل مـا كنـت أرغـب فيـه خـلال آخـر سـاعة مـن الرحلـة هـو فقـط رؤيتهـا يقظـة، حتـى ولـو كانـت غاضبـة حانقـة، لأسـتردّ حريّتـي المسـلوبة وربمـا لأسـتعيد شـبابي كذلـك؛ غـير أنّنـي لم أجـد في نفـسي الشـجاعة الكافيـة لذلـك، وقلـت في باطنـي باحتقـار شـديد:اذهـب إلى الجحيـم! لمـاذا لم أولـد خروفـا؟

اسـتفاقت مـن نومهـا، ومـن تلقـاء نفسـها، عنـد اللحظـة التـي اشـتعلت فيهـا أضـواء الهبـوط. كانـت جميلـة ناعمـة مرتاحـة كـما لـو أنهـا نامـت في حديقـة للـورود؛ وحينهـا أدركـت أنّ الأشـخاص الذيـن يتجـاورون في مقاعـد الطائـرة لا يبـادرون بتحيـة الصبـاح تمامـا كـما هـو شـأن الأزواج لسـنوات طويلـة؛ كذلـك هـي لم تفعـل. فقـط خلعـت قناعهـا، فتحـت عيناهـا المُشـعّتين، أرجعـت ظهـر المقعـد إلى وضعيتـه العاديّـة، وضعـت البطانيـة جانبـا، حرّكـت شـعرها ليعـود إلى نسـقه بفعـل وزنـه، وضعـت محفظـة التجميـل عـلى ركبتيهـا، عالجـت وجههـا ببعـض المسـاحيق غـير الضروريـة لتسـتهلك وقتـا كافيـا يعفيهـا مـن النظـر إليّ ريثـما تفتـح أبـواب الطائـرة، ثـمّ لبسـت سـترتها ذات الفـراء. تخطّتنـــي مـع عبـارة عفـو تقليديـة بلغـة اسـبانية لاتينوأمريكيـة خالصـة، وغـادرت مـن غـير كلمـة وداع واحـدة، أو عـلى الأقـل كلمـة شـكر عـلى مـا بذلتـه مـن أجـل أن أجعـل ليلتنـا سـعيدة، ثـمّ سرعـان مـا اختفـت في شـمس يومنـا الجديـد في غابـة نيويـورك الأمازونيـة.

الموت يهزم الورد
جابرييل جارسيا ماركيز

كان لا يـزال أمـام سـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز سـتة أشـهر وأحـد عـشر يومًـا عندمـا وجـد المـرأة التـي انتظرهـا طـوال عمـره، سـتة أشـهر وأحـد عـشر يومًـا قبـل أن يمـوت. في روزال دل فـيري، وهـي قريـة متخيّلـة، التقاهـا، وفيهـا رصيـف ميـنـاء سري لسـفن التهريـب ليـلا، أمـا في وضـح النهـار، فكانـت أشـبه بمضيـق لا معنـى لـه يفـضي إلى الصحـراء، وتواجـه بحـرًا قاحـلًا لا اتجـاه لـه، وكانـت قريـة نائيـة وبعيـدة عـن أي شيء، ومعزولـة إلى درجـة أن أحـدًا لم يكـن يتخيّـل أن يكـون بوسـع أي مخلـوق أن يغـيّر مصـير أي فـرد مـن سـكانها. حتـى أن اسـمها كان يثـير الضحـك نوعـا مـا، وذلـك لأن الـوردة الوحيـدة الموجـودة في تلـك القريـة كان يضعهـا سـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز في سـترته عـصر ذلـك اليـوم الـذي التقـى فيـه لـورا فارينـا.

كانـت في الواقـع محطـة إجباريـة في حملتـه الانتخابيـة التـي كان يقـوم بهـا كلّ فصـل. فقـد كانـت عربـات المهرجـان قـد وصلـت في الصبـاح الباكـر، ثـم تبعتهـا الشـاحنات التـي تقـل الهنـود الذيـن كانـوا يُسـتأجرون ويُنقلـون إلى المـدن الصغـيرة لزيـادة عـدد الحشـود في الاحتفـالات العامـة وتضخيمهـا. وقبـل السـاعة الحاديـة عـشرة بقليـل، وصلـت السـيارة التابعـة للـوزارة التـي يشـبه لونهـا لـون عصـير الفراولـة التـي تبـاع في زجاجـات المشروبـات الغازيـة الرخيصـة، بالإضافـة إلى السـيارات التـي تقـل العازفـين، والألعـاب الناريـة، وسـيارات الجيـب التـي تقـل أفـراد الحاشـية. أمـا سـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز، فـكان يجلـس مسـترخيًا في سـيارته المكيّفـة، لكنـه مـا أن فتـح بابهـا، حتـى هبّـت عليـه نفحـة قويـة مـن الصهـد، وعـلى الفـور تبلـل قميصـه المصنـوع مـن الحريـر الصـافي، وأصبـح وكأنـه قـد غطـس في طبـق شـوربة ضخـم، واعـتراه شـعور بأنـه قـد شـاخ فجـأة، وأحـس بالوحـدة عـلى نحـو لم يشـعر بـه مـن قبـل. في الحيـاة الفعليـة، كان قـد بلـغ الثانيـة والأربعـين مـن العمـر، وكان قـد تخـرّج مـن جامعـة جوتـن جـين بدرجـة شرف كمهنـدس في اسـتخراج المعـادن. كان قارئًـا نهـمًا للأعـمال الكلاسـيكية اللاتينيـة المترجمـة ترجمـة مدرسـية. وكان سـيادة النائـب زوج امـرأة ألمانيـة راقيـة أنجبـت لـه خمسـة أطفـال، وكانـوا جميعهـم يعيشـون بسـعادة في بيتهـم، وكان هـو أكثرهـم سـعادة إلى أن أخـبروه، منـذ ثلاثـة أشـهر، بأنـه سـيموت ميتـة أبديـة قبـل أن يحـل عيـد الميـلاد القـادم.

وبينـما كانـت التحضـيرات للاجتـماع الهائـل عـلى وشـك أن تُسـتكمل، تمكّـن سـيادة النائـب مـن الاختـلاء بنفسـه لمـدة سـاعة في البيـت الـذي كانـوا قـد أعـدّوه لـه ليرتـاح فيـه. وقبـل أن يتمـدد عـلى الفـراش، وضـع الـوردة التـي حافـظ عليهـا طـوال رحلتـه عـبر الصحـراء في كأس مـليء بميـاه الـشرب، وابتلـع الحبـوب التـي أخذهـا معـه ليتحـاشى تنـاول شرائـح لحـم الماعـز المقـلّي التـي

كانت تنتظره أثناء النهار، وتناول عدّة حبوب مسكّنة قبل وقتها المحدد خشية أن يعتريه الألم. ثم وضع المروحة الكهربائية قرب الأرجوحة واستلقى عاريًا تمامًا لمدة خمس عشرة دقيقة في ظلّ الوردة، وبذل مجهودًا خرافيًا كي يبعد فكرة الموت عنه كي يغفو قليلًا. وفيما عدا الأطباء، لم يكن أحد يعرف أن أمامه أيامًا معدودات في الحياة، لأنه قرّر أن يبقي سرّه مدفونا في قاع بئر عميق، وأن لا يغيّر شيئًا في حياته، لا بدافع من الكبرياء، بل بسبب الحياء الشديد والشعور بالعار والمهانة.

كمن يمتلك زمام أموره، خرج للقاء الجمهور للمرة الثانية في الساعة الثالثة من بعد ظهر ذلك اليوم، مرتاحًا ونظيفًا، وهو يرتدي بنطالًا من الكتّان الخشن، وقميصًا مشجّرًا، وكانت الحبوب المسكّنة للألم قد ساعدته في إضفاء شيء من السكينة على روحه. بيد أن التآكل الذي كان الموت يحدثه فيه أكثر خبثًا مما كان يعتقد، لأنه ما أن صعد إلى المنصة، حتى اعتراه شعور غريب بالازدراء للذين كانوا يسعون بشق الأنفس لأن يحظوا بشرف مصافحته، ولم يشعر بالندم، كما كان يحدث من قبل، على جموع الهنود الذين قلما كان بوسعهم تحمّل جمرات البوتاس الحارق الملتهبة تحت أقدامهم الحافية في الساحة الصغيرة الفقيرة العارية. وبحركة من يده أوقف التصفيق، بغضب تقريبًا، وبدأ يتكلم دون أن تبدو على وجهه أية ملامح محددة. وكانت عيناه مثبتتين على البحر الذي كان يئن تحت وطأة النار. وكان صوته العميق الرخيم يشبه المياه الراكدة، لكنه كان يعرف أنه لم يكن يقول الصدق في الخطاب الذي كان قد حفظه عن ظهر قلب، والذي كان قد ألقاه أمام الجموع مرات كثيرة، بل كان يناقض أقوال ماركوس أوريليوس صاحب النزعة الجبرية في كتاب التأملات.

إننا هنا لكي نلحق الهزيمة بالطبيعة، بدأ خطابه بخلاف كلّ قناعاته.لن نصبح أيتاما في بلدنا بعد الآن، لقطاء الله في عالم العطش والمناخ الرديء، منفيين في أرض آبائنا وأجدادنا. بل سنكون أناسًا مختلفين، أيها السيدات والسادة، سنكون أناسًا عظماء وسعداء.

كان ثمة طراز واضح ومعين في هذا السيرك البهلواني الذي يقوم به. ففيما كان يلقي كلمته، كان مساعدوه يلقون بمجموعات من الطيور الورقية في الهواء، فتدّب الحياة في هذه المخلوقات الاصطناعية، وتحلّق حول المنصة المنتصبة من ألواح خشبية، وتطير باتجاه البحر. وفي الوقت نفسه، كان رجال آخرون يفرغون بعض جذوع الأشجار من الشاحنات، ويغرسونها في تربة البوتاس الحارق وراء الجموع الحاشدة. وكانوا قد أقاموا واجهة كرتونية من بيوت خيالية من القرميد الأحمر ذات نوافذ زجاجية، وأخفوا وراءها الأكواخ الحقيقية البائسة الفقيرة. وأطال سيادة النائب خطابه مستشهدًا بمقولتين اثنتين باللغة اللاتينية ليطيل أمد المهزلة. ووعد الحشد بآلات تصنع المطر، وبأجهزة نقّالة لتربية حيوانات المائدة، وبزيوت السعادة التي تجعل الخضراوات تنمو في تربة البوتاس الحارق، وبشتلات من أزهار الثالوث

المزروعـة في أصـص. وعندمـا رأى أنـه اسـتطاع أن يخلـق عالمـه الخيـالي، أشـار إليـه بيـده، وصـاح بأعـلى صوتـه:ذاك الـدرب سـيكون دربنـا، أيهـا السـيدات والسـادة. انظـروا! ذاك الـدرب سـيكون لنـا.

هنـا التفـت الحشـد. وكانـت سـفينة مصنوعـة مـن الـورق الملّـون تعـبر وراء البيـوت، وكانـت أطـول مـن أعـلى بيـت في المدينـة الاصطناعيـة. وعندهـا لاحـظ سـيادة النائـب، أنهـا بعـد أن شُـيدت وأُنزلـت وحُملـت مـن مـكان إلى مـكان آخـر، التهـم الطقـس الشـنيع البلـدة الكرتونيـة المتداخلـة، وكادت تصبـح متآكلـة كـما هـو حـال قريـة الـوردة الذابلـة روزال دل فـيري.

وللمـرة الأولى منـذ سـنوات عديـدة، لم يتوجـه نلسـون فارينـا ليرحـب بسـيادة النائـب. بـل كان يسـتمع إلى خطـاب سـيادة النائـب وهـو مسـتلق عـلى أرجوحتـه في مـا تبقـى مـن قيلولتـه، تحـت ظـلال تكعيبـة البيـت ذات الألـواح غـير المسـتوية، التـي صممهـا الصيـدلي وجـرّ إليهـا زوجتـه الأولى ثـم قطّعهـا إلى أشـلاء. ثـم هـرب مـن جزيـرة الشـيطان، وظهـر في روزال ديـل فـيري عـلى مـتن سـفينة محمّلـة بببغـاوات بريئـة مـن نـوع نـادر، برفقـة امـرأة سـوداء جميلـة كافـرة، كان قـد التقـى بهـا في باراماريبـو وأنجـب منهـا فتـاة. لكـن المـرأة ماتـت لأسـباب طبيعيـة بعـد فـترة قصـيرة، ولم تلـق مصـير المـرأة الأخـرى، التـي سـاهمت أعضاؤهـا المقطعّـة إربـًا في تسـميد قطعـة الأرض المزروعـة بالقنبيـط، بـل ووريـت الـتراب بكامـل جسـدها، محتفظـة باسـمها الهولنـدي، في المقـبرة المحليـة. وقـد ورثـت الابنـة لـون أمهـا وقوامهـا الجميـل، فضـلًا عـن عينـيّ أبيهـا الصفراويـن المندهشـتين، وكان يحـق لـه أن يعتقـد أنـه كان يـربّي ملكـة جـمال العـالم.

ومنـذ أن اجتمـع بسـيادة النائـب أونيزمـو سانشـيز خـلال حملتـه الانتخابيـة الأولى، طلـب منـه نلسـون فارينـا أن يسـاعده في الحصـول عـلى بطاقـة هويـة مـزورة تجعلـه في منـأى عـن قبضـة القانـون. إلا أن سـيادة النائـب رفـض بطريقـة ودّيـة، ولكـن حاسـمة. بيـد أن نلسـون فارينـا لم يستسـلم، بـل ظـل ولسـنوات عديـدة، وكلـما أتيحـت لـه الفرصـة، يكـرّر طلبـه بطرائـق عـدة. أمـا هـذه المـرة، فقـد بقـي في أرجوحتـه، وقـد كتـب عليـه أن يتعفّـن حيًـا في عريـن القراصنـة الجهنمـي. وعندمـا سـمع التصفيـق الأخـير، رفـع رأسـه، وأخـذ يتطلـع مـن فـوق ألـواح السـياج، ورأى الجانـب الخلفـي مـن المهزلـة: الدعائـم التـي أُحضرت للمبـاني، جـذوع الأشـجار، والمخادعـين المتواريـن الذيـن يدفعـون السـفينة فـوق المحيـط. ثـم بصـق بإحسـاس مفعـم بالحقـد والاحتقـار.

وبعـد أن ألقـى كلمتـه، طفـق سـيادة النائـب كدأبـه يجـوب شـوارع القريـة وسـط أنغـام الموسـيقى والأسـهم الناريـة، وقـد تحلّـق حولـه سـكان القريـة، الذيـن راحـوا يبثـون لـه أوجاعهـم ومطالبهـم. وكان سـيادة النائـب يصغـي إليهـم باهتـمام وود شـديدين ولم يكـن يتـورع عـن مواسـاة كلّ فـرد منهـم عـلى حـدة، دون أن يقـدم لأي منهـم أي خدمـات هامـة حقيقيـة جديـرة بالذكـر. حتـى استطاعت امـرأة تقـف عـلى سـطح أحـد المنـازل مـع أطفالهـا السـتة الصغـار مـن

أن تُسمعه صوتها وسط الضجيج وأصوات الأسهم النارية.

-إني لا أطلب الكثير، يا سيادة النائب، حمار واحد فقط لأتمكن من سحب الماء من بئر الرجل المشنوق.

لاحظ سيادة النائب الأطفال النحاف الستة وسألها:ماذا حدث لزوجك؟

أجابت المرأة بأدب:

-ذهب يبحث عن الثروة في جزيرة أروبا، وعثر على امرأة أجنبية، من اللاتي يضعن الماس في أسنانهن.

انفجر الجمع في الضحك وقرّر سيادة النائب:

حسنًا ستحصلين على الحمار المنشود!

وفي غمضة عين أحضر أحد مساعديه حمارًا مزودًا بسرج جيد إلى بيت المرأة، وقد دُوِّن على كفله شعار من شعارات الحملة الانتخابية بطلاء لا يمكن إزالته لكي لا ينسى أحد أبدًا أنه هدية من سيادة النائب.

وعلى امتداد الشارع القصير، قام ببعض الأعمال الصغيرة الأخرى، بل وحتى قدم ملعقة دواء للرجل المريض الذي أمر بإخراج سريره ووضعه عند باب بيته كي يتمكن من رؤية سيادة النائب عندما يمرّ، ومن خلال ألواح السياج، رأى نلسون فارينا وهو مستلق في أرجوحته، وقد بدا شاحبًا وكئيبًا، لكن ومع ذلك، حيّاه سيادة النائب دون أن يبدي له أية مشاعر بالمودّة.

مرحبًا، كيف حالك؟

التفت نلسون فارينا من فوق أرجوحته ورمقه بنظرته المفعمة بالكراهية والغّل.

أنا، كما تعرف!

خرجت ابنته إلى السلاملك عندما سمعت التحية.

كانت ترتدي جلبابا هنديًا رخيصًا، وكانت تزّين رأسها فيونكات ملوّنة، وكانت قد دهنت وجهها بكريمات لتقيه من أشعة الشمس. إلا أنه، حتى في وضعها السيئ ذاك، يستطيع المرء أن يتصور أنه لا توجد امرأة أخرى بجمالها في الكون. وقف سيادة النائب منقطع الأنفاس وقال بدهشة:

-يا إلهي الرحيم. يفعل الله أمورا غريبة بحق.

في تلك الليلة، جعل نلسون فارينا ابنته ترتدي أجمل ثيابها، وبعث بها إلى سيادة

النائـب، وطلـب منهـا الحارسـان المسـلحان بالبنـادق اللـذان كانـا يترنحـان مـن شـدة القيـظ في البيـت المسـتعار، أن تنتظـر عـلى الكـرسي الوحيـد في الردهـة، حيـث كان سـيادة النائـب يعقـد في الغرفـة المجـاورة اجتماعًـا مـع أنـاس عـلى قـدر مـن الأهميـة في روزال دل فـالي، الذيـن كان قـد جمعهـم لينشـد عـلى مسـامعهم الحقائـق التـي لم يكـن قـد ذكرهـا في خطابـه، والذيـن كانـوا يشـبهون إلى درجـة كبـيرة جميـع مـن كان يلتقـي بهـم في البلـدات الصحراويـة كلهـا. وكان قـد بـدأ يعـتري سـيادة النائـب الملـل ويشـعر بالتعـب مـن تلـك الجلسـات الليليـة التـي لم تكـن تتوقـف. كان قميصـه مبلـلًا بحسـاء العـرق، وكان يحـاول أن يجففـه عـلى جسـده مـن تيـار الصهـد المتصاعـد مـن المروحـة الكهربائيـة التـي كانـت تصـدر طنينًـا كطنـين ذبابـة الفـرس في وسـط الجحيـم الـذي يغمـر الغرفـة.

-بالطبـع لا نسـتطيع أن نـأكل طيـورًا ورقيـة، إنكـم تعرفـون، وأنـا أعـرف أن اليـوم الـذي سـتنمو فيـه الأشـجار والأزهـار في كومـة روث الخـراف هـذه، وفي اليـوم الـذي سـيحل السـمك الذهبـي محـل الديـدان في بـرك المـاء، عندهـا، لـن يعـود لكـم، ولـن يعـود لي شيء هنـا، هـل تفهمـون مـا أقولـه لكـم؟

صمـت تـام. وفيـما كان سـيادة النائـب يتكلـم، مـزّق صفحـة مـن التقويـم، وشـكّل منهـا بيديـه أوريجامـي لفراشـة ورقيـة، ثـم ألقاهـا نحـو تيـار الهـواء المنبعـث مـن المروحـة، فراحـت الفراشـة تتطايـر حـول الغرفـة، ثـم خرجـت وانسـلت عـبر شـق البـاب المـوارب. وتابـع سـيادة النائـب كلامـه، بعـد أن تمالـك نفسـه، يسـاعده في ذلـك المـوت المتواطـئ معـه.

-لذلـك، لا يتعـين علـيّ أن أكـرّر عـلى أسـماعكم مـا تعرفونـه جيـدًا بـأن انتخـابي مـرة أخـرى هـو لمصلحتكـم أنتـم أكـثر مـما هـو لمصلحتـي أنـا، لأني سـئمت الميـاه الراكـدة وعـرق الهنـود، في الوقـت الـذي تكسـبون فيـه أنتـم، أيهـا النـاس، رزقكـم منـه.

رأت لـورا فارينـا الفراشـة الورقيـة وهـي تسـبح طائـرة مـن بـاب الغرفـة. رأتهـا فقـط لأن الحارسـين في البهـو كانـا يغطـان في النـوم وهـما جالسـين عـلى الـدرج، يعانـق كل منهـما بندقيتـه. وبعـد أن دارت عـدة دورات، انفتحـت الفراشـة المثنيـة بكاملهـا، وارتطمـت بالحائـط، والتصقـت بـه. حاولـت لـورا فارينـا أن تقتلعهـا بأظافرهـا. إلا أن أحـد الحارسـين، الـذي أفـاق عـلى صـوت تصفيـق منبعـث مـن الغرفـة المجـاورة، لاحـظ محاولتهـا العقيمـة. وقـال في نعاسـه:

-لا يمكنك اقتلاعها، إنها مرسومة على الحائط.

فعـادت لـورا فارينـا وجلسـت عندمـا بـدأ الرجـال يخرجـون مـن الاجتـماع. وقـف سـيادة النائـب عنـد مدخـل الغرفـة ويـده عـلى المـزلاج. ولم يلحـظ لـورا فارينـا إلا عندمـا صـارت الردهـة خاليـة مـن كل حـي.

ماذا تفعلين هنا؟

لقد أرسلني أبي.

فهم سيادة النائب. حدّق في الحارسين النائمين، ثم تمعّن في لورا فارينا، التي كان جمالها الفائق يفوق ألمه، وهنا عرف أن الموت هو الذي اتخذ قراره نيابة عنه.

ادخلي

وقفت لورا فارينا والدهشة تعتريها عند مدخل الغرفة: كانت آلاف من الأوراق النقدية تتطاير في الهواء، تخفق كالفراشات. لكن سيادة النائب أطفأ المروحة، فتوقفت عن السباحة في الهواء وأخذت تتهاوى وتتساقط فوق قطع الأثاث في الغرفة.

كما ترين، حتى القذارة تستطيع الطيران.

جلست لورا فارينا على المقعد المدرسي. كانت بشرتها ناعمة ومصقولة، وبلون النفط الخام وكثافته، وكان شعرها مثل عرف مُهرة، عيناها الواسعتان تمنحان بريقًا أكثر لمعانًا من وهج النار. وتبع سيادة النائب مسار نظرتها ووجد أخيرًا الوردة التي تلوثت بالبوتاس الحارق.

-إنها وردة.

ردت وفي صوتها نبرة ارتباك.

-لقد شاهدتها عندما كنت في ريوهاتشا.

جلس سيادة النائب على السرير العسكري، وراح يتحدث عن الورود فيما بدأ يفك أزرار قميصه. وعلى الجانب الذي كان يخيّل إليه أن قلبه موجود فيه داخل صدره، كان قد رُسم وشم في شكل قلب يخترقه سهم. ألقى القميص المبلل على الأرض وطلب من لورا فارينا أن تساعده في خلع حذائه الطويل.

ركعت أمام السرير. لم يبعد سيادة النائب عينيه عنها وهو يتمعن فيها بدقّة، وفيما كانت تفكّ رباط حذائه، كان يتساءل من منهما سيكون سيء الحظ من لقائهما هذا، وتمتم:

-إنك مجرد طفلة.

قالت بجذل طفولي:

-قد لا تصدق. سأبلغ التاسعة عشرة من عمري في أبريل القادم.

أبدى سيادة النائب مزيدًا من الاهتمام:

في أيّ يوم؟

في اليوم الحادي عشر.

أحس سيادة النائب بأنه أصبح أفضل حالًا، ثم قال:

-ننتمي كلانا إلى برج الحمل، إنه برج الوحدة!

لم تكن تعرف ماذا تفعل بالحذاء، فلم تهتم بكلامه. أما سيادة النائب، فلم يكن يعرف ماذا يفعل بلورا فارينا، لأنه لم يكن قد اعتاد مثل علاقات الحبّ المفاجئة هذه، كما أنه كان يعرف أن أصل هذه العلاقة يعود إلى الذل والمهانة. ولكي يتاح له قليل من الوقت للتفكير، أمسك لورا فارينا بإحكام بين ركبتيه، وضمها حول خصرها، واستلقى على ظهره فوق السرير. ثم أدرك أنها كانت عارية تحت ثيابها، بعد أن انبعثت من جسدها رائحة قوية من عطر حيوان الغابة، لكن قلبها كان واجفًا، وكسا جلدها عرق جليدي. وغمغم كأنه يموت:

لا أحد يحبّنا

حاولت لورا فارينا أن تقول شيئًا، لكن لم يكن لديها من الهواء سوى قدر يكفيها كي تتنفس. جعلها تستلقي بجانبه ليساعدها، وأطفأ الضوء وأصبحت الغرفة في ظلّ الوردة. استسلمت إلى رحمة العلي القدير. وراح سيادة النائب يداعبها ببطء، يسعى إليها بيده، يلمسها لمسًا خفيفًا، لكنه صادف شيئًا حديديًا يعوق طريقه في البقعة التي كان يسعى إليها.

ماذا تضعين هناك؟

قفل.

لماذا بالله عليك!

بانفعال غاضب وسأل عن الشيء الذي يعرفه جيدًا.

-أين المفتاح؟

أجابت كما هو متوقع:

-إنه عند أبي، لقد طلب مني أن أخبرك بأن ترسل أحدًا من رجالك للحصول عليه، وأن ترسل معه وعدًا خطيًا بتوقيعك بأنك ستجيب مطلبه.

انفجر سيادة النائب بحنق:

الفاجر ابن الزانية!

ثـم أغمـض عينيـه ليسـترخي وألقـى بنفسـه في ظـلام الذكريـات، تذكّـر، تذكّـر، سـواء كنـت أنـت أو شـخصًا آخـر، فلـن تمـضي في هـذه الحيـاة فـترة طويلـة وسـتموت حتـى لـن يبقـى أحـد يلهـج باسـمك.

انتظر حتى تلاشت القشعريرة التي اعترته.

قولي لي شيئًا واحدًا: ماذا سمعت عني؟

هل تريد أن أقول الحق؟

نعم.

قالت بعد تردد:

حسنًا، إنهم يقولون إنك أسوأ من الآخرين لأنك مختلف.

لم ينزعـج سـيادة النائـب. لاذ بالصمـت لفـترة طويلـة وهـو مغمـض العينـين. وعندمـا فتحهـما ثانيـة، بـدا أنـه أفـاق مـن أبشـع كوابيسـه.

أوه، بحقّ السماء، قولي لأبيك ابن المومس بأنني سأجيب طلبه.

إذا أردت، يمكنني أن أذهب وأجلب المفتاح بنفسي

لكن سيادة النائب أوقفها وقال:

انـسِ أمـر المفتـاح، ونامـي قليـلًا معـي. جميـل أن يكـون بصحبـة المـرء أحـد عندمـا يشـعر بعزلـة تامـة.

وضعـت رأسـه عـلى كتفهـا، وعيناهـا مثبتتـان عـلى الـوردة. طـوّق سـيادة النائـب خصرهـا بذراعيـه، ودفـن وجهـه في إبطهـا الـذي تفـوح منـه رائحـة حيـوان الغابـة، واستسـلم للرعـب. وبعـد سـتة أشـهر وأحـد عـشر يومًـا مـات وهـو في تلـك الوضعيـة ذاتهـا، مُحتقـرًا ومُهانًـا بسـبب الفضيحـة التـي شـاعت بأنـه كان مـع لـورا فارينـا وكان يبـكي بحرقـة لأنـه مـات وتركهـا خلفـه.

بائعة الورد
جابرييل جارسيا ماركيز

تحسَّست (مينا) طريقها في عتمة الفجر لتلبس ثوبها قصير الأكمام الذي كانت قد علَّقته في الليلة الماضية قرب سريرها, وطفقت تُفتِش في الصندوق الكبير عن الكُمَّين المنفصلين الذين يكسوان الذراعين امتثالًا للعرف المتبع قبل الذهاب إلى الكنيسة... ثم بحثت عنهما فوق المسامير المعلقة على الحائط وخلف الأبواب, بهدوء تام، حريصة في كل ذلك ألا تحدث أقل همسة لكيلا توقظ جدتهما العمياء, التي كانت نائمة في نفس الغرفة... ولكن ما أن اعتادت عيناها الظلام, حتى لاحظت أن جدتها قد نهضت بالفعل من السرير, فذهبت إليها في المطبخ لكي تسألها عن مكان الكُمّين.. فقالت الجدة العمياء:

-ستجدينهما في الحمام..لقد غسلتهما بعض الظهيرة الأمس.

وجدتهما في المطبخ بالفعل, مُعلّقين من سلك ممدود بمشبكين.. ولكنهما كانا لا يزالان مبتلين.. فعادت (مينا) بهما إلى المطبخ وبسطتهما فوق أحجار الموقد, بينما راحت الجدة العمياء تُقلِّب القهوة وقد حملقت بعينيها الجامدتين في جدار الشرفة التي رصت فيها أصص الزهور مليئة بأعشاب زكية.

قالت لها (مينا):

-لا تأخذي أشيائي مرة ثانية.. في هذه الأيام لا يمكنك أن تتأكدي من طلوع الشمس.

حرّكت المرأة العمياء وجهها نحو الصوت وقالت:

-لقد نسيت أن هذا يوم الجمعة الأول من أسبوع الفُصح.

وبعد أن نفثت بقوة من فمها تأكدت الجدة أن القهوة قد نضجت, فرفعت الإناء عن الموقد, ثم قالت:

-ضعي قطعة من الورق تحت الكُمَّين, لأن أحجار الموقد متسخة.

مررت (مينا) أصابعها على أحجار الموقد، فوجدها متسخة فعلًا, ولكن بطبقة من السناج المتحجر الذي لا يمكن أن يلوث الكمين إذا لم يحتكا بالأحجار.. على أنها قالت لجدتها:

-إذا اتسختا فستكونين أنت المسئولة عن ذلك.

وما لبثت الجدة العمياء أن صبت لنفسها قدحًا من القهوة, ثم أنها قالت وهي تجذب مقعدًا إلى جانب الشرفة:

-آها! أنت غاضبة إذن؟.. ومن المحرم أن يذهب المرء للقداس وهو غاضب.

وجلست لشرب القهوة عن كثب من الزهور في الفناء.. وعندما انبعث رنين دقات جرس الكنيسة الأولى إيذانًا بموعد القداس رفعت (مينا) الكُمَّين عن الموقد, فكانا لا يزالان مبتلين.. بيد أنها لبستهما على كل حال.. فإن القس لا يقبل بدخول أحد إلى الكنيسة بثوب عاري الذراعين.. ثم مسحت آثار الأحمر من وجهها بمنشفة, وأخذت كتاب التراتيل والشال من غرفتها, وخرجت للطريق.. لكنها عادت أدراجها بعد ربع الساعة فقط... فقالت الجدة العمياء في مجلسها المواجه لزهور الفناء:

-هكذا سوف تصلين إلى هناك بعد التلاوة الأولى.

أما (مينا) فقالت وهي تتجه إلى دورة المياه:

-لن أتمكن من الذهاب إلى القداس اليوم.. الأكمام مبتلة, والثوب كله مُكرمش.

على الفور شعرت بعينين حاذقتين تتبعانها باهتمام، وما لبثت العجوز أن هتفت مستنكرة:

-يوم الجمعة الأول ولا تذهبين للقداس؟

عادت (مينا) من دورة المياه صبت لنفسها قدحًا من القهوة وجلست في المدخل المطلي بالمصيص الأبيض عن قرب من العجوز العمياء؛ لكنها لم تستطع أن تشرب القهوة.. بل غمغمت في حنق دفين، وهي تشعر بأنها توشك على الغرق في دموعها الحبيسة:

-أنت السبب.

فصاحت العجوز العمياء:

-أنت تبكين؟!

غمغمت الفتاة وهي تمر قرب جدتها بعد أن وضعت قدح القهوة على الأرضية:

-الحقيقة أنك يجب أن تذهبي للاعتراف لأنك جعلتني أضيع قداس يوم الجمعة الأول!

أما الجدة العجوز فقد لزمت مكانها واجمة تنتظر أن تغلق باب غرفة النوم، وما لبثت أن اتجهت إلى آخر الشرفة ثم انحنت تتحسس حتى عثرت على قدح القهوة على الأرض لم يمس، فقالت وهي تسكب القهوة في الإناء الخزفي:

-يعلم الله أن ضميري مستريح.

وفي هذه اللحظة خرجت أم (مينا) من غرفة النوم, وقالت للعجوز:

-مع من تتكلمين؟

فأجابت:

-مع نفسي!.. قلت لك من قبل إنني سأجن، وفي طريقي إلى الهذيان التام.

وعندما احتجبت (مينا) في غرفتها فكت أزرار المشد وأخرجت ثلاثة مفاتيح صغيرة معلقة في مشبك.. ففتحت بأحدها الدرج السفلي في التسريحة وأخرجت منه علبة متوسطة فتحتها بمفتاح آخر.. ومن داخلها أخرجت مجموعة خطابات مكتوبة على ورق ملون صغير ومربوطة معا بحزام من المطاط.. فأخفت الخطابات داخل مشدها ثم أعادت العلبة إلى مكانها وأغلقت الدرج.. وأخيرًا ذهبت إلى دورة المياه وألقت بالرسائل في المرحاض.. ولما رجعت (مينا) إلى المطبخ قالت لها أمها:

-ظننتك ذهبت إلى الكنيسة.

فأجابت الجدة العمياء نيابة عنها:

-لم تتمكن من الذهاب.. أنا نسيت أن هذا يوم الجمعة الأول, وغسلت الأكمام بعد ظهر أمس.

غمغمت (مينا):

-إنها لا تزال مبتلة.

قالت العجوز العمياء متبرمة:

-إنني أقوم بأعمال كثيرة هذه الأيام.

ردت (مينا) بسرعة:

-وأنا مطالبة بتسليم مائة وخمسين باقة ورد لمناسبة عيد الفصح.

ولم تلبث حرارة الشمس أن تزايدت مبكرًا.. وقبل الساعة السابعة كانت (مينا) قد أعدت (مشغل الورد الصناعي) في غرفة المعيشة تتكون من سلة مليئة بأوراق الورد, ولفافة سلك, وعلبة من ورق الكريب, ومقصان, وبكرة خيط, وإناء به غراء.. وبعد برهة جاءت التلميذة المترهبة في الكنيسة،(ترينيداد)، تحمل علبة كرتون تحت إبطها, وسألتها على الفور عن سبب عدم ذهابها لحضور القداس، فأجابتها (مينا):

-لم تكن الأكمام جاهزة.

فقالت (ترينيداد) ببساطة:

-كان يمكن استعارة كُمّين من أي أحد.

ثم أنها جذبت كرسيًا وجلست قرب سلة أوراق الورد، فقالت (مينا):

-وجدتني متأخرة كثيراً.

وكانت قد فرغت من صنع وردة، فوضعت (ترينيداد) علبة الكرتون على الأرض واشتركت في العمل؛ فنظرت (مينا) إلى العلبة قائلة:

-هل اشتريتِ حذاءً جديدًا؟

فأجابت (ترينيداد):

-هي فئران ميتة.

ولما كانت (ترينيداد) ماهرة في تركيب بتلات الورد, فقد تفرَّغت (مينا) لعمل سيقان من السلك مغلفة بورق أخضر بلون الورق والسيقان.. وظلت كلتاهما تعمل في صمت دون أن تلاحظا تقدم الشمس في غرفة المعيشة, التي كانت مزخرفة بلوحات زينة وصور عائلية.. وعندما فرغت (مينا) من صنع السيقان تحولت إلى (ترينيداد) بنظرة تفيض أسى, فكفت هذه عن العمل وقالت لها:

-ماذا جرى؟

فمالت (مينا) نحوها وقالت:

-لقد رحل!

فألقت (ترينيداد) المقص في حجرها قائلة:

-لا... لا تقولي هذا!

فكررت (مينا) كلماتها قائلة:

-أقول أنه قد رحل!

فحدقت (ترينيداد) فيها طويلًا متعجبة مستاءة:

-والآن؟

فأجابت (مينا) بصوت متحجّر:

-الآن، لا شيء.

ثم أن (ترينيداد) تأهبت للانصراف قبيل الساعة العاشرة, فاستمهلتها (مينا) لكي تلقي

الفئران في الحوض وتفتح عليها الماء لتصرفها بالمرحاض, وفي طريقها مرَّت بالعجوز العمياء التي كانت تروي الورود في الأصص, فقالت لها (مينا):

-أراهن أنك لن تخمني ما بداخل هذه العلبة!

وأعقبت قولها بأن هزت العلبة بالفئران؛ فأرهفت العجوز حواسها, قائلة:

-هزيها مرة ثانية.

فكررت (مينا) العملية, بيد أن العجوز لم تستطع أن تتعرف على ما بداخل العلبة من محتويات، فقالت (مينا) بعد أن هزت العلبة للمرة الثالثة:

-إنها الفئران التي وقعت في المصيدة في الكنيسة الليلة الماضية.

عندما عادت أدراجها مرت بجانب الجدة العمياء دون أن تكلمها.. بيد أن العجوز تبعتها إلى غرفة المعيشة لكي تستكمل (مينا) عملية ترتيب الورد الصناعي, وقالت لها:

-يا (مينا).. إذا أردت أن تكوني سعيدة, فلا تعترفي بأي شيء لشخص لا تعرفينه.

تأملتها (مينا) دون أن تنبس ببنت شفة؛ فجلست الجدة العجوز في المقعد المواجه لها تحاول مساعدتها في العمل. إلا أن (مينا) استوقفتها؛ فغمغمت الجدة العمياء:

-أنت عصبية.. لماذا إذن لم تذهبي إلى القداس؟

-أنت الأدرى بالسبب!

ردت العمياء العجوز:

-لو أنك تقصدين الأكمام, لما فكرت في الخروج من البيت.. هناك شخص كان ينتظرك في الطريق, وهو سبب خيبة الأمل التي انتابتك.

قال (مينا) وهي تمرر يديها أمام عيني جدتها, كأنما تمسح لوحًا من البلور الشفاف:

-أنت ساحرة!

فقالت المرأة العمياء بهدوء:

-أنتِ ذهبت إلى دورة المياه مرتين هذا الصباح.. وعلى الدوام لا تذهبين أكثر من مرة.

تابعت (مينا) ترتيب الورد الصناعي, بينما رددت العجوز:

-هل لديك الشجاعة الكافية لتريني ما تخفينه في درج التسريحة.

تركت (مينا) الوردة التي بيدها بتكاسل وأخرجت المفاتيح الثلاثة الصغيرة من مشدها

متمهلـة، وضعتهـا في يـد العجـوز قائلـة:

-اذهبي وانظري بعينيك.

فجعلت العجوز تفحص المفاتيح بأناملها, وقالت:

-إن عيني لا يمكنها رؤية ما في قاع المرحاض!

رفعـت (مينـا) رأسـها, وهنـا راودهـا شـعر غريـب؛ فقـد أحسـت أن الجـدة العميـاء تتأملهـا بإمعـان.. ولهـذا قالـت لهـا:

-انزلي في المرحاض إذا كان ما أفعله يهمك إلى هذا الحد!

تجاهلت الجدة العجوز هذا الهجوم الحاد, وقالت:

-أنت دائمًا تجلسين في الفراش وتكتبين حتى الساعات الأولى من النهار.

فقالت (مينا) بحدة:

-أنت تطفئين النور قبل النوم بنفسك..

عاجلتها العمياء قائلة:

-..وفي الحـال تنيريـن أنـت بطاريتـك. وبإمـكاني أن أعـرف أنـك تكتبـين. مـن صـوت أنفاسـك أعرفـك.

بذلت (مينا) جهدًا للاحتفاظ بهدوئها, وقالت دون أن ترفع رأسها:

-جميل.. ولنفرض أن هذا هو ما يحدث, فما هو الغريب في ذلك؟!

غمغمت العجوز:

-لا شيء.. إلا أن هذا أضاع منك حضور قداس يوم الجمعة الأول.

عنـد هـذه النقطـة حملـت (مينـا) بمجمـوع يديهـا بكـرة الخيـط والمقصـين وكومـة مـن الـورود التـي لم تتـم, وألقـت بهـا جميعًـا في السـلة بغـل, ثـم واجهـت الجـدة العميـاء قائلـة:

-هل تحبين أن أقول لك ما الذي ذهبت لكي أفعله في المرحاض؟

وظلت الاثنتان متحفزتين إلى أن تولت (مينا) الرد بنفسها:

-ذهبت لكي آتي ببعض القمامة!

عندئـذ طوحـت الجـدة العميـاء بالمفاتيـح الصغـيرة في السـلة, وتمتمـت قائلـة وهـي تتجـه إلى المطبـخ:

-كان يمكـن أن يكـون سـببًا لا بـأس بـه, وكان يمكـن أن تقنعينـي لـولا أنهـا المـرة الأولى في حياتـك التـي سـمعتك فيهـا تسُـبِّين!

في هـذه اللحظـة بالـذات كانـت أم (مينـا) آتيـة في الممـشى مـن الناحيـة المقابلـة محتضنـة كومـة مـن الـورود التـي تحفهـا الأشـواك, وهتفـت:

-ماذا حدث؟

فتولت الجدة العمياء الرد قائلة:

-لقـد أصابنـي الخبـال.. لكـن يبـدو أنكـم لا تفكـرون في إرسـالي إلى مستشـفى المجانـين طالمـا لا أرمـي المـارة بالحجـارة!

السفينة تمسك النجوم
جابرييل جارسيا ماركيز

قال بصوته الرجولي القوي لنفسه: سيعرفون الآن من أنا!

لقد مرّت سنوات طويلة منذ رأى باخرة المحيط الضخمة دون أضواء ودون أصوات.. مرّت في ذات ليلة كقصر كبير مهجور، أطول من القرية وأعلى من برج الكنيسة، تُبحرُ في الظلام نحو عتمة المدينة والمستعمرة، على الجانب الآخر من الخليج الذي كان محصنًا ضد القراصنة بضوئه الدوّار وأشعته التي تُحيل القرية كل ربع دقيقة إلى مظهر هلالي بمنازل متجاورة تتخللها شوارع من تربة بركانية. كان في ذلك الوقت ولدا ليس له الصوت الرجولي المميز، إلا أن أُمه قد سمحت له بالتأخُّر على الشاطيء كي يُنصت لريح الليل.

مازال يتذكّر، كما لو كان يراها الآن، كيف اختفت الباخرة عندما اصطبغت بنور المنارة، وكيف تختفي مرة أخرى عندما يدور النور، فكانت السفينة كشُعلة متقطّعة وهي تواصل إبحارها.. تظهر وتختفي تجاه فم الخليج، تتحسس طريقها كالذي يمشي أثناء نومه إلى عوامات الدليل التي تُميّز الميناء. حتى حدث خطأ ما في إبرة البوصلة، فتوجّهت إلى المياه الضحلة وارتطمت بالأرض، تحطمت.. غرقت دون صوت.. كان الارتطام على صخور الجرف حيث اصطدم المعدن ودوّى انفجار المحركات التي كانت تنام بعمق كتنين في غابة بعمق التاريخ.. تبدأ من آخر شوارع القرية إلى الجانب الآخر من العالم. فكر في أن هذا حلم.. خاصة عندما رأى في اليوم التالي وعاء السمك المُتوهّج في الخليج، وألوان مبهرة لأكواخ الزنوج على التلال فوق الميناء، ومراكب الهند بين القادمين من (جيانا) مليئة بالببغاوات البديعة التي تحمل في حويصلاتها الألماس. فكر في أنه قد راح في النوم، يعد النجوم ويحلم بالسفينة الضخمة العملاقة، نعم، كان متأكدًا أنه لم يخبر أحدًا أو أنه ظل يتذكر المشهد مرارا حتى ذات الليلة من مارس التالي، عندما كان يبحث عن الضوء في البحر، وما وجده كان سراب الباخرة (كابيا)، يظهر متقطعًا بذات الاتجاه الأول الخاطيء، مع أنه كان على يقين من أنه كان نائما، فجرى ليخبر أمه وقضى ثلاثة أسابيع يخايله الأمل!

***

لأن عقلك فسد بأداء أشياء أخرى متخلفة، تنام بالنهار وتتسلل ليلًا كالمجرمين. كذا فكرت. كان يجب أن تذهب إلى المدينة لتشتري بها مقعد مريح تجلس عليه وتفكر في زوجها المتوفى، لأن مهزات الكرسي القديم قد اهترأت منذ وفاة الزوج وترملها، كانت مميزه لها بالمناسبة، والنوة تمرح قرب المياه الضحلة، فاستطاع الصبي أن يرى ما على زجاج البحر، فعل الحب على الإسفنج في أوقات الربيع، السلاحف الوردية، سمك القدبين الأزرق يغطس

في آبار أخرى من المياه هناك، وشعور الضحايا الغرقى في حطام سفينة المدينة المستعمرة، ولا أثر لسفن أخرى غارقة أو شيء آخر غير ذلك. كان أحمق عنيد. حتى أمه صممت أن تراقب معه في مارس القادم، غير أن الشيء الوحيد في المستقبل الآن هو كرسي بسيط من أيام مستر (فرانيس دريك) اشترته من مزاد علني من محلات (كورك) حيث جلست ترتاح عليه في ذات الليلة: يا لفرانيس البائس، آه منه. وحاولت التفكير فيه. كيف أفكر فيك بهذا الجلد الناعم والقماش المقطوع من تاج الملكة، لكنها استرجعت ذكرى زوجها المتوفى وارتفع الدم في قلبها وتحول إلى فقاعات وكاكاو، كلما لو أنها كانت تجري بدلًا من أن تجلس، تعبت من الرعشة ونوبات الحماس وامتلأ تنفسها بالرضا، حتى عندما عاد في الفجر وجدها ميتة فوق الكرسي البسيط، مازلت دافئة، نصف متعفنة كأنها في حُضن ثعبان.

ذات الشيء حدث فيما بعد قبل أن يلقى بالكرسي القاتل في البحر، حدث لأربع نساء أخريات، ألقاه بعيدًا حيث لا يمكن أن يجلب الضرر لأحد. كان يستعمل منذ قرون حتى أن مصنعه صار في حُكم العدم، لذا فقد بدا اليتيم التعس، الذي نبت من لبن الأرملة العجوز التي جلبت عرش سوء الحظ إلى القرية، في ثورة داخلية. لن تعش بعيدًا عن المساعد العام، عن الأسماك التي كان يسرقها من القوارب. وأصبح صوته كالزئير، ولم يعد يتذكر صوت الأيام الماضية، حتى ليله أخرى من مارس.

كان ينظر إلى البحر، وفجأة! يا الله، كان هناك، حوت عملاق في لون حيوان فرس النهر. تعال لتشاهده، صرخ في جنون، عوت الكلاب، ارتعشت النساء، وتذكر كبار السن مواكب أجدادهم، اعتقدوا أن (ويليام داميه) قد عاد، لكن الذين جروا إلى الشارع لم يتوقعوا رؤية الآلة الغريبة التي ملكت اللحظة ثم ذهبت إلى الشرق وخلقت لعنتها السنوية. انهالوا عليه باللكمات وتركوه يرتجف. قال لنفسه وهو يهذي (الآن سوف يرون من أنا) وفي المساء انتظر الشبح مرة أخرى كي يفعل ما يريد. سرق قاربًا عند الخليج، وقضى المساء ينتظر في عرض الميناء، ملوحا في الكاريبي، كان مختلطًا بمغامرته، فلم يتوقف، كما اعتاد أن ينظر إلى اليوسفي الاستوائي المنحوت على ناب فيل في محلات الهنود أو يسخر من زنوج هولندا، ولم يرتعب من شعر أهل ملايو النحاسي، الذين جذبوا عدسات الكاميرا من كافة بقاع العالم، وفى فندق سري، يبيعون الشرائح المقلية لنساء البرازيل، فلم يكن يدرى أي شيء من أمره حتى غطّاه الليل بنجومه الثقيلة وشذا الغاب اللذيذ لزهر الجاردين والسمندر المتعفن.

كان يجدف بقاربه المسروق نحو الخليج، بهدوء حتى لا تنتبه شرطة الجمارك، وبمصباح ضعيف، فيكون تمثالًا كل ربع ثانية لضربة الضوء من المنارة ويعود بشرًا في الظلام، وكان يقترب من عوامات الدليل القريبة من الميناء، ليس فقط لأن ضوءها الثقيل صار شحيحا وإنما لأن تنفس الماء قد غدا محزنًا، فكان يجدف ملفوفًا حول نفسه، فلم يدر بصوت

تنفس سمكة القرش المخيفة التي جاءته. لماذا أصبح الليل مجهدًا إلى هذا الحد؟ كما لو أن النجوم قد ماتت، لأن الباخرة كانت هنالك وحجمها الخرافي، يا الهي، إنها أكبر من أي شيء كبير في العالم، وأكثر إظلاما من أي شيء مظلم في الأرض أو في البحر. ثلاثمائة ألف طن من رائحة سمك القرش تعبر كالقارب حتى أنه استطاع رؤية العروق قرب الجوف المعدني، دون أي همس من المحركات، حاملة دائرة من السكوت الخاص حولها، هواءها ميت، زمنها أبدي، بحرها الضال حيث عالم كامل من الحيوانات الغارقة تطفو، فجأة تختفي بنور المنارة. كانت ليلة مارس والكاريبي شفاف، الهواء اليومي وبجع الماء، لذلك ظل بمفرده وسط عوامات الدليل، لا يعرف ماذا يفعل؟ لربما كان حلم يقظة، ليس فقط الآن، بل في الأوقات الأخرى أيضا، وما كاد يسأل نفسه حتى انقطع الضوء عن حوامات الدليل، مطفئًا إياها من أولها إلى آخرها، وهنا يمر نور المنارة على الباخرة التي ظهرت مرة أخرى، بوصلاتها الآن معطلة، ربما حتى لا يعرف في أي بحر أو محيط تكون، تتحسس طريقها على القناة غير المرئية وبالفعل تتجه إلى المياه الضحلة حتى كان الحوت نفسه ليغرق فيها، ولسوء حظ عوامات الدليل كانت أخر مفتاح للانبهار فأضاء مصباح القارب، ضوء أحمر رفيع غير مزعج، لكنه كان كالشمس تتسنّم البحار، فبفضله صححت الباخرة مسارها وعبرت إلى البوابة الرئيسية للقناة في هدوء.

الضوء يا سعيد الحظ. اشتعلت كل الأضواء في وقت واحد، حتى أن الغلايات أصدرت صوتًا مرة أخرى، وثبتت النجوم في أماكنها، فغطست جثث الحيوانات إلى القاع، وكان هناك صوت ضجة للأطباق ورائحة الصلصال في المطبخ، وسمع أحدهم نبضات اوركسترا على جانب القمر وارتعاش الشرايين بعاشقي البحار في قُمراتهم الخاصة، لم ينفعل أو يدن من الحادث الغريب، والمعجزة، لكنه صمم على أن يكون أكبر مما كان. من سيكون أكبر منه؟ سيرون من هو، بدلًا من الابتعاد. لأنها هي الآن العملاقة، بدأ يجدف في اتجاهها، لأنهم الآن سيرون من هو، ومضى يرشد السفينة بمصباحه حتى غير المسار من حوض السفن مرة أخرى، وأخرجها من القناة الشفافة وقادها كأنها خروف البحر نحو أضواء القرية الغافية، لازالت السفينة منيعة بأضواء المنارة، التي تحيطها بلون الألمنيوم كل ربع دقيقة، الكنيسة، والبيوت التعسة، وسراب الشاطيء يرحل والباخرة تبعد، بإرادتها، القبطان ينام على الحاجز، النيران تتصارع في غرفتها المثلجة، مريض معزول في مستشفاه. مضى اليتيم في أناة، أخطأ الملاح محور حوض السفن. زعيق الصفارة. الضخ انفجر، يتشبع بالبخار الساقط عليه، مرة أخرى، والقارب الذي يحمل شخصًا آخر يوشك أن يغرق، يتأخر كثيرًا لأن القواقع كانت تتكدس عند حيّد الشاطيء، حجارة الشوارع، أبواب الحاقدين، كل القرية أضيئت بأضواء السفينة الهائلة، بالكاد استطاع أن يخرج من طريقه مفسحًا للطوفان، يصرخ، ها هي أيها الجبناء..مرت لحظة قبل أن يرتطم الجسم الضخم بالأرض ويسمع الجميع صوت تهشم

تسعين ألـف وخمسـمائة زجاجـة شـمبانيا بدقـة، واحـدة بعـد الأخـرى، مـن أول السـفينة حتـى آخرهـا، فانطفـأ النـور، ولم يلـد فجـرا لمـارس بـل ظهـيرة أربعـاء مشـتعلة، كان مسـتمتعًا برؤيـة الحاقديـن فاغريـن أفواههـم، يتأملـون الباخـرة، باخـرة المحيـط العملاقـة، فتحـرك أمـام الكنيسـة في هـذا العـالم، بيضـاء، لكـن أكـثر بياضًـا مـن أي شيء وعاليـة، أعـلى عشريـن مـرة مـن الـبرج، وأطـول بسـبع وتسـعين مـرة مـن القريـة..

اسـمها محفـور بحـروف وردية:هايـل سـيلاج...والمياه الغابـرة البطيئـة لبحـار المـوت تتقطّـر عـلى أجنابهـا..

متجر السعادة
ألبرتو مورافيا

قبل منتصف ظهيرة كل يوم بقليل، كان الموظف العجوز، المتقاعد، واسمه ميلون، يخرج من منزله، مصطحبا أرمينيا زوجته، وجيوفانا ابنته. كانت زوجته بدينة ومتقدِّمة في السن، وابنته النحيلة الشاحبة وقد أصبحت الآن مسنَّة وكالمخابيل. كان آل ميلون الثلاثة، الذين يسكنون ساحةديللا ليبيرتا، يصعدون ببطء، على خطا أرمينيا السمينة، يمسحون شارعكولادي ريانزو، متأمِّلين واجهات المحلات الواحدة تلو الأخرى. وكانوا يغيِّرون الرصيف في ساحةريزور جيمنتوويعودون، وهم يتابعون تأمَّل الفترينات بالعناية ذاتها، نحو ساحةديللا ليبيرتا.

يستغرق مشوار الذهاب والعودة حوالي الساعتين، بصبر مناسب حتى تحين ساعة العشاء. ولم يعد أفراد عائلة ميلون الثلاثة، الفقراء جدًا، يدخلون إلى قاعة سينما أو مقهىً منذ زمنٍ طويل. كان التنزُّه هو تسلية حياتهم الوحيدة الممكنة.

وفي يومٍ من الأيام، وبعد أن خرجوا في الساعة المعتادة وصعدوا شارعكولادي ريانزوتقريبًا حتى ساحةريزور جيمنتو، لفت انتباه أفراد عائلة ميلون الثلاثة محل جديد، وكأنه فُتِح بطريقةٍ سحرية، في المكان الذي لم يكن حتى مساء أمس سوى شبكة مغبرة حول حظيرة مهجورة. وكان صقيل الزجاج يمنعهم عن تمييز البضاعة. فاقتربوا، ثلاثتهم، من المحل، ودون أن ينبسوا ببنت شفة، شكلوا نصف دائرةٍ على الرصيف وهم يصطفون أمام واجهاته.

كانوا يرون الآن البضاعة بوضوح: السعادة. كان أفراد عائلة ميلون الثلاثة، مثل جميع الناس هنا، قد سمعوا دائمًا، الحديث عن هذه السلعة، ولم يروها قط. كانوا يتناقشون حولها هنا وهناك، كأنها شيء نادر جدًا، فيصفها البعض بالخيالية، مشككين بوجودها الحقيقي تقريبًا. وصحيح أن المجلات كانت تنشر من حينٍ لآخر مقالاتٍ طويلة مصوَّرة، يقولون فيها إن السعادة في الولايات المتحدة إن لم تكن عامة، فهي على الأقل سهلة المنال؛ لكن، كما نعلم، أمريكا بلاد بعيدة، والصحفيون يتخيَّلون أشياء كثيرة. وعلى ما يبدو، كانت توجد وفرة من السعادة في الأزمنة الغابرة، لكن ميلون، مثل كل الذين كانوا طاعنين في السن الآن، لا يتذكَّر أبدًا أنه رآها يوما ما.

وها هو متجر الآن، وكأن الأمر بديهي، وأن الموضوع يتعلَّق بالأحذية أو أدوات المائدة، يقدِّم صراحةً هذه البضاعة، لأي شخص يرغب في شراءها. وهذا ما يفسِّر دهشة أفراد عائلة ميلون الثلاثة المسمَّرين إلى الأرض، الجامدين أمام هذا المتجر الفريد من نوعه.

ويجدر القول إن هذا المتجر كان يُحسِن عرض بضاعته جيدًا في واجهاته الكبيرة المؤطَّرة بحجر تيبور الرخامي اللامع، وكانت لافتته من طراز عام 1900، وجميع اكسسواراته وزيناته

مصنوعة من المعدن المطلي بالنيكل. وفي الداخل أيضًا، كانت طاولاته على أحدث طراز، وكان بائعان أو ثلاثة من الشبان الحيويين، أنيقي الملبس، يجذبون، بظهورهم فقط، الزبون الأكثر ترددًا. وتظهر في الواجهاتالسعاداتمثل بيضعيد الفصح، وهي معروضة حسب كبرها، وتوافق جميع الميزانيات. فيوجد منها الصغير والوسط والضخم، قد تكون مزيَّفة، وضعت للدعاية. وكان لكل سعادةٍ بطاقتها الصغيرة، مع السعر المدوَّن عليها بالأحرف الطباعية المائلة.

وانتهى الأمر بالعجوز ميلون إلى القول بشيء كبير من السيطرة، معبِّرًا عن أفكارهم جميعا:

-هكذا إذًا، لم أكن لأتوقع ذلك أبدًا..

فسألته الفتاة ببراءة:

-ولماذا يا أبي؟

رد عليها العجوز بانزعاج قائلًا:

-لأنه، ومنذ سنواتٍ عديدة، يُقال لنا بأنه لا توجد سعادة في إيطاليا، وأنها تنقصنا، وأن استيرادها يكلِّف كثيرًا... وها هم فجأةً، يفتحون مخزنًا لا يبيعون فيه سواها.

قالت الفتاة مفكّرة:

-قد يكونون اكتشفوا كنزًا!.

فانبرى ميلون يقول مغتاظًا:

-ولكن أين؟ ولكن كيف؟ ألم يقولوا لنا دائمًا إن باطن الأرض في إيطاليا لا يحتوي على مناجم؟... لا نفط، ولا حديد، ولا فحم، ولا سعادة... ثم، هناك أشياء ينتهي بنا الأمر إلى أن نكتشفها... هل تتخيَّلين... عندي شعور بأنني سأرى عناوين كبيرة تقول: بالأمس، كانفلانيتنزَّه في جبالكادور، واكتشف منجم سعادة من نوعيةٍ ممتازة... هيه، كلا، كلا... إنها بضاعة أجنبية.

وتدخَّلت الأم بهدوءٍ قائلة:

-حسنًا، أين المشكلة؟ هناك، لديهم الكثير من السعادة وهنا، ليس لدينا شيء منها: إنهم يستوردونها... أين الغرابة؟

رفع العجوز كتفيه حانقًا، وقال:

-حججٌ واهية غير معقولة... هل تفهمين فقط ما هو معنى استيراد؟ هذا معناه صرف نقودٍ ثمينة... نقود بإمكاننا استخدامها لشراء القمح... إن البلد يتضوَّر جوعًا، نحن بحاجة إلى القمح... ومهما قلتِ، فإن الدولارات اليسيرة التي نجمعها بالحرَام، نقوم بإنفاقها على

شراء هـذه البضاعـة، هـذه السـعادة!

حتى لفتت جيوفانا انتباه أبيها قائلة:

-ولكننا بحاجةٍ أيضًا إلى السعادة!

أجابها العجوز:

-هـذا شيء غـير ضروري. قبـل كل شيء، يجـب التفكـير في الغـذاء.. أولًا الخبز، ثم تأتي السـعادة... ولكـن عـلى أي حـال هـذا بلـد الـلا منطـق: أولًا السـعادة، وبعد ذلـك الخبز.

فلاحظت زوجته الحليمة:

-كم تغضب سريعًا! حسنًا، أنت لا تحتاج إلى السعادة.. لكن الجميع ليسوا مثلك.

وغامرت ابنته بشيء من الإقدام:

-أنا، مثلًا...

قاطعها الأب بنبرة منذرة:

-أنتِ، مثلًا...؟

فتابعت الفتاة بقنوط:

-أنـا، مثـلًا، سأشـتري حقًـا، واحـدة، واحـدة صغـيرةً منهـا، لأعـرف فقـط كيـف هـي مصنوعـة هـذه السـعادة.

فقال الأب مقاطعًا ومغتمًّا:

-هيا بنا.

وتركت المرأتان نفسيهما تُقْتادان بطاعة كالخراف. لكن العجوز كان الآن منزعجًا. فقال:

-لم أكن أتوقَّع ذلك منكِ حقًا، يا جيوفانا. أنا مصدوم!

-ولمه، يا أبي؟

-لأنهـا بضاعـة مـن السـوق السـوداء، مـن محـدثي النعمـة، مـن أصحـاب الملايـين... إن موظفًـا فيالدولـةلا يسـتطيع أن يطمـح إلى السـعادة ويجـب ألا يفعـل... وعندمـا تقولـين بأنـك تودين شراءهـا، تثبتـين عـلى الأقـل عـدم إدراكك...! كيـف هـذا؟ نحـن نؤجِّـر غرفًـا في منزلنـا، ويصلنـي راتبـي التقاعـدي تقريبًـا في أول الشـهر، وأنـتِ... آهٍ، إنـك تخيِّـبين أمـلي، إنـك تخيِّـبين أمـلي.

غشت الدموع عينيّ ابنته. فقالت الأم:

-هل ترى كيف أنتَ، إنك تمضي وقتك في تأنيبها. ثم إنها لا تملك شيئًا في الحياة، وهي شابة، فأي عجب في أن تحلم بتذوُّق السعادة؟

-ولكن.. لقد استغنى والدها عنها، فهي أيضًا باستطاعتها الاستغناء عنها.

كانوا الآن قد وصلوا إلى ساحةريزور جيمنتو. لكن، خلافًا لعادتهم، أراد العجوز، هذه المرَّة، العودة على الرصيف ذاته. وعندما وصلوا أمام المخزن، توقَّف، ونظر طويلًا إلى الواجهة، وهتف بعناد:

-هل تعرفان ماذا أعتقد؟ إنها مزيَّفة.

-ماذا تعني بالضبط؟

ازدرد ريقه وقال بحماس:

-حسنًا؛ أمس فقط، كنت أقرأ في الجريدة أن سعادة صغيرةً مثل هذه، في أمريكا، أقول جيدًا في أمريكا، تكلِّف عدة مئاتٍ من الدولارات... فكيف من الممكن أن يقدِّموها لنا بهذا الثمن؟ إن سعرها مع تكلفة النقل يكلِّف أكثر بكثير... إنها مزيَّفة، إنها منتجات محليَّة... لا يوجد في ذلك أدنى شك.

جازفت الأم بالاعتراض:

-لكن الناس يشترونها فعلا.

هز كتفيه متحديا:

-وما الذي لن يشتريه الناس... سوف يكتشفون ذلك بعد أن يعودوا إلى منازلهم، خلال عدة أيام... غشاشون!

وتابعوا نزهتهم. لكن جيوفانا كانت تبتلع دموعها، وفي خاطرها أن السعادة، حتى ولو كانت مزيَّفة، ستعجبها كثيرا!

يحيا العدل
كارلوس ديمتريوس

هـذا هـو يـوم سـعده، وحظـه الحسـن..لقد اصطـاد غزالـة جميلة..ثـم أنـه حملهـا إلى الفـرّان ليشـويها لـه..وكان القـاضي يمـر بالمخبـز أثنـاء الـشيّ، فنفـذت الرائحـة الشـهية إلى أنفـه وحواسـه كلها..سـأل القـاضي:

-ما الذي تشويه في مخبزك أيها الفرّان؟

ثم قال بلهجة صارمة نوعًا:

-إنني أريدك أن تعطيني هذا الشواء!

ارتعدت فرائص الفرّان وأجاب:

-ولكنها ملك للصياد..ماذا أفعل عندما يطلبها مني؟

قال القاضي بلهجة جافة:

-قل له: إن الغزالة قد وثبت وفرت هاربة!

قال الفرّان بقلق أكثر:

-ولكنه قد لا يصدقني يا سيدي القاضي!

زفر القاضي محنقًا وقال:

-عندئذ سيأتي بك إليّ!

بعد ذلك بقليل جاء الصياد وطالب بغزالته المشوية..وعندئذ أجابه الفرّان:

-لا شواء هنالك..لقد وثبت الغزالة هاربة..وذلك عندما حاولت وضعها في الفرن!

قبض الصياد على تلابيب الفرّان وصاح:

-قل هذا أمام القاضي!

وفي الشارع كانت زوجة جار الفرّان واقفة، كانت حُبلى بجنين، صاحت فيه شامتة:

-هل قبضوا عليك أخيرًا، يا لص الدقيق!

شـعر الفـرّان بغضـب عـارم، فـركل بطـن المـرأة فسـقطت عـلى الأرض، وأجهضـت جنينهـا، وسـمع زوجهـا صراخهـا فاندفـع للشـارع وصـاح في الفـرّان:

-أيها السفاح..يجب أن تنال جزاؤك عما اقترفت من صنيع..هيا بنا إلى القاضي!

هنا قال الصياد:

-إننا ذاهبون إلى القاضي على كل حال!

وراح الصياد وزوج المرأة يجرّان الرجل جرًا إلى القاضي، وعندئذ قابلا يهودي في الطريق، فقال لهما ساخرًا:

-هل أنتم دائمًا تتشاجرون هكذا؟

صاح فيه الفرّان:

-اخرس!

ثم ضربه، ففقأ له عينًا، فصرخ اليهودي متألمًا:

-أيها الملعون، سأذهب بك إلى القاضي!

وهنا قال الصياد:

-إننا ذاهبون إلى القاضي على أية حال!

فذهب اليهودي معهم وهو لا زال يتألم. وشعر الفرّان بالرعب الشديد، فراح يركض متجهًا إلى المسجد، وراح الناس يجرون خلفه حتى لحقوا به، فصعد إلى سلم المئذنة مرعوبًا، وعندما أدركه أحدهما وحاول الإمساك به، صرعه الفرّان من عند ظهره، وهنا جاء شقيق المصلي وقبض على الفرّان قائلًا:

-أيها القاتل الأثيم..سوف تأتي معي إلى القاضي!

حاول الفرّان أن يحرر نفسه فيهرب..وفي هذه الأثناء اقترب من رجل يمتطي حمارًا فحاول أن يتشبث بذيل الحمار، فقطعه، هنا صرخ صاحب الحمار:

-أيها المجرم..كيف تجرؤ على تعذيب الحيوان؟

وصرخ الناس الذين تجمعوا:

-اذهبوا به إلى القاضي!

وهنا قال الصياد:

-إننا ذاهبون إلى القاضي بالفعل!

ذهب القوم بالفرّان إلى القاضي، الذي راح يهدئهم واحدًا بعد الآخر ثم التفت إلى الصياد

وسأله عن مظلمته، فحكى الصياد ما حدث بينه وبين الفرّان ثم قال القاضي:

-ألا تؤمن بأن الله قد يبعث الغزالة بعد موتها؟..إذن فأنت تكفر بقدرة الله..أحكم عليك بالسجن لمدة عام!

ثم سأل القاضي جار الفرّان الذي أجهضت زوجته عن شكواه، فقال القاضي:

-حسنًا..يجب أن تترك زوجتك حتى تصبح حُبلى مرة أخرى!

ثم التفت إلى الرجل اليهودي وطلب منه أن يتكلم بمظلمته، فحكى اليهودي قصته، فقال القاضي:

-أنت تستحق التعويض أيها الرجل، فالعين بالعين والسن بالسن..من حقك أن تفقأ عين الفرّان!

ثم استدرك قائلًا:

-ولكن القانون ينص على أن عين العربي تساوي عينين ليهودي، إذن فمن حق الفرّان أن يفقأ عينك الثانية!

ثم التفت القاضي إلى شقيق المصلي القتيل وسأله عن شكواه فحكى الرجل ما حدث من الفرّان نحو أخيه..فقال القاضي:

-أنت محق في طلبك بثأر أخيك، اصعد إلى المئذنة واقفز على ظهر الخباز!

وهنا سمع الرجل الذي قُطع ذيل حماره كل المحاكمة، فقفز على ظهر حماره وراح يضربه مبتعدًا وهو يصيح:

-عاشت عدالة القاضي..لقد ولد الحمار بلا ذيل..صدقني يا سيدي القاضي.. صدقني!

برج الحوت
ماتيلدي بيانكي

يأتي من البحر

كان يأتي من البحر

أتى من البحر

لا يزال

أهدي هذه الكلمات التي تحمل عمق الجمال وبعد المأساة إلى الذي أحببته حبا أخويا هو في الغالب أقوى من أي شيء.. هذا الإهداء المشبع بالبحر الذي أحببناه كلانا كما لو كان بيتنا، إليه أهديه. بيد أن زول سبقني، ذلك لأنه وبعنف يثير العجب أنجز قدره؛ فقد ذراعيه و ساقيه ثماني سنوات مباشرة بعد أن كتبت إليه هذه الكلمات. إذا ما بتأن، قرأ قارئي المحترم ما يلي، فسيعرف في النهاية ما حدث لرائعي، زول.

تغطيه هالة زرقاء، لآلئ الزبد الأبدية، بكل أصدافه وبالطبع، الطحالب الخضراء أو قناديل البحر المشعة المنتشرة في القاع، بالأسماك المتوازنة ذوات المنشار أو السيوف، بحر النجوم المكتنفة بالأسرار، رسل الحقائق المحرمة على البشر. الصخور المتآكلة من الانتظار، القواقع الصدفية، بحر قوارب الفناء.

ابتسامته، حين يسبح عبر المضيق الشاسع، لها ألق لا حدود له كمضيق بورتو دو لا بالوما البديع، هناك، على الجبهات الشرقية للأوروجواي الشرقية.

وسرعان ما كان زول ينطلق في حواره الأرضي، ذلك لأنه هناك، في الوحدة المعدنية للماء، الذي ينساب على جسده، كان يتلو مزامير النبوءة، تلك التي لم تكن سوى الواقع المشتهى للمحيطات. وكان يأتي من البحر، مستعدا لكل شيء، مسرورا، موزعا حركات حفاوة، حنونا يمد ذراعيه الطويلتين إلى إيميليا وهو يردد:

-ليس بمقدورك تصور ما أشعر به هناك، لا، أنتِ ليس بمقدورك.

تذكرتْ أن الوقت كان المغيب، قدمت له بحنان فخذ حمل مشوي، يقطر دما. جائعا شرها، تناول زول اللحم بين يديه، تشممه، لكن اندفاعه أخذ شيئا فشيئا يتلاشى، تردد، أهمل قطعة كبيرة في طبقه. ثم أنه ترك المائدة وقد فقد الشهية، ذلك لأن تلك الخفة، وتلك اللقاءات مع ذاته، وتلك الرغبة الرائعة في حب الحياة، حبه للسباحة، غادرته، تاركة إياه ضالا وسط أشياء يومية،على مقربة من الأرض والأحجار. وتأتي ساعات الشمس والقيلولة..

يتأمل إيميليا غافية إلى جانبه، شديدة الانحناءات، كثيرة الحيوية، مدثرة بأكثر من حجاب، مذهبة بهذه الشمس و هذه الأرض، حالمة وبكل تأكيد، بفواكه وأشجار، أو بأفخاذ حملان.

ومتسللا، فر زول، تاركا ذاته تنزلق في حرص على الأرض المعشوشبة، وحينها كان يرشف اليود والملح. كان النسيم البحري يوقظ فيه ضميره الفاتر الهمة. كان يشعر بأطرافه واحدا واحدا وبكثافة، ويودعها في النهاية إلى تلك الفسقية الهائلة والشاسعة، ما وراء بحار الأحلام في جنان الطفولة.

كان زول قد أخذ يسترجع نشاطه. التجديف بالذراعين بداية،ثم مصب المضيق، الفضاء العريض وها عرض البحر كله في ملكه، غياب تلك اللحوم المدماة، نسيان الأجساد الممتلئة، والحجب، وأيضا المتع اليومية العذبة، توديع تلك الألوان الآسرة، للزهور، لفروع الشجر، للعصافير، للثياب، مزينات البيوت، الأدوات غير المستعملة التي تفرض علينا تواصلا يوميا، والتي تولد فينا الحاجة.

إنه، الآن، يمرح، يغطس، يشق برأسه سطح الماء سباحة، خارجا منه ويبتعد، يسبح في اتجاه عرض البحر، يلتحق بالأحواض المتتابعة، يترك ذاته، دون حركة، تطفو على الماء، يتأمل المضيفات الشفافات، الكائنات الذهبية و الفضية، قناديل البحر العمياء ذوات الرؤوس الرائعة و الشعور من الخيوط الحصوية، والتي لا تزال دلالتها منيعة عليه. كان زول لا يعود إلا مع نزول الليل، مرددا، مسميا، مناديا وجوها غير معروفة. كان محميا بالسماء، بقلنسوة قطنية شديدة الزرقة بحيث أن زول يتعذر عليه رؤية الظل. وكانت إيميليا ملتاعة.

شيء ما غريب كان يدور، شيء لم تتمكن بعد من معرفة كنهه. كان زول يردد تلك الأسماء، لكن لم تكن ترى سوى ظله مشكلا بقعة على الحائط الحجري، وأما حديثه المنفرد فكان غير معروف. اعتقدت أنها تبينت وسط تلك الأسماء كلمة نبتون. لكن ربما لم يكن ذلك سوى مجرد وهم. أما زول فلم يكن يزعجه إلا أنفه، ذقنه وعيناه الجاحظتان ورأسه الضخم. كان لا يسمع سوى أصوات آتية من إيميليا التي لا مثيل لها، ولا يرى إلا حركات مفردة غير مفهومة. حينئذ تقبل عليه. ويثور ضد اليد الملتهبة تلك التي تلمس كتفه، ضد رؤية تلك الحفريات، الأعين المتلهفة وأكيدا الممتلئة بفكرة عقد مقارنات، بأطعمة، بأطايب متنوعة، بحيطان أو ببيوت من طين وحجر. كم هو صعب اكتشاف إلى أي حد يمكن لليل أن يجعل الروح حلزونية، وإلى أي مدى هي السماء معتمة والنجوم في الأعالي تفتح ممرات، وتقدم إلينا، بكرم، ليلها الخالص، ساكبة إياه خلسة على الشرم إلى أن تصير المشاهد مشهدا واحدا. زول جامدا وأكثر فأكثر غير ذي بال، متمددا على ملاءات خشنة، يتحسس جلده المشعر. كان قد نام،وحلم بأن حراشف صلبة نبتت له تقيه من البرد، تعزله عن العالم.

عندما استفاق، مرعوبا، لم يستطع أن يحيد ببصره عن النافذة المشرفة على الشاطئ.

وقـرر الهـروب مثـل سـارق ليجـد نفسـه عـلى مبعـدة أمتـار مـن الضفـة الصامتـة. وبصيحـة فـرح كبـيرة، احتفـى بارتمـاء جسـده في المـاء أثـارت شرارات فسـفورية مضيئـة. سـبح إلى أن وصـل صخـور الـرأس. هنـاك بعيـدا، كان المحيـط يفـور بالزبـد، بأعمـدة إشـارات السـفن وصـواري مقدمتهـا المائلـة السـاطعة، بالسـفن التـي لم تصـل في الواقـع أبـدا، برفـات الطيـور التـي تحضـن البحـر وترقـص في ألعـاب ضوئيـة، في شـكل نجـوم دقيقـة صارخـة. وهـذه المـرة، عـاد زول إلى الشـاطئ منهـكا، العينـان شـبيهتان بالزجـاج، غريبتـان عـن طبيعتهـما. أسرعـت إيميليـا إلى أحضانـه باكيـة، كـما يفعـل النـاس. يـبصر زول البيـت جـوار المـاء. يريـد الوقـوف. كان أصـلا يجـد صعوبـة في المـشي. وبجهـد شـديد يصـل إلى العتبـة الحجريـة. كان يكشـف وباسـتمرار عـن سـاقه اليمنـى، محـاولا رسـم ابتسـامة لم تكـن تزيـده إلا تجهـما أو في كل الأحـوال ابتسـامة صفـراء لا معنـى لهـا. كانـت سـاقه تنحـف، مـن السـمانة وإلى القـدم، والبـشرة تخـضر، تفقـد نسـيجها. والعـروق، مثـل شـعرات، تتزاحـم في كتلـة خـضراء شـفافة ترسـل رائحـة الملـح المشـبعة باليـود، والرخويـات. لم تنطـق إيميليـا وهـي تـراه. وسرعـان مـا جمعـت متاعهـا، الأشـياء المحببـة لديهـا. تنـورات داخليـة، أعشـاب، زهـور وقـدور تحـت ذراعهـا، وانطلقـت تركـض متفوهـة بأشـياء لم يتمكـن زول مـن فهمهـا. وتجنبـا للكثـير مـن التعليقـات السـخيفة، نـادوا عـلى أطبـاء وأخصائيـين. فحصـوه، جعلـوه يعتمـد أشـكالا مـن عـدة أوضـاع، صـوروه وعملـوا التحليـلات اللازمـة، استشـاروا مختلـف الزمـلاء في المهنـة. حـضّروا وصفـات طبيـة ألغيـت بعـد ذلـك، سـألوه في مسـائل عموميـة، خصوصيـات، أشـياء حميمـة. منـذ زمـن طويـل، يبحـث زول عـن كلـمات لا تـأتي. ينسـاب عـبر النافـذة عطـر النجـوم والمـد والجـزر. عـبر النافـذة شـفرات لا حـصر لهـا كانـت قـد اسـتعملت. أراد زول أن يتركـوه لحالـه، العينـان اللتـان يحمـل الآن تسـتعطفان. كان يعـرف جيـدا أن في الخـارج رداء الغـروب الأقـرب للنهـار ينتظـر هابطـا عـلى الـشرم. وأن الأمـواج الصغـيرة سـيكون لهـا ألـق يـتراوح مـا بـين الـوردي والأزرق الغامـق.

وصـل زول الضفـة بصعوبـة، وقـد أصيـب بجـروح في أكـثر مـن موضـع إلى أن غطـاه المـاء. عـاد الغسـق إلى سـيرته الأولى، شـعر بهـا في وضـوح. هـو الآن، يسـبح مـن الجيـد إلى الأفضـل. يذهـب و يعـود، ويقـضي وقتـا طويـلا في المـاء ويسـتطيع تأمـل المـدى الشاسـع، اللعـب مثـل سـمكة حقيقيـة، التخلـص مـن كل السـنوات الماضيـة. عندئـذ، تسـللت خلسـة ذكـرى نشـأت خـارج ذاتـه. وقـرر أن يبحـث عنهـا جدفـا بالذراعـين قليـلا، لكنـه لم يجـد الذراعـين. وسـابحا في تمـوج، اقـترب مـن السـاحل. أبـصر المنشـآت البشريـة، النسـاء والأطفـال في أعمالهـم اليوميـة.

كان زول سيد حركاته. هذا العالم لم يعد ينتمي إليه.

الوردة والبلبلة
أوسكار وايلد

صرخ الطالب الشاب:قالت أنها سوف ترقص معي لو جلبت لها وردًا حمراء!

لكن، ليس في حديقته كلها أي ورود حمراء !

ومـن عشـها في شـجرة البلـوط العتيقـة، سـمعته البلبلـة، ونظـرت مـن خـلال أوراق الشـجر، وتعجبـت. لا توجـد وردة حمـراء واحـدة في حديقتـه كلهـا! ظـل يبـكي وعينـاه الجميلتـان فـاض بهـما الدمـع

-آه، كـم أن السـعادة تعتمـد عـلى أشـياء صغـيرة جـدًا! لقـد قـرأت كل مـا كتبـه الحكـماء، وكل أسرار الفلسـفة صـارت ملـكي، والآن، لأننـي لا أجـد وردة حمـراء، تتحطـم حيـاتي!.

-هنـا – أخـيرًا – عاشـق حقيقي.قالـت البلبلةليلـة بعـد ليلـة أبحـث عنـه، حتـى آمنـت بـأن ليـس لـه وجـود: ليلـة بعـد ليلـة حكيـت قصتـه للنجـوم، والآن أراه. شـعره أسـود كبرعـم زهـرة الأقحـوان، وشـفتاه حمـراوان كالـوردة التـي يرغبهـا؛ ولكـن العاطفـة جعلـت ملابسـه مثـل العـاج الشـاحب، والأسى فـرد شراعـه فـوق جبهتـه.

-الأمـير سـوف يقيـم حفـلًا مسـاء الغـد غمغـم الطالـب الشـاب وحبيبتـي سـوف تكـون ضمـن المدعويـن، لـو أننـي أحـضرت لهـا وردة حمـراء؛ فسـوف ترقـص معـي حتـى مطلـع الفجـر. لـو أننـي أحـضرت لهـا وردة حمـراء؛ فسـوف أضمهـا إلى صـدري، وهـي سـوف تريـح رأسـها عـلى كتفـي، وكفهـا سـوف يحتضـن أناملـي، ولكـن، لا توجـد وردة حمـراء في حديقتـي كلهـا، إذن، يجـب أن أبقـى وحيـدًا، وسـوف تمـر عـليّ، لـن تحمـل لي أي ود عـلى الإطـلاق، وسـيتحطم قلبـي.

-هنـا، بالفعـل، عاشـق حقيقيقالـت البلبلةالـذي شـدوت بلوعتـه، الـذي طربـت بآلامـه، الحـب شيء رائـع بالتأكيـد، يـبرق أكـثر مـن الزمـرد، ويتوهـج أفضـل مـن الياقـوت، اللآلـئ والجواهـر لا تسـتطيع شراءه، وهـو لا يُعـرض في سـاحة السـوق، ولا تحملـه سُـفن التجـار، ولا يمكـن حتـى مقايضـة وزنـه ذهبًـا.

-سـوف يجلـس العازفـون في قاعتهمقـال الطالـب الصغيروسـوف يلعبـون بآلاتهـم الموسـيقية، وسـوف ترقـص حبيبتـي عـلى أنغـام الهـارب والفيولـين، سـوف ترقـص بمنتهـى الرشـاقة، حيـث لـن تمـس الأرض قدميهـا، وسـوف يلتـف حولهـا الحُـكام بملابسـهم الزاهيـة، لكنهـا لـن ترقـص معـي، لأننـي ليـس لـدي وردة حمـراء مـن أجلهـا.

وترك نفسه يسقط على العشب ودفن وجهه بين كفيه وراح يبكي..

لماذا ينتحب هكذا؟سألت سحلية خضراء صغيرة كانت تجري أمامه وذيلها منتصب في الهواء.

حقًا، لماذا؟أكدت سؤالها فراشة كانت تحوم حول شعاع شمس..

حقًا، لماذا؟سألت زهرة ياسمين جارتها هامسة بصوت ناعم خفيض..

فأجابت البلبلةإنه يبكي من أجل وردة حمراء!

من أجل وردة حمراءهتفوا جميعًا يا للسخف!وتنحت السحلية الصغيرة جانبًا وغرقت في الضحك.

ولكن البلبلة فهمت سر حزن الطالب، وجلست صامتة فوق شجرة البلوط، وراحت تفكر في لغز الحب.

فجأة، فردت جناحيها البنيّان للطيران، وحلقت في الهواء، وعبرت السهل كظل، ومثل ظل أبحرت عبر الحديقة، وفي منتصف بقعة العشب كانت تقف شجرة ورد حمراء جميلة، وعندما رأتها، حامت حولها وأطلقت صفيرًا، وهتفت:

-اعطيني وردة حمراء، وسوف أغني لك أجمل أغنياتي.

ولكن الشجرة هزت رأسها وأجابت:

-إن ورودي بيضاء، بيضاء كزبد البحر، وأكثر بياضًا من الثلج على قمم الجبال، ولكن اذهبي إلى أخي الذي ينمو عند ضوء الشمس الغارب، لعله يعطيك ما تريدين.

ومن ثم حلقت البلبلة فوق شجرة الورد عند شعاع الشمس الغارب وصاحت:

-اعطني وردة حمراء، وسوف أغني لك أجمل أغنياتي.

ولكن الشجرة هزت رأسها وأجابت:

-إن ورودي صفراء، صفراء كشعر العذراء التي تجلس على العرش الكهرماني، وأكثر اصفرارًا من قرنفلة تتفتح في أول الربيع. ولكن اذهب إلى أخي الذي ينمو تحت نافذة الطالب، ولربما يعطيك ما تريدين.

فذهبت البلبلة لتُحلّق فوق شجرة الورد التي تنمو تحت نافذة الطالب وصاحت:

-أعطني وردة حمراء، وسوف أغني لك أجمل أغنياتي.

ولكن الشجرة هزت رأسها وأجابت:

-إن ورودي حمراء، حمراء مثل قدم الحمامة، وأكثر احمرارًا من الأعشاب المرجانية

المروحية التي تتموج وتتموج في كهف المحيط. ولكن الشتاء جعل عروقي ترتجف، وغلف الجليد براعمي، وكسرت الريح فروعي، ولهذا فليس لدي أي ورود طوال العام.

-وردة حمراء هي كل ما أريدههتفت البلبلةوردة حمراء واحدة فقط! ألا توجد أي وسيلة لأحصل عليها؟

فأجابت الشجرة:هناك وسيلة، لكنها مخيفة جدًا بحيث لا أجرؤ على ذكرها لك!

فأسرعت البلبلة تقول:قوليها لي، أنا لست خائفة.

قالت الشجرة:لو أنك تريدين وردة حمراء، فيجب أن تزرعيها بالألحان عند ضوء القمر، وترويها بدماء قلبك. وتغني أمامي حيث تنغرز شوكة في صدرك، تغني لي طوال الليل، فيجب أن تخترق الشوكة قلبك، ودماؤك الحية سوف تسري في عروقي، وتصبح دمائي.

صرخت البلبلة:ولكن الموت ثمن فادح مقابل وردة حمراء، والحياة عزيزة دائمًا على صاحبها، إنها السعادة أن أجلس فوق الفرع الأخضر أتأمل الشمس في معطفها الذهبي والقمر في رداءه الفضي كاللؤلؤة. اللذة هي عطر القش، وأزهار البنفسج المتوارية في الوادي، وأشجار الياسمين على التل! والحب أفضل من الحياة، وماذا يكون قلب الطير مقارنة بقلب الإنسان؟. ثم فردت جناحيها البنيّان، وحلقت في الهواء، عبرت الحديقة كظل، ومثل ظل أبحرت عبر السهل.

الطالب مازال راقدًا على العشب، حيث تركته، وفي عينيه الجميلتين؛ لم تجف دموعه بعد. وصاحت البلبلة:فلتسعد، فلتسعد، سوف تحصل على وردتك الحمراء، وسوف أزرعها على الألحان تحت ضوء القمر، وأرويها بدماء قلبي، وكل ما أسألك إياه في المقابل هو أن تكون عاشقًا حقيقيًا، لأن الحب أحكم من الفلسفة، لو أنها حكيمة، وأقوى من السلطة، لو أنها قوية، أجنحته بلون اللهيب، وبلون اللهيب جسمه. شفتاه بحلاوة العسل، وأنفاسه هي الصدق ذاته.

نظر الطالب من فوق العشب، وأنصت، لكنه لم يفهم ما كانت تقوله البلبلة، لأنه لم يكن يفهم غير تلك الأشياء الموضوعة في الكتب. ولكن شجرة البلوط فهمت، وشعرت بالأسى، لأنها كانت مغرمة بالبلبلة للغاية، البلبلة الصغيرة التي بنت عشها فوق فروعها.

-غني لي أغنية أخيرةهمست شجرة البلوطسوف تمزقني الوحدة، عندما تذهبين. فغنت البلبلة لشجرة البلوط، وكان صوتها كصوت ماء ينسكب من بريق فضي. وعندما انتهت من أغنيتها، اعتدل الطالب وأمسك النوتة الصغيرة وأخرج من جيبه قلمًا من رصاص. وقال لنفسه وهو يمشي بعيدًا فوق السهل:

-إن لديها أسلوب خاص، هذا لا يمكن إنكاره، ولكن، هل لديها إحساس؟ أعتقد: لا. في

الحقيقـة، هـي معظـم الفنانـين، منتهـى الاحـتراف، دون أي إخـلاص. هـي لـن تضحـي بنفسـها مـن أجـل الآخريـن. إنهـا تفكـر جـل وقتهـا في الموسـيقى، والجميع يعرفـون إن الفنانـين أنانيـون. ولكنها، لا زالـت تحمـل في صوتهـا نوتـات موسـيقية بديعـة، ولكنهـا لا تعنـي أي شيء عـلى الإطـلاق، ولا تحمـل أي معنـى لأي إحسـاس جديـد حقيقي.ثـم دخـل حجرتـه، ورقـد عـلى فراشـه الصغـير وبـدأ يفكـر في حبيبتـه، وبعـد فـترة، غـرق في النـوم.

وعندمـا اعتـلى القمـر المرتفعـات حتـى السـماء، حلقـت البلبلـة فـوق شـجرة الـورد، وأراحـت صدرهـا عـلى سـن الشـوكة، وطـوال الليـل راحـت تغنـي والشـوكة تنغـرز في صدرهـا أكـثر وأعمـق، وبـدأ دمهـا الحـي ينـز منهـا.

غنـت في البدايـة عـن ميـلاد حـب في قلـب ولـد وبنـت، وعـلى قمـة شـجرة الـورد أزهـرت وردة حمـراء بديعـة، بتلـة تلـو البتلـة، حيـث أغنيـة تـلي أغنيـة. وتعلّـق الضبـاب فـوق النهـر، شـاحب كقدمـيّ الصبـاح، وفـضي كأجنحـة الفجـر. ومثـل انعـكاس وردة في مـرآة مـن الفضـة، وظـل وردة في بحـيرة صافيـة؛ هكـذا أينعـت الـوردة عـلى أعـلى قمـة لشـجرة الـورد.

ولكـن شـجرة الـورد صاحـت في البلبلـة أن تضغـط عـلى الشـوكة:اضغطي بقـوة أكـثر، وإلا سـيأتي النهـار قبـل أن تكتمـل الـوردة. فضغطـت البلبلـة عـلى الشـوكة أكـثر، وعـلا صوتهـا أكـثر وأكـثر وهـي تغنـي ميـلاد العاطفـة في روح رجـل وعـذراء. فأصطبـغ لـون البتـلات الشـاحب في الـوردة بلـون وردي خجـول تسـلل عـلى اسـتحياء، كحمـرة الخجـل عـلى وجـه عريـس يقبـل شـفتيّ عروسـه. ولكـن الشـوكة لم تصـل بعـد إلى قلبهـا؛ فظـل قلـب الـوردة أبيـض، لأن دمـاء قلـب البلبلـة وحدهـا هـي القـادرة عـلى صبـغ قلـب الـوردة.

وصرخـت الشـجرة في البلبلـة لتضغـط عـلى الشـوكة أكثر:اضغطـي أكـثر أيهـا البلبلـة الصغـيرة، وإلا سـيأتي النهـار، قبـل أن تكتمـل الوردة.فضغطـت البلبلـة عـلى الشـوكة أكـثر، ولمسـت الشـوكة قلبهـا، واخترقتهـا قسـوة الألم، لاذع، لاذع هـو مـذاق الألم. وصـارت أغنيتهـا أعنـف وأعنـف، حيـث غنّـت عـن الحـب الـذي وصـل إلى مرحلـة الكـمال، بالمـوت، وعـن الحـب الـذي يمـوت خـارج القـبر. واصطبغـت الـوردة بالأحمـر، مثـل وردة السـماء الشرقيـة، الأحمـر كان يصبـغ البتـلات وكان القلـب كياقوتـة.

ولكـن صـوت البلبلـة قـد وهـن، وارتخـى جناحاهـا الصغـيران، وغشـاوة سـقطت عـلى عينيهـا. وصـارت أغنيتهـا أضعـف وأضعـف. وشـعرت بـشيء يرتـج في حلقهـا.

ثم أطلقت أخر دفعة من النغم، سمعها القمر الأبيض، فنسى الفجر، وتألق في السماء.

سـمعتها الـوردة الحمـراء فارتجفـت مـن نـيران الرغبـة، وفتحـت أوراقهـا لهـواء الصبـح البـارد. ورددهـا الصـدى في كهـوف الجبـل القرمزيـة وأيقـظ الوحـوش مـن أحلامهـا. طفـت عـلى سـطح

النهر فحملت رسالتها إلى البحر.

وعند الظهيرة فتح الطالب نافذته ونظر خارجها وصاح:يا إلهي! يا له من حظ عظيم، ها هي هنا وردة حمراء! لم أر مثلها أبدًا في حياتي. كم هي جميلة، أنا متأكد أن لها اسمًا لاتينيًا طويلًا!ثم مال بجسده وقطفها. ثم ارتدى قبعته وجرى إلى منزل البروفيسور والوردة في يده، ابنة البروفيسور كانت تجلس عند مدخل الباب، تلف خيطًا من الحرير الأزرق حول بكرة في يدها، وكلبها الصغير كان قابعًا عند قدميها.

-لقد قلت أنك سوف ترقصين معي لو أحضرت لك وردة حمراء.هتف الطالبها هي أكثر الورود احمرارًا في العالم بأكمله، سوف تشبكينها على ردائك فوق قلبك تمامًا، وعندما نرقص سويًا الليلة، سوف تخبرك كم أنا أحبك.

ولكن الفتاة عقدت حاجبيها وأجابت:أعتقد أنها لن تناسب فستاني، كما أن ابن أخت كبير الوزراء قد أرسل إليّ بعض المجوهرات الأصلية، والجميع يعرفون أن المجوهرات تتكلف أكثر من الورد!.

قال الطالب بمنتهى الغضب:تخالفين وعدك، يا لك من جاحدة؟!وألقى الوردة إلى الشارع، فسقطت بين المارة، وسحقتها عجلات عربة عابرة.

جاحدة؟!قالت الفتاةكم أنك وقح و.. وبرغم كل شيء؛ مجرد طالب. ولا أعتقد أنه يمكنك أبدًا أن تشتري نعلًا فضيًا لحذائك كما فعل ابن أخت كبير الوزراء!ونهضت من على مقعدها ودخلت المنزل.

أي شيء سخيف هو الحب!قالها الطالب وهو يمشيإنه لا يساوي نصف قيمة (المنطق)، فهو لا يبرهن على أي شيء، وهو يخبر المرء دومًا بأشياء لن تحدث أبدًا. ويجعل المرء يصدق أمورًا ليست حقيقية بالمرة. في الحقيقة، إنه غير عملي بالمرة، وفي هذا العصر يصبح التفكير العملي هو كل شيء، ينبغي أن أعود إلى الفلسفة وأدرس الميتافيزيقيا.

وعاد إلى حجرته، وسحب كتابًا ضخمًا غارقًا في الغبار، وبدأ يقرأ.

العملاق الأناني
أوسكار وايلد

عند كل ظهيرة، وعندما يعودون من المدرسة، اعتاد الأطفال الذهاب للعب في حديقة العملاق.. كانت حديقة واسعة بديعة، ذات عُشب أخضر ناعم. هنا وهناك في كل مكان على العشب انتصبت الزهور كالنجوم، وكانت هنالك اثنتي عشر شجرة خوخ، تزهر في وقت الربيع زهرات وردية وصفراء، وفى الخريف، تبدأ الثمار الرطبة في الظهور. الطيور تجلس على الأشجار، وتغني بعذوبة تجعل الأطفال يتوقفون عن ألعابهم قليلًا للاستماع إليها.

كم كنا سعداء في هذا المكان! هكذا كانت تصيح بعضها للأخرى.

وفي أحد الأيام، عاد العملاق. إذ كان في زيارة لصديقه الغول، ومكث معه لمدة سبع سنوات، وبعد ما انتهت السنوات السبع، وبعد ما قال كل ما أراد أن يقوله ـــــ إذ أن محادثته كانت محدودة ومؤقتة ـــــ تذكر أن يعود إلى قلعته الخاصة. وعندما وصل إليها، رأى الأطفال يلعبون في الحديقة.

-ماذا تفعلون هناك؟صرخ في صوت هائل مهيب، جعل الأطفال يعدون هاربين من أمامه.

-حديقتي هي حديقتي أنا وحدي.هكذا قال العملاق،أي شخص يمكنه أن يفهم هذا، فلن أسمع لأي مخلوق أن يلعب هنا.. إلا أنا.

ولذلك بني حائطًا عاليًا حولها بالكامل، ثم وضع لافتة للتنبيه:

[أملاك خاصة.. ممنوع الدخول]

كان عملاقًا أنانيًا تمامًا.

ولم يعد للأطفال المساكين الآن مكان يلعبون فيه. حاولوا اللعب في الطريق، لكن الطريق كان مملوءًا بالغبار، والأحجار الصلبة، ولم يحبونه أبدًا. ولقد اعتادوا أن يتجولوا حول الجدار العالي بعد انتهاء دروسهم، والحديث عن الحديقة الجميلة بالداخل.

كم كنا سعداء في هذا المكان! هكذا كانوا يقولون بعضهم للآخر.

ثم جاء الربيع، وفي كل أنحاء البلاد انتشرت الأزهار الصغيرة، والطيور المغردة..عدا حديقة العملاق الأناني، مازال الشتاء قائمًا، ولم تعد الطيور تُغرِّد فيها؛ إذ لم يكن بها الأطفال، ونست الأشجار أن تُزهر أو تُثمر، وعندما حاولت إحدى الزهرات ذات مرة أن تُخرج رأسها من

العشب، رأت اللافتة التي تُحظر الدخول، فتأسفت من أجل الأطفال وأسرعت عائدة إلى الأرض مرة أخرى، واستمرت في النوم. وحدهم سعدوا برؤية الثلوج تتساقط والجليد يتكوّن.

-لقد نسى الربيع هذه الحديقة.هكذا صاحواإذن سوف نعيش هنا طوال العام.

غطى الجليد العشب تمامًا بردائه الأبيض العظيم، ولوّن الصقيع الأشجار كلها باللون الفضي. وحدها الثلوج والأصقاع سعدت بحديقة العملاق، فدعت الرياح الشمالية لتبقى معها، وقد جاءت بالفعل. جاءت متلفحة بالعواصف الهائجة، جاءت طوال النهار حول الجدار وعند فتحات المداخن. وقالت:هذا مكان جميل، يجب أن ندعو الأمطار إلى زيارة. فجاءت الأمطار كل يوم ولمدة ثلاث ساعات تسقط فوق سطح القلعة، حتى حطمت معظم الواحة، ثم هطلت حول الحديقة كلها بأسرع ما أمكنها. كانت ترتدي ثوبًا رماديًا وكانت تتنفس الثلج.

-لا يمكنني أن أفهم، لماذا تأخر الربيع هكذا عن المجيء.سأل العملاق نفسه، عندما كان يجلس عند النافذة وينظر من خلالها إلى حديقته البيضاء الباردةأتمنى أن يحدث أي تغيير في الطقس.

لكن الربيع لم يأت أبدًا، ولا حتى الصيف. أما الخريف فقد أعطى فاكهته الذهبية للحدائق كلها، ولكن لحديقة العملاق لم يعط شيئًا.

-إنه أناني جدًا.هكذا قال الخريف، لهذا كان دائمًا الشتاء هناك، والرياح الشمالية والأمطار والجليد والثلوج تتراقص بين أفرع الأشجار.

وذات صباح كان العملاق يرقد مستيقظًا في فراشه، عندما سمع موسيقى بديعة، كانت جميلة جدًا في أذنيه، فتوقع أنها لابد أن تكون موسيقى بلاط الملك تعبر هنا.

لم يكن إلا بلبل صغير يغرّد خارج نافذته، لكنه منذ أمد طويل لم يسمع طائرًا يغني في حديقته، مما جعلها تبدو بالنسبة إليه أجمل موسيقى في العالم، ثم توقفت الأمطار عن الرقص فوق رأسه. وخفّت شدة الرياح الشمالية، وتسرَّب عطر لذيذ إلى حواسه عبر النافذة المفتوحة، فقفز العملاق من فراشه ليرى ما هناك وهو يصيح:

-لابد وأن الربيع قد جاء أخيرًا!

ما الذي رآه؟

رأى أكثر المشاهد جمالًا.

عبر فتحة صغيرة في الجدار تسلل الأطفال إلى الداخل، وجلسوا على أفرع الأشجار. على كل شجرة رأى طفلًا على الأقل. وكانت الأشجار سعيدة جدًا بعودة الأطفال مرة أخرى،

وغطت نفسها ثانية بالأزهار المتفتحة، وجعلت أذرعها تتأرجح بنعومة فوق رؤوس الأطفال. وكانت الطيور تطير هنا وهناك، تغرّد من فرط السعادة. وتطلّعت الأزهار من العشب الأخضر وضحكت. كان مشهدًا بديعًا!

فقط في ركن واحد مازال الشتاء. كان أبعد ركن في الحديقة، حيث وقف ولد صغير. كان صغيرًا جدًا فلم يستطع أن يصل إلى فروع الشجرة، وكان يحوم حولها ويبكى بمرارة. الشجرة المسكينة لازالت مغطاة بالثلوج والرياح الشمالية تلف حولها وفوقها.

-اصعد أيها الطفل الصغير.قالت الشجرة، ثم أحنت فروعها لأسفل بقدر ما استطاعت؛ ولكن الطفل كان قصيرًا جدًا.

وتألم قلب العملاق عندما رأى هذا كله وقال:كم كنت أنانيًا؟ الآن أعرف لماذا لم يأت الربيع إلى هنا، سوف أضع الطفل الصغير فوق الشجرة ثم أهدم الجدار وستكون حديقته ملعبًا للأطفال دائمًا وإلى الأبد.كان حقًا متأسفًا لما فعله من قبل.

لهذا تسلل هابطًا الدرج وفتح الباب الأمامي ببطء وبنعومة وذهب إلى الحديقة، ولكن عندما رأوه الأطفال شعروا بالرعب الشديد وهربوا جميعًا. وأصبحت الحديقة تعاني من الشتاء مرة أخرى.

الطفل الصغير وحده لم يهرب، لأن عينيه امتلأتا بالدموع فلم يمكنه رؤية العملاق، فتسلل العملاق خلفه بخفه وحمله برقه بيده ووضعه فوق الشجرة. فتفتحت أزهارها في لحظة واحدة، وجاءت الطيور وحطت عليها وراحت تغرد. ومد الطفل الصغير ذراعيه وأحاط بهما عنق العملاق وقبّله.

وعندما رأى الأطفال الآخرون أن العملاق لم يعد شريرًا، عادوا مسرعين، ومعهم جاء الربيع.

-إنها حديقتكم من الآن أيها الأطفال الصغار.

قالها العملاق وأخذ فأسًا هائلًا وراح يهدم الجدار. وعندما كان القوم يذهبون إلى السوق في الساعة الحادية عشر ظهرًا، وجدوا العملاق يلعب مع الأطفال في أجمل حديقة رأوها في حياتهم.

لعبوا طوال النهار، وفي المساء ذهبوا إلى العملاق ليقولون له:مع السلامة. فقال:

-ولكن أين رفيقكم الصغير، الولد الذي وضعته على الشجرة.

لقد أحبه العملاق من كل قلبه لأنه قبّله... وأجاب الأطفال:

-إننا لا نعرف.. لقد ذهب بعيدًا.

-لابد أن تخبروه وتؤكدون عليه أن يحضر هنا غدًا.

قـال العمـلاق لهـم، لكـن الأطفـال قالـوا أنهـم لا يعرفـون أيـن يعيـش، ولم يرونـه أبـدًا مـن قبـل.. فشـعر العمـلاق بالحـزن العميـق.

وعنـد كل ظهـيرة، عندمـا تنتهـي المدرسـة، يـأتي الأطفـال ويلعبـون مـع العمـلاق. ولكـن الطفـل الصغـير الـذي أحبـه العمـلاق لم يظهـر ثانيـة أبـدًا. كان العمـلاق لطيفًـا جـدًا مـع كل الأطفـال، بالرغـم مـن افتقـاده لصديقـه الصغـير، وأوقـات كثـيرة كان يقـول لنفسـه:كم أشـتاق لرؤياك؟!هكذا اعتـاد أن يقـول، ومـرت سـنوات، وصـار العمـلاق عجـوزًا جـدًا وضعيفًـا، ولم يعـد يسـتطيع اللعـب ثانيـة، لهـذا جلـس عـلى مقعـد ضخـم وراقـب الأطفـال في ألعابهـم وأُعجـب بحديقتـه

إن لدي أزهار كثيرة جميلة.. ولكن الأطفال أجمل الأزهار.

وذات صباح في الشتاء رأى من نافذته عندما كان يرتدي ثيابه بوادر الثلوج والأمطار، ولكنه لم يعد يكره الشتاء الآن، لأنه قد عرف أنه الوقت الذي ينام فيه الربيع وتأخذ فيه الأزهار وقتًا للراحة.

فجـأة، فـرك عينيـه في دهشـة، ونظـر ثـم حـدق. كان هـذا بالتأكيـد مشـهدًا مذهـلًا، ففـي أبعـد ركـن بالحديقـة كانـت هنـاك شـجرة مغطـاه تمامًـا بالأزهـار البيضـاء، فروعهـا ذهبيـة تتعلـق منهـا فاكهـة فضيـة. وتحتهـا وقـف الطفـل الصغـير الـذي أحبـه. هبـط العمـلاق السـلالم في منتهـى السـعادة وخـرج إلى حديقتـه، وجـرى فـوق الحشـائش واقـترب مـن الطفـل.

وعندما صار أمامه تمامًا، احمر وجهه من الغضب وصاح:

-من الذي جرؤ على إصابتك بهذه الجروح؟

إذ كانت على كفيّ الطفل آثار ظفرين، وآثار ظفرين آخرين على القدمين الصغيرتين.

-من جرؤ على جرحك هكذا؟صرخ العملاقأخبرني حتى أحضر سيفي الكبير وأذبحه!

أجاب الطفل:

-كلا.. لكنها جروح الحب.

-من فعلها إذن و...

فجـأة، بشـكل غـير مألـوف سـقط العمـلاق عـلى ركبتيـه أمـا الطفـل الصغـير. وابتسـم الطفـل للعمـلاق وقـال لـه:

-لقد تركتني ألعب في حديقتك يومًا، اليوم يجب أن تأتي معي إلى حديقتي.. إنها الجنة.

وعندما جاء الأطفال مسرعين بعد الظهيرة، وجدوا العملاق يرقد ميتًا تحت الشجرة..

وعليه غطاء كامل من الأزهار البيضاء..

الأرنب البرية
جراتسيا ديليدا

بحيرة صغيرة تتلألأ في منتصف جزيرة صغيرة في وسط النهر العريض أو هي بركة ذات لمعان فضي ضارب إلى الخضرة، تحيط بها أشجار الصفصاف العملاقة وشجيرات الحور والسنط البري، وأعشاب طويلة لينة وأخرى جافة وأوراق مخملية، مزيَّنة بزهور أرجوانية غريبة من نبات عباد الشمس.. وكانت صورة الطبيعة كلها تنعكس في هذه البركة الصغيرة، فتبدو مثل لوحة زيتية من أروع ما يكون..

كان جو الخيال الأسطوري يسود المكان كله، فكانت سماء الخريف نهارًا تحفل بالألوان المتعاقبة وبالسحب ذات المزاج المتقلب، وكانت السماء ليلًا يسطع فيها القمر الذي يبدو هائلًا يميل لونه إلى اللون الأحمر وتلمع فيها النجوم، وتتماوج في مرآة البحيرة العميقة أشباح شجر الحور.

وذات مساء وصل الصياد فألقى مرساه قاربه على الضفة الهشة للجزيرة المهجورة، مخلفًا آثار أقدامه وهو يسترق الخطى فوق الرمال البكر التي لم تطأها قدم مخلوق من قبل.. ورأى القمر العملاق الأحمر وهو يشرق بين أشجار الحور، ثم شاهده في صورة أكثر بهاءً منعكسًا على صفحة مياه البركة الصغيرة.. وتوقف لحظة وقد حدّق ببصره إلى الصورة المنعكسة الغارقة في الضياء، شاعرًا بسحر هذا العالم الغامض المجهول والسماء البعيدة المحملة بالأسرار.. والتي كانت تبدو في قلب الأرض ذاتها - إن كان هناك شيء كهذا - وكانت هناك أرنبة برية عجوز تعيش بين أشجار السنط على الشاطئ، فشاهدت الرجل المجهول - وكان عدوها اللدود - فلاذت بالفرار.. وطفقت تعدو بخفة ورشاقة وسرعة مسافة طويلة محاولة ألا تحدث صوتًا.. وقد انتصبت أذناها مثل نصل السكين، وكأنها خنجر جهزته للدفاع عن نفسها!

لم يتخل الرجل عن طموحه.. لكن تخلت الأرنب عن أحلامها بعد أن أفلتت بأعجوبة من الموت، وعندما وصلت إلى أعماق الغابة، قبعت بأنفها الصغير المرتعش تصغي، وتشم الهواء، تحت شجرة كثيفة، وانتظرت ردحًا من الزمن، وكانت دقات قلبها تتسارع بشكل لم تعهده من قبل، والواقع أن الفيضانات الأخيرة أدت إلى انقراض جميع الأرانب البرية من الجزيرة؛ إذ قتل بعضها بالبنادق، وصيد بعضها في شباك الصيادين، ووقع بعضها في فخاخهم.. وجرف النهر الثائر البعض الآخر إلى حتفهم.. فتخيَّلت الأرنب العجوز أنها أصبحت سيدة هذا المكان، وراحت تحلم بأن تقضِ وقتها وحدها في هدوء ما بقي لها من العمر في هذه الخلوة، كانت عجوزًا منهكة تشعر بالوحدة بعد أن هجرها أولادها، ولم يعد الذكور

يطلبونها، فلا بأس من الحياة في هذا الركن المنعزل من الجزيرة دون التعرض للخوف أو للخطر..

أما حين يأتي الربيع بالسيول فكانت تقيم بين بعض جذوع الأشجار التي يجرفها السيل إلى الضفاف المرتفعة فوق البركة الصغيرة، إذ لم يكن من أحد يهتم بأن يعبر منطقة الرمال التي تعترضها المستنقعات في الجزيرة؛ بل وحتى بعد أن تجف الرمال وينمو العشب على شاطئ البركة، لم يكن صائد الحيوانات أو صائد الأسماك يزور الجزيرة..

السكون والعزلة!

ولم تكن تسمع سوى صوت البلابل على أغصان الحور السامقة وهي تغني ألحانها لتصاحب خشخشة الأوراق التي تلقي على المياه الجارية التحية، وقالت الأوراق التي يغمرها ضوء القمر الناعس:

- (الوداع أيتها المياه! الحركة أفضل من السكون.)

وأجابت المياه وهي تهرع نحو البحر:

- (الوداع! السكون أفضل من الركض إلى الأبد.)

وكانت الأرنب العجوز تصغي لذلك الحوار، التي أُفعم قلبها بالسعادة، إذ شعرت أنها أقوى من كل الأشجار، وأسرع ركضًا من المياه الجارية، وأحست بالرضا لقدرتها على السكون وقدرتها على الركض وقتما تشاء.. ومرت الشهور وصمتت البلابل..

بدأت أشجار الحور تسقط أوراقها.. وشعرت الأرنب العجوز أنها لم تعهد مثل هذا الهدوء، وهذا الأمن من قبل في حياتها، وها هو ذا الشبح المجهول الفتاك يعود فجأة إليها.. ترى، لماذا عاد؟

قبعت في مخبئها تحت الشجيرات وقد ثبتت حركة عينيها الكبيرتين تحت جفنيها الحمراوين، وتطلعت للأمام فرأت بعيدًا عنها، منطقة رملية يسطع عليها ضوء القمر، يحدها دغل كثيف، ومساحة من الخلاء الذي تمتعت فيه هي أيضًا في أيام صباها الهانئة، بالوثب هنا وهناك، وتعقب ظلها على الأرض، واللعب بين الكلأ الأخضر، أو انتظار رفيقًا في الليالي، التي يضيء فيها القمر..

شاهدت ظلًا يتحرك على الرمال، يعقبه ظل، فر، وظنت الأرنب العجوز أنها تهذي أو هي في أحداث حلم ما.. ولكن الظلين عادا فتوقفا ثم استأنفا لعبتهما العجيبة..

كلا.. لم يعد لديها أي ذرة شك الآن..

إنهما أرنبين بريين!

لا زالت الأرنب العجوز تظن أنه حلم.. ولكن بمراجعة نفسها أيقنت من أنها الحقيقة.. وهنا عرفت سر سبب عودة عدوها الغامض.. ذلك الصيَّاد في تلك الليلة إلى الجزيرة..

وهنا غلى الدم في عروقها، بقدر ما يمكن أن يكون غضب الأرنب عارمًا.. ولكنها لم تقنع نفسها بأنها أخطأت بالبقاء وحيدة في الجزيرة.. بل تصورت أن الأرنبين قد وضعا أيديهما دون وجه حق على جزيرتها.. كان السن والعزلة قد جعلاها أكثر شراسة وعدوانية، حتى أن غضبها من ظهور الأرانب كان أكثر فورانًا من غضبها لرؤية الصياد المجهول.. وعندما أقدمت على الخروج من مخبئها وخطت نحو الساحة الرملية وأدركت أن الأرنبين كانا زوجين محبين.. ازداد عنف غضبها احتدامًا.. إلا أن هذا لم يمنع الأرنبين من مواصلة اللعب والتواثب والعدو معًا..

كانت الأنثى – بطبيعة الحال – أكثرهما بدانة.. وتكاد تكون شفافة الأذنين؛ إذ كان لونهما وردي من الداخل وداكن من الخارج.. وكانت تتواثب هنا وهناك، إذ جعلت تتقافز حول رفيقها متظاهرة بأنها لا تراه، ثم ترقد مسترخية على الرمال، فإذ حاول أن يلهو معها، جرت مبتعدة.. أما رفيقها فقد كان نحيلًا مسرورًا للغاية، ولم يكن ينظر إلا إليها.. ثم يطاردها.. كانا في غاية السعادة والحبور.. لا يحملان من هموم الدنيا شيئًا..

ولم تكف عين الأرنب العجوز عن النظر إليهما.. وحتى حين كان الزوجان السعيدان يختفيان من الساحة بسبب الإرهاق من فرط الوثب المستمر، كانت العجوز لا تغادر مكانها، وتظل عينها على الساحة، وأذناها منتصبتان ترتعشان مثل أوراق الشجر في مهب الريح.. ومرت الليالي والأيام.. وذبل القمر في نهاية دورته.. وعم الظلام الدامس في كل مساء.. إلا أن الأرنب العجوز لم تعد إلى شاطئ البركة خوفًا من الصياد.. بل ظلت مختبئة في أكثر أعماق الغابة إظلامًا.. ولم تكن تخرج من مخبئها إلا نادرًا.. فتقترب من الساحة أثناء الليل لتتسلى بمشاهدة الأرنبين الزوجين..

وذات يوم.. سمعت صوت طلقة نارية.. ثم طلقة أخرى..

ثم عدة طلقات أخرى بعيدة وغامضة.. كأنها أصداء صوت الطلقة الأولى.. كانت ليلة دافئة.. وقد مال الهلال للغروب خلف أشجار الحور الذابلة.. أما الشيء الغريب هو أنها لم تشاهد الأرنبين الزوجين.. لابد أن العدو المجهول قد ظفر بهما.. شعرت بسعادة غامرة حتى أنها قد بدأت تثب على الرمال، حيث كانت آثار أقدام الأرنبين المسكينين ما تزال موجودة..

ولكنها سمعت وقع أقدام آدمية، فأسرعت تهرول فارة بعيدا، كانت تلهث ولا تستطيع رؤية شيء وهي تنطلق هاربة خلال الغابة حتى كادت أن تصل إلى الضفة الأخرى للنهر وهناك كمنت في مخبئها حتى ظهر الفجر في تلك البقعة التي لم تعلمها من قبل..

وعـلى ضـوء الفجـر أفاقـت عندمـا ظهـر عـلى الغابـة التـي تدثـرت بغـلالات ضبابيـة حيـث تتسـاقط مـن الأشـجار قطـرات نـدى الصباح..فخرجـت الأرنـب العجـوز تسـتطلع الأمـر وهبطـت إلى حفـرة صغـيرة عـلى الفـور.. إذ وقعـت عيناهـا عـلى مشـهد مـزَّق نيـاط قلبهـا، عـلى الرغـم مـن حـدة طباعهـا..

رأت جحـرًا فيـه أرنبـان صغـيران في العـام الأول مـن العمـر.. ناعـمان، مكـوّران، الـبراءة كـما يجـب أن تكـون، آذانهـما شـفافة، وأعينهـما كبـيرة حمـراء براقـة.. وخمنـت أنهـما مـن أطفـال الأرنبـين الذيـن قتلهـما الصيَّـاد.

كان أحدهـما يلعـق رأس أخيـه وأذنيـه، وعندمـا لمـح الأرنـب العجـوز بـدأ يتطلـع إليهـا، ومـد أنفـه يتشـمم الهـواء ثـم عـاد أدراجـه، خائفًـا وجـلًا مـما فعلـه مـن النظـر إليهـا.. ومضـت الأرنـب العجـوز تكمـل طريقهـا، إلا أنهـا عـادت فيـما بعـد وراحـت تشـاهد الصغيريـن اليتيمـين وهـما يلعبـان ويلعقـان بعضهـما البعـض.

كان النهـار بـاردًا وحزينًـا.. وبـدأت الأمطـار تهطـل في المسـاء؛ فعـادت الأرنـب العجـوز إلى مخبئهـا القديـم فـوق جـذوع الأشـجار عـلى الناحيـة المرتفعـة مـن شـاطئ البركـة، واسـتمر هطـول المطـر، إلا أن ذلـك لم يـزد مـن حـزن الأرنـب العجـوز، إذ أن الأمطـار كانـت تعنـي – في حقيقـة الأمـر – نهايـة الجـو الصحـو، ومـن ثـم اسـتمرار أمنهـا وبقائهـا في هـذا المـكان المنعـزل وحدهـا.. وسرعـان مـا تبتـل الرمـال وتفقـد صلابتهـا فـلا يجـرؤ صيـاد عـلى عبـور الغابـات الرطبـة..

ولكن...

ماذا عن الأرنبين المسكينين؟..

ماذا قد يحدث لهما في ذلك الجحر الصغير؟

هل تذكرت الأرنب العجوز- عاشقة العزلة – أطفالها الصغار، وحنان الأمومة؟

لم تعـرف إجابـة لهـذا السـؤال، إلا أنهـا – عـلى أيـة حـال – تركـت مكمنهـا عنـد الفجـر وذهبـت لمشـاهدة الصغيريـن مـن جديـد.. كان المسـكينان نائمـين، أحدهـما فـوق الآخـر.. ولابـد أنهـما كان يتوقعـان عـودة أمهـما.. حتـى في نومهـما.. فحينـما اقتربـت الأرنـب العجـوز منهـما.. مـد كل منهـما أنفـه وهـز أذنيـه الصغيرتـين.. ونظـرت الأرنـب العجـوز إليهـما بعينيهـا الكبيرتـين المبللتـين، ومـدت أنفهـا هـي الأخـرى كأنهـا تشـم رائحـة الجحـر.

وعـادت الأمطـار إلى الهطـول، وأحاطـت بالكثـير مـن أدغـال الجزيـرة التـي لفتهـا غلالـة ضبابيـة رماديـة، واسـتمر المطـر ثمـاني ليـال وثمانيـة أيـام، حتـى بـدا أن البركـة قـد مُلئـت بحـبر أسـود لامـع، وظلـت الميـاه تعلـو وترتفـع حتـى كادت أن تصـل إلى معصـم الأرنـب العجـوز.. وحاولـت أن تذهـب لمشـاهدة الصغيريـن مـرة أخـرى.. ولكـن الرمـال كانـت قـد وصلـت بالقـرب

مـن معصمهـا في عـدة أماكـن، فأصبـح مـن المسـتحيل الوصـول إلى الـوادي الصغـير..

وعـاد المطـر ليهطـل ويهطـل، وعلـت ضجـة مـن بعيـد كأنهـا أصـوات جيـش مـن المحاربـين الزاحفـين لتدمـير كل مـا في طريقهـم!..

كان ذلـك الصـوت مألوفًـا للأرنـب العجـوز.. إنـه صـوت حشرجـة النهـر الثائـر في فيضانـه.. ولم تجـرؤ عـلى مغـادرة مخبئهـا وإن كان الجـوع يقرصهـا.. إذ أنهـا في الواقـع لم تتنـاول سـوى بعـض وريقـات جافـة واضطـرت في أحـد الأيـام إلى الامتنـاع تمامًـا عـن الطعـام بعـد أن ارتفعـت الميـاه فوصلـت إلى جـذوع الأشـجار، وكانـت أي حركـة تكتنفهـا أخطـار لا بـأس بهـا..

وظلـت الميـاه تعلـو وتعلـو. كانـت ميـاه رماديـة اللـون، غامضـة، سـاكنة..فبدا أن الأرض والهواء والسـماء اسـتحالت كلهـا إلى كتلـة واحـدة مـن الميـاه العكـرة البـاردة..

ولكـن الأمطـار توقفـت في مسـاء اليـوم الثامـن..وانفرجـت السـحب فجـأة عـن السـماء.. فظهـر العشـب الأخـضر هنـا وهنـاك مـن خـلال الضبـاب الرمـادي، وعـن فرجـة بـين السـحب، وفي أعـماق منجـم مهجـور، سـطع ضـوء القمـر الفضي..وهبطـت الميـاه، فبـدأت تتراجـع مرهقـة مـن غـزو جنـود مجهولـين، حاملـة معهـا غنائـم مـن أوراق الشـجر وأغصانـه والرمـال والكائنـات الميتـة..

أشرقـت الشـمس في اليـوم التـالي عـلى المـكان الـذي أصابـه الوابـل، فتمكنـت الأرنـب المسـكينة التـي تعـاني مـن البلـل والجـوع القـارص مـن تـرك مكمنهـا وراحـت تدفـئ نفسـها وتنظـر إلى مـا حولهـا فوجـدت أن البركـة قـد اختفـت، وأن ينبوعًـا يختلـط المـاء فيـه بالطـين يسـير ببـطء تحـت الضفـة العاليـة، التـي زاد ارتفاعهـا فغـدت مثـل السـد، ولا تـزال الميـاه راحلـة تحمـل غنائمهـا، وفجـأة شـاهدت عـلى سـطح المـاء بـين الأغصـان العاريـة والأوراق الجافـة وآلاف الفقاقيـع، أرنبـين صغيريـن، ميتـين، نحيلـين، طويلـين، أعينهـما مفتوحـة، وأذناهـما ممـدودة، يجريـان بسرعـة عـلى صفحـة المـاء بجانـب بعضهـما البعـض.. مثـل أخويـن مخلصـين.. فلـم يسـتطع – حتـى المـوت – أن يفرقهـما عـن بعـض..

وهنا أدركت الأرنب العجوز أنها قد صارت وحيدة حقًا على هذه الجزيرة.

الطيبون
فلاديمير بوجومولوف

كان القطار الكهربي يسير، بينما أخذتها سنة من النوم، إذ هي تضجع على الكرسي الخشبي، ساندة رأسها على يدها.. كانت ملابسها بالية، ترتدي معطفًا رثًا يبدو عليها ضخمًا إذ كان أكبر من حجم جسمها، حال لونه وصار أقرب إلى الأحمر، وفي قدميها انتعلت حذاءً من الفراء الدافئ نوعًا ما، مقارنة بحالة الجو في ذلك الوقت من العام.. وعلى رأسها وضعت منديل رمادي قذر..

وبدأت هي الحديث قائلة:

-هل وصلنا إلى (رايمن) بعد؟

ثم نظرت - بعد أن اعتدلت جالسة - من النافذة إلى المطر المتساقط..كانت قطرات المطر البكر نقية تمامًا، لها قدم التاريخ ذاته وكانت كذلك قبل أن يكون التاريخ طفلًا!.. كانت تتعجب بمرارة وقالت في جدية حزينة:

-لماذا يسقط المطر الآن..؟.. أليس هذا سخيفًا!.. ما حاجتنا إليه الآن؟.

فأجابها صوت دافئ:

-إنه مطر دافئ، ضروري لنمو الفطر.. كما أنه لا ضرر منه على الإطلاق!.

شعرت أنها تبدو سخيفة أو مجرد طفلة ساذجة، خاصة وقد كانت تتحدث إلى قوم هم أصلًا من أهل المدينة.. فوجدت أنه ينبغي أن تشرح:

-هذا المطر غير مفيد للحبوب الآن!.

ثم قالت بشيء من الهزل:

-إننا نعيش على الخبز وليس على الفطر!

كانت صغيرة الحجم، أكسبت الشمس وجهها سمرة، جعتها - مع تجاعيد وجهها - كبيرة جدًا.. بالواقع، لقد بلغت من العمر الثمانين عامًا.. لكنها مازالت بكامل حيويتها، ما زال كفّيها قويان قاسيان.. برغم أسنانها الصفراء التي تبرز من مقدمة فمها.. وكانت طويلة جدًا ونحيفة للغاية.

عدّلت منديلها الرمادي على رأسها.. وبدأت تتكلم عن نفسها.. إنها من منطقة قريبة (أركوتسك)، فقدت ابنها في الحرب، ولحقت به ابنتها.. وعاشت وحيدة. ذهبت إلى (موسكو)

لتسأل عن معاشها، وقطعت كل هذه المسافة دون تذكرة، دون حقائب.

-كيف ذلك؟.. كيف لم يطردوك من القطار وأنت بلا تذكرة؟.

وتساءل آخرون:وماذا عن المفتش المار بالقطار؟.. ألم يسألك عن التذكرة؟.

أجابت باسمة:بلى.. لقد سُئلت عنها مرتين.. وماذا في ذلك؟.

ثم قالت وقد اتسعت ابتسامتها:إنَّ مفتشي التذاكر هم بشر أيضًا مثلي ومثلك.. وهنا بشر ذوي قلوب رحيمة في كل مكان.

قالتها بهدوء ورضا كامل.. ثم أضافت في شيءٍ من الحرج:وفوق كل شيء أنا لم أسافر من أجل الاستمتاع بالرحلة.. إننا في غرض يختص بالعمل.

-إنَّ ذوي القلوب الرحيمة موجودون في كل مكان.

منتهى السلام النفسي، والإيمان بقدرة الله على بث رحمته في قلب الإنسان، ورنة التفاؤل في صوتها تجعلك أكثر سعادة بالتأكيد.. كان أمرًا عجيبًا أن تسافر عبر روسيا ما يقرب من خمسة آلاف ميلًا وتعود نفس المسافة بدون تذكرة وكأن الطريق مفتوح أمامها كقلب صديق، ولكن الركاب صدقوها وصدقوا حكايتها.. فقد كانت امرأة طيبة ذات صدق متناهي وبساطة محببة إلى النفس، كانت حكيمة دافئة القلب، لها ابتسامة مشرقة وعينان يبدو فيهما نقاء القلب وراحة البال.. ليس لديها ما تخفيه، فكان من المستحيل عدم تصديقها. وناولها أحد الركاب قطعة من فطيرة لحم.. أخذتها منه وشكرته في امتنان ووقار.. ثم راحت تمضغها في شهية، وتقضمها بسنّيها في هدوء..

وأثناء ذلك توقف المطر، وطلعت الشمس.. الملايين من قطرات الندى تتلألأ فتبهر العيون.. فوق العشب.. بين أوراق الشجر.. وعلى الأسقف.. نسيت الفطيرة.. أغمضت عينيها العجوزتين الذابلتين من حكمة السنين نصف إغماضة، وحدقت مبهورة من النافذة.. توهج وجهها وهي تهمس:

-سبحان الله.. انظروا كم هي الدنيا جميلة.. انظروا الآن.

الأمطار
ياسوناري كاواباتا

رأيت -بعين الخيال- شلالًا من النيران يسقط على المرتفعات المكسوَّة بأوراق الخريف الأرجوانية. كانت الجبال عالية، شاهقة، تسد جانبي المجرى المائي، وكان الوادي بينهما يبدو كحفرة كبيرة. ولم يكن بإمكاني رؤية السماء إلا وأنا أجعل عيناي تنظر في شكل عمودي لأعلى، كانت تبدو زرقاء وعليها علامات الغروب. ويبدو أن الصخور على جانب النهر شعرت باقتراب الغروب، وباقتراب الخريف. وكانت أوراق الخريف تندفع في مهب الريح حولي من كل جانب.. ولم يكن في مياه النهر القاتمة انعكاس لهذه الأوراق.. لماذا؟

وفي هذه اللحظة رأيت شلال النيران فوق المياه القاتمة.. لم تكن شظايا النيران تندفع في الهواء، وإنما شظايا ضوء يتأرجح على الماء.. كانت كذلك بالتأكيد. كانت الشظايا تسقط من السماء، وتسقط في المياه القاتمة، وتختفي هناك واحدة بعد الأخرى.. كانت تسقط أمام خلفية من النباتات القرمزية.. ألقيت نظرة إلى أعلى الجبال فرأيت في السماء شظية نارية تندفع بسرعة جبارة.. وأثناء تأملي بدت السماء كمجرى مائي يحمل شظايا النار بين قمم الجبال.. كل هذا رأيته أنا في القطار السريع المتجه إلى (باكيوتو).

وأثناء علاجي في المستشفى من حصوة المرارة -منذ خمسة عشر سنة- كانت إحدى فتاتين قد ولدت بدون القناة الصفراوية.. ولن تعيش أكثر من سنة، فأجروا لها عملية لتركيب قناة صناعية بين الكبد والمرارة.. كانت أمها تحتضنها في الردهة.. قالت لأمها وهي تتأملها:إنها.. إنها..

قلت للأم:إن ابنتك فاتنة.. تبدو كالبدر..

قالت الأم في هدوء:إنهم يقولون أنها سوف تموت اليوم أو الغد.. وأنا أنتظر من يوصلني للبيت .

كنت الآن ذاهبًا بالقطار لرؤية إحدى الفتاتين في فندق (باكيوتو).. وكانت إحدى الفتاتين تنام في هدوء وتبدو ملابسها منتفخة عند الصدر وعليها رسم لزهرة الكاميليا، ربما بسبب الأربطة التي تغطي جروح العملية الجراحية.. كنت سخيفًا حين تكلَّمت مع الأم بهذه الطريقة، ولكن لم أكن مباليًا إذ كنت بين زملائي المرضى. كان مستشفى جراحي.. لذا فقد جاء عدد من الأطفال لإجراء عمليات القلب.. كانوا يلعبون حول الردهة والمصعد، وذلك قبل أن يحين موعد العملية.. كنت أشعر برغبة في الحديث معهم.. كانوا في سن الخامسة حتى الثامنة من عمرهم.. وبدون إجراء العملية الآن -وهم صغارًا- قد يواجهون خطر الموت قريبًا.

وكان أكثر اهتمامي بالفتاة التي كنت أراها في كل مرة أستقل فيها المصعد.. كانت في الخامسة من عمرها تجلس في وداعة وهدوء في ركن المصعد، ترفع وجهها النحيل بعيدًا عن أرجل الآخرين، وتتألق عيناها ببريق غريب، مذمومة الشفتين.. وقالت لي الممرضة:إن الفتاة تركب المصعد ثلاث ساعات يوميًا.

وعندما رأيتها مرة تجلس على أحد المقاعد في الردهة.. حاولت أن أتحدث إليها لكنها لم تنظر إليّ.. قلت للممرضة:يا لها من فتاة.

ولم أر الفتاة في أحد الأيام، فسألت الممرضة:هل أجريتم لها العملية؟.. هل هي أحسن حالًا الآن؟

أجابتني الممرضة:لقد عادت إلى البيت دون إجراءها، لقد رأت طفلة في نفس الحجرة وهي تموت، فأصرت على العودة إلى البيت، ولم نستطع منعها من هذا القرار.

غمغمت:ولكن.. ألن يُعرِّضها هذا لخطر الموت في هذه السن الصغيرة؟

والآن أنا في طريق إلى (باكيوتو) لأراها، وقد كبرت البنت وأصبحت فتاة ناضجة شابة.

استيقظت من غفوتي في القطار على صوت قطرات المطر على زجاج النافذة.. كنت واعيًا لضربات المطر عندما بدأت أغفو ولا ريب أنه الآن قد أصبح عاصفة، لأنني كنت أسمع قرقعة داخل القطار، وبدأت حبات المطر تميل على زجاج النافذة، وتنساب بعض القطرات في خط مستقيم من طرف إلى آخر، وتقف بعض القطرات وتتحرك أخرى، وبدأت أسمع إيقاع منتظم، ورسمت حبات المطر خطوط متشابكة مُصدرة نغمًا موسيقيًا. لم تكن مشاهدتي لشلال النيران على المرتفعات مصحوبة بأي موسيقى.. ولم يعد هناك شك في أن حبات المطر التي تنهمر على زجاج نافذة القطر وموسيقاه قد أصبحت في جمال رؤيتي.. لقد دعاني تاجر ملابس (الكيمونو) لحضور عرض أزياء ملابس العام الجديد، فلم أخطئ اسم الفتاة في كشف الأسماء..بيبو ريبتسوكو.. لم أنس اسمها بالرغم من أنني لا أعرف أنها تعمل في عرض الأزياء.. سافرت إلى (باكيوتو) لا لأرى ألوان الخريف.. بل لأربيبو ريبتسوكو.

استمر المطر في اليوم التالي وقضيت المساء في مشاهدة التلفاز في ردهة الطابق الرابع، وكانت هناك حفلات زفاف في القاعات المجاورة.. واكتظت الردهة بالضيوف الذين جاءوا لاستقبال هذه الحفلات.

لمحت عروسًا تمر بثوب الزفاف ورأيت من انتهت حفلات زفافهم يستلمون صورهم ويرحلون. وجاء تاجر ملابس (الكيمونو) وحيَّاني مبتسمًا.. فسألته عنبيبو ريبتسوكوفأشار بعينيه إلى نقطة إلى جواري.. كانت هي بجانبي مباشرة.. كانت تقف وخلفها نافذة تغشيها الأمطار..

كانـت تحـدق في عروسـين تُلتقـط لهـما صـورة.. كانـت شـفتيها مذمومتـين.. لقـد عاشـت لتصبـح فتـاة ناضجـة حسـناء طويلـة القامـة.. وقـد هممـت بـأن أقـترب منهـا وأسـألها عـما إذا كانـت تتذكـرني.. لكنـي منعـت نفـسي عـن هـذا.. وهمـس التاجـر في أذني:إنهـا سـوف ترتـدي (كيمونـو) الزفـاف في عـرض أزيـاء الغـد.

أوراق الخريف
دانييل بولانيجييه

عندما أطاح الإعصار بآخر الأوراق في شجر الكستناء، استطاع الناس أن يروا المنزل المواجه، والذى يطل على الميدان المثلث الشكل. حتى النافورة أيضًا قد أصبحت عارية، ومن بين رزاز الماء الذي يندفع من صنابيرها متطايرًا مع هبات الريح برزت تماثيل ثلاث جنيات عابسات، كسا الصدأ الأزرق معدنها بطبقة سميكة. وهذه هى النوافذ التي يقسمها عامود عند المنتصف، نوافذ منخفضة المستوى، عميقة مثل عيون الاغنياء الذين قدموا من كل صوب، وظلوا كما هم دون أدنى تغيير، دليلًا على الرضا بالفراغ. وهنا أربعة مقاعد شخصية تنبت من الأرض الطينية تحت مربع الأشجار المحيط بالحوض الذي تغطت أحجاره بخضرة نحاسية في وقت غفلت عنه الناس، وتلتصق به أوراق الخريف كما تلتصق الوريقات المختومة والمعلَّمة بحقائب السفر.

وهذه هى (رولاند لاراميه). إنها تنزع أوراق الخريف بعناية، ثم تحفظها في دفتر سرعان ما تضعه بالقرب من الدفاتر الأخرى التي أكملتها في خزانة حجرتها. ثلاثون عامًا مرت عليها وهى تقوم بالعمل ذاته. هذا العمل يمثل جانبًا من جوانب محنتها. في هذا المكان الذي تنتشر فيه المقاعد الخشبية على الجهات الأصلية الأربع راسمة بهذا حدود مملكتها، وتراها العين حتى في زحمة الأيام الرائعة، وترى صورتها الأنيقة الفارعة المتشحة بشال مرقش بزهور عباد الشمس وسنابل القمح وعناقيد الكريز، والقبعة اللباد التي تعتمرها حتى تغطى أذنيها، فيها بعض الريش والخيوط الملونة المضفَّرة. فإذا رحل الخريف، ومن بعده الشتاء، وتعرَّت الطبيعة من أوراقها وكانت هذه المرأة هى الشخص الوحيد الذي لا يخشى قرصة البرد، بل على العكس، يظل بالساعات في هذا الميدان المهجور.

لم يعد أحد يحفل بها. حتى العائلات التي تطل نوافذ بيوتها على هذا الميدان، والتي ترسم ما هو أقرب من خط أفق مقابل له. إنهم من الأطباء ورجال القانون، نسى أكثرهم السبب الذي من أجله تخرج الآنسة (لاارامية) إلى هذا المكان في كل يوم، وقضاء ساعات طوال في هذا المكان الذي لا يقربه مخلوق آخر سواها تقريبًا. وتظل كما هى في انتظار هبوط الليل. لايفرق معها كثيرًا إن كان هذا الليل باردًا كالجليد او حارًا كالنار، مهيبًا ذا عظمة، أو خبيثًا كاللصوص. إنها امرأة قد فقدت عقلها! لاتؤذى أحدًا، ولا تتحدث على أحد، لا تستفز الآخرين ولاتحملق فيهم. وماهى على االرغم من انطوائها على نفسها إلا امرأة متواضعة.

لم يعد يفكر أي من الذين يرونها في هذا المكان، وهي تتحرك كل يوم في أنها إنما تفعل

ذلـك بوحـي مـن دافـع مجهـول، وهـوس غامـض، مثـل الآلـة التـي لا تتعـرَّض لخطـر، ولا تُسـبِّب خطـرًا لأي أحـد، أو مثـل الرافعـة الأتوماتيكيـة التـي تنطلـق مـن حنيتهـا وتـدق جـرس السـاعة المعلـق عـلى واجهـة دار البلديـة. ولـو أن أحـدًا مـن البرجوازيـين سـأل نفسـه عندمـا يراهـا عـن الشـكل الـذي يمكـن أن تتخـذه رأسـه إذا هـو أصيـب بالخبـال، فـما يفعـل ذلـك إلا عـن اهتـمام بهـا، بـل بنفسـه، فهـو لايـرى في (رولانـد لاراميـه) سـوى مظروفًـا فارغًـا. لـو رآهـا إنسـان يـذوب في أحـلام اليقظـة لاطـمأن عـلى نفسـه، والسـبب هـو أن هـذه الفتـاة المسـتغرقة في أحلامهـا والمنطويـة عـلى نفسـها لا تعـاني ألمًـا وكيـف تعـاني وهـى تبتسـم معظـم الوقـت؟!

لقـد عـثرت عـلى الحقيقـة، التـي يبـدو أنهـا تحتكـم عـلى مجموعـة متباينـة مـن الأقنعـة، القنـاع المناسـب الـذي يضفـي عليهـا مظهـرًا لايـكاد يخـدع أحـدًا.

إنهـا تعـانى وتجـد في معاناتهـا لـذة. إن عذابهـا يقيـم عليهـا أيـام حياتهـا! في كل يـوم تتبـع الطريـق عينـه، لأنهـا لا تعـرف لهـا طريقًـا خلافـه، وهـذا الطريـق ينحـصر في هـذا المسـطح الضيـق، وفى هـذا المسـطح الضيـق سـوف يظهـر الرجـل الـذي تنتظـره. إذا جـاء يومـا!! مـن منـا يركـض في أركان الارض بحثًـا عـن حبيـب لم يـترك عنوانـه؟ وهكـذا فلـم يكـن ثمـة شيء قـادر عـلى إقنـاع الآنسـة (لاراميـه) بـأن (كلاوس) لم يعـد لـه وجـود!

والحيـاة كثـيرًا مـا تمـزق ثوبهـا عـلى مسـمار، ويصبـح إصـلاح الثـوب مسـتحيلًا، فـلا يبقـى إلا التمـزُّق والمسـمار الـذي نسـلم إليـه الثـوب. أمـا البقيـة فهـى عبـارة عـن مسلسـل مـن الشـطحات العقليـة السريعـة التـي تتبـدد سـحبها، وثـوان نقضيهـا في الـبرد عـراة.

فلنسرع ولنعثر على ثوبنا.. على جلدنا الحقيقى المعلق هناك إلى الأبد!

وكانـت الآنسـة (لاراميـه) تتشـح بهـذه الزينـات التافهـة وتنتظـر مـن (كلاوس) أن يأتى ويلبسـها الثـوب، وكانـت عندمـا تفكـر في هـذا الأمر لا تسـتطيع شـيئًا سـوى أن تبتسـم.

(كلاوس) كان يحبها بجنون.. وكانت له مع الثياب حكاية..

لقد مر على ذلك ثلاثون عامًا تقريبًا.

كانـت فرنسـا في ذلـك تحـت الاحتـلال الألمـاني، وكانـت (رولانـد لاراميـه) تسـتقل القطـار المتجـه إلى باريـس مرتـين كل أسـبوع، وكانـت القطـارات مزدحمـة، حتـى دورات الميـاه كانـت ممتلئـة بالمسـافرين الذيـن لا يسـتطيعون التزحـزح خطـوة! وهـم سـعداء لأنهـم قـد عـثروا عـلى منفـذ يقفـون فيـه مهـما زجّـوا بأنفسـهم بالقـوة وسـط الروائـح الكريهـة. مـع الـرؤوس النتنـة والأجولـة والطـرود التـي تتعـرض للتفتيـش عـلى الأرصفـة.

كانـت تسـافر مـن أجـل أبيهـا المنجِّـد الـذي يعمـل في شـارع (لي سـير)، فتبحـث لـه عـن بعـض مسـامير التنجيـد أو بضعـة أمتـار مـن القـماش، أو عـن أي شيء تسـتطيع أن تحصـل عليـه مـن

لـوازم حرفتـه لـدى الموردين الذين خلت مخازنهم. ولم يكـن هنـاك مـن أمـل في الحصـول عـلى سـلعة إلا إذا تـردد المـرء بانتظام عـلى التجـار، حتـى يتصـادف وجـود كميـه شـحيحة واردة حـالًا.

ولم يكـن (جـول لاراميـه) يعـاني مـن قلـة العمـل الـذي يكلـف بـه، فـإذا كانـت رحـى الحـرب تـدور وتنهـك العـالم وتمـزق أطرافـه، فإنهـا لم تسـتطع أن تقـف في وجـه تيـار الحيـاة. كان اصحـاب الخيـول يدفعـون بخيولهـم إلى الخيالـة المحترفيـن ليجـروا بهـا في حلبـات السـباق، وكانـت المـزادات تزدهـر كـما كانـت دائمًـا، وحتـى المسـارح التـي فقـدت نورهـا ودفئهـا لم تخـل مـن الجمهـور، وكان هنـاك زبائـن يعهـدون إلى (جـول لاراميـه) بصالونـات كاملـة ليقـوم بتجديدهـا.

كانـت الحيـاة الحقيقيـة التـي تقـوم عـلى وسـائل المتـع تتعلـق بمتطلبـات أكـثر مـن متطلبـات أيـام اللاحـرب، ومـا كان النـاس يذكـرون مـن أيـام السـلم إلا المائـدة العامـرة التـي زخـرت بأطعمـة لا نهايـة لهـا بشـكل ممـل، وأنيـة عملاقـة مصنوعـة مـن الفضـة الثقيلـة.

وكانت (رولاند) تعود ومعها طرودها بقطار آخر الليل.

تظـل واقفـة، خائـرة القـوى، سـعيدة رغـم كل شيء بالبضاعـة التـي اسـتطاعت أن تحصـل عليهـا، ولسـوف يعانقهـا أبوهـا شـاكرًا وكأنهـا لم تـزل بعـد طفلـة صغـيرة قبـل أن يجلـس إلى المذيـاع ليسـتقبل الأخبـار الممنوعـة عـبر إذاعـة لنـدن! وكان يسـتخدم هـوائي صنـع لـه إطـارًا مـن القـماش وضعـه فـوق المذيـاع كـما يضـع القسـيس شـمعدان القرابـين عـلى الهيـكل!

وذات مسـاء،ع ندمـا كانـت تسـتعد للنـزول مـن عربـة القطـار، كان الزحـام عنيفًـا في هـذا الخليـط الجهنمـى مـن الخلـق، فأخطـأت (رولانـد) في السـلم، وسـقطت فتمـددت بطولهـا فـوق الرصيـف، دون أن تـترك الطـرود مـن يديهـا. وعندمـا أفاقـت وجـدت نفسـها في أحـد مكاتـب المحطـة، مصابـة بالتـواء في الكاحـل، وكان الألمـاني المسـئول عـن المواصـلات يداعـب بأناملـه مـن خـلال قطـع في الـورق الـذي لـف فيـه أحـد الطـرود قماشًـا أصغـر مـن النـوع الدمشـقي كان (جـول) في حاجـة إليـه ليكسـو بـه مقعـدًا صغـيرًا مـن النـوع الـذي يجلسـون عليـه بالقـرب مـن المدفئة،عهـدت بـه إليـه زوجـة موثـق العقـود منـذ شـهور وأخـذت تلـح عليـه ليفـرغ منـه، وكأن هـذا المقعـد هـو الـذي سـيعيد رونـق الحيـاة إليهـا.

كان العـدو يضـع فـوق جبهتـه (الكاسـكيت)، ذو الشريـط الحمـر، وكان وجـوده هنـا لمشـاركة رئيـس المحطـة، وعندمـا نظـرت إليـه (رولانـد) رأت عملاقًـا صامتًـا. قالـت في نفسـها إن منصبـه ولابـد مهيـب. كان أكـبر منهـا بعـشر سـنوات أو نحـو ذلـك، ولم يكـن ينتظـر منهـم أن يرسـلوه إلى الجبهـة الروسـية، لـه عينـان صريحتـان تنظـران مـن بعيـد، ربمـا لأنـه اعتـاد أن يحـدق في قضبـان السـكك الحديديـة التـي تمتـد إلى مـا لا نهايـة.

لقـد طلبـت لـك سـيارة.قالها الفرنسى (فارليـه) الـذي يرتـدي زي الشرطة الرسـمي. ولم تسـتطع

(رولانـد) أن تمنـع نفسـها مـن عقـد مقارنـة بـين هـذا الفرنـسي ورفيقـه الألمـاني. أحدهـما شـاب عمـلاق والآخـر متقـدم في العمـر، وخـط الشـيب فوديـه، وجلـده مـليء بالتجاعيـد.

فى هـذه السـاعة مـن الليـل لم تكـن السـيارات الثـلاث الـلاتي تربطـن أجـزاء المدينـة تقـوم إلا بتوصيلـة واحـدة. وظلـت (رولانـد) تنتظـر جالسـة نصـف السـاعة عـلى مقعـد وثـير مـن الجلـد بـرز الحشـو مـن أطرافـه.

وهنا عرض عليها الرجل الألماني أن يستدعي لها طبيبًا.

-كلا. سوف تتحسن قدمي عندما أضعها في الماء الدافيء عدة مرات.

وحاولـت أن تنهـض، ولكنهـا لم تسـتطع، ولمـا لم تـأت سـيارة الأجـرة خـرج العـدو الوسـيم دون أن ينبـس ببنـت شـفة، وأخـرج عربـة مـن عربـات النقـل العسـكرية الصغـيرة التـي ركنـت بالقـرب مـن مهاجـع وحـدة الحركـة الخفيفـة.

وعـرض عليهـا بهدوء:يـا أنسـة، سـوف أوصلـك إلى البيـت، سـأعود تـوًا يـا (فارليه).ومـد كفـه إلى (رولانـد) التـي شـعرت وكأنهـا في وزن الريشـة، عـدا هـذا الثقـل الـذي أحـاط بكاحلهـا المصـاب. وبيـده الأخـرى تنـاول حقيبتهـا وطرودهـا وسـألها:هل تشـعرين بـالألم؟

أومات برأسها علامة الايجاب:نعم

إذًا، سوف أنتظر عند الطبيب.

لم تسـتطع الاعـتراض.. لقـد تقـرر كل شيء.. شـعرت وكأن كل مـا في حياتهـا لم يعـد طوعًـا لإرادتهـا هـي.. ولكـن الـذي أثـار دهشـتها هـو أنهـا قـد شـعرت بالطمأنينـة وهـى بصحبـة أحـد الأعـداء الذيـن كان (جـول) يصفهـم بأفظـع السـباب، كـما كان يفعـل كل فرنـسى آخـر. وتحولـت الطـرق الميتـة التـي تجـردت أعمـدة الإنـارة فيهـا مـن المصابيـح إلى مـسرح، وتحـول الميـدان ذو النافـورة إلى منظـر مسرحـي مـن تصميـم القـدر. هـذا المـكان الخـالي الـذي تدفـق منـه النبـع دون انتظـار، وانتفضـت منـه بقيـة الأيـام في لحظـة.

ذهـب (العـدو) فـدق جـرس الطبيـب، دكتـور (سـيفيت)، أخصـائي الأشـعة، وسـاعد (رولانـد) عـلى النـزول. وكانـت (رولانـد) تطيعـه طاعـة عميـاء، فلـم تلحـظ النظـرة المندهشـة التـي وجههـا إليهـا الطبيـب الـذي لاذ بالصمـت فلـم تخـرج مـن فمـه سـوى رائحـة الثـوم.

قال الألماني الذي ظل بالخارج:سوف أنتظر هنا.

فرد الطبيب في اقتضاب:حسنًا.

وكشفت صورة الأشعة عن كسر في عظمة الكعب.

وقال الطبيب:لقد كدت تصابين بذلك النوع من الكسور الذي يصيب العشاق عندما يلوذون بالفرار.ثم أشار إلى الخارج:ماذا يفعل هذا التوتونى هنا؟ هل تعرفينه؟

هزت رأسها نفيًا:كلا.هو الذي جاء بي بالسيارة إلى هنا.

قال ساخرًا:إنه السيد (قطار).. لقد عرفته.ثم سألها في جدية:هل يعرف والدك بالأمر؟

وفى اشراقه ذهنية مفاجئة اكتشفت المقت الذي سوف يسكبونه فوقها! ولم تفكر إلا في الرجل الألماني الذي تصورت أنه سوف يشعر بالملل من انتظاره في الخارج، وشعرت بنفسها، على الرغم منها، وقد أحاطت بها شبكة من ألف عين.

وقال الطبيب:لم أكن أعتقد أن..

وصمت فسألته:ماذا؟

مط شفتيه وأجاب:لا شىء.

ثم أشاح بوجهه قائلا:سوف أتصل بزميلي، دكتور (أرمان) ليجبِّس الكسر.وأشار إلى الباب:فليأخذ سائقك إليه!

وعلى الباب مد الألماني يده إلى (رولاند).

فلما جلسا في السيارة، رفع (الكاسكيت) فى رأسه كاشفًا عن خصلات شقراء كثيفة قصيرة تبدو مثل صفوف من الحلقات الذهبية على حجرتين باهتتين هما عينيه.

قالت له:إلى داري.ثم وصفت له الطريق:ادخل أولا في الشارع الثاني، ثم سوف اشرح لك بقية الطريق فيما بعد.

قال الآخر:اسمي (كلاوس). ولكن،هل الموضوع خطير؟

أجابته:نعم.

ورأت (رولاند) نظرة (سيفيت) وقد تحولت إلى المئات من النظرات، واضطرت إلى التقاط أنفاسها، كم كانت تود أن تفقأ له عينيه هاتين المليئتين بالاحتقار!

جاءها خاطر خفى جعلها تلف رأسها.

كان (كلاوس) ينظر إليها. ثم توقف وأطفأ أنوار السيارة.

لم يعد هو أجمل رجل تراه ابنة المنجد، بل كان هو الرجل الذي وضعه القدر في طريقها، وهكذا التأم شملهما في الحال. وتدخلت الصدفة، فانطلقت صفارات الأنذار.

لم تحرك (رولاند) ساكنًا ولم ينبس (كلاوس) ببنت شفه، وتركا لأيديهما ولسانيهما العنان..

ولكـن دون نيـة أن يتقدمـا إلى مـا هـو أبعـد مـن ذلـك.. مؤمنـين بـأن المسـتقبل بـين أيديهـما. وسرعـان مـا رأيـا المصابيـح تتأرجـح مـن رصيـف عـلى حافـة الشـارع وتتجـه إلى بـاب عمومـى تقـف بـه امـرأة عجـوز تمسـك في يدهـا بمصبـاح (اسـتيلين).

قـال (كلاوس): لابـد أننـا الآن في المحطـة. سـأتركك في دارك. وعندمـا تريديـن أن تسـتقلي القطـار سـتجدين مكانًـا تجلسـين فيـه الآن، في عربـة محجـوزة لـك. ولـن يعـرف بذلـك أحـد، وسـنتواعد في الـسر، لأننـي أعـرف..

سألته في حيرة: تعرف ماذا؟

أجـاب في لهجـة غامضـة: لقـد أغلـق المديـر البـاب في وجهـي. كذلـك الأحمـق الـذي يعمـل تحـت أمـرتي في المحطـة بصـق عندمـا خرجـت، رأيتـه بعينـى هاتـين.

ثـم أنـه أدار المحـرك مـن جديـد، وكانـت هنـاك أشـباح تجـري بحثًـا عـن مخبـأ، إلا أن أحـدًا لم يكـن يسـمع أزيـر طائـرات، ولم تكـن سـماء المدينـة قـد شـهدت حتـى تلـك اللحظـة إلا القليـل مـن الطائـرات.

قالت(رولاند) في خفوت:بيتى هنا. شارع السير.

ورأى (كلاوس) شـعار المنجـد: صـورة لمقعـد وثـير داخـل لوحـة مـن الصـاج. وأخـرج مصباحًـا يدويًـا يعمـل بالبطاريـة أشـعله بسرعـة كأنمـا يرتكـب خطـأ. وكانـت واجهـة دار المنجـد مرتسـمة في ذاكرتـه، وكانـت الريـح تهـز خرقـة محشـورة في نافذتـه، فلـم يفهـم لوجودهـا معنـى.

قال لها في هدوء:هنا، غدًا في مثل هذه الساعة.

ردت (رولاند):لا. سأراك في المحطة عندما أشفى.

نظـر إلى عينيهـا وقال:أنـا اصدقـك، ولكـن.. ينبغـي أن أجعلـك تريـن شـيئًا. إن أهـلي يعملـون في السـكك الحديديـة منـذ سـتين سـنة، وأنـا أسـير عـلى نفـس المنـوال. حتـى جـاءت الحـرب، وكان المفـروض أن يـزج بى في وحـدة محاربـة. طبعًـا لـو كانـت هنـاك واحـدة.

وفى حركـة سريعـة فتـح الجاكيـت الـذي يرتديـه وقميصـه، ورفـع فانيلتـه الداخليـة عـن صـدره، فـرأت (رولانـد) جرحًـا غائـرًا مندمـلًا يمتـد في هيئـه ندبـة كبـيرة مـن الثـدى الأيـسر وتمـر عـبر صـدره.

حدقـت في الندبـة القبيحـة وهـو يـشرح لها:لقـد ابتليـت بهـا في حـادث بالمخـازن في مدينـة (مانهايـم)، كان عمـري وقتهـا عـشرون عامًـا.

ظلـت عاجـزة عـن أن ترفـع عينيهـا عـن الجـرح القديـم، فابتسـم قائلًا:ولكنـي قـوي لا أسـقط بسـهولة.. سـأنتظرك. والحـرب لا تـدوم للأبـد.. ونحـن في (موسـكو) سـأريك بيـت (مانهايـم)، ليـس

بـه حجرتـان عـلى عتبـة واحـدة، كلـه سـلالم ودرجـات في كل مـكان. وأنـت تشـبهين شـقيقاتى.. شـقيقاتي الثـلاث.. كلهـن يمارسـن مهنـة التمريـض في الجبهـة الروسـية.

قالـت (رولاند):وسـوف تحـكى لي كل شىء فيـما بعـد.. أمامنـا الحيـاة مفتوحـة بطولهـا وعرضها.. ولكن..اهرب الآن!

ثـم خفضـت رأسـها، وكـوّرت جسـدها في السـيارة عندمـا رأت شـبحًا يسـير أمـام واجهـة بيـت المنجد،ثـم تركـت (كلاوس) يطبـع قبلـة طويلـة عـلى يدهـا، ويمـر بلسـانه بـين بنصرهـا وخنصرها،وأجابتـه بقبلـة طبعتهـا عـلى خـده، كـما يفعـل الأطفـال عندمـا يلعبـون.

ساعدها على السير إلى الباب، وقالت بصوت خافت:كلاوس!

وعندمـا وقفـت في فرجـة البـاب المثلثـة لتخـرج ربطـة المفاتيـح، ابتسـمت لـه، وفكـرت في أن تطلـب إليـه أن ينـصرف إلى طريقـة المرسـوم، إلا أن هبـة ريـح مـن الغيـظ والكرامـة والاعتـزاز بالنفـس تملكتهـا. ورأت بعـين الخيـال زبائـن أبيهـا المنجـد يتشـاحنون في راسـها في غضـون لحظـة، يتكدسـون في عربـة المتهمـين المصفحـة، وقـد أسرعـت المدينـة كلهـا تحـاول اللحـاق بهـم.

صديق وفي
باولو جراتسي

ذات صباح باكر.. أخرج فأر الماء رأسه من جحره وراح يراقب البطات الصغيرات..

كانت له عينان صغيرتان لامعتان، ويرتدي معطف رمادي أنيق وله ذيل أسود لامع طويل، وكانت البطات الصغيرة تسبح في البركة أمامه ن حيث كانت أمهم البيضاء الكبيرة ذات الأرجل الحمراء تحاول أن تعلمهم كيف يغطسون برؤوسهم في المياه!

ظلت البطة الأم تقول لأبنائها:

-لن يعتبركم الناس أبدًا بطًا حقيقيًا إن لم تتعلموا كيف تقفوا على رؤوسكم في الماء

ومن حين لآخر كانت تعلمهم كيف يفعلون ذلك، لكن البطات الصغيرات لم يعرنها انتباهًا، إذ كنَّ صغيرات لدرجة أنهنَّ لم يقدِّرن أهمية أن يكن محل احترام.

صاح فأر الماء من جحره:

-يا لهم من أطفال غير مطيعين !.. لابد أنهم سوف يغرقون!

ردت البطة الأم:

-أنت مخطئ.. إنهم ليسوا أبناء غير مطيعين.. بل من الطبيعي أن يجد كل منهم صعوبة في بداية الأمر.. وعلى الآباء أن يتحلّوا بالصبر

قال فأر الماء:

-آه،أنا لا أ'رف أي شيء عما يشعر به الآباء، فأنا لسنت رب أسرة، بل أنني لم يسبق لي الزواج من قبل.. لكني أرى أن الحياة الأسرية ممتعة حقًا، ولكن الصداقة أفضل كثيرًا.. في الواقع أنا لا أعرف أي شيء على الإطلاق أكثر نبلًا من الصداقة المخلصة.

سأل الطائر الأخضر الذي كان جالسًا على شجرة قريبة واستمع إلى محادثتهم:

-وما هي فكرتك عن واجبات الصديق المخلص يا عزيزي؟

قالت البطة:

-نعم، أريد أن أعرف

لكنها لم تنتظر لتعرف الإجابة، لقد سبحت حتى نهاية البركة ووقفت على رأسها كمثال لأبنائها، صاح فأر الماء:

-يا له من سؤال أحمق!.

ثم أردف:

-إنني أتوقع من صديقي أن يكون مخلصًا بالطبع

سأل الطائر الأخضر:

-فماذا تقدم أنت في المقابل؟.

رد فأر الماء:

-لا أفهم ماذا تعني؟!.

قال الطائر الأخضر:

-دعني أقص عليك حكاية عن هذا الموضوع.

قال فأر الماء في سرور:

-هل هي حكاية عني؟.. لو كانت كذلك فسوف أسمعها بالتأكيد.

رد الطائر الأخضر:

-إنني واثق أن هذه الحكاية سوف تهمك.

رفرف الطائر الأخضر بجناحيه وبدأ يقص الصديق المخلص..

-في يوم من ذات الأيام، كان هناك رجل أمين نحيل الجسم اسمه (هانز)

سأله فأر الماء:

-وهل كان (هانز) هذا شخصًا متميزًا؟

أجاب الطائر:

-لا..لا أظنه متميزًا على الإطلاق إلا بطيبة قلبه ودماثة خلقه ورقة حاشيته، لقد عاش في كوخ ضيق بمفرده تمامًا، يعمل في حديقته طوال ساعات النهار.. وكانت حديقته هي أجمل حديقة في القرية.. فقد كان فيها العديد من الأشياء البديعة.

وكان (لهانز) الصغير العديد من الأصدقاء، ولكن أخلصهم على الإطلاق كان هو (هوج) الكبير، الذي كان يعمل طحانًا.. في الواقع، كان (هوج) الطحان الثري مخلصًا جدا لـ(هانز) الصغير فلم يكن يمر بجوار حديقته دون أن يقطف باقة من الزهور، فإذا جاء موسم الفاكهة، مال إلى السور وملأ جيوبه بالتفاح الناضج

واعتاد الطحان أن يقول:لابد أن يتقاسم الأصدقاء كل شيء

وكان (هانـز) الصغـير دائمًـا يبتسـم في حيـاء وموافقـة.. في الواقـع، لقـد كان فخـورًا أن يكـون لـه صديـق لـه مثـل هـذه القيـم الأخلاقيـة النبيلـة.

إلا أن الجـيران كانـوا أحيانًـا يتعجبـون مـن أن الطحـان لا يعطـي أي شيء لـ(هانـز) بالمقابل، على الرغـم مـن أن لديـه مئـات مـن أجولـة الدقيـق المكدسـة في طاحونتـه وسـت بقـرات وعـشرون نعجـة وثلاثـون خروفًـا ثمينًـا.. إلا أنَّ (هانـز) نفسـه لم يفكـر في أي مـن هذا..بـل كان كل مـا يعنيـه هـو أن يسـتمع إلى الأفـكار الأخلاقيـة الرائعـة التـي يقولهـا صديقـه الطحـان عـن معنـى الصداقـة ا لحقيقي

كان(هانـز) الصغـير يعمـل بـكل جهـده في فصـل الربيـع والصيـف والخريـف، وكان في غايـة الغبطـة لذلـك، ولكـن عندمـا جـاء الشـتاء ولم يكـن لديـه أيـة فواكـه أو زهـور ليبيعهـا في السـوق.. قـاسى الجـوع والـبرد.. في الواقـع، لم يكـن لديـه شيء يأكلـه سـوى القليـل مـن الكمـثرى وبعـض البنـدق المجفـف هـذا بالإضافـة إلى شـعوره بالوحـدة في الشـتاء حيـث أن الطحـان لم يـأت أبـدًا لزيارتـه.

كان الطحـان يقـول لزوجتـه:لا يجـب أن أذهـب إلى (هانـز) الصغـير عندمـا تتسـاقط هـذه الثلـوج الغزيـرة، دعـك مـن أن النـاس عندمـا لا يكـون عندهـم الكثـير يفضلـون أن يتركهـم الآخرون وشـأنهم، إنهـم لا يرغبـون في أن يزورهـم النـاس دائمًـا، فهـذا يجعـل حياتهـم لا تطـاق، هـذه هـي فكـرتي عـن الصداقـة وأعتقـد أننـي عـلى حـق.. سـوف أنتظـر حتـى يـأتي الربيـع فـأزور (هانـز) الصغـير، حينئـذ سـوف تكـون الزهـور قـد تفتحـت في حديقتـه مـرة أخـرى..

.. وأعتقـد أنـه سـوف يكـون باسـتطاعته وقتهـا أن يعطينـي سـلة مـن الزهـور اليانعـة، وسـوف يجعلـه ذلـك سـعيدًا.

ردت زوجة المليونير وهي جالسة على مقعدها الوثير الفاخر بجوار المدفأة الكبيرة:

-يـا لـك مـن رجـل طيب..بالتأكيـد أنـت رجـل طيـب.. طيـب جـدًا.. أن أمـر رائـع أن نسـمعك تتحـدث عـن الصداقـة.. إننـي متأكـدة مـن أن القـس نفسـه لا يسـتطيع أن يقـول مثـل هـذه الأشـياء الرائعـة كـما تقولهـا.

وقال ابنه الصغير:

-إذن، لمـا لا نـدع (هانز)الصغـير إلى زيارتنـا؟.. فـإذا كان (هانـز) المسـكين يقـاسي بعـض المتاعـب فسـوف أعطيـه نصـف طعامـي، وأريـه أرانبـي البيضـاء.

صاح المليونير في جزع:

-يا لك من صبي أحمق! إنني حقًا لا أعلم لماذا نرسلك إلى المدرسة، فإنك تبدو كما لو أنك لم تتعلم أي شيء..سأخبرك لماذا ؛ فإذا أتى (هانز) إلى هنا ورأى شعلتنا الدافئة وطعامنا الشهي فقد يشعر بالغيرة والحقد، وهما أسوأ شيء على الإطلاق.. قد تحول (هانز) الصغير إلى (هانز) الشرير، والآن فإنني بالتأكيد لن أسمح لـ(هانز) الصغير أن يصبح غيورًا أو حقودًا، فإني أحب صداقته وسوف أرعاه دائمًا وأعمل على أن يبقى طيبًا، بالإضافة إلى ذلك فإنه إذا جاء (هانز) إلى هنا قد يطلب مني أن أعيره بعض الدقيق.. والدقيق- كما تعلم – هو تجارتي، والتجارة شيء والصداقة شي آخر تمامًا ولا يجب أن تمزج بينهما.. فالكلمات مختلفة ولها معان مختلفة أيضًا.. الجميع يعرفون ذلك

قالت زوجته في انبهار:

-يا لك من متحدث رائع !.

رد المليونير في تواضع:

-معظم الناس يحسنون التصرف، لكن قليلون هم الذين يتقنون فن الحديث.. لأنه الأكثر صعوبة بالطبع، وهو الأفضل أيضًا..

ونظر إلى ابنه الصغير الذي كان يجلس إلى المائدة فوجده يشعر بالخجل من نفسه إلى درجة البكاء ومع ذلك..لقد كان صغيرًا جدًا لا يفهم عن الدنيا أي شيء.. إذن ينبغي أن نلتمس له العذر.. أليس كذلك؟!

وبمجرد أن انتهى فصل الشتاء وبدأت براعم زهور الربيع تتفتح، قال الطحان لزوجته أنه سوف يذهب لزيارة (هانز) الصغير (كالعادة)..

قالت زوجته:يا لقلبك الطيب! إنك دائمًا تفكر في الآخرين، لتنس أن تأخذ معك السلة الكبيرة لتحضر بعض الزهور.

وذهب الطحان إلى كوخ (هانز) الصغير.. والسلة في يده..

هتف الطحان بصوت عال:صباح الخير يا (هانز).

رد (هانز) بتحية عريضة وابتسامة واسعة:صباح الخير.

قال الطحان:فكيف كان حالك طوال الشتاء؟

رد (هانز):حسنًا.. إنه كرم كريم منك أن تسأل.. أعتقد أنني قد مررت بوقت عصيب نوعًا ما، ولكن.. الحمد لله.. لقد جاء الربيع الآن.. وأنا سعيد تمامًا.

قال الطحان:لقد كنا نتحدث عنك كثيرًا في الشتاء يا (هانز).. ونتساءل عن أحوالك.

-هـذا كـرم بالـغ منـك.. إننـي مندهـش للغايـة منـك.. فأنـت لا تنـسى الصداقـة أبـدًا، وقـد ساورتني المخـاوف أن تكـون قـد نسـيتني.

-الصداقة لا تنسى يا عزيزي.. هذا هو أروع ما فيها، لكني أخشى أنك لا تفهم هذا

وبينما كان يتحدث، كان الطحان ينظر إلى صديقه (هانز) باهتمام:

-كم هي جميلة أزهارك يا (هانز)!

قال(هانز) بفخر:

-جميلـة جـدًا بالطبـع.. إن أسـعد شيء في حيـاتي هـو أن يكـون لـديَّ المزيـد منهـا، فسـوف أذهـب بهـا إلى السـوق فأبيعهـا وبثمنهـا سـوف أسـترد عربـة اليـد الخشـبية.

صاح الطحان في حنق:

-تسترد عربتك؟.. هل تعني أنك قد بعتها؟..يا له من فعل أوج!

قـال (هانز):لقـد اضطـررت إلى ذلـك، لقـد قلـت لـك أن الشـتاء كان عصيبًـا جـدًا بالنسـبة لي.. ولم يكـن لـدي أي نقـود أِتـري بهـا الخبـز، لقـد بعـت الأزرار الفضيـة لأفضـل معطـف لـديّ، ثـم بعـت سـاعتي الفضيـة وأخـيرًا بعـت عربـة اليـد، لكننـي الآن سـوف أشـتريها كلهـا مـرة ثانيـة.

قـال الطحان:حسـنًا.. سـوف أعطيـك عربتـي.. صحيـح أنهـا ليسـت في حالـة جيـدة.. في الواقـع أحـد جانبيهـا مخلـوع، كـما أن هنـاك شيء في الإطـار، لكننـي سـوف أعطيهـا لـك عـلى أيـة حـال.. نعم..نعم..أعـرف أن هـذا هـو غايـة الكـرم منـي وسـوف يظـن الكثـير مـن النـاس أننـي غبـي لأنني أفـرط فيهـا، لكننـي لسـت مثـل الجميـع، لأننـي أرى أن الكـرم هـو أفضـل مميـزات الصداقـة، كـما أننـي قـد اشـتريت عربـة جديـدة.. نعـم.. سـوف أعطيـك عربتـي القديمـة، ولسـت بحاجـة لأن تشـكرني.

قـال (هانـز) الصغـير وقـد لمعـت عينـاه في وجهـه السـعيد:يمكنني أن أصلِّحهـا بسـهولة.. إنَّ لـديَّ لوحًـا مـن الخشـب في المنـزل.

هنا صاح الطحان بسرعة:

-لـوح مـن الخشـب!.. هـذا هـو بالضبـط مـا أحتاجـه لسـقف بيتـي، فهنـاك فتحـة في السـقف.. ثقبًـا يتسرب منـه المـاء.. مـما قـد يـؤدي إلى أضرار جسـيمة للمنـزل مـن الداخـل إذا لم ًالحـه، مـن الطريـف أنـك ذكـرت أمـر لـوح الخشـب: إنـه لأمـر رائـع تمامًـا أن يـؤدي تـصرف حـين إلى تـصرف حسـن آخـر.. لقـد أعطيتـك عربتـي، والآن سـوف تعطينـي أنـت لوحـك الخشـبي.. بالطبـع.. العربـة أكـثر مـن اللـوح الخشـبي.. ولكـن الصداقـة الحقيقيـة لا تهتـم بمثـل هـذه الأمـور.. أرجـوك.. احـضر لي لـوح الخشـب في الحـال وسـوف أبـدأ العمـل في سـطح منـزلي بعـد الظهـيرة.

قال(هانز) الصغير سعيدًا:طبعًا.. بكل سرور.

وأسرع يحضر لوح الخشب.. وعندما رآه الطحان قال:

-أنه ليس كبيرًا بما يكفي.. أخشى أنه بعد أن أصلح سقف البيت لن يبق لك ما تصلح به العربة.. إنه ليس خطئي بالطبع، كما تعرف.. والآن وقد أعطيتك عربتي فإنني متأكد أنك سوف تعطيني بعض الزهور في المقابل.. خذ..هاك السلة..تأكد أنها امتلأت عن آخرها

شعر (هانز) الصغير بالرعب لأنها كانت سلة كبيرة جدًا:

-املأها عن آخرها!!

وكان يعرف أنه لو ملأها عن آخرها لن يتبق أية زهور ليبيعها في السوق.. وكان يريد أن يستعيد أزراره الفضية الغالية.

رد الطحان:

-لقد قلت أنني سوف أعطيك عربتي الخشبية وبالتالي لا أظن أن بعض الزهور كثيرة جدًا عليّ.. ربما أكون مخطئًا لكنني ظننت أن الصداقة الحقيقية منزَّهة عن الأنانية.

صاح (هانز الصغير):أوه.. صديقي العزيز.. إن كل ما في الحديقة من زهور هو ملك لك.

ثم أسرع يلتقط كل الزهور الجميلة في حديقة حتى ملأ بها سلة الطحان..

ودّعه الطحان:إلى اللقاء يا (هانز)!

وصعد التل وقد حمل اللوح الخشبي على كتفه والسلة الكبيرة المملوءة بالزهور..

قال (هانز) الصغير:إلى اللقاء.

وأخذ يعمل في الأرض في سعادة.

كان سعيدًا من أجل عربة اليد!

وبينما كان (هانز) الصغير يعمل في الحديقة في اليوم التالي سمع صوت الطحان ينادي عبر سور الحديقة فنظر (هانز) إلى الطريق ليجد الطحان يحمل على ظهره جوال كبير جدًا

وقال الطحان بصوت عال:

-هل تمانع يا صديقي (هانز) في أن تأخذ جوال الدقيق هذا لتبيعه لي في السوق مع جوال ما تبيعه يوميًا؟

قال (هانز) متأسفًا:

-آه.. إنني في غاية الأسف.. فإنني مشغول للغاية ولا أستطيع أن أساعدك اليوم..

قال الطحان:

-حسن حقًا !.. لكنك تعرف أنني سوف أعطيك عربتي، وأعتقد أنه من القسوة منك أن تقول أنك لا تستطيع مساعدتي في بيع جوال الدقيق.

صاح (هانز) الصغير:

-كلا.. أرجوك لا تقل ذلك.. فإنني بالتأكيد لست بهذه القسوةودخل إلى الكوخ ليأتي بمعطفه، وذهب من فوره إلى السوق وقد حمل جوال الدقيق على كتفيه، وقد كان يومًا قاسيًا بحق.. إذ كان الجو متربًا بشدة، والطقس شديد الحرارة، لكنه واصل السير بشجاعة حتى وصل إلى السوق أخيرًا.. وظل هناك قليلًا ثم استطاع في النهاية بيع جول الدقيق بسعر جيد جدًا، ثم عاد مرة أخرى إلى البيت في الحال فقد خاف لو أنه تأخر فيقابله بعض اللصوص في الطريق.

قال (هانز) الصغير لنفسه، وهو ذاهب إلى الفراش:

-لقد كان يومًا عصيبًا بحق.. لكنني سعيد لأنني وافقت على مساعدة الطحان صديقي.. كما أه سوف يعطيني عربة اليد الخاصة به.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي جاءه الطحان ليأخذ ثمن الدقيق إلا أن (هانز) الصغير لم يكن قد استيقظ من نومه بعد..

قال الطحان:يا لك من شخص كسول!.. بما أنني سوف أعطيك عربتي فقد تصورت أنك سوف تعمل باجتهاد أكثر من ذلك.. من الفظيع أن يكون أحد أصدقائي كسولًا.. لا تغضب من صراحتي.. لم أكن لأقول لك شيئًا كهذا لو لم نكن أصدقاء.. فما معنى الصداقة إذن إن لم نستطع أن نتحدث بصراحة؟ فأي إنسان باستطاعته أن يقول كلمات ظريفة ويحاول أن يجاملك ويمدحك، لكن الصديق الحقيقي دائمًا يقول أشياء غير سارة ولا يهتم إذا كان هذا يؤلمك.. بل إذا كان هذا صديقًا حقيقيًا لك فسوف يتعمد أن يخبرك بهذا من أجل فائدتك

قال (هانز) الصغير وهو يفرك عينيه:

-إنني في غاية الأسف.. لكنني كنت مرهقًا، ففكرت أن أرقد في الفراش لبعض الوقت وأستمع إلى غناء الطيور.. فأنا أعمل بشكل أفضل عندما أستمع إلى غناء الطيور.

ابتسم الطحان قائلًا:

-إنني سعيد بذلك لأنني أريدك أن تأتي فورًا إلى الطاحونة بمجرد أن ترتدي ملابسك.. لتصلح لي السقف.

ولأن (هانـز) الصغير لم يـرو أزهـاره منـذ يومـين، فقـد كان يريـد أن يذهـب للعمـل في حديقته، لكنـه لم يـرد أن يرفـض طلـب صديقـه الطحـان مـرة أخـرى، فقـد كان صديقًـا مخلصًـا حقًـا.. سـأل (هانـز) في صـوت خافـت:

-هل تعتقد أنه جفاء مني أن قلت أنني مشغول؟

أجابـه الطحان:حسـنًا!.. لا أعتقـد أننـي أطلـب منـك الكثير، أنـت تعـرف أننـي تعـرف سـوف أعطيـك عربتـي، لكـن بالطبـع إذا رفضـت فسـوف أذهـب لتصليـح السـقف بنفسـي

صاح (هانز) على الفور:

-كلا!

ووثـب مـن فراشـه وارتـدى ملابسـه وذهـب إلى الطاحونـة.. وظـل (هانز)يعمـل طـوال النهـار حتـى غربـت الشـمس وعنـد الغـروب جـاء الطحـان لـيرى كيـف يسـير الحـال مـع (هانـز) في الطاحونـة..

صاح الطحان مغتبطًا:

-هل أصلحت هذا الثقب هناك يا (هانز) بعد؟

رد (هانز) وهو ينزل من على السلم:

-نعم لقد أصلحته.

هتف الطحان:

-حقًا.. ليس هناك عمل يسعد الإنسان أفضل من عمل صديقه.

رد (هانز) وهو يمسح جبهته بظهر كفه:

-إن الاسـتماع إليـك وأنـت تتكلـم هكـذا لأمـر رائـع.. إلا أننـي أخـشى أنـه لم يكـن لـديَّ أبـدًا مثـل هـذه الأفـكار الجميلـة مثلـك.

قال الطحان في فخر:

-آه.. لسـوف تأتيـك هـذه الأفـكار.. لكـن يجـب عليـك أن تنتهـي في اجتهـادك في العمـل أكـثر.. في الوقـت الحـالي أنـت تعـرف فقـط ممارسـة الصداقـة.. يومًـا مـا سـوف تفهـم نظريتهـا أيضًـا.

سأله (هانز) في شغف:

-هل تعتقد هذا حقًا؟

أجاب الطحان:

-ليس لدي أدنى شك في هذا.. ولكن الآن وقد أصلحت السقف يجب أن تعود إلى منزلك وتستريح.. لأنني أريدك أن تسوق غنمي على الجبل غدًا.

وخشي (هانز) الصغير أن يبدي اعتراضه وفي الصباح الباكر أحضر الطحان غنمه إلى الكوخ وبدأ (هانز) يتحرك بها نحو الجبل.. لقد استغرق اليوم كله ليصل إلى هناك ويعود إلى البيت وعندما عاد نام على المقعد من شدة الإنهاك، ولم يستيقظ حتى شروق الشمس!..

وعندما طلع النهار قال (هانز) وهو ذاهب إلى العمل:

-يا له من وقت رائع سوف أقضيه في حديقتي اليوم.

ولكن بشكل أو بآخر لم يكن قادرًا على العناية بزهوره على الإطلاق لأن صديقه الطحان المخلص كان دائمًا يأتيه أو يرسل إليه ليأخذ شيئًا من هنا أو هناك أو يطلب منه مساعدته في الطاحونة وكان (هانز) يشعر بالحزن أحيانًا، إلا أنه ظل يقول لنفسه أن الطحان هو أعز أصدقائه كما أنه سوف يعطيه عربة اليد وهذا كرم كبير منه.

وهكذا ظل (هانز) الصغير يعمل من أجل الطحان الذي ظل يتحدث عن الصداقة بأسمى معانيها وكان (هانز) يكتبها في مفكرة ويقرأها كل ليلة ويحفظها.. وذات مساء كان (هانز) يجلس بجوار مدفأته فسمع طرقات عالية على الباب، وكان الجو سيئًا للغاية بالخارج، كانت الرياح تصفر وتعوي حول المنزل بعنف لدرجة أنه في بداية الأمر ظن أن العاصفة قد سدت كل شيء حوله وهي التي تطرق على بابه الآن لكنه سمع الطرقات تتكرر وتعلو..

قال(هانز) الصغير لنفسه:

-لابد أنه عابر سبيل مسكين.

وجرى نحو الباب..

وهناك وجد الطحان وفي يده مصباح وفي اليد الأخرى عصى كبيرة وهو يصيح:

-عزيزي (هانز)..أنا في مشكلة كبيرة.. لقد جرح ابني الصغير نفسه وأنا ذاهب إلى الطبيب لكنه بعيد جدًا، ويا لها من ليلة سيئة ففكرت أنه ربما يكون من الأفضل أن تذهب أنت بدلًا مني، فأنت تعلم أنني سوف أعطيك عربتي ومن العدل أن تساعدني.

قال (هانز) الصغير:

-بكل سرور.. سوف أذهب في الحال.. لكن عليك أن تعيرني مصباحك، فالليلة مظلمة جدًا وأخشى أن أتعثر في الطريق وأسقط.

رد الطحان:آسف جدًا.. هذا هو فانوسي الجديد وسوف تكون خسارة كبيرة إذا كسرته

قال (هانز) في أسى:

-حسنًا. حسنًا.. فسوف أذهب على أية حال.

وبالفعل.. وضع معطفه وذهب.. ويا له من طقس سيئ!.. وكانت ليلة مظلمة جدًا حتى أن (هانز) الصغير لم يكد يرى كفه في هذا الجو.. وكانت الرياح عنيفة لدرجة أنه بالكاد كان يستطيع الوقوف ومع ذلك فقد كان شجاعًا جدًا وظل يمشي لحوالي ثلاث ساعات حتى وصل إلى منزل الطبيب.. وهناك طرق الباب.. وسمع الطبيب يصيح بعد أن أطل برأسه من نافذة غرفة النوم:

-من الطارق؟

أجابه (هانز):

-إنني (هانز) الصغير أيها الطبيب.

قال الطبيب:

-ماذا تريد يا (هانز)؟

رد(هانز):

-لقد جرح ابن الطحان نفسه وهو يريدك أن تأتي إلى منزله في الحال.

قال الطبيب:حسنًا.

وأمر خادمه أن يأتيه بفرسه وحذائه ومصباحه، وفي الحال امتطى فرسه وانطلق نحو منزل الطحان وحاول (هانز) أن يجري إلى جواره.. إلا أن الطقس ازداد سوءً فلم يستطع (هانز) أن يلحق بالطبيب، فلم يرَ إلى أين كان يذهب.. وفي النهاية ضل طريقه وانحرف بعيدًا إلى منطقة خطرة مملوءة بالحفر العميقة.. وهناك غرق (هانز) المسكين..وفي اليوم التالي تم العثور على جثته طافية في بركة ماء كبيرة.. فأحضروه إلى الكوخ..

ولأنه كان محبوبًا من الجميع فقد حضر الجميع جنازته.. وكان الطحان على رأس المعزين، وقال الطحان:

-بما أنني كنت من أعز أصدقائه فلابد أن أتخذ أهم موقع.

فسار في المقدمة وقد ارتدى معطفًا أسود طويلًا.. ومن حين إلى آخر كان يمسح عينيه بمنديل كبير مبلل بالدموع.

وبعد أن انتهت الجنازة قال أحد المعزين إذ جلسوا في المقاعد المريحة يشربون ويأكلون:

-لقد كان (هانز) الصغير خسارة للجميع.

رد الطحان:نعم.. لقد كان خسارة عظيمة بالنسبة لي، فقد كنت أنوي أن أعطيه عربة اليد.. والآن لا أدري ماذا أفعل بها.. إنها تعوق الطريق في منزلي.. كما أنها مكسورة فلا أستطيع بيعها، فهل ترون المتاعب التي سببها لي (هانز) الصغير بموته قبل أن أعطيها له.. يمكنني أن أقول أن هذا علمني درسًا وهو أن الكرم لا يفيد أحدًا.. فمن المؤكد أنني لن أعطى أي شيء لأي شخص بعد ذلك.

وفي النهاية قال فأر الماء:حسنًا.. وماذا بعد؟

رد الطائر:لا شيء.. هذه هي النهاية!

سأل فأر الماء:لكن ماذا حدث للطحان وعربته.

رد الطائر:

-لا أعرف.. ولا أعتقد أن هذا يهمني.

قال الفأر:

-يا لك من جاحد!

علّق الطائر:

-أعتقد أنك لم تفهم الدرس المستفاد من هذه القصة.

صرخ فأر الماء:

-الدرس؟!

-بالتأكيد.

قال الفأر غاضبًا:حقًا.. لقد كان من الواجب أن تخبرني بذلك قبل أن تبدأ.. في الحقيقة كنت سأقولأفّوأذهب إلى داري.. بل.. لماذا لا أقولها الآن.. وصرخ (أف!)

وجرى مباشرة إلى جحره.. وسألت البطة السابحة الطائر بعد دقائق:ما رأيك فيه؟.. إن هناك الكثير من الأشياء الطيبة التي من الممكن قولها عنه، ولكن بما لديّ من إحساس بالأمومة فإنه يبكيني دائمًا أن أرى كائنًا يحب العيش بمفرده كما يفعل فأر الماء

رد الطائر:

-إنني حزين لأنني أغضبته.. في الحقيقة حاولت أن أعلمه شيئًا من هذه الحكاية.

قالت البطة:

-آه.. ولكن هذا شيء خطير جدًا.

غمغم الطائر:

-عندك حق!

حلمي
ليو تولستوي

لم تعد تنتمي إليّ كابنة!.. ألا تفهم هذا؟.. ببساطة، لا يمكنني فرض احتمال أن أتركها لتمارس السياسة مع الغرباء. سوف أدبر الأمور حتى تعيش، وتسعد بحياتها كما ينبغي، لكني لا أتمنى أن أسمع منها ما كان يشغل تفكيري مرارًا..وكل هذا الرعب!.. كل هذا الرعب!

هز كتفيه، رفعهما لأعلى ثم خفضهما، ثم هز رأسه ورفع عيناه.. هذه الكلمات قالها الأمير (ميخائيل إيفانوفيتش) لأخيه (بيتر)، الذي كان يشغل منصب محافظ لمقاطعة بوسط (روسيا).. الأمير (بيتر) كان رجلا في الخمسينات من عمره، بينما كان (ميخائيل) أصغر منه بعشر سنوات. إذ يكتشف أن ابنته التي غادرت داره منذ عام مضى، استقرت هنا مع طفلها، جاء الأخ الأكبر من (سان بطرسبرج) إلى عاصمة المقاطعة، عندما كانت المحادثة آنفة الذكر.

الأمير (ميخائيل إيفا نوفيتش) كان رجلًا طويلًا، وسيمًا، أبيض الشعر، وردي البشرة، قاسي، متكبّر، لكنه جذّاب الهيئة. تتكون أسرته من زوجة عصبية، سوقية، تتشاجر معه باستمرار على أتفه التفصيلات.. وابن يتصرف بشكل حسن نوعًا ما يمكنه أن يكونجنتلماناًاعتمادًا على لقب أبيه.. وابنتان، تزوجت كبراهما زيجة طيبة وعاشت في (سان بطرسبرج)، والصغرى (ليزا) – المفضلة لديه – التي اختفت من الدار منذ عام مضى.. بعد وقت قليل فقط عثر عليها هي وطفلها في هذه المدينة.

أراد (بيتر) أن يسأل أخيه كيف – وتحت أي ظروف – تركت (ليزا) الدار، ومن قد يكون والد الطفل.. لكنه لم يستطع أن يجعل عقله يستفهم عن هذا.

ذلك الصباح الباكر، عندما حاولت زوجته أن تواسي شقيق زوجها، لاحظ الأمير (بيتر) لمسة ألم على وجه شقيقه، هذه اللمحة تقنعت في الحال بتعبير من اللامبالاة المتغطرسة! وبدأ يسألها عن شقتهم، والثمن الذي دفعته. وفي حجرة الغداء – قبل حضور العائلة والضيوف – كان نابهًا متألقًا، متهكمًا كعادته. تجاه كل واحد، عدا الأطفال، الذين عاملهم تقريبًا في اهتمام واحترام جليين، وقد انتقى مجلسه وحيدًا في وقار. وكان هذا طبيعيًا تمامًا بالنسبة له إذ يعرف الجميع حقه الكامل في التعالي!

في المساء أعد له شقيقه لعبة، وعندما انتحى به في حجرة النوم وبدأ يستعد لخلع طاقم أسنانه، دق شخص ما الباب دقات خفيفة بإصبعين.

من هناك؟

إنه أنا يا (ميخائيل).

ميّز الأمير (ميخائيل) فيها صوت زوجة شقيقه، وبسرعة أعاد أسنانه وقال لنفسه:ترى، ماذا تريد؟ثم بصوت عالأدخلي.

كانت زوجة شقيقه مخلوق هادئ، رقيق، ساعدت زوجها في تحقيق العديد من آماله، ولكن تبدو للبعض شخصية مناورة مداورة نوعًا ما، وبعض آخر لا يتردد في تسميتها (حمقاء). كانت جميلة، لكن شعرها كان دائمًا مصفف بإهمال، وهي نفسها كانت غير منظمة، ذهنها شارد، كان لديها – أيضًا – أغرب الأفكار، أفكار غير أرستقراطية بالمرة، ولا تنتمي إطلاقًا لزوجه لها مكانه مثل مكانتها في المجتمع.

وغالبًا تعبر عن هذه الأفكار بشكل غير متوقع، ولدهشة الجميع، وزوجها نفسه يتعجب لها، ليس بأقل مما يفعل أصدقاؤها.

يمكنك هجرها، لكني أرغب بشدة في إقراضها بعض المال.بدأت حديثها بأسلوبها المعهود.

فليحفظها الله الرحيم.أجابها شقيق زوجها وهو- بأدبه المعروف، المبالغ فيه قليلًا – يجلب لها مقعدًا.

هل أضايقك؟قالتها وهي تسحب سيجارةإنني لن أقول أي شيء يكدر صفوك يا (ميخائيل). أنني فقط أريد أن أقول شيئًا ما بخصوص (ليوشكا).

تنهد (ميخائيل إيفانوفيتش) – آلمته الكلمة؛ لكنه تحكم في نفسه فورًا، وأجابها في ابتسامة باهته:

مناقشتها ستدور فقط حول موضوع واحد، وهذا هو الموضوع الذي ترغبين في التحدث عنه .

كان يتكلم دون أن ينظر إليها، وتجنب حتى ذكر اسم الموضوع. لكن زوجة شقيقه الصغيرة الجميلة، البدينة، لم ترتبك، وواجهته بنفس اللطف، ونظرة التماس تجلت في عينيها الزرقاوين، وتنهدت بعمق أشد:(ميخائيل)، صديقي العزيز، هلا أشفقت عليها، إنها مجرد بشر.

قال وهو يبتسم ابتسامة لاذعة:

لم أشك أبدًا في هذا.

إنها ابنتك.

كانت.. ولكن، بالله عليك يا عزيزتي (آلين) لماذا نتحدث عن هذا؟

(ميخائيل).. يا عزيزي.. ألا ترغب في رؤيتها؟.. إنني فقط أردت أن أقول أن الشخص الذي

يجب أن تلقي عليه باللوم..

احمر وجه الأمير (ميخائيل).. وصارت ملامحه قاسية.

بحق السماء، فلنتوقف عن هذا.. لقد عانيت بما فيه الكفاية. والآن ليس لدي إلا رغبة وحيدة وهي أن أضعها في هذا الموقع الذي أرادت فيه أن تستقل به عن الآخرين، ولن تكون بحاجة في المستقبل لأي علاقة أو اتصال بي. بعدها تستطيع أن تعيش حياتها الخاصة. وعائلتي وأنا لا نريد أن نسمع أي شيء عنها. هذا هو كل ما استطعته

(ميخائيل) أنت لا تقول أي شيء إلا (أنا)، هي أيضًا (أنا).

بلا ريب، ولكن يا عزيزتي (آلين)، أرجوك دعينا نسقط هذا الأمر من حسابتنا. إنني بحاجة إلى هذا كثيرًا.

ظلتاليكساندرا دميترفناصامتة لعدة دقائق، ثم هزت رأسها:

و(ماشا)، زوجتك، تفكر بنفس أسلوبك هذا؟

نعم، تمامًا

أصدرتاليكساندرا دميترفناهمهمة مبهمة.. فقال هو:

سعدت بوجودك، وليلة سعيدة

لكنها لم تذهب ظلت واقفة صامتة لعدة دقائق، ثم..:

أخبرني (بيتر) أنك تزمع ترك المال مع المرأة حيث تعيش، فهل لديك العنوان؟

لدي.

لا تتركه مع المرأة يا (ميخائيل)، اذهب بنفسك. فقط لترى كيف تعيش. لو أنك لا تريد أن تراها، فأنت لست بحاجة إلى هذا، (إنه) ليس هناك.. لا أحد هناك.

اهتز (ميخائيل إيفا نوفيتش) بعنف:

لماذا تعذبينني على هذا النحو؟ إنها خطيئة في مواجهة الرحمة!

اعتدلت (اليكساندرا دميتريفنا) في وقفتها، ودمعت عيناها، إذ مسّتها توسلاتها، وقالت:

كم هي تعيسة، لكنها غالية علينا جدًا

نهض، وظل واقفًا بانتظار حتى تنتهي، قبضت كفتيها بانفعال وهتفت:

(ميخائيل).. إنك تتصرف بشكل خاطئ.

.. ثم تركته وحيدًا.

لفترة طويلة بعد أن ذهبت، راح (ميخائيل إيفانوفيتش) يزرع مربع البساط جيئة وذهابًا ويرتجف متنهدًا.. حتى أرعبه صوته، فظل صامتًا. كبريائه الجريحة عذبته.. ابنته – نعم ابنته – التي جلبها إلى منزل أمها، (أفدوتيا بوريسوفنا) الشهيرة، التي كان الزوار يقيمون الحفلات على شرفها الإمبراطوري، وكان هو شرف العالم بأسره.. ابنته؛.. هو الذي عاش حياته كفارس الزمن القديم لا يعرف الخوف أو الأعذار.

وحقيقة أن يكون له ابن شرعي من امرأة فرنسية، جعله يستقر بعيدًا، لم تجعله يقلل من هيبته واحترامه.. والآن، هذه الابنة، التي فعل من أجلها كل ما يستطيع أن يفعله أي أب وينبغي أن يفعله.. هذه الابنة التي منحها تعليمًا عاليًا تباهى به، وكل فرصة لتبرز في أفضل مجتمعات روسيا.. هذه الابنة التي لم تأخذ فقط كل ما ترغب فيه الفتاه.. بل لقد (أحبها) حقًا؛ كان يعشقها إلى حد الانبهار.. هذه الابنة التي دفعت مقابل هذا كل هذا الجحود، الذي يخجل منه ولا يمكنه مواجهة عيون الرجال.

وراح يستعيد في ذاكرته الزمان القديم والأيام الخالية، عندما لم تكن طفلته البائسة سبب عذابه على هذا النحو، وكفرد من العائلة، ولكن حبه ومتعته ومباهاته.. رآها مرة أخرى.. شيء صغير في الثامنة أو التاسعة.. متألقة.. ذكية.. نشيطة.. شاكرة.. عينان سوداوان لامعتان.. شعر نحاسي مسترسل.. تذكر كيف كانت تقفز على ركبتيه وتحتضنه وتداعب عنقه.. وكيف كانت تضحك، غير مبالية باعتراضه، وتستمر في قرص عنقه وتقبيل شفتيه وعينيه ووجنتيه.. كان بطبعه وطبيعة حاله يرفض أي تأكيد على عواطفه.. لكن هذا الحب الثائر الحميم قد حرّك وجدانه، وغالبًا ما كان يميل إلى تدليلها، تذكر أيضًا كم كان جميلًا أن يداعبها.. وأن يتذكر كل ذلك، ويرى ما أصبحت عليه طفلته البديعة الصغيرة الآن.. مخلوقًا لا يمكنه التفكير فيه دون أن يشعر بالازدراء!

أيضًا، استعاد ذكرى ذلك الزمان الذي كانت فيه تدخل مرحلة الأنوثة، والشعور المستفز من الخوف والغضب الذي جربه مرارًا كلما تنبه إلى أن الرجال ينظرون إليها كامرأة، فكّر في حبه الغيور لها عندما جاءت مستعدة بارتداء ملابسها للعب الكرة وهي تعلم أنها جميلة في هذه الثياب، أرعبته النظرات الهائمة التي وقعت عليها.. أما هي فلم تفهم هذه النظرات فقط؛ بل ابتهجت لها وشعرت بالغبطة منها، وفكّر في نفسهنعم.. هذا النضوج الفائق الذي يجعل المرأة أنثى نقية! اختلاف تام، أنهن لا يعرفن الحياء.. يفتقرن إلى هذا الإحساسوتذكر كيف لم يكن واضحًا أمامه كيف رفضت بعض نصائحه وقتها.. كانت ثملة بهالة السعادة التي عاشت فيها!

لكن هذا النجاح لم يستمر طويلًا.. مر عاما.. ثم اثنان.. ثم ثلاثة.. كانت فردًا من

العائلة، جميلة ولكن زهوة شبابها مرّت، وأصبحت أشبه بقطعة أثاث في الحجرة.. (ميخائيل إيفانوفيتش) تذكر كيف أدرك أنها في الطريق لتصبح (عانس).. مرغوبة، ولكن لشيء وحيد بها.. لابد أن يزوجها سريعًا بقدر الإمكان وكلما وسعه إلى ذلك السبيل.. ربما ليس تمامًا.. هو يرغب في تدبير كل شيء مبكرًا وعلى نحو جيد، متوقعًا منافسة شريفة. ولكن بدا له أنها تتصرف بغطرسة تدنو من الإهانة.. تذكر هذا.. غضبه تصاعد أكثر وأكثر وأجّت نيرانه نحوها.. أن يفكر في رفضها للعديد من الرجال الممتازين، فقط لتنتهي إلى هذه المهزلة، تنهد ثانيةآه.. آه!.

ثم أنه توقف عن هذه الذكريات الممضة.. سحب سيجارة وحاول أن يفكر في أشياء أخرى.. هكذا سريعًا.. لقد صمم على تجاهل ذكريات الماضي الملحّة.. لكنه تذكر.. لم يكن هذا منذ زمن بعيد.. عندما كانت أكبر سنًا من العشرين عامًا ثم.. بدأت تنجذب إلى صبي في الرابعة عشر.. تلميذ في المدرسة البحرية، ومن خدم الفنادق عندما يبقون في المدينة.. جعلت الفتى نصف مجنون، وتشتت عقله تمامًا.. ثم كيف واجهت والدها بعنف.. ببرود.. وحتى بوقاحة، وعندها – لوضع نهاية لهذا الموضوع الغبي – أرسل الشاب بعيدًا.. واعتبرت هي نفسها مُهانة على نحو ما.. ومنذ ذلك الحين حدث ذلك الشقاق بين الأب وأبنته.

كنت محقًاقال لنفسهإنها امرأة سيئة الخلق، بلا حياء.. ثم – كآخر أشباح الذكريات – كان ذلك الخطاب من (موسكو)، الذي كتبت فيه أنها لن تستطيع العودة إلى الوطن، لأنها امرأة تعيسة، مهجورة، فقط تطلب العفو والسماح ونسيان ما بدر منها، ثم استجمع هذا المشهد المؤسف عندما جاءته زوجته وطفقا يخمنان ويستنتجان، وصارت – بالفعل – كل تخميناتهما وتوقعاتهما مؤكدة، حدثت الكارثة في (فنلندا).. عندما سمحوا لها بزيارة عمتها، وكان الفاعل الأثيم هو شيطان أبله تافه.. طالب خاوي العقل.. شيء لا قيمه له.. وتزوجته!.. كل هذه الذكريات تعود إليه الآن إذ يتقدم ويتراجع على بساط حجرة النوم، يتذكر حبه المثالي لها.. فخره بها.. وعندما تقلصت أمعاءه إذ يعرف زلتها الخطيرة وسقوطها في مستنقع الأوحال هذا.. وكرهها إلى حد الموت بسبب لحظات الاحتضار التي سببتها له.. تذكر محادثته مع زوجة شقيقه.. وحاول أن يتخيل كيف يمكن أن يسامحها.. ولكن – في الحال- ظهرت على السطح فكرة (هو).. فخدشت أوتار قلبه من الرعب.. من الاشمئزاز.. وجرحت كبرياءه أكثر.. تأوه بصوت مرتفع.. وحاول أن يفكر في شيء آخر.

كلا، هذا مستحيل؛ سوف أوكل الأمر إلى (بيتر).. سوف أعطيه المال ليمنحه إياها شهريًا، وبالنسبة لي لم يعد لدي ابنة بعد الآن!

ومرة أخرى، شعور فضولي يقحم نفسه عليه: مزيج من تعذيب النفس باستجماع ذكرى حبه لها، وغضبه المجنون ضدها.. هي التي تتسبب في هذا الألم القاتل.

وفي خلال العام الأخير، لم يكن لدى (ليزا) أي شك أنها ستعيش حياتها خلال تقدُم الخامسة والعشرين. فجأة أدركت فراغ حياتها بالكامل..ظهرت أمامها الحقيقة فجأة..منحطة ودنيئة – هذه الحياة المترفة في الوطن بشارع (سان بطرسبورج).. هذا الحيوان لا ينفذ أبدًا إلى أعماقها أو أعماق أي شيء آخر.. إنه فقط يمس قشرة الحياة ويجدبها من السطح..

كان هذا جيدًا لمدة عام أو عامان أو ربما ثلاثة.. ولكن عندما يصل إلى سبع أو ثماني سنوات.. بكل تلك الحفلات وملاعب الكرة والمعازف ومآدب العشاء.. بكل تلك الرفاهية ومصففي الشعر وأدوات التجميل والعناية بجمال الجسد.. بكل هيامه لصغيرة السن والكبيرة.. كل هذه الأشياء التي لم تكن في الحسبان.. الرغبة في كل شيء والسخرية من كل شيء، وأشهر الصيف التي تمر في نفس المكان.. كل شيء سهل مذلل، لكنها متعة سطحية زائلة، حتى ولو كانت الموسيقى والقراءة تمس الأسى الذي يغلف مشكلات الحياة، لكنها لا تحلها أبدًا.. كل هذه الانفعالات لا تعد بأي تغيير، وتفقد سحرها أكثر وأكثر.. بدأت تقنط.. واعتراها مزاج يائس سيء عندما أمهلتها الحياة فترة قبل الموت.

نصحها أصدقائها ووجهوا تفكيرها إلى السياسة.. وعلى الجانب الآخر، رأت الفقر المدقع على حقيقته المؤلمة، المثير للنفور، وعلى الجانب المقابل رأت التشابه المخيف بين نساء تحرير المرأة يركبن العربات الفاخرة ويرتدين ملابس السهرة التي اشترينها بالآلاف.. الحياة أصبحت بالنسبة لها لا تطاق.. وضاقت بها أكثر وأكثر.. وتاقت نفسها إلى شيء حقيقي، عن الحياة نفسها – ليس هذا اللهو أثناء الحياة.. ليست تلك الحياة التي يعيشها أهلها على طبقة الكريمة!.. أما الحياة الحقيقية فلم تكن هناك. أفضل ذكرياتها كان حبها لتلميذ المدرسة الحربية الصغير.. (كوكو)!

كانت هذه دفقة عاطفية جيدة، مخلصة، مستقيمة.. والآن لا شيء مثلها.. لم يمكنها فعل هذا ثانية.. والضغط عليها يزداد أكثر وأكثر.. والأحداث الجارية تمر بها كالحلم، القوم يتصرفون نحوها بشكل غريب.. وحنينها يزداد إلى تجربة جديدة من أي نوع.

كيف ومتى بدأ كل هذا؟ لا يمكنها أن تتذكر بوضوح.. عمتها وضيف آخر.. الأبله الشبيه بثمرة القرع.. تحدث عن عمله.. أهله.. أحدث النكات السويدية، إذ كان سويدي الجنسية.. وبشكل ما.. هي نفسها لا تعرف كيف بدأت نظرات الإعجاب المخيفة والابتسامات والتلميحات.. ومعنى هذا لا يمكن وضعه في كلمات.

تلك الابتسامات والنظرات صارت مكشوفة لكل منهما.. لم تكشف فقط روح كل منهما للآخر، بل بعض ألغاز الحياة والكون.. كل كلمة قالها كانت تفسر معنى هذه الابتسامات بإشارات رائعة لها مغذى مثير للعاطفة..، الموسيقى أيضًا..، عندما كانا يستمعان إليها معًا.. أو عندما يغنيان نشيدًا.. تملأهما ذات المعاني العميقة.. وكذلك الكلمات في الكتب.. يقرأها

بصوت مرتفع.. بشيء ما رغب في مناقشته.. ولكن في اللحظة التي التقت فيها عيونهما والابتسامة التي ومضت بينهما.. ظل التفسير والنقاش بعيدين جدًا خلفهما.. وعبرا هذا الحاجز البعيد، ينشدان مستوى أعلى، إذ تبقي عواطفها المرهفة سرّها الأبدي!

كيف حدث ما حدث؟.. كيف ومتى جمعها الشيطان في قبضته؟.. أولًا ظهر خلف الابتسامات والنظرات.. لم تستطع أن تصف هذا الشعور قط، لكنها وجدت الرعب يتسرب إلى مسام روحها بينما كانت الخيوط اللا مرئية تُنسج حولهما.. وهي لم تكن تملك القوة الكافية لتمزقها وتحرر نفسها! كلما حاولت الابتعاد عنه وجدت نفسها تنجذب إليه وإلى شهامته.. تمنت ألا يستخدم قوته.. لكنها الآن – ظهر هذا بشكل مبهم في حياتها – تتمنى هذا، بل ترغب فيه بشدة.

ضعفها كان الأعظم؛ لأنها ما كانت تملك من شيء يعضد موقفها إزاء هذه المحنة.. كانت الحياة الاجتماعية قد أنهكتهما.. ولم تؤثر عليها أمها بأي شكل، ولا أبيها.. لهذا فكرت أن تحيا بعيدًا عنه، ووجدت الميل العاطفي لهذه الحياة ولممارسة هذا الدور. الحب، الحب المثالي من امرأة لرجل، يحفظ وعد الحياة من أجلها. طبيعتها العاطفية القوية – أيضًا – كانت تقودها إلى هذا الاتجاه في حياتها.

إلى هذا الرجل ذو القوام القوي الممشوق وشعره الأشقر وشاربه المقصوص بعناية، تحت ضغط ما شعرت به أثناء ابتسامة أو كلمة مجاملة، ورأت وعدًا بحياة جديدة يمكنها الاستمرار فيها، ثم بدأت الابتسامة والنظرات والأمل بشيء جميل لدرجة لا تصدق تتداعى.. وبدأ الضجر يشقق حياتها.. شعرت بالخوف.. لكنها – بلا وعي – ظلت تنتظر.

فجأة صار كل هذا الجمال.. كل هذه المتعة.. كل هذه الروحانية.. والمستقبل المليء بالوعود.. صار كل هذا حيوانيًا.. دنيئًا.. حزينًا.. تعسًا!

نظرت في عينه وحاولت أن تبتسم، متظاهرة أنها لا تخاف شيئًا، إذ كان كل شيء كما ينبغي أن يكون؛ لكنه عميقًا في قاع روحها وهي تعرف كل شيء عنه، فهمت أنها لن تعثر فيه على ما كانت تنشد؛ والذي عرفته ذات مرة في نفسها وفي (كوكو). أخبرته أنه يجب أن يكتب خطابًا لوالدها يطلب منه يدها للزواج. ووعد بفعل هذا؛ لكنها عندما قابلته في المرة التالية قال أنه من المستحيل بالنسبة له أن يفعل هذا الآن. رأت في عينيه شيء غامض يثير الريبة وإحساس بالانزعاج، مما جعل ثقتها فيه تتضاءل أكثر. اليوم التالي كتب لها، يخبرها أنه تزوج بالفعل حالًا، لقد هجرته منذ زمن لسوء تفاهم بينهما، لكنه استمر يطلب منها الصفح. جعلته يأتي ليراها.

قالت أنها أحبته؛ مما جعلها تشعر أنها يجب أن ترتبط به إلى الأبد، سواء أكان متزوجًا أم لا! ولن تتركه أبدًا. في المرة التالية أخبرها أنه ووالديه فقراء للغاية مما يمكنه – فقط –

مـن تقديـم أقـل الموجـود. أجابـت بأنهـا لا تحتـاج إلى شيء، وهـي مسـتعدة أن تذهـب معـه حالًا.. أو في أي لحظـة يرغـب هـو في تحديدهـا.. حـاول أن يقنعهـا بالعـدول عـن ذلـك، ثـم نصحهـا بالانتظـار.. فانتظـرت.

ولكـن فقـط لتحيـا سرًا مـع هـذه الرغبـة.. ومقابـلات بالصدفـة.. أو مراسـلات حزينـة معـه.. كل هـذا مسـتورًا عـن أهلهـا.. كانـت تتعـذب، ويقتلهـا هـذا الأسـلوب، وأصرت ثانيـة عـلى أن يأخذهـا بعيـدًا, يجـب أن يفعـل هـذا.. في البدايـة عـادت إلى (سـان بطرسـبورج).. كان يراسـلها، ويعـد في خطاباتـه بالحضـور، ثـم انقطعـت الخطابـات.. ثـم لم تعـد تعـرف شـيئًا عنـه.

حاولـت أن تعـود إلى حياتهـا القديمـة، ولكـن كان هـذا مسـتحيلًا. سـقطت أسـيرة المـرض.. ولم تجـدي جهـود الأطبـاء، وفكـرت في غمـرة الـلا أمـل أن تقتـل نفسـها، ولكـن كيـف تفعـل ذلـك، وكيـف يبـدو موتهـا طبيعيًـا؟.. فكـرت حقًـا في أن تأخـذ حياتهـا بعيـدًا، وتخيلـت الأمـر بالفعـل. ثـم قـررت الخطـوة الأولى..

وهكـذا اسـتطاعت الحصـول عـلى بعـض السـم،.. صبتـه في كـوب، وفي اللحظـة التاليـة حاولـت أن تشربـه.. إلا أن ابـن أختهـا الصغـير ذو الخمسـة أعـوام جـاء في نفـس اللحظـة يجـري ليريهـا لعبـة أعطتهـا لـه جدتـه.. داعبـت الطفـل.. و.. فجـأة توقفـت لبرهـة.. ثـم انفجـرت بالدمـوع.

.. ثم بدأ خاطر جديد يقتحم أفكارها.. الأمومة التي جعلتها تنظر في روحها للمرة الأولى.

وبـدأت تفكـر- لا فيـما يقولونـه عنهـا الآخـرون.. ولكـن في حياتهـا هـي الخاصـة. قـد يقتـل المـرء نفسـه عندمـا يـدرك أن الحيـاة ليسـت بهـذه السـهولة، لكنهـا في هـذه اللحظـة رأت كـم أن حياتهـا معقـدة ومنفصلـة عـن هـذا العـالم.. أن تبعـد حياتهـا عـن هـذا العـالم ليـس بالإجابـة الصحيحـة المطلوبـة.. أبعـدت السـم عنهـا، وقـل تفكيرهـا في الانتحـار. ثـم بـدأت حياتهـا.. كانـت حيـاة حقيقيـة، وبـدلًا مـن أن تتعـذب بهـا، بـدأت تـرى الاحتـمالات التـي تمنحهـا إياهـا، لـن تديـر لهـا ظهرهـا. بـدأت تصـلي، لكنهـا لم تجـد الراحـة في الصـلاة، ومعاناتهـا كانـت أقـل بالنسـبة لهـا عنـد والدهـا.. الأسى الـذي رأتـه وفهمتـه.

ثم مرت الشهور طويلة، ثم حدث شيء غيّر مجرى حياتها بالكامل.

ذات يـوم، عندمـا كانـت بالعمـل عـلى حشـية فـراش، فجـأة شـعرت بهـذا الإحسـاس الغريـب للمـرة الأولى. كلا.. لقـد بـدا مسـتحيلًا. بـلا انفعـال جلسـت ومـا كانـت تعملـه في يدهـا.. هـذا هـو المسـتحيل بعينـه. نسـيت كل شيء، وضاعتـه وحقارتـه، تجهـم أبيهـا، وأحـزان أمهـا.. ابتسـمت.. ارتجفـت عندمـا تذكـرت أنهـا كانـت تهـم بقتلـه.. معهـا!

الآن قـررت أن توجـه كل أفكارهـا للذهـاب بعيـدًا، إلى حيـث يمكنهـا حمـل طفلهـا – ولتصبـح أمًـا تعيسـة، بائسـة.. ولكـن أمًـا عـلى أيـة حـال.. بطريقـة مـا خططـت ودبـرت كل شيء، تغـادر

البيت وتستقر في مدينة بمقاطعة بعيدة، حيث لا يمكن لأحد أن يعثر عليها، وحيث يمكنها أن تفكر أن تكون بعيدة عن أهلها.. ولكن – لسوء الحظ – تلقى شقيق والدها استدعاءً للتوظيف هناك.. شيء لم تضعه في حسبانها قط. ولمدة أربعة أشهر عاشت في منزل القابلة التي كانت تخدم (ماريا إيفانوفنا) حتى تعلم بعودة عمها إلى البلدة، وكانت إذ ذلك تخطط للطيران لتبقى في مكان خفي بعيد.

استيقظ (ميخائيل إيفانوفيتش) مبكرًا في الصباح التالي، ودخل على شقيقه وناوله الشيك بقيمة المبلغ الذي حثه على دفعه كمعونة شهرية لابنته. سأل عن القطار الذي غادر (سان بطرسبورج). وقد غادر القطار في السابعة مساء، فأعطاه وقتًا لعشاء مبكر قبل الرحيل. وكان الإفطار بصحبة زوجة شقيقه.. التي تحاشت أن تفاتحه في الموضوع الذي كان يؤلمه كثيرًا، لكنها فقط كانت تنظر إليه بين الحين والآخر بنظرات ذات مغذى، وبعد الإفطار خرج ليمارس تمشيته الصباحية المعتادة. وتبعته (الكساندرا ديميتريفنا) إلى البهو، وقالت وهي تقابل نظراته الكليمة بنظرات عطف:اذهب إلى الحديقة العامة يا (ميخائيل)، إنها ساحرة للغاية هناك، وهي قريبه تمامًا من كل شيء

اتبّع (ميخائيل إيفانوفيتش) نصيحتها وذهب إلى الحديقة العامة، التي كانت قريبة جدًا من كل شيء، وراح يفكر في الإزعاج الذي يسببه غباء وحماقة النساء عديمات القلوب، وفكر في زوجة شقيقه:إنها ليست آسفة تمامًا لي، إنها لا تستطيع حتى أن تفهم عمق أحزاني. وماذا عنها؟كان يفكر في ابنتههي تعرف ماذا كان يعني كل هذا بالنسبة لي.. العذاب. يا لعذاب المرء في أرذل العمر! لقد قصرت أيامي بسبب هذا! ولكن هذا ليس بأفضل من الاحتضار..

تأوه متألمًا، وموجه من الانفعال والغضب اجتاحه عندما فكر في ما سيقوله كل واحد في المدينة عندما يعرفون (ولا شك أن كل واحد يعرف الآن بالفعل).. هذا الشعور العارم بالانتقام اجتاحه وتمنى لو ينهال على رأسها ضربًا في هذه اللحظة، ويجعلها تفهم ما فعلته حقًا. هؤلاء النساء لا يفهمن أبدًا..إنها قريبة من كل شيء تمامًافجأة تذكر هذا في عقله، وتناول مفكرته، وجد عنوانها. (فيرا إيفانوفنا سيلفستروفا).. بـــــ (كوكو نسكايا).. منزل (أبروموف). كانت تعيش تحت هذا الاسم.. ترك الحديقة ونادى على سيارة أجرة.

سألته الخادمة:عمن تسأل يا سيدي؟إنها هي التي كانت تخدم (ماريا إيفانوفنا).. وقف عند عتبة الدار يتأمل درج السلم وقال:هل تعيش مدام (سيلفستروفا) هنا؟

فيرا إيفانوفنا)؟ نعم؛ تفضل بالدخول. لقد خرجت؛ ذهبت إلى المتجر بالجوار.. لكنها سوف تعود خلال دقيقة.

تبع (ميخائيل إيفانوفيتش) الخادمة إلى البيت ومن الحجرة الثانية سمع صراخ الطفل، يقتحم النكد الذي يملؤه بالاشمئزاز ويقطعه كسكين..

استأذنت الخادمة وذهبت إلى الحجرة، واستطاع أن يسمعها تهدئ الطفل. وهدأ الطفل فعادت هي:

هذا هو طفلها؛ سوف تعود خلال دقيقة، هل أنت صديق لها، على ما أعتقد؟

قال (ميخائيل إيفانوفيتش) وهو يهم بالانصراف:

نعم،.. صديق،.. لكن أعتقد أنه من الأفضل أن أعود في وقت آخر.. كل هذا كان فوق احتماله.. استعداده لمقابلتها، وكل تفسير بدا مستحيلًا.

واتجه بالفعل للرحيل، عندما سمع خطوات سريعة خفيفة عند الدرج وتعرّف على صوت (ليزا).

(ماري).. هل كان يبكي عندما ذهبت.. لقد كنت..ثم رأت والدها.. وسقط الكيس الذي كانت تحمله من يديها.. صاحت وهي تقف عند عتبة البابأبي!.. شاحبة، ترتجف.

ظل حدقًا فيها بلا انفعال. كم صارت نحيلة جدًا. واتسعت عيناها وصار أنفها حادًا. وأصبحت يداها نحيفتان معروقتان. لم يعرف ماذا يفعل أو يقول. نسى كل أحزانه عن شرفه الضائع. فقط شعر بالأسى، والألم من أجلها على نحافتها وعلى ملابسها الخشنة البائسة، وفوق كل هذا، من أجل وجهها العذب الذي عانى الكثير..! تحركت نحوه قائلةأبي.. سامحني.. تمتسامحيني.. سامحينيوبدأ ينهنه كطفل، يُقبّل وجهها وكفيها ويبللها بدموعه. ومن خلال شفقته عليها فهم نفسه، أدرك كيف ظلمها، كم كان مذنبًا بغطرسته، ببروده، حتى في غضبه عليها. شعر بالسعادة أنه كان مذنبًا؛ فلا شيء هنالك يستحق غفرانه، إنما هو نفسه الذي يستحق العفو والغفران.

أخذته إلى حجرته الصغيرة، أخبرته كيف عاشت؛ لكنها لم تره الطفل، ولم تذكر الماضي، تعرف كم أن هذا مؤلمًا له، أخبرها أنها يجب أن تحيا بشكل مختلف فقالت:

نعم؛ لو استطعت فقط أن أحيا في الريف

وقالسوف نتصرف بهذا الشأن.

فجأة بدأ الطفل يبكي ويصرخ. اتسعت عيناها، ولم تبعدهما عن وجه والدها وظلت تهتز دون انفعال ظاهر.. فقال (ميخائيل ايفانوفيش) بجهد واضح:

حسن.. أعتقد أنك يجب أن تقدم له الطعام.

نهضت وفجأة اجتاحتها فكرة وحشية أن تريه من أحبت. الشيء الذي تراه الآن الأفضل في العالم بأسره. ولكن أولًا نظرت إلى وجه والدها. هل هو غاضب أم لا؟ وجه لا يكشف أي غضب، فقط المعاناة.. قال:

نعـم.. اذهبـي، اذهبـي.. في رعايـة اللـه. نعـم.. سـوف آتي مـرة أخـرى غـدًا وسـوف نقـرر. مـع السـلامة يـا حبيبتـي.. مـع السـلامة.

ومرة أخرى وجد هذا غير مستساغًا وغير قادر على ابتلاعه في حلقه، وعندما عاد

(ميخائيـل إيفانوفنيـش) إلى دار شـقيق، جاءتـه (الكسـاندرا ديمتريفنـا) عـلى عجلـة تهـرول وسـألته (حسـنًا؟)

حسنًا؟ لا شيء.

خمنت من تعبيرات وجهه أن شيئًا قد حدثهل رأيت؟

أجـاب باقتضابنعموبـدأ يبكي:لقـد صرت عجـوزًا وغبيًـا؛ قالهـا وهـو يحـاول أن يتحكـم في انفعالاتـه.

كلا.. لقد صرت أكثر حكمة.. أكثير بكثير!

رسالتان إلى ميلينا
كافكا

يبـدو أنهـا الرئـة!.. طـوال النهـار وأنـا أقلـب هـذه العبـارة في رأسي, ولم أسـتطع التفكـير في أي شيء آخـر, لم أسـتطع أن أفكـر حتـى في أن هنـاك نذيـر كان قـد أنـذرني حقًـا بهـذه العلـة, ولعـل المـرض, وهـذا مـا نأملـه – وتشـير تلميحاتـك إلى هـذا الأمـر- يبـدو في حالتـك في صـورة اشـتباه لا صحـة لـه, إلا أن مـرض الرئـة الحقيقـي (ونصـف سـكان أوروبـا الغربيـة يعانـون بشـكل أو بآخـر مـن الأمـراض الصدريـة) هـذا المـرض الـذي عرفتـه مـن خـلال خـبرتي الخاصـة التـي اسـتمرت ثلاثـة أعـوام, لعلـه يكـون قـد أفـادني بقـدر مـا آذاني.

بـدأ لي الأمـر منـذ حـوالي ثـلاث سـنوات, في منتصـف ليلـة مـا بنزيـف, صحـوت مملـوءًا بالفـزع بسـببه, كـما يحـدث للمـرء عندمـا يواجـه شـيئًا جديـدًا للمـرة الأولى, نهضـت (بـدلًا مـن أن أكمـل رقـادي ممـددًا كـما تعلمـت أن أفعـل فيـما بعـد حسـب أوامـر الأطبـاء.).. وبالطبـع كنـت في غايـة الاضطـراب.. مشـيت نحـو النافـذة, انحنيـت أتطلـع إلى العـالم خارجهـا.. وقصـدت حـوض الغسـيل.. وتجوّلـت قليـلًا في أرجـاء الغرفـة.. وجلسـت فـوق السريـر. كان النزيـف مسـتمرًا بـلا توقـف, إلا أن ذلـك لم يسـمح للبـؤس مـن الاقـتراب منـى.. والسـبب هـو أننـي كنـت شـيئًا فشـيئًا أعلـم بصـورة لا تقبـل الجـدال أننـي سـوف أنـام, وذلـك بعـد أن مضـت ثـلاث سـنوات أو أربـع هجـرني فيهـا النـوم.

.. للمـرة الأولى سـوف أنـام, بعـد أن يتوقـف النزيـف.. وبالفعـل قـد توقـف (كأنـه لم يتكـرر منـذ ذلـك الحـين.) وسـبحت في النـوم مـا تبقـى مـن الليـل.

وعندمـا دخلـت الخادمـة (وكان ذلـك في شـقة بالقـرب مـن قـصر (شـوينبورن) صباحًـا), وهـى بنـت لطيفـة طيبـة جـدًا هـي نكـران الـذات بنفسـه أثنـاء تعاملهـا مـع الآخريـن.. لكنهـا أيضًـا كانـت بنـت واقعيـة.. عندمـا رأت الـدم قالـت:

-سيدي.. أعتقد أنك لن تعيش طويلًا.!!

لكننـي كنـت أتحسـن.. أحسسـت بهـذا عـلى غـير العـادة.. وذهبـت إلى عمـلي.. وعنـد الظهـيرة ذهبـت إلى أقـرب طبيـب.. أمـا بقيـة القصـة فليـس لهـا أهميـة تذكـر..

لقـد قصـدت فقـط أن أقـول:إن مرضـك ليـس هـو مـا أقلقنـي (خاصـة أننـي أقاطـع نفـسي بصفـة مسـتمرة وذلـك في سـبيل أن أعالـج ذاكـرتي, مكتشـفًا الانتعـاش الـذي يمكـن أن تشـعري بـه وسـط الحقـول, تحـت كل هـذه الرقـة, لأقـرر بينـي وبـين نفـسي قائـلًا: لا, إنـك لسـت بالعليـل, إنـه نذيـر بالمـرض وليـس هـو المـرض.. ليـس مرضًـا بالرئـة)..

وعليـه فلـم يكـن هـذا هـو مـا يرعبنـي.. مـا يفزعنـي حقًـا هـو التفكـير فيـما لابـد سـبق ذلـك الاضطـراب.. في تلـك اللحظـة كـدت أتخـلى عـن كل شيء فهمتـه مـن رسـالتك, وأتجاهـل كل شيء مـن نـوع: لا يوجـد جحيـم ألعن-شـاي وتفـاح- كل يـوم مـن السـاعة الثانيـة حتـى السـاعة الثامنـة,.. وكل هـذه الأمـور لم أتمكـن مـن فهمهـا.. ويبـدو أنـه لا يمكـن تفسـيرها إلا حـين تقـال باللسـان.. وبالتـالي فسـوف أتجاهـل هـذه الأمـور (مـع أنني سـأتجاهلها فقـط في رسـالتي هـذه, ذلـك أن المـرء لا يمكنـه أن ينسـاها!)..

سـوف أفكـر فقـط في التفسـير الـذي أهـداني إليـه عقـلي الآن, في حالـة علتـي الشـديدة, والـذي يمكـن تأويلـه بتفسـيرات كثـيرة. إن مـا حـدث هـو أن العقـل لم يكـن باسـتطاعته أن يتحمـل المزيـد مـن الهمـوم والتعاسـة ونـير الأعبـاء فـوق كتفيـه.

إن عقـلي يـصرخ قائلًا:كفـى.. لقـد عجـزت عـن تحمُّـل ذلـك.. لكـن يجـب أن يوجـد مـن يواصـل الاهتـمام بسـلامة كل شيء.. ويجـب عليـه أيضًـا أن يخلّصنـي مـن بعـض الأعبـاء فوقـي.. وسـوف تظـل الأمـور تسـير في مجراهـا الطبيعـي لبعـض الوقـت!

ثـم تتحـدث الرئـة, مـع أنـه قـد لا يكـون لديهـا الكثـير مـما يمكنهـا أن تفقـده, مهـما كانـت الحـال التـي هـي عليهـا.. لعلهـا تكـون محـاولات مثـيرة للهلـع.. مناقشـات تـدور بـين العقـل والرئـة دون أن أعلـم أنـا عـن أمرهـا شـيئًا! ومـا الـذي تنويـن عملـه الآن؟

قـد يبـدو أمامـك أنـه لم يكـن سـوى أمـر عـارض. لـو أنـك أحطـت نفسـك ببعـض العنايـة المتقنـة.. وحاجتـك إلى شيء مـن الرعايـة, أمـر لابـد أن يدركـه أي شـخص مغـرم بـك. وعليـه فإن كل شيء آخـر يجـب أن يوضـع في المرتبـة الثانيـة.. وهـل يمكـن أيضًـا ألا يكـون ثمـة شيء مـن العـزاء لك في أي شيء آخـر؟.. كـما قلـت مـن قبـل: لا.. لسـت في حالـة مـن حـالات المـزاح, فضلًا عـن إنني لا أحـس مطلقًـا بـروح الدعابـة, ولـن أكـون كذلـك حتـى تكاتبينـي وتخبرينـي كيـف سـتحاولين إعـادة تنظيـم حياتـك عـلى نحـو معقـول !.. بشـكل يوفـر لـك المزيـد مـن الصحـة الجيـدة.

لماذا لا تغادرين فيينا لفترة قصيرة؟..

هـذا السـؤال أُلـح في طلبـه منـك بعـد رسـالتك الأخـيرة, فأنـا أفهـم الآن لمـاذا لا يمكنـك مغـادرة فيينـا! إلا أن هنـاك –عـلى الرغـم مـن ذلـك- أماكـن أخـرى مُدهشـة محببـة إلى القلـب بالقـرب مـن فيينـا, وكثـير مـن الفـرص لتوفـير الرعايـة لـك. لـن أكتـب عـن أي شيء آخـر بقيـة اليـوم.. إذ أنـه لا شيء لـه أهميـة تذكـر تدفعنـي لـكي أتحـدث عنـه.. سـأكتب عـن كل شيء آخـر غـدًا..

أشـكرك عـلى المخطـوط الـذي هـزني مـن الأعـماق, وأشـعرني كذلـك بالخجـل.. وبالحـزن.. وبالـسرور.. كلا.. هنـاك شيء آخـر قـد تبقـى لأقولـه لـك: لـو أضاعـت عليـك الترجمـة لحظـة واحدة مـن لحظـات نومـك, فسـوف تسـتحيل هـذه اللحظـة إلى لعنـة تطاردني في كل مـكان.. ففـي يـوم

الحساب لـن يكـون هنـاك مجـالًا لدراسـة التفاصيـل لأنـه –ببسـاطة- سـوف يكـون يـوم إقـرار الحيثيـات: لقـد حرمهـا مـن النـوم.

عن هذا سوف تثبت إدانتي.

وسيكون هذا هو القصاص المتين العادل.

وعلى هذا فإنني أحمي نفسي, عندما أطلب إليك ألا تفعلي شيئًا من هذا بعد الآن.

المخلص لك

(فرانتس كافـكا)

***

ميدان أونترميه

بنسيون (أوتوبورج)

سيدتي العزيزة (ميلينا)

الآن فقـط انقطـع المطـر الـذي ظـل يسـقط ليومـين وليلـة, مـع إن انقطاعـه قـد لا يسـتمر سوى لحظـة, إلا أنـه بالرغـم مـن ذلـك قـد حـدث وهـو حـدث يسـتحق أن يحتفـل بـه الإنسـان, وهـذا هـو مـا أفعلـه بالكتابـة إليـك.

وحتـى المطـر إن كان محتمـلًا في الحقيقـة, فالمـرء – في نهايـة الأمـر- غريـب هنـا. وإن يكـن مجـرد غريـب عـلى نحـو أو آخـر, إلا أن ذلـك يثلـج صـدري.. أنـت كذلـك – لـو صـح تعبـيري (في لقـاء قصـير, منعـزل, صامـت أو يـكاد أن يكـون, ربمـا لا يكـون تسرّبـه مـن الوجـدان محـض صدفـة.) أنـت كذلـك تمارسـين نوعًـا مـن الاسـتمتاع بالغربـة في فيينـا, مـع أنـك قـد تفقديـن ذلـك الاسـتمتاع فيـما بعـد تحـت تأثـير الحـالات السـائدة, لكـن.. هـل تمارسـين أنـت أيضًـا متعـة الشـعور بالغربـة إلى هـذه الدرجـة؟ (هـذه المتعـة التـي قـد تكـون مجـرد مصادفـة, مجـرد دلالـة سـيئة وقـد لا تحـدث!)

إننـي أعيـش هنـا عـلى خـير مـا يـرام, ولا يطيـق الجسـد الفـاني عنايـة أكـثر, وتُطـل شرفـة غرفتـي عـلى حديقـة مسـوَّرة, فيهـا تنتـشي الشـجيرات المزهـرة (إن النباتـات هنـا غريبـة حقًـا, فالزهـور تتفتـح ببـطء, أمـام شرفتـي, في جـو مثـل ذلـك الـذي يكـون في (بـراج), تتجمـد فيـه بالفعـل بـرك المـاء.). وتتعـرّض شرفـة الغرفـة أيضًـا لأشـعة الشـمس, أو بمعنـى أصـح للسـماء التـي تحجبهـا السـحب للأبـد! كـما هـو الحـال منـذ مـا يقـرب مـن الأسـبوع. في الحجـرة تـزورني الطيـور والسـحالي وأنـواع مختلفـة مـن الكائنـات, تـأتي إليّ أزواجًـا.. أزواجًـا: إننـي أتـوق بشـدة في أن تكـوني هنـا في (مـيران), لقـد كتبـت لي أخـيرًا عـن عـدم قدرتـك عـلى الكلمـة. في هـذه الكلمـة

تتجـاور الصـورة والمعنـى إلى حـد بعيـد. وفي (مـيران) قـد تخـف وطأتهـا نوعًـا مـا.

مع أرق تحياتي

المخلص ف. كافكـا

سعادة
كاثرين مانسفيلد

هـل راودتـك مثـل هـذه اللحظـات؟ وهـل شـعرت بهـذه النشـوة مـن قبـل؟.. فبالرغـم مـن أن (بيرثـا يونـج) كانـت في الثلاثـين مـن عمرهـا؛ إلا إنهـا لا زالـت تعاودهـا مثـل هـذه اللحظـات، لحظـات ودَّت فيهـا لـو اسـتطاعت الركـض بـدلًا مـن المـشي، وأن تقفـز مـن عـلى الرصيـف إلى أرض الشـارع ومـن أرض الشـارع إلى الرصيـف مـرة أخـرى! لحظـات ودت فيهـا لـو أن ترمـي بـأي شيء في يدهـا في الهـواء ثـم تعيـد التقاطـه بـين كفيهـا في جـذل طفـولي.. وأن تقـف وتضحـك.. تقـف في مكانهـا وتضـل تضحـك عـلى.. عـلى لا شيء.. لا شيء عـلى الإطـلاق!

ومـاذا عسـاك أن تفعـل إذا كنـت في الثلاثـين مـن عمـرك أو تجاوزتهـا قليـلًا وشـعرت فجـأة وأنـت تقـف عنـد ناصيـة الشـارع حيـث بيتـك موجـود هنـاك بشـعور مباغـت مـن السـعادة يتملـك كل حواسـك، سـعادة مطلقـة! سـعادة صافيـة لا تشـوبها شـائبة، كـما لـو كانـت قـد ابتلعـت قطعـة مـن شـمس الظهـيرة، ولا زالـت تتوهـج في صـدرك، مرسـلة شرارتهـا إلى كل ذرة في جسـدك، وحتـى إلى أصابـع قدميـك؟

آه، أعتقـد أنـه لا توجـد وسـيلة للتعبـير عـن شـعور كهـذا دون أن تسـمع عبـارات مثـل (فلنبتعـد عـن هـذا المجنـون!) أو (مـاذا يقـول هـذا المخمـور؟).. يـا للمدنيـة الجمعـاء!.. ولمـاذا وهبـك اللـه جسـدًا إذن مـا دمـت تحتفـظ بـه مقيـدًا كـما لـو كان لؤلـؤة شـديدة النـدرة؟.. أو مثـل كـمان مصنـوع مـن خشـب ثمـين..؟..

كلا، إن مـا ذكرتـه عـن الكـمان ليـس هـو بالضبـط مـا أعنيه!هكـذا فكـرت وهـي تـسرّع خطواتهـا، عابثـة بيدهـا داخـل حقيبتهـا بحثًـا عـن المفتـاح. أمسـكت الحقيبـة بيدهـا الأخـرى واسـتمرت في البحـث المتحمـس عـن المفتـاح.. هـل نسـيته؟.. نعـم، لقـد نسـيته.. كالعـادة.. ثـم أنهـا اتجهـت إلى صنـدوق الخطابـات وبحثـت فيـه هـو الآخـر بنفـس الحـماس باحثـة عـن شيء مـا..

-لم يكن هذا ما أعنيه، لأن.. أشكرك يا (ماري).

ودلفت إلى الداخل عندما فتح الباب:

-هل عادت المربية؟

-نعم يا سيدتي.

-وهل وصلت الفاكهة؟

-نعم يا سيدتي.. لقد وصل كل شيء في ميعاده.

-حسنًا إذن.. أحضري الفاكهة إلى غرف المائدة، سأرتّبها قبل أن أصعد إلى الدور الثاني. وكانت غرفة المائدة معتمة وباردة بما يثير القشعريرة في البدن وفي الروح.. إلا أن (بيرثا) قد خلعت معطفها في جرأة تحسد عليها رغم ذلك، الواقع أنها ما كانت تطيقه يطبق على جسدها لحظة أخرى.. وعلى الفور لفح الهواء البارد ذراعيها العاريين..

إلا أن الجمرة الملتهبة لا زالت تتأجج في صدرها وترسل شراراتها إلى كل مكان في جسدها.. حتى صار هذا أكبر من قدرتها على الاحتمال، بل والأكثر من هذا أنها كانت تخشى أن تتنفس حتى لا تذكي نار هذه الجذوة فتزداد اشتعالا.. ومع ذلك أخذت نفسًا عميقًا..

تخشى أن تنظر إلى المرآة الباردة، إلا أنها ـــــ برغم كل شيء ـــــ نظرت.. وعكست المرآة صورتها وأعادتها إليها ثانية.. امرأة.. متألقة.. على شفتيها ابتسامة.. الشفتين مرتجفتين.. والعينين سوداوتين كبيرتين.. ولديها حاسة تنصت إلى شيء ما.. وبداخلها شعور غامض مقدس أن هذا الشيء سيحدث حتمًا!

وأحضرت (ماري) الفاكهة على صينية ومعها أناء بلوري وطبقًا أزرق به مسحة غريبة من لون أبيض بديع تبدو على سطحه كأنها تموجات أسطورية خالدة، فبدا كما لو كان قد غمس في الحليب!

- هل أضيء النور يا سيدتي؟

- كلا.. أشكرك.. أستطيع أن أرى بشكل جيد.

وكان بين الفاكهة ثمرات يوسفي وتفاح له لون وردي كما لو كان قد صُبغ بروح الفراولة، وكمثرى صفراء يكاد يكون لونها ذهبيًا، وكانت ناعمة كأنها الحرير.. كان هناك أيضًا عنقود من العنب الأبيض يبرق بلون الفضة وعنقود من العنب الوردي اشترته خصيصًا ليتمشى مع لون السجاد في غرفة المائدة.. قد يبدو هذا بالنسبة لك مضحكًا للوهلة الأولى.. لكنها في الواقع اشترته لأجل هذا الغرض بالذات! نعم، لقد قالت لنفسها في السوق:يجب أن أشتري عناقيد عنب وردية وأرجوانية لأجعل من البساط قطعة على المائدة !

وقد تملكها هذه الرغبة وقتًا طويلاُ، حتى بعد أن خرجت من السوق..وكان هذا كافيًا لكي تتحمس.. وفي النهاية هي ذي تقف أمام هرمين كبيرين من تلك العناقيد البرّاقة كما بدا المنظر العام عندما فرغت من ترتيب الفاكهة، وتراجعت بعيدًا عن المائدة لترى المنظر العام.. لقد بدا المنظر غريبًا للغاية ومثيرًا للفضول.. كان جل ما تخشاه هو أن يبدو كل هذا سخيفًا أو مخيبًا للآمال..!

بدت المائدة الداكنة اللون وكأنها قد ذابت في العتمة، وبدا الإناء البلوري والطبق

الأزرق كأنهما يسبحان في الهواء.. إذن كان من الطبيعي جدًا أن يبدو لها كل هذا – في حالتها النفسية تلك – رائعًا بشكل لا يصدق كانت تقف في الغرفة المظلمة وحدها.. كانت مبهورة الأنفاس من أثر انفعال، واستخفتها حالة من النشوة وهي عاجزة عن رؤية ما بالغرفة سوى المائدة وما عليها.. كانت ضعيفة واهنة.. هذه من اللحظات النادرة التي يحدث فيها شيء كهذا،.. أن تنتظر السعادة ولا تندهش لقدومها.. بدأت في نوبة من الضحك، وقالت وهي تمسك بحقيبتها ومعطفها:

-لا.. لا.. لا شك أنني سأصاب بالهستيريا!

ثم راحت تصعد درجات السلم وثبًا إلى الطابق الثاني.. حيث حجرة ابنتها الصغيرة.. كانت المربية تجلس على مقعد منخفض؛ وهي تطعم الطفلة بعد أن أخذت حمامها، وكانت الطفلة الصغيرة ترتدي فستانًا أبيض وجاكت من الصوف الأزرق.. وعندما وقعت عيناها على الباب ورأت أمها بدأت تتواثب فرحًا..

وقالت المربية:

-والآن يا طفلتي الصغيرة، كوني بنتًا مطيعة. اهدئي قليلًا وتناولي طعامك.

قالت المربية ذلك وضمت شفتيها بطريقة فهمت منها (بيرثا) أنها قد دخلت حجرة ابنتها – مرة أخرى – في وقت غير مناسب، قالت (بيرثا):

- هل كانت لطيفة معك؟

همست المربية:

-نعم.. لقد كانت لطيفة للغاية في نزهة ما بعد الظهر، ذهبنا إلى الحديقة وجلست على أحد المقاعد وأخرجتها من العربة، وجاء كلب كبير ووضع رأسه على حجري، وراحت هي تلعب في أذنيه وتثنيها في مرح.. أوه، ليتك رأيت هذا!

وودت (بيرثا) أن تسأل المربية: ألم يكن من الخطورة السماح لطفلة اللعب بأذن كلب ضال.. إلا أنها لم تجرؤ على توجيه هذا السؤال.. وطفقت تراقب المربية والطفلة معًا ويداها إلى جانبها كطفلة فقيرة تراقب طفلة أخرى غنية تلعب بدميتها! وتطلعت إليها الطفلة مرة أخرى وحدقت فيها النظر ثم ابتسمت بطريقة ساحرة جعلت (بيرثا) تصيح:

-أوه يا (ناني)، أرجوك، هلا تركتني أكمل إطعامها، بينما تفرغين أنت من تنظيف الحمام

مطت المربية شفتيها وهمست مرة أخرى:

-أرجوك يا سيدتي.. أنت تدركين جيدًا أن الشخص الذي يطعم الطفلة ينبغي ألا يتغير.. إن هذا التغيير قد يحث لها شعورًا بعدم الاستقرار وربما كان مثيرًا لأعصابها!

ما هذا الهراء؟.. لماذا تنجب طفلة إذن، ما دامت ستظل دائمًا في ذراعي امرأة أخرى؟ قالت (بيرثا) بإصرار:

-أرجوك.. دعيني أقوم بإطعامها.

تخلت المربية عن الطفلة في شيء من الغضب قائلة:

-والآن لا تقومي بإثارتها بعد العشاء، فأنت تفعلين ذلك دائمًا وأعاني أنا بعد ذلك لوقت طويل.

الحمد لله!.. لقد خرجت المربية إلى الحمام..

وقالت (بيرثا) والطفلة تستند إليها:

-والآن يا حبيبتي ونور عيني.. أنت لي!

وبدأت الطفلة تأكل من يدها.. وعندما فرغ الحساء استدارت (بيرثا) إلى المدفأة وقالت وهي تقبل الطفلة ذات الجسد الدافئ:

-أنت لطيفة جدًا.. وأنا أحبك.

وفي الواقع كانت (بيرثا) تحب الطفلة إلى درجة تفوق الخيال.. تحب عنقها وهي تنحني للأمام.. تحب كعبي قدميها اللذيذين ولمعتهما النقية على ضوء المدفأة.. تحبها إلى درجة أعادت إليها شعورها بالسعادة.. ومرة أخرى تشعر بالعجز عن التعبير من هذا الشعور.. ولم تعرف حتى ماذا تفعل به؟

-مكالمة تليفونية لك يا سيدتي!

جرت (بيرثا) إلى الهاتف..كان (هاري)..كقطة مذعورة التقطت السماعة وراحت تستمع:

-أوه.. أهذا أنت يا (بيرثا)؟..

أجابته بانفعال:

-نعم يا (هاري).. نعم

عاد يصيح عبر أسلاك الهاتف:

-حسنًا.. أعتقد أنني سأتأخر قليلًا.. لكن سأحاول أن أستقل سيارة أجرى وأحضر سريعًا.. أخّري العشاء عشرة دقائق.. اتفقنا؟

- نعم.. نعم.. لا بأس.

ماذا كان ينبغي أن تقوله؟.. لا شيء يقال.. كل ما كانت تريده هو أن تطيل الاتصال به

دقيقـة أخـرى.. إلا أنهـا مـا كانـت لتصيـح بحماقـة كـما يفعـل الآخرونـألم يكـن يومًـا رائعًـا يـا (هـاري)؟

وجاء الصوت.. صوته.. عبر الهاتف:

-ما الأمر؟

غمغمت باقتضاب وبصوت متحشرج:

-لا شيء.

ووضعـت السـماعة وهـي تلعـن قيـود وأسـوار المدينـة التـي تحـول بينهـا وبـين التعبـير عـما في داخلهـا مـن مشـاعر.. كانـت (بيرثـا) في انتظـار ضيـوف العشـاء.. (نورمـان فايـت) وزوجتـه.. زوجـان رائعـان حقًـا.. ولقـد بـدأ هـو الاهتـمام بالمسرح واهتمـت هـي بشـكل رهيـب بالديكورات الداخليـة.. أيضًـا.. (إيـدي وارنـر) الـذي قـد انتهـى لتـوه مـن طبـع ديوانـه الشـعري.. وامـرأة اكتشـفتها (بيرثـا) أسـمها (بـيرل فولتـون).. وفي الواقـع لم تكـن تعـرف مهنتهـا حقًـا.. كانـت قـد قابلتهـا في النـادي وشـعرت بميـل نحوهـا.. نفـس الميـل الـذي تشـعر بـه نحـو كل سـيدة جميلـة يحيـط جمالهـا هالـة مـن الغمـوض والسـحر غـير المـبرر ذاتـه.. الـشيء المثـير حقًـا هـو أن (بيرثـا) لم تسـتطع أن تفهـم (بـيرل) رغـم أنهـما تقابلتـا عـدة مـرات وتبادلتـا الحديـث أكـثر مـن مـرة.. وكانـت مـس (فولتـون) صريحـة إلى حـد مـا صراحـة نـادرة رائعـة، ولكـن هـذا الحـد كان قائمًـا لا تتجـاوزه مطلقًـا..

-ولكـن، بالتأكيـد هنـاك مـا هـو أبعـد مـن هـذا الحـد.. فما هو؟تسـاءل (هـاري) يومًاهـل مـن الممكـن أن يكـون هنـاك وراء هـذا شيء ما؟..وأجـاب عـلى سـؤالهكلا.. إن مـس (فولتـون) مملـة وسـخيفة وبـاردة.. مثلهـا مثـل كل النسـاء الشـقراوات.. وربمـا كانـت تمتلـك قريحـة جافـة وضيـق أفـق لا حـد له!ولكـن (بيرثـا) لم توافقـه عـلى هـذا الوصـف!

-كلا يـا (هاري)قالـت لـه يومهـا ردًا عـلى رأيـه،إن الطريقـة التـي تجلـس بهـا وقـد مالـت برأسـها قليـلًا للأمـام تـدل عـلى أنهـا – في الغالـب – تخفـي شيئًـا.. ولابـد أن اكتشـف هـذا الـشيء.

أسرع (هاري) يجيب:

-ربما كانت تخفي معدة منتفخة!

والحقيقـة أن (هـاري) قـد اعتـاد عـلى إجابـات وعبـارات كهـذه لمشاكسـة (بيرثـا).. ولم تكـن هـي تتضايـق مـن هذا..بـل بالعكـس كانـت تحـب هـذا وتشـعر بالإعجـاب نحـوه لهـذا السـبب.. ولم تكـن تعـرف سـببًا لهـذا الشـعور الغريـب..واتجهـت إلى غرفـة المائـدة وأشـعلت نـيران المدفـأة، وبـدأت تلتقـط الوسـائد التـي رتبتهـا (مـاري) بعنايـة، وتلقـي بهـا عـلى المقاعـد كيفـما أتفـق،

وأحـدث ذلـك تغـيرًا كبـيرًا في الشـكل العـام للمـكان، فدبـت الحيـاة في الغرفة..وبينـما هـي تلقـي الوسـادة الأخـيرة دهشـت إذ وجـدت نفسـها تحتضنهـا بشـوق وحرارة..لكنهـا لم تطفـئ النـار التـي تضطـرم في صدرهـا! بـل بالعكس!..لقـد اشـتعل اللهيـب أكـثر، واشـتعلت ملايـين الـشرارات في كافـة أنحـاء جسـدها وروحهـا.

وكانـت نوافـذ غرفـة المائـدة تـؤدي إلى شرفـة تطـل عـلى الحديقـة.. في نهايـة الحديقـة إلى جانـب الحائـط انبثقـت شـجرة سـامقة.. شـجرة كمـثري رفيعـة وطويلـة في أوج ازدهارهـا.. وقفـت في شـموخ بينـما أضفـت عليهـا زرقـة صفحـة السـماء المشـوبة بالاخـضرار سـمو أكـثر وبهـاء أكـثر.. وشـعرت (بيرثـا) حتـى عـلى هـذا البعـد، أنـه لا يوجـد في الشـجرة برعـمًا واحـدًا لم يتفتـح.. ولا ورقـة واحـدة ذابلـة.. وفي أحـواض الزهـور بـدأت أعنـاق التبوليـب المحملـة بالأزهـار الحمـراء والزرقـاء تميـل عـلى العتمـة.. وزحفـت في الممـر قطـة رماديـة اللـون وهـي تجـر بطنهـا جـرًا (كان مـن الواضـح أن بطنهـا منتفخـة إلى حـد مـا) وخلفهـا قطـة أخـرى سـوداء – ظلهـا – وأثـار الظـل وهـو يتبـع القطـة في سرعـة وإصرار في نفـس (بيرثـا) رجفـة غريبـة.

وتراجعـت عـن الشرفـة بسرعـة وبـدأت تـذرع أرض الغرفـة جيئـة وذهابًـا.. يالشـذى رائحـة زهـر النسريـن في جـو الحجـرة الدافـئ..كان أشـد مـما ينبغـي.. كلا.. رمـت بنفسـها عـلى أول مقعـد، كـما لـو كانـت تشـعر بضعـف عـارم وقلـة حيلـة لا حـد لهـا.. كـما لـو كانـت قـد غلبـت عـلى أمرهـا.. وضغطـت عـلى عينيهـا بكلتـا يديهـا وهـي تهمـس:

-كلا..أنا سعيدة..سعيدة للغاية!

وكانـت تـرى بعينيهـا المغلقتـين شـجرة الكمـثرى الجميلـة ببراعمهـا المتفتحـة كامـلًا تقـف كرمـز لحياتهـا! ورأت القطـة الرماديـة وظلهـا الـذي يتبعهـا بـإصرار.. فغمغمتيـا لهـا مـن قطـط غريبـة.. غريبـة جـدًا.

ورأت أحـواض الزهـور الجميلـة.. فعـلًا.. إنهـا تملـك كل شيء.. فهـي شـابة وحبهـا لــ (هـاري) لم يتغـير عـما كان عليـه منـذ البدايـة وقـد كانـا متفقـان عـلى كل شيء، وكان لهـا طفلـة أجمـل مـا يكـون عليـه الأطفـال.. رقيقـة، حتـى لـو أنهـا قـد سـارت عـلى العشـب مـا انكسر منـه عـودًا واحـدًا.. وكانـت شـئونها الماليـة مسـتقرة تمامًـا.. ولهـا بيـت وحديقـة جميلـة للغايـة وأصدقـاء – أصدقـاء كتـاب وشـعراء وفنانـون وهنـاك أيضًـا كتـب وموسـيقى.. ولديهـا خياطـة ثيـاب رائعـة.. ولديهـا طاهـي ممتـاز.. وعـما قريـب ستسـافر هـي وزوجهـا إلى الخـارج في الصيـف.. ويحـضر لهـا الطاهـي أفضـل أطبـاق (الأومليـت).

واعتدلـت في جلسـتها وهتفتأنـا حمقـاء.. حمقاء.وشـعرت بـدوار كأنـه مـن تأثـير خمـر.. لابـد وأنـه الربيـع.. نعـم.. لقـد كان هـو الربيـع.. والآن، كان التعـب قـد ألـح عليهـا بحيـث لم ترغـب في الصعـود إلى الـدور الثـاني لارتـداء ملابسـها.. فسـتان أبيـض وعقـد محـلى بقطعـة مـن الزمـرد..

حذاء أخضر.. جوارب طويلة.. لم يكن هذا التناسق بالفطرة.. أو وليد الصدفة.. لقد وقفت من قبل ساعات أمام المرآة.. ولقد صممت على ارتداء هذا الطقم قبل أن تقف في شرفة حجرة الطعام بساعات.. وأحدث عقد (بيرثا) حفيفًا وهي تدخل الصالة في رقة وتقبل مسز (نورمان نايت) التي كانت تخلع معطفها.. ودق الجرس ودخل (إدي دراين) في حالته المعتادة من الحزن العميق..وقال:

-أليس هذا هو العنوان؟.. أرجو ألا أكون قد أخطأت في المنزل.

ابتسمت (بيرثا):

-انه هو.. لا أظنك قد أخطأت.

غمغم الرجل:

-لقد مررت بتجربة مريعة مع سائق السيارة الأجرة التي أقلتني إلى هنا..لقد كان غريبًا للغاية..لم أستطع منعه..وكلما طلبت منه الوقوف..ازدادت سرعته..وفي ضوء القمر بدا الرجل مخيفًا وقد انحنى على عجلة القيادة برأسه المسطحة..مخيفًا جدًا.

وبدا أنه يرتجف وهو يزيح عن عنقه وشاحًا حريريًا لونه أبيض مثل جواربه.. كما لاحظت (بيرثا).. التي قالت:

-ولكن.. هذا مريع.

قال (إدي) وهو يتبعها إلى حجرة الجلوس:

-نعم لقد كان كذلك حقًا.. لقد اعتقدت أنني في رحلة إلى خلود في سيارة أجرة أبدية.

كان يعرف عائلة (نورمان نايت)، وكان قد وعد (نايت) بكتابة مسرحية للمسرح الذي يعتزم افتتاحه..وقال (نورمان نايت):

-حسنًا..يا (إيدي).. ما هي أخر أخبار الرواية؟

وأراح عن عينه نظارته ذات العدسة الواحدة.. ثم عاد يضعها مرة أخرى..وقالت مسز (نورمان):

-أوه.. يا مستر (وارين).. يا له من جورب جميل!

نظر (إدي) إلى جوربيه وقال:

-هل أعجبك حقًا؟.. يخيل إليّ أنه قد ازداد بياضًا بعد طلوع القمر.

وأدار وجهه البائس إلى (بيرثا):

-لقد طلع القمر.. أليس كذلك؟

أرادت أن تصيح..أن تصرخ قائلة:

-نعم.. لقد طلع القمر.. بكل تأكيد طلع.

كم كان جذابًا.. كذلك مسز (نايت) وهي متكورة في مقعدها..وأيضًا (نايت) وهو يدخن سيجارته ويلقي بالرماد في المنفضة قائلًا:

-لماذا تأخر العريس يا ترى؟

-ها هو ذا!

وانفتح الباب الخارجي ثم انغلق بقوة وصاح (هاري):

-مرحبًا..سأكون بينكم بعد خمس دقائق.

وسمعوا صوته وهو يجري صاعدًا درجات السلم..ولم تستطع (بيرثا) أن تمنع نفسها من ابتسامة ارتسمت على شفتيها..أنه هكذا دائمًا..يحب أن يفعل كل شيء في آخر لحظة.. كم كان يحب الحياة!..وكم كانت (بيرثا) تعجب بهذا الجانب فيه..وكانت أيضًا تفهم حبه للتحدي..فيما من أمر أو إنسان يواجهه..حتى يتبدى له كي يختبر مدى صلابته وشجاعته.. حتى قد يصل الأمر به أحيانًا إلى افتعال معركة..مما يحدو بمن حوله ممن لا يعرفونه جيدًا أن يشعروا بالغرابة في تصرفه هذا..لكنها وحدها كانت تعرفه وتفهمه..

ثرثرت (بيرثا) مع ضيوفها وضحكت ونسيت تمامًا أن (بيرل فولتون) لم تحضر بعد.. حتى دخل (هاري) إلى مجلس القوم..

-أنني أتساءل.. هل نست مس (فولتون) موعدها معًا؟

-ألم تحضر بعد؟.. تمامًا كما توقعت.

عادت (بيرثا) تسأل:

-هل نسيت يا ترى؟

قال (هاري):

-أعتقد ذلك، هل لديها هاتف؟

هتفت (بيرثا):

-ها هي سيارة أجرى تقف أمام الباب الآن.

وابتسمت ابتسامة امرأة تملك شيئًا صغيرًا، لكنها تحبه وتفخر به، نفس الابتسامة التي

ترسمها على شفتيها كلما اكتشفت شيئًا غامضًا ومثيرًا..

-إنها تعيش حياتها في سيارات الأجرة!

قال (هاري) وهو يقرع الجرس يطلب العشاء:

-سوف تصبح بدينة جدًا على هذا النحو.

وأردف في لهجة ذات مغزى:

-والبدانة خطر يهدد حياة الشقراوات.

نظرت إليه (بيرثا) وهي تضحك منذره:

-(هاري)!.. كف!

ومرت دقيقة أخرى وهو ينتظرون ويضحكون ويتكلمون في مرح أكثر قليلًا مما ينبغي،.. أكثر قليلًا من حدود الجذر..أكثر قليلًا من قواعد الوعي والانتباه، ولم يسأل أحدهم السؤال الشهير: ما الذي يحدث ها هنا؟! كانوا يثرثرون وكأنما قد أثار شغفهم شيء ما.. كأنهم أطفال خالدون.. ثم دخلت مس (فولتون)..مثل تمثال فضي..ثوبها فضي..وعلى رأسها قبعة فضية تضم شعرها الأشقر الشاحب..ابتسمت ومالت برأسها:

-هل تأخرت قليلًا؟

أجابت (بيرثا):

-كلا..كلا.

وأمسكت بذراعها ودخلت بها إلى حجرة المائدة:

-تفضلي.

لمسه هذا الذراع البارد.. يا للعجب!.. لماذا أججت في قلب (بيرثا) وهج السعادة.. فاشتعلت النيران في جسدها! ولم تنظر مس (فولتون) إلى (بيرثا).. كانت نادرًا ما تنظر إلى الناس نظرة مباشرة..لا سيما وقد كانت رموشها الطويلة ترقد على عينيها..والابتسامة الغريبة الغير مكتملة تروح وتجيء على شفتيها، كما لو كانت تعيش بالسمع لا بالنظر..ولكن (بيرثا) أدركت أن (بيرل فارتون) تمر بنفس الحالة النفسية التي تمر بها..أدركت ذلك كما لو كانت قد تبادلت نظرة ود طويلة مليئة بالدلالات والإيحاءات ذات المعاني..كما لو كانت قد قالت إحداهما للأخرى.. (وأنت أيضًا؟!).. أما الآخرون.. مستر ومسز (نايت)..(إيدي).. (هاري).. فقد انشغلوا تمامًا بالعشاء.. تعلو ملاعقهم وتهبط.. يمسحون أطراف الشفاه بالفوط.. يقطعون الخبز.. يتبادلون الأطباق.. يعملون الشوك والسكاكين.. ويثرثرون..

-لقد قابلتها في المسرح.. كلا..لم تقص شعرها فحسب.. لقد أجرت عملية تجميل شاملة.. اقتطعت جزءًا كبيرًا من فخذيها وذراعيها وعنقها وردفيها وأنفها المسكين كذلك!

-أليست على علاقة مع (مايكل أدت)؟

-من هو (مايكل أدت)؟

-إنه هذا النكرة التافه!

-من..أهو ذلك السخيف الذي يبدو مثل سكير على رصيف الميناء..كيف تحتمل رائحته هذا الـ (أدت)، وكيف تطيق شراهته في الطعام؟..إن فارس الأحلام يبدو غريبًا هذه الأيام!

-أليس هو الرجل الذي كتب مسرحية (في عشق الأسنان الصناعية)؟

-هو بعينه.

-لقد أراد أن يكتب رواية لمسرحي الجديد من فصل واحد..أحدهم يحاول الانتحار..ثم يدرس الأسباب التي تدفعه إلى الانتحار ويقارنها بتلك التي تمنعه عنه وعندما يوشك أن يتخذ قراره النهائي..يسقط الستار!

-يا إلهي.. ماذا عساه يسمي هذه المسرحية؟

-ربما (مغص معوي)!

-أعتقد أنه قد سرق هذه الفكرة من مقال فرنسي غير معروف في (انجلترا).

-هذا الداعر المجنون!

إنهم يشاركونها شعورها.. ولكنهم أعزاء.. أعزاء على القلب.. وهي تحب أن تراهم مجتمعين حول مائدتها.. وتحب أن تقدم لهم ما لذ وطاب من طعام وشراب.. وكان (هاري) يستمتع بعشائه إلى أقصى حد.. وكان من عاداته أن يتحدث عن الطعام بإعجاب وأن يجد لذة في الحديث عن حبه للحم المحار الأبيض وللمثلجات المصنوعة من الفستق الأخضر اللذيذ.. الشبيه بجفون الراقصات المصريات.. وأخيرًا نظر إليها مبتسمًا.. وعندما قال:

- (بيرتا).. هذا الـــ (سوفليه) رائع جدًا..بل أكثر من رائع.

كادت تبكي كالطفل من فرط السرور، لماذا تشعر هذه الليلة بكل هذا الحب والحنان وكل هذا السلام النفسي والرضا عن العالم؟.. كل شيء جميل..كل شيء في موضعه.. كل ما يحدث يملأ – من جديد – كأس سعادتهما المنتزعة وفي خيالها لا زالت صورة شجرة الكمثرى منطبعة.. لا شك أنها فضية الآن..فضية بلون أشعة القمر الغامض.. فضية كمس (فولتون) التي جلست تدير ثمرة يوسفي بين أناملها الرقيقة الشاحبة وكأن نورًا ينبعث منها..!

أما الشيء العجيب..الشيء الخارق الذي لم تجد له تفسيرًا هو: كيف استطاعت بهذه السرعة وهذه الدقة وهذا الإتقان أن تخمن حالة مس (فولتون) النفسية؟.. لأنها – في الحقيقة – لم تكن تشك لحظة واحدة في أن تخمينها على حق!.. والمشكلة هي أنها لا تعرف على أي أساس وضعت هذا التخمين؟.. وقالت (بيرثا) لنفسها!أظن هذا نوعًا من توارد الخواطر أو الاتصال الروحي الذي يحدث نادرًا بين النساء.. ولا يحدث أبدًا بين الرجال.. ولكنها قد تلمح بأي شيء يؤكد أنني على حق.. وذلك حين أعد القهوة في حجرة الاستقبال..!

ما هذا؟.. ما الذي تعنيه بالضبط؟.. ماذا كانت تقصد بذلك؟.. وماذا يمكنها أن تتصور أن يحدث بعدها؟.. كانت تعرف أنها لابد أن تتكلم.. لأن لديها رغبة عنيفة للضحك..

-يجب أن أضحك.. وإلا أموت!

ولكنها لم تطاوع رغبتها في الحديث.. فبينما ترفع شيء ما من على المائدة، تذكرت أنها قد تبدو كالمختل عقليًا..إلى جانب أنها آثرت أن تبقى ما تشعر به سرًا يخصها هي وحدها.. لذا فقد غرزت أظفارها في جلد ساعدها منذره نفسها بألا تضحك بشكل ملفت للنظر.. وعلى أية حال.. لقد انتهى العشاء وأخيرًا:

-.. تعالوا! آلة صنع القهوة الجديدة.

وقال (هاري):

-إننا نشتري آلات صنع القهوة بمعدل مرعب في الواقع.

وأمسكت مسز (نايت):

-إنها تبدو مثل عش لفرخ عنقاء!

وقالت مس (فولتون):

-أرجوك – لا تضيء النور الآن.. إن الحجرة جميلة جدًا هكذا.

تنظر إلى الوهج بشغف وهي التي كانت باردة دائمًا.. بدون معطفها البرتقالي بالطبع.. هكذا فكرت (بيرثا) وفي تلك اللحظة بالذات أعطت مس (فولتون) الإشارة لـــ (بيرثا).. قالت في صوت نائم، مخدر للأعصاب:

-هل عندك حديقة؟

كم كان هذا رائعًا منها!.. فلم تستطع (بيرثا) إلا أن تطيع ما قالته مس (فولتون).. وعبرت الحجرة إلى باب الشرفة وأزاحت الستار عنه وفتحت الباب على مصراعيه وقالت وهي تشير للأمام:ها هي.

ووقفـت المرأتـان جنبًـا إلى جنـب ترقبـان الشـجرة السـامقة المثـيرة.. وبالرغـم مـن سـكونها المعهـود، إلا أنهـا بـدت كلهـب شـمعة يرتجـف في جـو الهـواء الصحـو.. ويعلـو حتـى يسـتطيل كلما أطالتـا النظـر حتـى يـكاد يلمـس حافـة القمـر الفـضي. كـم طالـت وقفتهـما إذ ذاك؟ كلتاهـما.. كـما لـو كانـت هـذه الدائـرة مـن النـور السـماوي قـد جـاءت بهـما وأسرتهـما في نطاقهـا.. كـم طالـت وقفتهـما؟.. كـم فهمـت كل منهـما الأخـرى وكأنهـما مخلوقتـان مـن عـالم آخـر تتسـاءلان لم وجتـا في هـذه الأرض بهـذا الكنـز مـن السـعادة التـي تتوهـج في صدريهـما وتتسـاقط عـلى هيئـة أزهـار فضيـة مـن بـين خصـلات شـعريهما وأصابعهـما!

كـم طالـت وقفتهـما علة هـذه الحالـة؟.. دهـرًا أم لحظـة؟.. وهـل همسـت مـس (فولتون):نعم.. هـو ذلـك حقًـا؟..أم أن (بيرثـا) هـي التـي تخيلـت هـذا..؟

واشتعل النور الكهربائي فجأة، وأعدت مسز (نايت) القهوة وقال (هاري):

-عزيـزتي مسـز (نايـت).. لا تسـأليني عـن طفلتـي؛ فأنـا لا أراهـا مطلقًـا.. ولـن أبـدأ بالاهتـمام بهـا حتـى تتمنـى لنفسـها عشـيقًا.

وأزاح مسـتر (نايـت) عويناتـه عـن عينـه ثـم وضعهـا مـن جديـد.. وشرب (إيـدي واريـن) القهـوة ثـم وضـع القـدح والألم يرتسـم عـلى وجهـه وكأنـه وجـد فيـه عنكبوتًـا!..

-إني أود أن أفسـح مجـلًا للكتـاب الشـبان.. وأعتقـد أن (لنـدن) مليئـة بالأفـكار لمسرحيـات لم تكتـب بعـد..كل مـا أريـد أن أقولـه هـو: هـا هـو المـسرح أمامكم..هلمـوا!

-هـل تعرفـين يـا عزيـزتي؟.. سـوف أقـوم بعمليـة إعـادة ديكـور منـزل (جاكـوب ناثـان).. وأجـد أن فكـرة اسـتخدام رسـم السـمك المقـلي كأسـاس للديكـور.. فتكـون ظهـور المقاعـد عـلى شـكل المقـلاة، بينـما تزيـن السـتائر رسـوم للبطاطـس المحمـرة!

-المشـكلة بالنسـبة لكتابنـا مـن الشـباب أنهـم مازالـوا رومانتيكيـين.. لا يمكنـك أن تـترك البحـر إلى حـمام السـباحة مـا لم تكـن مصابًـا بـدوار البحـر.. حسـنًا.. هـل لديهـم الشـجاعة للغـوص في حـمام السـباحة هـذا؟

-قصيدة مريعة عن فتاه اغتصبها شحاذ بلا أنف في غابة صغيرة!

وغرقـت مـس (فولتـون) في أعمـق المقاعـد ومـر (هـاري) بالسـجائر وحـين وقـف أمـام مـس (فولتـون) قالـت بجفـاف:

-مصري؟ تركي؟ فرجيني؟

أدركـت (بيرثـا) أنـه يكرههـا وأدركـت أيضًـا أن مـس (فولتـون) قـد شـعرت بهـذه الكراهيـة؛ وغضبـت حـين قالتأشـكرك، لـن أدخـن!

وقالت (بيرثا) لنفسها:

-أرجوك يا (هاري)، لا تكرهها؛ أنت مخطئ في حقها، إنها رائعة.. بالإضافة إلى هذا كيف تكره شخص يعني الكثير بالنسبة لي؟ سأحاول أن أشرح لك الليلة ونحن في الفراش ما هو بيني وبينها والشعور الذي تقاسمناه أنا وهي.

وعند تلك الكلمات الأخيرة قفزت فكرة غريبة ورهيبة نوعًا ما إلى عقل (بيرثا) وابتسمت لها هذه الفكرة العمياء وهمست في أذنها:حالًا..سيخرج هؤلاء القوم؛ وسيصبح البيت ساكنًا وستخبو الأضواء وأنتي وهو معًا، وحدكما في الغرفة المظلمة والفراش الدافئ.

وقفزت (بيرثا) من مقعدها ونظرت إلى البيانو صامتة:

-للأسف.. لا أحد يلعب البيانو.

وللمرة الأولى في حياتها تشتهي (بيرثا يونج) زوجها..كانت تحبه، كانت بالطبع تحبه، بكل ما في كلمة الحب من معان، ولكن ليس بهذا المعنى..وقد أدركت في بداية زواجهما أنه يختلف عنها، وكثيرًا ما ناقشا هذا الأمر، وحين اكتشفت أنها باردة جدًا، سبب لها هذا الاكتشاف قلقًا مريعًا في بادئ الأمر، ثم زالت أسباب الهلع تدريجيًا، على مر الأيام..ولكن الآن..الآن..في حرارة..اضطربت الدنيا في جسدها المشتاق، اللهب.. ثم.. ثم

-لابد لنا من الانصراف يا عزيزتيقالتها مسز (نايت)إننا نسكن بعيدًا وتعرفين أننا ضحايا الوقت ومواعيد القطارات.

وقالت (بيرثا):سأصحبكم إلى الصالة.. ولكن – من أجلي – لا تدعو القطار الأخير يفوتكم، سيكون هذا سيئًا جدًا.

وقال (هاري):هل لك في كأس من (الويسكي) قبل أن ترحل يا (نايت)؟

-كلا، أشكرك يا عزيزي.. أيها البطل العتيد.

وضغطت (بيرثا) على يد (نايت) شاكر، وهي تصافحه وصاحت من على السلم الخارجي.. ليلة سعيدة.. مع السلامةوكأن روحها تودعهما للمرة الأخيرة..

-إذًا.. ستركب جزءًا من الطريق في سيارة الأجرة معي.

-سأكون شاكرًا إن لم أواجه رحلة طويلة في السيارة وحدي بعد تجربتي المخيفة تلك!

-إذًا.. سأذهب لارتداء معطفي.

وسارت مس (فولتون) في اتجاه الصالة وتبعتها (بيرثا) وكاد (هاري) يدفعها وهو يمر بها ويسبقها خلف مس (فولتون) ويقول:

- دعيني أساعدك في ارتداء معطفك.

وتركتـه (بيرثـا) يذهـب وحـده وأدركـت أنـه يشـعر بالنـدم إزاء معاملتـه الجافـة لمـس (فولتـون)، كـم هـو يبـدو مثـل الأطفـال في بعـض تصرفاتـه، طفـل يتـصرف تلقائيًـا، وبقيـت هـي و(إدي) بجانـب المدفـأة.. وقـال (إدي) في صـوت ناعـم:

-إننـي أتسـاءل، هـل قـرأت قصيـدة (بيلـك) الجديـدة (قائمـة الطعـام)؟ إنهـا ممتـازة، هـل لديـك نسـخة مـن ديوانـه الأخـير؟ أتحـرق شـوقًا لـكي أريـك القصيـدة.

وقالت (بيرثا):

-نعم.. لدي نسخة.

ومشـت في رشـاقة إلى مائـدة تواجـه حجـرة الاسـتقبال وخلفهـا (إدي) يمـشي دون ضجـة وأمسـكت بالكتـاب الصغـير وأعطتـه لـه في هـدوء تـام دون أن تحـدث أي صـوت مسـموع، وبينـما انهمـك هـو في البحـث عـن القصيـدة، أدارت بشـكل تلقـائي رأسـها إلى الصالـة ورأت.. رأت (هـاري) يمسـك بمعطـف مـس (فولتـون) وهـذه الأخـيرة قـد أعطتـه ظهرهـا وأحنـت رأسـها، ورمـى بالمعطـف جانبًـا ثـم أحـاط كتفيهـا بيديـه وأدارهـا إليـه في عنـف وقالـت شـفتاهإنني أعبدكووضعـت مـس (فولتـون) أصابعهـا الفضيـة عـلى خديـه وابتسـمت ابتسـامتها الناعمـة، وارتجفـت فتحتـا أنـف (هـاري) وتكـور فمـه في تكشـيرة كريهـة وهـو يهمسـغدًا.. باكروبجفونهـا قالـت مـس (فولتون):نعم..وقـال (إدي):هـا هـي القصيـدة: لمـاذا يكـون الحسـاء دائمًـا حسـاء طماطـم؟.. هـل تشـعرين بعمـق الواقعيـة المرعبـة.. إن حسـاء الطماطـم خالـد بشـكل يثـير الهلـع. وقـال (هـاري) بصـوت مرتفـع للغايـة وهـو في الصالة:هـل أطلـب لـك سـيارة أجـرة ابلهاتففقالـت مـس (فولتـون):لا ضرورة لذلـك. واقتربـت مـن (بيرثـا) وقدمـت لهـا أناملهـا الرقيقةطابـت ليلتـك.. أشـكرك كثيراًغمغمـت (بيرثا):طابـت ليلتكوظلـت مـس (فولتـون) محتفظـة بكـف (بيرثـا) وهـي تهمسـما أجمـل شـجرتك.. شـجرة الكمثرى!ثـم ذهبـت و(إدي) يتبعهـا كالقـط الأسـود يتبـع القـط الرمـادي.. وقـال (هـاري) وهـو في غايـة مـن الهـدوء ورباطـة الجأش؛سـأطفئ الأنـوار.

-شجرتك الجميلة.. شجرة الكمثرى.. شجرة الكمثرى..

وجرت (بيرثا) إلى الشرفة وفتحت مصراعيها وصاحت:

-يا إلهي.. ماذا سيحدث الآن؟

ولكـن شـجرة الكمـثرى كانـت في غايـة الجـمال كـما كانـت دائمًـا.. ومليئـة بالثـمار والأزهـار.. وسـاكنة كشـأنها دائمًـا.

البنت الصغيرة
كاثرين مانسفيلد

البنت الصغيرة كانت مخلوقًا يحاول ألا يخشاه، يحاول أن يتجنبه كل صباح قبل الذهاب إلى العمل، يأتي إلى الحضانة ويمنحها قبلة سريعة تجيبها بـــــمع السلامة، يا أبي.، ثم ذلك الإحساس الرائع بالنشوة المصاحبة لسماعها صوت جلبته ينخفض أكثر وأكثر عبر الطريق!

في المساء، تقترب أعلى درجات السلم عند عودته إلى البيت، تسمع صوته العالي في البهو:

احضري الشاي إلى قاعة التدخين.. ألم تأت الجريدة بعد؟، هل أخذوها إلى المطبخ مرة أخرى؟ أماه، أذهبي وابحثي عن جريدتي هناك.. وأحضري لي الخف.

تناديها الأم:(كيزيا)! لو أنك فتاه طيبة حقًا، فيجب أن تهبطي لأسفل وتخلعي حذاء والدك.

ببطء تنزل الفتاه درجات السلم، تنزلق عليه في تكاسل إذ تحكم قبضتها على (الدرابزين) – وتزداد خطواتها بطئا عبر القاعة، ثم تدفع باب حجرة التدخين.

كان قد ارتدى عويناته وراح ينظر إلى البنت الصغيرة من فوقها بطريقة أرعبتها حقًا..

حسنًا يا (كيزيا)، تحركي واخلعي هذين النعلين وخذيهما إلى الخارج، فلتكوني فتاه طيبة اليوم.

فيرمقها بشكل أكثر رعبًا ويردفهل أنت فتاه طيبة اليوم يا (كيزيا)؟

تتلعثم الفتاه، وتخرج الكلمات من بين شفتيها ممزقةلا.. لا أعرف يا أبي.

لا.. لا تعرفين؟.. لو ظللت تتلعثمين على هذا النحو فسوف تصحبك والدتك إلى الطبيب حتمًا!

إنها لم تتلعثم قط إزاء الآخرين – ولم ترتبك أبدًا هكذا – إلا أمام والدها، لهذا حاولت في استماتة أن تقول الكلمات المناسبة.

ما الخطب؟ لماذا تبدين محطّمة بهذا الشكل؟ أتمنى أن تعلمك أمك ألا تظهرين هكذا وكأنك على حافة الانتحار.. هنا يا (كيزيا) احملي كوب الشاي وأعيديه إلى المنضدة.. بحرص؛ يداك ترتجفان كيديّ امرأة عجوز، وأرجو أن تعتادي على وضع منديلك في جيبك وليس بداخل كُمّك.

نـــ. نـــ. نعم يا أبي.مرة أخرى تتلعثم الكلمات بين شفتيها.

في أيـام الآحـاد تجلـس معـه عـلى نفـس الكنبـة في الكنيسـة، تنصـت إليـه إذ يغنـي بصوتـه الجهـوري الواضـح تراقبـه إذ يـدوّن ملحوظـات صغـيرة أثنـاء الترانيـم بقلمـه الأزرق عـلى ظهـر مظـروف فـارغ – تضيـق عينـاه وتسـتحيلان شـقّين صغيريـن في أعـلى وجهـه – ويـدًا تنقـر مهـددة وشـم الصمـت عـلى حافـة الكنبـة، يتلـو صلاتـه بصـوت عـال جـدًا، فتشـعر أن اللـه قـد سـمع صـوت فـوق صـوت القـس بالتأكيـد.

كان كبـيرًا جـدًا – يـداه وعنقـه، خاصـة فمـه عندمـا يتثـاءب. تفكـر فيـه إذ يكـون وحـده بالحضانـة كأنهـا نفكـر في عمـلاق.

في ظهـيرة يـوم الأحـد، ترسـلها الجـدة إلى الحجـرة الملحقـة، وتُلبسـها رداءًا مـن القطيفـة البُنيـة حتـى تقـوم بــــمحادثة لطيفـة مـع بابـا ومامـا. لكـن البنـت الصغـيرة دائمًـا تجـد الأم تقـرأ مجلةسكتشـوالأب ممـدًا عـلى الأريكـة، ومنديلـه عـلى وجهـه، قدمـه انغـرزت في الوسـادة الناعمـة – أفضـل وسـادة لديهـم – ويتعـالى شـخيره.

تجلـس متهالكـة عـلى مقعـد البيانـو، وتراقبـه بيـأس حتـى يسـتيقظ ويتمطـى ويسـأل عـن الوقـت – ثـم ينظـر إليهـا.

لا تحدّقي هكذا يا (كيزيا). إنك تبدين مثل خفاش بني صغير.

وفي أحـد الأيـام، ظلـت في المنـزل بسـبب الـبرد، أخبرتهـا جدتهـا أن عيـد ميـلاد أبيهـا سـوف يكـون الأسـبوع القـادم فاقترحـت عليهـا أن تصنـع لـه (مقلمـة) عـلى سـبيل الهديـة مسـتخدمة قطعـة جميلـة مـن الحريـر الأصفر.وبمنتهـى الجـد، وبـزوج مـن الخيـط الفضي، طـرزت ثلاثـة جوانـب، ولكـن بـم تحشـوها؟ كان هـذا هـو السـؤال. وكانـت جدتهـا في الحديقـة بالخـارج، فدخلـت حجـرة نـوم أمهـا بحثًـا عـن (قصاصـات) للحشـو. وعـلى المنضـدة المجـاورة للفـراش عـثرت عـلى صفحـات عديـدة مـن الـورق الناعـم، التقطتهـا ومزقتهـا إلى قطـع صغـيرة دقيقـة، ومـلأت حقيبتهـا، ثـم حاكـت الجانـب الرابـع.

في هـذا المسـاء كان هنـاك الكثـير مـن النحيـب والعويـل بالمنـزل، لقـد ضاعـت خُطبـة الوالـد التـي كان يجهزهـا في مجلـس مسـئولية المينـاء.. قلبـوا الحجـرات رأسًـا عـلى عقـب.. اسـتجوبوا الخـدم.. وأخـيرًا ذهبـت الأم إلى الحضانـة.

(كيزيا)، لا أعتقد أنك قد رأيت بعض الأوراق على المنضدة في حجرتنا؟

أجابت:آه، نعم, لقد مزقتها من أجل المفاجأة

ماذا؟صرخت الأمتعالى إلى حجرة العشاء فورًا.

وهبطـت الفتـاه الـدرج إلى حيـث كان والدهـا يزفـر محنقًـا، عاقـدًا ذراعيـه خلـف ظهـره. وقال

بحده:حسنًا!وشرحت الأم الموقف. ثم وقف هو وحدة الطفلة بنظرات حازمة خرساء:هل فعلت هذا؟

همست الطفلةلـــ.. لا.. فاستدار موجهًا كلامه إلى الجدة:

أماه، أذهبي إلى الحضانة وأحضري ذلك الشيء اللعين.. وابعدي هذه الطفلة عني في الحال.

صرخت كثيرًا محاولة تبرير موقفها، بينما رقدت في الحجرة المظلمة ترقب أضواء المساء بالخارج تتسلل عبر خصاص النافذة وتلقى انطباعًا حزينًا على الأرضية. ثم جاء الأب إلى الحجرة وفي يده مسطرة:

سوف أؤدبك من أجل هذا.

صرخت البنتآه، لا، لا.وراحت تختبئ تحت ملاءات الفراش.. لكنه ألقى الملاءات جانبًا.

انهضي–أمرها-مدّي يديك. يجب أن تُعاقبي لتتعلمي ألا تلمسي أبدًا شيئًا لا يخصك.

ولكنها كانت من أجل.. من أجل عيد ميلادك.

ونزلت المسطرة على كفيها الصغيرتين الوردتين.

بعد ذلك بساعات، عندما لفتها جدتها بالشال وراحت تهزها على الكرسي الهزاز، التصقت الطفلة بجسدها الناعم وراحت تنهنهلماذا جعل الله أبي يفعل ذلك؟

ها هو عطر جميل بماء (اللافندر). اذهبي للنوم يا صغيرتي. سوف تنسين كل شيء عن هذا في الصباح. حاولت أن أوضح الأمر لوالدك، لكنه كان منزعجًا للغاية فلم ينصت إلى حرفًا مما أقول.

ولكن الطفلة لم تنس أبدًا؛ في المرة القادمة عندما رأته خبأت كفيها خلف ظهرها وتخضّبت وجنتاها باللون الأحمر.

كانت عائلة (ماكدونالد) تحيا في المنزل المجاور لهم، وكان لديهم خمسة من الأطفال. نظرت عبر فتحة في سور حديقة الخضروات، فرأتهم يلعبون ذات مساء. الأب رفع الطفل (ماك) على كتفيه. وتعلّقت طفلتان بذيل معطفه، يعدون على فراش من الأزهار، يهتزون من الضحك. ورأت الأولاد يقذفونه بالعصا – يقذفونه بالعصا – فاستلقى على ظهره مداعبًا، وراح يقرصهم حتى أصابهم الضحك بالفوّاق.

وقررت عندئذ أن هناك عدة أنواع من الآباء.

فجأة، وذات يوم مرضت الأم، وذهبت هي وجدتها إلى المدينة في عربة مغلقة. وظلت هي وحدها في الدار مع (أليس) – المشرفة – التي كانت مفيدة طوال النهار ولكن عندما

تضعهـا (أليـس) في الفـراش يبـدأ خوفهـا.

مـاذا أفعـل لـو جـاءني كابوس؟سـألتهغالبًا مـا تنتابنـي الكوابيـس، فتأخـذني جـدتي إلى فراشـها – لا يمكنني أن أبقـى في الظـلام – إنـه يهمـس طـوال الليـل.. مـاذا أفعـل لـو جـاءني كابـوس؟

فقـط، أذهـب للنـوم يـا طفلتي.قالتهـا (أليـس) وهـي تخلـع جوربيهـا وتعلقهـما عـلى حافـة الفـراش ثـم أردفتـولا تثـيري مزيـدًا مـن الجلبـة فتوقظـي والـدك المسـكين.

ولكـن الكابـوس القديـم المعهـود جـاء – الجـزار ومعـه السـكين والحبـل يقـترب ويقـترب، يبتسـم بشـكل مقـزز بينـما لا تسـتطيع الحـراك، فقـط يمكنهـا أن تقـف وتصرخجـدتي، جـدتي!

تستيقظ راجفة، لترى والدها إلى جانبها على الفراش وفي يده شمعه. يسألها:

-ما الخطب؟

آه.. جزار.. سكين.. أريد جدتي!

يضـع الشـمعة جانبًـا، ويميـل عـلى الطفلـة ويلتقطهـا بـين ذراعيـه، ويحملهـا عـبر الردهـة إلى الحجـرة الكبـيرة.

جريـدة كانـت عـلى الفـراش، وسـيجار مشـتعل حتـى نصفـه ارتكـز عـلى مصبـاح القـراءة. ألقـى بالجريـدة عـلى الأرض، ويدفـن السـيجار في المطفـأة، وبحـرص يضـع الطفلـة ويرقـد جانبهـا نصـف نائمـة ونصـف قلقـة مـن ابتسـامة الجـزار، مـما يجعلهـا تلتصـق بـه أكـثر، وتدفـن رأسـها في إبطـه وتحـت ذراعـه وتتعلـق بقبضتيهـا في منامتـه.

ثم لا يغدو الظلام مشكلة، فتظل راقدة.

ويقول والدها:

هنا، دلّكي قدميك في ساقي حتى تدفئيها.

ينـام مرهقًـا جـوار البنـت الصغـيرة.. إحسـاس غريـب ينتابهـا. والـدك المسـكين! إنـه ليـس كبـيرًا جـدا رغـم كل شيء وليـس هنـاك مـن يرعـاه..كان أكـثر قسـوة مـن جدتهـا، لكنهـا كانـت قسـوة لطيفـة.. وكل يـوم كان مضطـرًا لأن يعمـل فيـأتي متعبًـا، منهـكًا غـير قـادر عـلى أن يكـون السـيد (ماكدونالـد).. اقشـعر بدنهـا فجـأة، وتأوهـت.. فسـألها والدهـا:

ما الأمر؟.. حلم آخر؟

فقالت البنت الصغيرة:

كلا.. إن رأسي فـوق قلبـك.. أسـتطيع سـماع دقاتـه، يـا لـه مـن قلـب كبـير لديـك، يـا والـدي العزيـز!

شكرا يا سيدتي
برنادت جونز

كانت سيدة عملاقة بحق، وكانت تحمل في يدها حقيبة هائلة الحجم – فيما يبدو أنها تحتوي على كل شيء في هذه الدنيا – (كلا.. لا توجد مطرقة أو مسامير!).. وكانت الحقيبة تتدلى من كتفها بحزام جلدي طويل.. وبينما كانت تسير وحدها والساعة تقترب من الحادية عشرة مساء حدث كل شيء بسرعة.. جرى خلفها طفل ما وحاول اختطاف حقيبتها وانقطع الحزام الجلدي عندما حاول الطفل شده من الخلف، ولكن ثقل الصبي وثقل الحقيبة معًا أفقداه توازنه. وهكذا.. بدلًا من أن يسرع هاربًا بغنيمته (كما كان يتمنى) وقع على ظهره فوق الرصيف وارتفعت قدماه في الهواء..

وبسرعة التفتت السيدة العملاقة خلفها وركلت الصبي في مؤخرته، ثم أنها انحنت وأمسكت بياقة الصبي قابضة على فتحة قميصه وظلت تهزه حتى اصطكت أسنانه وقالت في حزم:

-حسنًا.. هات الحقيبة!.. أحضرها هنا

كانت لا تزال ممسكة به لكنها انحنت قليلًا حتى تمنحه فرصة أن يأتي بالحقيبة من على الأرض.

-ألا تخجل من نفسك أيها الصبي؟

قال الصبي في حرج:

-نعمأعني بلى..

سألته:

-لماذا فعلت ذلك؟

أجابها:

-لم أكن أعني هذا!

صاحت:

-كاذب!

ووقف بعض المارة في الطريق يشاهد ما هناك وقالت السيدة:

-لو تركتك الآن.. لأسرعت بالفرار.

رد الصبي في صراحة:

-طبعًا

قالت السيدة

-إذن لن أتركك

وظلت قابضة على تلابيبه..

همس الصبي:

-سامحيني يا سيدتي.. أنا آسف

صاحت كأنها لم تسمعه:

-هكذا.. والآن.. أنظر إلى وجهك القذر.. يجب أن أغسل لك وجهك.. ألم يخبرك أحدهم في الدار أنه يجب أن تغسل وجهك؟

رد الصبي:

-لا

قالت السيدة:

-إذن يجب أن نغسله الليلة

وانطلقت تسير في الشارع وهي تجر الصبي خلفها وهو يرتجف كورقة..كان يبدو في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة.. وكان من الواضح أنه ضعيف البنية.. يلهث ويشهق ويتهافت كأنه مريض بمرض مميت.. وكان يرتدي حذاء من الكاوتشوك وسروالًا من الجينز الأزرق..وقالت المرأة:

-لو كنت ابني لكنت علمتك الفارق بين فعل الصواب وفعل الخطأ.. ولكن فلندع هذا لما بعد.. يجب أن أغسل وجهك أولًا.. هل أنت جائع؟

قال الصبي وهي تسحبه خلفها:

-لا.. ولكن.. اتركيني من فضلك

قالت السيدة:

-هل أزعجتك وأنا أعبر ناحية الشارع

وتابعت:

-ومع ذلك طاردتني واحتككت بي.. هل تظن الآن أنه يمكن فض هذا الاشتباك؟.. مخطئ إذا ظننا هذا ممكنًا.. سوف ترى.. وعندما أتخلص منك لن تنس مدام (لولا بيتس واشنطن جونز)

وبدأ العرق يتصبب من جبهة الصبي وبدأ يحاول التملص من قبضتها.. وتوقفت السيدة (جونز) وجذبته بعنف حتى صار أمامها تمامًا ثم أطبقت بكفها واستمرت في جره عبر الطريق، حتى وصلت إلى دارها في النهاية، وهناك دفعت الصبي إلى الداخل فعبرا الصالة ووصلا إلى غرفة غاية في الاتساع في مؤخرة الدار بها مطبخ صغير وأضاءت النور وتركت الباب مفتوحًا.. وتناهت إلى أسماع الصبي أصوات ضحكات وثرثرة الجيران في هذا المنزل..وكانت السيدة لا تزال تطبق على رقبته وهي واقفة في منتصف الغرفة!

سألته:

-ما اسمك؟

أجاب:

-اسمي (روجر).

قالت:

-حسنًا يا (روجر).. اذهب إلى الحوض واغسل وجهك جيدًا

وحلت قبضتها عن ملابسه ونظر (روجر) إلى الباب ثم نظر إلى السيدة ثم إلى الباب مرة أخرى وأخيرًا.. اتجه إلى الحوض..وأتاه صوتها من خلفه:

-أترك الصنبور قليلًا حتى تحصل على الماء الساخن.. هاك.. ها هي منشفة جافة

قال الصبي وهو ينحني على الحوض:

-هل تزمعين زجي في السجن؟

أجابته:

-ليس بوجهك القذر هذا.. لا يمكنني أن أذهب إلى أي مكان.. غريب جدًا!.. سوف أعد بعض الطعام.. غريب جدًا.. أعود إلى الدار لأعد العشاء فتهبط أنت عليّ من السماء لتخطف حقيبتي!.. يبدو أنك لم تأكل بعد.. الوقت متأخر جدًا

قال الصبي:

-لا يوجد أحد في منزلنا

قالت:

-إذن سوف نتعشى سويًا.. لابد أنط جائع.. هل كنت جائعًا عندما حاولت أن تسرق حقيبتي؟

أجاب الصبي:

-كنت أريد شراء حذاء شامواه أزرق

قالت السيدة (لولا بيتس واشنطن جونز):

-ومن يريد شراء حذاء أزرق شامواه يسرق حقيبتي؟.. كان يجب أن تطلبها مني

قال الصبي:

-ماذا؟

وتطلع إليها والماء يتساقط من وجهه وتوقف الحديث لفترة طويلة جدًا.. وبعد أن جفف وجهه وقف حائرًا.. ماذا يفعل؟.. فجفف وجهه مرة أخرى.. ثم التفت حوله كأنه يتساءل: ما هي الخطوة التالية؟

كان الباب مفتوحًا.. بإمكانه الآن أن ينطلق إليه عبر الصالة ويجري ويظل يجري.. ويهرب.. كانت السيدة تجلس على الأريكة الواسعة (التي تصلح فراشًا).. وبعد قليل قالت:

-أنا أيضًا كنت أريد أشياء كثيرة وأنا صغيرة ولكني لم أستطع أن أشتريها

ثم ساد صمت طويل في الحجرة.. وحاول الصبي أن يقول شيء ما لكنه فشل فأطبق شفتيه وسكت فقالت السيدة:

-هل تظن أنني أريد أن أقول أنني لم أحاول خطف الحقائب.. كلا..

وعاد الصمت مرة أخرى ثم قالت:

-أنا أيضًا فعلت أخطاء كثيرة لن أخبرك عنها

وتابعت بعد صمت:

-يا بني.. لقد ارتكبت أخطاء لا يمكنني أن أقولها لمخلوق.. ولا حتى لله، مع أنه يعرفها بالطبع.. حتى قبل أن أرتكبها.. هل تنتظر هنا قليلًا.. حتى أعد شيئًا نأكله.. هاك المشط ومشّط شعرك جيدًا حتى يبدو شكلك مقبولًا

وفي ركن آخر من الحجرة كان هناك موقد صغير وثلاجة صغيرة خلف ستار.. واختفت السيدة (جونز) وراء هذا الستار.. وكفت عن مراقبة الصبي.. بل أنها تركت حافظة نقودها

على الأريكة ولم تعد تلتفت إليها.. الصبي نفسه حرص على أن يجلس في الركن البعيد من الحجرة.. لم يكن يريد أن يبدو غير أهلًا للثقة أمامها.. على الأقل الآن!

سألها:

-لا ترغبين في أن أجلب لك شيئًا من الخارج؟.. لبن أو أي سيء؟

أجابت:

-لا أعتقد.. إلا إذا كنت تريد لبن محلى!.. لأنني سوف أصنع كاكاو باللبن الموجود هنا في هذه العلبة

قال الصبي:

-حسنًا.. لا بأس

وضعت السيدة على الموقد بعض الفاصوليا واللحم بعد أن أخرجتها من الثلاجة ثم قامت بإعداد الكاكاو وأعدت المائدة..

ولم تسأل المرأة الصبي عن مكان إقامة أهله أو إذا كان له أهل من الأصل أو أية أسئلة تسبب له إحراجًا.. لكنهما اجتمعا حول المائدة وراحت هي تلقي على أسماعه بعضًا من أخبارها. أخبرته أنها تعمل في صالون تجميل (كوافير) بأحد الفنادق وأن العمل يستمر حتى ساعة متأخرة من الليل أحيانًا.. حتى أخبرته بأنواع السيدات اللاتي يرتدن الصالون.. ذوات شعر أشقر وذوات شعر أحمر وأسبانيات ذوات شعر غجري.. ثم قطعت نصف فطيرتها – التي دفعت فيها عشرة سنتات – وقدمتها له.

وبعد انتهاء وجبة العشاء نهضت وقالت:

-والآن.. أسمع!.. خذ هذه العشرة دولارات وابتاع لنفسك حذاء أزرق شامواه.. وفي المرة القادمة.. إياك أن تخطئ وتسرق حقيبتي أو حقيبة أي شخص آخر.. مفهوم؟.. الحذاء الذي ستشتريه بمال حرام سوف يلهب قدميك نارًا.. رباه!.. كم أنا متعبة.. تفضل الآن.. وكف عن الشقاوة

وتقدمت أمامه عبر الصالة إلى الباب الأمامي وفتحته له:

-تصبح على خير!

أراد الصبي أن يقول كلمات أخرى غير (شكرًا يا سيدتي) إلى السيدة (لولا بيتس واشنطن جونز) ولكن لم يستطع عندما استدار ونظر خلفه إلى السيدة الضخمة الواقفة بالباب..

بصعوبة تفوه بكلمة (شكرًا) قبل أن تغلق السيدة الباب..

ولم يرها الصبي بعد ذلك أبدًا.

قبعة البهلوان
راي أبشول خان

احتشـدت سـحب السـماء فـوق الأشـجار السـامقة، كأنهـا سـتهوى فـوق الجبـال وانطلـق الرعـد وسـط المـكان.. وكان القائـد (أنطـوان بـيرت) في رحلـة صيـد في الأدغـال، وكان القائـد (أنطـوان بـيرت) هـو قائـد السـجن الشـمالي بجنـوب أفريقيـا، تقـدَّم منـه الجنـدي (كوزمـو) يناولـه زجاجـة خمـر يـروي بهـا عطشـه الشـديد.. وأمـا شرفـة بيـت القائـد تناثـرت الحجـارة والحـصى مـن تفجـير الديناميـت – والتـي ينفذهـا المسـاجين – وكأنهـا أرض خاصـة لعـرض الحـصى وبـدت قلعـة كئيبـة بجـوار بيـت القائـد الـذي شـعر بنـوع مـن الألم هـو مـرارة وشـوق إلى وطنـه، وبيتـه المحـاط بشـجر الزيتـون في (كيـب تـاون).. شـعر برغبـة في أن ينـادي الجنـدي ويأمـره: (كوزمـو).. آأمـر هـؤلاء الزنـوج أن يرقصـوا!!

وكانـت القلعـة في هـذا الخـلاء كحـارس لحضـارة الرجـل الأبيـض؛ إذ لم يكـن هنـاك – خـلال هـذه القـرى القليلـة – مـا يـسر القائـد سـوى رقـص النسـاء وغنائهـم عـلى صـوت الطبـول، رقصـات النـار المجنونـة، القريـة بعيـدة وهـم يبـدءون مهرجانهـم ليـلًا والمسـاجين يشـعرون بالكآبـة!

تجاهـل (كوزمـو) أمـر قائـده، وعـبرت خـلال السـماء سـحب داكنـة تنـذر بالمطـر، طقـس سـيئ بـين الحـرارة الاسـتوائية والـبرد القطبـي، ورأى القائـد نفسـه أمـام السـحب الداكنـة، عندمـا كان في (سـان هيرسـت) بإنجلـترا – أثنـاء التدريـب رأى الكثـير مـن الأمطـار، لكنـه – هنـا – لا يتحمـل أن يتجاهلـه؛ فـصرخ: كوزمـو! انتـزع (كوزمـو) مـن آلام عظامـه ليلبـي نـداء سـيده، أدى التحيـة العسـكرية، صرخ القائـد:

- ألم تسمعني؟!

غمغـم (كوزمـو): كلا يـا سـيِّدي – الرقـص - لقـد رقـص الفلاحـون بالأمـس في عيـد القديسـة (فاتيـما) ولـن يجيئـوا ثانيـة.

زادت ظلال السحب وجهه كآبة، وانفجر رعد آخر في السماء!

– قـل للحـراس أن يحـضروا (آدم) رئيـس العصابـة وليأتـوا ليشربـوا (روم / كولينـز).. هيـا اذهـب.. هيـا.. أخـرج.

وكان صـوت الرعـد في السـماء أقـوى مـن صـوت القائـد مـما ضاعـف مـن فـزع (كوزمـو) فانـصرف يجـري. وكان هنـاك نسـيم دافـئ وأوشـك المطـر أن ينهمـر واحتشـدت سـحب أخـرى فـوق الجبـال.. ببطء.. ببطء.. حشـود تتجمـع عـلى الأرض.. تـأتي مـن حيـث لا نعلـم.. لتهـدر النظـام. رفـع القائـد عينيـه السـوداويين المزرقتـين إلى السـماء، كأنـه بنظرتـه سـيفرق هـذه القـوى،

لكنـه أحـس بالخـوف مـن قـوى الطبيعـة، وخـرج نـسر مـن عشـه ليخـترق جـدار العاصفـة، تجاهل خفقـان قلبـه كـرد فعـل طبيعـي ثـم أنـزل عينيـه وعـاد إلى الخمـر، رفـع الـكأس ولمـس بهـا خـده الأيمـن ليشـعر بالملمـس الحريـري وتنفـس بحـرارة، كأنهـا صـلاة صغـير طعـن بـين شـفتيه. انتبـه لصـوت خطـوات ثقيلـة خلفـه، أحـس بقـدوم الطبيـب الأسـود رئيـس العصابـة، وفجـأة ظهـر الموكـب الصغـير كأنمـا مـن العـدم وظهـر الدكتـور (آدم)، كان نحيـلًا متوسـط الطـول، قامتـه تبـدو كأشـباح المـوتى، ولـون بذلتـه الأصفـر أومضـت كلـون وجهـه الوسـيم، قـال القائـد بخبـث: دكتـور (آدم): أعتقـد أنـك.. – لكـن دكتـور(آدم) لم يتأثـر بالاسـتهزاء فلـم يتفـوه بحـرف بـل ظـل واقفًـا كـما هـو، بعـد خمـس خطـوات مـن القائـد، وقـف الخمـس حـراس خلـف السـجين، عبرت نسـمات متوتـرة وبـرق الضـوء عـن الجبـل البعيـد.. قـال القائـد في مـرح: لقـد سـمعت أنـك تعلمـت رقصـة الثعلـب والفالـس والتانجـو.. أليـس كذلـك؟، أومـأ دكتـور (آدم) برأسـه، لقـد منحتـه المعانـاة في السـجن هـدوءًا فـوق هدوئـه: لقـد عشـقت فتياتنـا الإنجليزيـات واحتضنتهـن، أليـس كذلـك؟ لقـد اخـترت الصغـيرات فقـط لتراقصهـن!، تحركـت قسـمات دكتـور (آدم) وهربـت عينـاه مـن العـار الـذي تحملـه كلـمات القائـد السـوقية: وسـمعت أنَّـك قـد نسـيت الرقصـات الوطنيـة: هـز دكتـور (آدم) رأسـه نفيًـا، دومًـا ينهـزم القائـد أمـام صمـت هـؤلاء السـود – إلا أنَّ دكتـور (آدم) يفوقهـم بـلا شـك، هـل هـم آدميـون؟ ينبغـي أن تنشـق السـماء وتصـب جـام غضبهـا لكنهـم يظلـون عـلى ثباتهـم! اسـتجاب اللـه لأفـكار القائـد، فلمـع الـبرق في السـماء وعـاد للجلـوس طالبًـا للراحـة وظـل دكتـور (آدم) عـلى ثباتـه، متجهـم، قليـل الـكلام، فكـر القائـد: هـل ثمـة ابتسـامة عـلى شـفة الدكتـور؟ أم أننـي أتخيـل هـذا؟ - إذن هيـا ارقـص إحـدى رقصـات قبيلتـك، دعنـا نسـتمتع قليـلًا! ظـل الدكتـور واقفًـا كالتمثـال، جُـنَّ القائـد فنـادى جنديـه: كوزمـو!.. اعـط هـذا الرجـل قبعـة البهلـوان، القـرد الأحمـر، فسـيرقص بهـا بشـكل أفضـل، أسرع الجنـدي وأحـضر القبعـة: ضعهـا عـلى رأسـه أو ضعهـا عـلى رأسـك! وثـب كوزمـو نحـو السـجين، وخـلال العـذاب الطويـل في حيـاة دكتـور (آدم) لم يتحـرك عندمـا وضـع (كوزمـو) قبعـة البهلـوان عـلى رأسـه، ضحـك القائـد بانفعـال مصطنـع عندمـا رأى الدكتـور بالقبعـة: انظـروا إلى هـذا البهلـوان واضحكـوا! لمـاذا لا تضحكـون؟ (سرت ابتسـامات قليلـة مصطنعـة) كان مـن الأيـسر أن يطلقـوا النـار عـلى السـجين لأنـه كان مـن المرعـب أن يضحـك السـجين، أو يبصـق في وجوههـم كـما فعـل الأفارقـة مـرارًا مـن قبـل، جـرع القائـد مـا تبقـى مـن الخمـر في زجاجتـه: ارقـص يـا رجل!..ارقـص.

سـمع الرعـد في السـماء ولم يكـن مناسـبًا للرقـص الـذي يطلبـه فقفـز مـن مكانـه وراقـص السـجين: هـا هـو يرقص:هاهاها (انشـقت السـماء بضـوء باهـر) الأبلـه يرقـص بقبعـة البهلـوان! ارقـص يـا أبلـه! عـاد القائـد للجلـوس بينـما أمسـك الحـراس بالسـجين المنهـار..

ركَّز الكل بصره نحو السجين، وقال القائد: أخ..اخرج.. اذهب.

وانهمـرت السـحب مـن السـماء.. وغمغـم القائـد: خـذوه إلى زنزانتـه، واستسـلم دكتـور (آدم) لجـذب الحـراس لـه وبعـد عـدة خطـوات اسـتدار نحـو القائد:-هاهـا، ثـم تمتـم في سره:-سـوف نـرى مـن يضحـك أخـيرًا.

كافكا يبوح!
(كافكا)

ذلك الوميض الخافت

لـن أدع دفـتر اليوميـات أكـثر مـن ذلـك، ففيـه أسـجل ملاحظـاتي، وهـي ميـزة لا أجدهـا في سـواه. أود البـوح بشـعور النشـوة الـذي ينتابنـي مـن حـين إلي آخـر مثلـما هـو حـالي الآن. فكـم هـو رائـع حقـا أن يملكنـي ذلـك البريـق الخافـت الممتـع والـذي يوهمنـي بقـدرات أنـا عـلي يقـين تـام ودائـم باسـتحالة وجودهـا.

16 ديسمبر 1910

تفاهة الكتابة تدرك بعد فوات الأوان

لم أكتـب كثـيرا عنـي اليـوم، لعلـه الكسـل (فكثـيرا مـا أمُـضّي النهـار كلـه في نـوم عميـق، فضلا عـن إحسـاسي بثقـل كبـير بعدهـا)، أو هـو الخـوف مـن خـداع الـذات. ولهـذا الخـوف مـا يـبرره. إذ لـن تغـدو الكتابـة معرفـة صادقـة لقـدر النفـس إلا بأقـصى درجـات الكـمال والإخـلاص الشـامل.. ولأن هـذا لا يحـدث، ولأننـي لا أمتلـك المقـدرة عليـه بـأي حـال مـن الأحـوال¬ فـإن الكتابـة تتحول إلي وجهـة نظر ويجنـح الحـرص الشـديد إلي مشـاعر عارمـة عاريـة عـلي نحـو تتـلاشي فيـه المشـاعر الصادقـة، في حـين أن تفاهـة الكتابـة تـدرك بعـد فـوات الأوان.

12 يناير 1911.

خوفي لا يجود عليّ إلا بسعادة ناقصة

فكـرت ذات مـرة أن أكتـب روايـة عـن صراع بـين أخَّـين، رحـل أحدهـما إلي أمريـكا بينـما قبـع الآخـر في سـجن أوروبي، كنـت أبـدأ مـن حـين لآخـر في كتابـة بضعـة سـطور قليلـة منهـا ثـم سرعـان مـا يتملّكنـي الفتـور والإنهـاك. وحـدث في ظهـيرة أحـد أيـام الآحـاد حـين كنـا في زيـارة إلي جدينـا، وقـد اعتدنـا أن نلتهـم لديهـما خبـزا شـعبيًا طريًـا مـن الـذي تغطيـه بالزبـد، حـدث أننـي دونـت شـيئا عـن سـجني، وتمكنـت أيضـا مـن خـلال طريقـة فـرد الـورق عـلي مفـرش الطاولـة والطـرق بالقلـم الرصـاص والنظـر أسـفل المصبـاح وخلالـه مـن أن ألفـت انتبـاه الجميـع، رغبـة منـي في حـث أي منهـم عـلي انتـزاع مـا أكتبـه عنـوة رغـمًا عنـي والتدقيـق فيـه ومدحـي. وكان مهـما جـدا وصـف ردهـة السـجن في بضعـة سـطور، خاصـة سـكونها وبرودتهـا. كـما كتبـت كلمـة تعاطـف مـع الأخ القابـع هنـاك لأنـه الأخ الطيـب. وربمـا اعتـدت في السـابق أن يتملكنـي شـعور عـام بتفاهـة وصفـي إلا أننـي لم أرع اهتمامـا لتلـك المشـاعر قبيـل هـذه الظهـيرة، وذلـك لأننـي بـين أقـاربي، كنـت أخـشي ألا يجـود عـليّ خـوفي إلا بسـعادة ناقصـة. جلسـت عـلي طاولـة مسـتديرة

في حجرة ألفها، ولم أنس أن سكوني هذا هو من صنع مني رجلا كبيرا رغم صغري. وأخيرا، أحد أعمامي والذي كان يضحك بشدة أخذ تلك الأوراق التي أمسكتها بشيء من الشك، ألقي عليها نظرة قصيرة ثم أعادها إليٌ ثانية وقد زال الضحك من وجهه، وجه كلامه لأولئك الذين كانوا يتبعونه بنظراتهم قائلا (مجرد كلام عادي) بينما لم ينبس ببنت شفة معي. ظللت جالسا مكاني، وانحنيت علي أوراقي الفاسدة مثلما كان الأمر في السابق. إلا أنني قد أقصيت من الصحبة المتواجدة بلطمة، وأخذ رأي عمي يتردد داخلي حاملا معني حقيقيا لا جدال فيه، إذ أن تلك المشاعر الأسرية قد أطلعتني علي خواء بارد لعالمنا يجب أن نمنحه الدفء بالحماسة، وهو الأمر الذي بدأت أهتم به فيما بعد.

19 يناير 1911.

يقرأ الصحيفة لزوجته في المقهى

جلست بصحبة بعض المعارف علي طاولة مقهى في مكان مهجور، كنا ننظر إلي امرأة وصلت لتوها وتجلس علي الطاولة المجاورة لنا. كانت تتنفس من تحت وطأة ثدييها الكبيرين بصعوبة وبدا وجهها المائل إلي الحمرة محموما لامعا. أزاحت رأسها إلي الخلف فلاح في ذقنها أثر لحية خفيفة جدا، ثم حولت نظرها لأعلي وكأنها ترقب زوجها الذي يقرأ بجوارها صحيفة مصورة. آه لو يعلم المرء أنه سيقرأ إلي جوار زوجته في المقهى صحيفة وليس مجلة!! بعد لحظات استعادة وعي جسدها السمين فتزحزحت قليلا عن الطاولة.

24 أغسطس 1911.

وكأنها تصرخ في حارة باريسية

سوف أكتب ومايزال جبيني يرتعش حيث أجلس في حجرتي، أكثر أجزاء الشقة صخبا وضجيجا علي الإطلاق. أسمع طرقا لا ينقطع علي جميع الأبواب، واستشعر خطي العابرين بينها، كما يصلني صوت موقد الغاز في المطبخ. يقتحم أبي حجرتي مرتديا بيجامة نوم لها ذيل طويل في حين يخربش رماد الموقد في الحجرة المجاورة. عبر حجرة المكتب تتساءل (فالي) بدهشة وكأنها تصرخ في حارة باريسية.. إذا كان أحدهم قد قام بتلميع قبعة أبي!؟ بعدها تعلو نبرة حذرة مبحوحة بالإيجاب. يبدو صوت أكرة باب الشقة كالتهاب في الزور، باب الشقة لا يسكت أبدا، يفتح فتسمع ترنيمة نسائية قصيرة ويغلق فتشعر بهزة ذكورية عميقة. خرج أبي الآن وبدأ ضجيج رقيق شارد، ضجيج بلا أمل يقوده طائرا كناريا عبرا إلي الشقة من شق صغير بالباب. أخوتي وصديقاتهن لا يتوقفن عن الثرثرة.

5 نوفمبر 1911

ماكس العجيب

عنفنـي أبي ظهـرا لأننـي لا أولي اهتماما بالمصنع، وقـد أوضحـت أنـه كان بإمـكاني المسـاهمة في ذلـك لـو أننـي أنتظـر ربحًـا معقـولًا، لكنني لا أسـتطيع.. وحـين واصـل أبي تعنيفـه وقفـت في الشـباك ملتزمـا الصمـت. في المسـاء وجدتنـي أتفكـر في حديـث الظهـيرة وكنـت سـعيدا جـدا بوضعـي الحـالي، وشـعرت أنـه مـن الـضروري أن أحـرص علي تخصيـص وقتي كلـه للكتابة وحسـب. ورغـم أننـي لم أتعـرض لتلـك الأفـكار مـن قبـل إلا أنهـا بـدت مألوفـة، فضـلا عـن اتفاقهـا وقـدرتي عـلي تسـخير وقتـي بأكملـه لـلأدب. وارد أن يكـون هـذا الاقتنـاع نابعـا مـن تفكـير لحظـي لكنـه قـوي جـدا. كذلـك فقـد اعتـدت التفكـير في ‹ماكـس› باعتبـاره شـخصا عجيبـا رغـم مـا يحييـه مـن قـراءات أدبيـة وأمسـيات موسـيقية في برلـين. ويسـتلفت الانتبـاه أيضـا أننـي لا أفكـر في ماكـس إلا عندمـا أقـترب مـن مسـكن الآنسـة ‹تاوسـيش› أثنـاء نزهـة المسـاء.

14 ديسمبر 1911

فمها الواسع يتحرك

‹للأسـف تلعـب السـيدة (تشيسـيك) أدوارا لا تـبرز غـير طبيعتهـا الحقيقيـة، فدائمـا مـا تجسـد أدوار النسـاء والفتيـات الـلاتي تحولـن إلي بائسـات ومفضوحـات، يصـبن بالأمـراض ويبخلـن عـلي أنفسـهم بالوقـت فـلا يتطـورن عـلي نحـو طبيعـي. ويمكـن للمـرء أن يفطـن مسـبقا إلي الـدور المناسـب لـ(تشيسـيك) وذلـك مـن خـلال الطاقـة الطبيعيـة المتفجـرة بداخلهـا والتـي تظهـر في كافـة أدوارهـا ولا تصـل إلي ذروتهـا إلا أثنـاء التمثيـل، بينـما يكتفـي¬ اسـتنادا إلي ثرائهـا المنشـود¬ بالإشـارة إليهـا فقـط في النـص المسرحـي المكتـوب (إحـدى أهـم حركاتهـا عـلي الإطـلاق يبرزهـا تبخـتر عجيزتهـا المهتـزة والتـي قـد تتصلـب أحيانـا) وتمتلـك ابنتهـا الصغـيرة خـاصرة جامـدة لأقـصي حـد.. عندمـا يتعانـق الممثلـون فـإن كل منهـم يتشـبث بالشـعر المسـتعار للآخـر بعنـف!!

حـين صعـدت مؤخـرا بصحبـة (لـوفي) إلي حجرتـه ليقـرأ عـليَّ الرسـالة التـي كتبهـا إلي مؤلـف مـن وارسـو يدعـي (نومبـورج)، قابلنـا عـلي العتبـة الزوجـين (تشيسـيك). كانـا صاعديـن إلي حجرتيهـما ومعهـما ملابـس تنكريـة مـن أجـل (كـول نيـدري)، وقـد لـف الملابـس في ورق ناعـم كأنهـا طبـق حلـوى. توقفنـا برهـة مـن الزمـن، واسـتندت إلي درابزيـن السـلم. كان فمهـا الواسـع يتحـرك مقتربـا بشـدة وقـد اتخـذ أشـكالا مدهشـة ولكنهـا غـير مألوفـة. وحـدث أننـي أكسـبت الحـوار طابعـا كئيبـا، فرغبتـي في الانتهـاء بسرعـة مـن عبـارات الحـب والإطـراء دفعتنـي للتأكيـد فقـط عـلي أن الجماهـير الغفـيرة خرجـت مـن المـسرح متكـدرة وأن برنامـج المـسرح منهـك للغايـة ويعجـز معظـم الحاضريـن عـن إكمالـه وأنـه مـن الأخلـق أن تهـدأ نـبرة النفـور مـن يهـود (بـراغ) بينهـم. يجـدر بك¬)هكـذا قالـت لي)¬ أن تحـضر يـوم الاثنـين (ليلـة سـايدر) رغـم أننـي شـاهدتها مـن قبـل. بعـد قليـل سـمعتها تـردد تلـك الأغنيـة (بـوري يزرويـل) والتـي أيقظـت داخـلي¬ مثلهـا تمامـا¬ ذكريـات قديمـة، وخصوصًـا الحـب.

7 يناير 1912

صعد ليستعيد عافيته.. وغرر بالبنت!

لقد غرر ببنت من قرية صغيرة تقبع في جبال إيزر كان قد نزل بها صيفا كاملا ليستعيد عافية رئته التي أنهكها الدخان. وبلا مبرر¬ كحال مريض الدرن أحيانا¬ أوقع البنت على الأرض، وهي ابنة صاحب المسكن الذي ينزل فيه وقد اعتادت علي الخروج معه للتنزه في مساء كل يوم بعد العمل، وبعد محاولة إقناع قصيرة في العشب علي ضفة النهر صارت البنت والتي أغشي عليها من الفزع ملك يمينه. بعد قليل أخذ يملأ كفيه بمياه النهر ويفرغها علي وجهها لعلها تعود للحياة مرة أخري. ناداها ‹بوشين، بوشين› ثم انحني عليها مرات لا حصر لها. كان على أتم الاستعداد لتحمل مسئولية هتك عرض البنت، واجتهد بشدة لكي تسترد وعيها.. كان مخلصا وجادا للغاية.. لكن وبلا تفكير تمني لو أنه لم يعرفها مطلقا. أما البنت الراقدة أمامه والتي وإن عاودت التنفس بانتظام لكنها ظلت مغمضة العينين خوفا وخجلا، فلم تستطع أن تساعده في شيء. ولأنه رجل كبير قوي أزاحها عن طريقه بطرف حذائه. كانت البنت ضعيفة ورقيقة هشة، فهل احتفظ ما حدث لها بأي معني مؤثر حتى الصباح؟ ألم يكن من الأجدر به وبها ألا يسيء إليها مرتين؟.. انطلق النهر بين المروج والحقول حتى شق الجبال البعيدة، وما تزال الشمس المشرقة في المنحدر على الضفة الأخرى، بينما تستعد آخر السحب للانسحاب خلف سماء المساء الصافية.

لا شيء، لا شيء، إنني واهم علي هذا النحو كنت ضعيفا لأقصي حد، خاصة في موضع ‹فيما بعد....› وبالذات في ‹يفرغها› أما في وصف الطبيعة فقد حاولت أن أري شيئا صحيحا. هكذا، الانسحاب من الذات، من كل شيء. ضجيج في الغرفة المجاورة.

10 مارس 1912

أحاول الاطمئنان على إحساسي بالمسئولية!!

رسالة إلي روفولت:

السيد روفولت المحترم!

أقدم لسيادتكم عملا نثريا قصيرا أرجو من سيادتكم النظر في أمره والاعتناء به، فيمكن أن يصبح كتيبا صغيرا. والحق أنني احترت أثناء الإعداد لهذا الغرض بين الانتظار للاطمئنان إلي إحساسي بالمسئولية وبين الرغبة في أن يصبح لي كتاب بين كتبكم الرائعة، وفي الواقع لم أصل إلي رأي صائب للغاية في هذا الشأن، لذا سأغدو سعيدا حتما إذا أعجبكم العمل وقمتم بطباعته، وأخيرا ففي الأعمال التجريبية لا تدرك النواقص من أول نظرة كما أن الفردية المتزايدة للكاتب تستر بطريقتها الخاصة كافة النواقص. لكم، بإخلاص.

14 أغسطس 1912

أمتع من السير في شارع باريس

رأيت فيما يرى النائم: أنني فوق لسان حجري ضيق مربع ممتد إلى بعيد في البحر. غريب بين نفر من البشر، بدوا لا يعرفونني لذا لم أتحدث إليهم. وأتذكر ركبتي ذلك الرجل الذي كان يجلس بجواري.. لم أكن أعرف في بداية الأمر أين أنا؟ فقط حين نهضت رأيت مصادفة من جهة اليسار، وخلفي من جهة اليمين، البحر الواسع الصافي وقد اصطفت فيه سفن حربية كثيرة راسية. ويمينا كانت نيويورك، وكنا في مينائها. السماء رمادية وصافية بنفس الدرجة. استدرت في مكاني بحرية، ناحية اليمين وناحية اليسار، معرضا للهواء من كل اتجاه. وألحظ الآن البحر بجواري يموج عاليا، وحركة مرور هائلة لسفن من دول أخرى. ولا يحضرني الآن غير أننا استخدمنا في الانتقال بالبحر بدلا من قواربنا الصغيرة جذوع شجر ضخمة وطويلة، ربطت بإحكام فكونت حزما دائرية عملاقة أخذت تظهر قليلا أو كثيرة مع مستوي طفوها حسب ارتفاع الموج، وقد راحت تتقلب في الماء طوال الوقت. جلست في إحداها ضاما قدميٌ إلي صدري، وكنت أهتز من فرط المتعة، ثم انبطحت أرضا مسرورا، ورددت: إن هذا لأمتع من السير في شارع باريس.

11 سبتمبر 1912

روحي تضيق بمصائب وأفراح أقاربنا

لائحة بالمبررات المؤيدة أو المعارضة لزواجي:

1-¬ عدم القدرة علي تحمل الحياة وحدي.. ليست القدرة علي الحياة في حد ذاتها، بل على العكس من ذلك تماما، فمن غير المحتمل أنني سأتفهم مجرد الحياة مع شخص آخر، ولكن لن أقوى بمفردي علي مواجهة شراسة حياتي الخاصة ومتطلباتي الشخصية وضياع الوقت وفقدان العمر والاحتقان الدائم لمزاج الكتابة والأرق ومشارفتي للجنون، لا لن أحتمل كل هذا وحدي، بالطبع يمكن الإشارة إلي أن الزواج من (ف.) سيمنحني مقدرة أكبر علي الاحتمال.

2-¬ كل شيء يبعث علي التفكير، كل نكتة في جريدة هزلية، ذكرياتي مع فلاوبرت وجريلبارتسير، منظر قمصان النوم علي أسرة والديٌ المعدة للنوم، زواج ماكسين. بالأمس أخبرتني شقيقتي: ‹كل المتزوجين (بين معارفنا) سعداء، لكني لا أشعر بهذا› هذه العبارة تدعو إلي التأمل أيضا، لقد عاودني الخوف.

3-¬ من الأحرى أن أخلو لنفسي أكثر، فكل الذي أنجزته كان توفيقا للعزلة وللانفراد بالنفس ليس إلا.

4-¬ إنني أبغض كل ما لا يمت بصلة إلي الأدب، لا أحب خوض الأحاديث (حتى وإن كان لها صلة بالأدب) وأمقت الزيارات. كذلك تضيق روحي بمصائب وأفراح أقاربنا. إن الأحاديث تلتهم ما أتدبره، تلتهم الأهمية، تلتهم الجدية، تلتهم الحقيقة.

5-¬ الخوف من الزواج وما يترتب عليه من إنجاب أطفال فلا أغدو بمفردي أبدا.

6-¬ كنت أمام شقيقاتي¬ وكان يحدث ذلك في السابق¬ شخصا مختلفا غير الذي يراه الآخرون. لا يهاب، مكشوف، معروف، مفضوح، مدهش، مندهش، لا يتأثر¬ كعادته¬ إلا أثناء الكتابة، فلو تمكنت من إظهار هذا التأثر لزوجتي أمامهم فهل سأعجز عن حرمان الكتابة منه؟! كله إلا هذا! إلا هذا!

7-¬ بمفردي قد أتخلي عن مسئولياتي، لكن هذا الأمر مستحيل وأنا متزوج.

21 يوليو 1913

الجسر
نجاتي طوسون

عندما حل المساء تقدَّمت خطوتين حتى صرت في منتصف الجسر وأنا أسند ذراعي على الدرابزين المصنوع من حجر. هذا هو اليوم الثالث لي في هذا البلد الغريب الذي لا أعرف عنه سوى ما قرأته في الكتب المترجمة عن هذه المدينة البهية الزاهية ومقاهي أرصفتها المنيرة ونسائها الجميلات السافرات وعن نهرها. نهرها الجميل الهادئ الذي خلب ناظريَّ وأخرجني من الشرود الضبابي حتى كدت أبكي. مراكب نظيفة تمر بلا مداخن تكاد تصطدم بالجسر وكأن ربابينها ينعسون أو يغالبهم الحنين لصديقة أو لزوجة. الهدوء يلف المكان وأصوات هروب تحت أصابع قدمي. أما الضباب فيسقط بالتدريج. خداع بصر طفولي يجعل من أنوار المدينة أعمدة ذات زخارف، آخر شعاع خداع للشمس. يحتشد في جوفي الفراغ. خفيف أجنحة الطير حول أجراس الكنائس على حافة المياه. سلام ربّاني من صديق مجهول. غلالة من الدمع تغشي عيني وتزحف كالضباب. وهج مفاجئ يُغطِّي المدينة، يرسل الدفء لوجنتي والطعم المالح على لساني.

لِمَ أبكي؟ ثلاثة أيام مضت على وصولي للمدينة. في شوارعها وعلى جسورها وناس لا أعرفهم ولغة لا أفهمها. أتنقل بين مقاهيها وأنزل نهرها وأشاهد السعادة البسيطة اليومية: رجالًا مسنين وأزواجًا متعانقين وصيَّادين مترقِّبين. اثنان ضحكا معي عند البرج الكبير. استغربوا فاستغربت معهم. فكرت في من كتب عشرات الكتب المفروشة على رصيف بائع الكتب المستعملة. خطر على بالي كتابي فحزنت لحالي. المساء لطيف برغم الشتاء. جلست على مقعد بجوار تمثال رجل يعتمر قبعة مدببة وفي يده حسام. أتأمله بشرود وهو لا يبادلني النظرات ولا يعبأ. تشجَّعت فقرأت له بعض الشعر لكنه بدا بلا مشاعر، تسمرت عيناه كما تسمرت عيناي، تحدقان في عيون الناس بلا إنقطاع. نكرة مثلي، ماذا ينتظر منهم؟ حب الآخرين لرجل وحيد؟!

وحيد في مدينة أجنبية. غريب في بلاد غريبة، وحيد أينما ذهبت وحدة سعيت إليها في البداية. وحدة بديعة في قرار النفس لكنها غير صادقة. وهؤلاء الناس، من هم؟ الشباب والعجائز والنساء والفتيات والرجال. يتكلمون ولكن بأي لغة؟ لا أفهمها ولا أفهمهم وليس ثمة وجه واحد مألوف لديّ من بين الوجوه. تعزَّيت بأن الغربة هي سبب الوحدة، لكن خداع النفس قاتل صامت عنيف. وتمنَّيت أن تنتهي هذه الليلة، وهذا الضياع على منتصف جسر في مدينة أناس لا أعرفهم ولا يعرفوني. أبكي؟ وما جدوى البكاء؟ تفريغ للحزن. ربما. الغضب من العجز، من الإدعاء بصواب أفكاري التي تقلقني، من الأمل. تفاؤل يتبعه كيل

من السباب لكل شيء. ثم الاندفاع نحو حب الحياة، وحب الناس وحب الأشياء وحب الله الرحيم. الأخطاء غير واردة. الأخطاء خط أحمر، والإقرار بالعيش صواب. الاعتداد بالنفس، وحب النفس. أليس كل ذلك رهبة من الموت؟ الموت رهيب والواقع مخيف. مهما أحب الرجل النكرة الحياة فلابد أن يخشى الموت، أن يقتل نفسه للخلاص من وجع الوحدة. هذا صعب، لكن الحياة لعنة. بلاء أسود. أترك نفسي للماء والنهاية معروفة. ولكن ما بعدها؟ هل يفضي فقدان الأمل في الحياة إلى تقبل الموت كبديل أفضل؟ فقط من أجل المواساة؟ أم هي محاولة لإبعاد فكرة الموت من الأساس؟ راية بيضاء في الحرب ومن يمكنه أن يتصالح مع الهزيمة؟ من يحمل همة في دواخله ويأبى طلب المساعدة؟ الحياة جميلة ولكن ما هو طعمها في فم الحي؟ بالنسبة إلى المهزوم؟ لا خيار لي، إما الحياة وإما الموت. لا ريب، فلم العجلة إذا؟ شعرت بالأسى تجاه نفسي، مسحت عيني من الدمع وخف زحام البشر. قطع الليل شوطا طويلا لكنني خشيت النظر إلى ساعتي لا أريد التواصل مع الزمن. أحد طرفي الجسر يؤدي إلى الفندق، وعند نهاية الجسر يبدأ امتداد الأرصفة.

الحافلة الليلية إلى أطلانطا
برندان جيل

كان أول خاطر يراود (هاري) عندما دخلت هذه الفتاة الحافلة هو أن تجلس إلى جواره. كان ثمة مقعدان آخران خاليان، أحدهما بجوار شيخ طاعن في السن، علا غطيطه دونما تحفظ، وخيط أصفر من التبغ يسيل من ركن شفتيه، وبجوار المقعد الثاني امرأة في العقد الثالث من حياتها، وكان طفلها الرضيع الباكي يحمل على ذقنه بقعة من اللبن تشبه إلى حد كبير تلك التي تسيل من بين شفتي العجوز.

راقب (هاري) الفتاة إذ أخذت تشق طريقها عبر ممر الحافلة، وقد علق بصره على ملامح وجهها البريء الهادئ، بينما راح يتمتم فيما بينه وبين نفسهاجلسي بجواري، اجلس بجواري، فلم يشعر بالدهشة وهي تجلس إلى جواره! وإنما بشعور غريب من الراحة.

كان قد اشترى عددًا من المجلات من المحطة الشنيعة عتيقة الطراز، وهو ينتظر وصول الحافلة من محطةجاكسون، فأمسك بها عارضًا إياها على شكل مروحة أمام الفتاة قائلًا:

- هل تودين إلقاء نظرة على إحداها؟

فأجابته دون أن تنظر إليه:

- كلا، أشكرك.

لم يحاول أن يكرر عرضه وتظاهر بالنظر من النافذة إلى ستار الليل الحالك بالخارج، لكنه ظل يرمق بركن عينه يدي الفتاة اللطيفتين، وقد انطوتا بأناقة على حجرها، ثم أنه قال:

- لقد تأخرت الحافلة نوعًا ما.

أجابته في هدوء:

- إنها تتأخر بصفة دائمة تقريبًا.

سألها سعيدًا بالحديث معها:

- أتستقلين هذه الحافلة كثيرًا؟

ردت في اقتضاب:

- كلا.

وتسائل (هاري) في سره: هل من أصول أدب الحديث أن يبوح إليها بالمزيد، وأن يتوسع

معها في الحديث؟ لكنه سألها في النهاية:

- إني ذاهب إلى أطلانطا، ثم أن علي أن آخذ الحافلة إلسبارتنبرج. لقد انتهت إجازتي، والوسيلة الوحيدة كي أعود إلى المعسكر هي أن أقفز ما بين الحافلتين، لقد كنت أستقل القطارات من قبل، ولكن هذه المرة على أن أقفز ما بين الحافلتين.

لم ترد الفتاة عليه، ولم تبدر منها إشارة تدل على أنها قد سمعته وهو يتحدث إليها، من ثم عاد يسألها:

- لا أظنك ذاهبة إلى أطلانطا.

عادت تجيبه بذات اللهجة المتحفظة:

- لا.. لا أظن.. إني ذاهبة إلى المدرسة،.. إلى ما يشبه المدرسة.

إنحنى سائق الحافلة – وهو شاب أشقر الشعر – في مقعده، وأشعل الأضواء الأمامية. انتظر (هاري) إلى أن انتهت أصوات هدير محرك السيارة، ثم أنه قال:

- إنني لم أذهب إلى هذه البلدة من قبل، هل تعيشين هنا؟

في اقتضاب أجابت:

- نعم.

- حسنًا.. يخيل إلى أنها ليست سيئة إلى هذا الحد.

ثم صمت لحظة واستطرد:

- خاصة لو كان المرء قد ولد وعاش فيها.. هل تعرفين ما الذي أتحدث عنه؟ إنني لا أستطيع أن أحب بلدان الجنوب، فهي كلها متشابهة في نظري؟

وتردد هاري:

- أخبريني – ألم أرك في المحطة؟، ألم تكوني تودعين أهلك؟

فأومأت الفتاة برأسها..كانت أمها تبكي، وكان أبوها ينقل ثقله من قدم إلى أخرى، ويدير قبعة سوداء بين يديه، وكان (هاري) قد نسى المشهد تمامًا، بالرغم من أنه يتحدث عنه الآن، كان ينتظر في الصف، كي يشتري تذكرة إلى أطلانطا، و لم يكن قد أولى الفتاة أو والديها من الاهتمام قدر ما أولاه إلى الزنوج المحتشدين في ركن الزنوج بالمحطة، وعلى الرضيع الذي ما أنفك مطبقًا فمه على ثدي أمه:

- لابد أنك مسافرة إلى مسافة طويلة، أليس كذلك؟

-نعم.

واستدارت نحوه هذه المرة وعيناها قريبتان من عينيه إلى الحد الذي رأى فيه الدقائق الصفراء والخضراء على حدقتيها الزرقاوين! وقالت وقد بدأت تطمأن إليه:

- كأنني أركض هاربة، إني ذاهبة إلجورجياكي أدرس التمريض ولكنك لو سمعت أبي وأمي يتحدثان، لظننت أني مسافرة إلى آخر مكان على الأرض هذا لأنهما قد اعتادا على أن أكون إلى جوارهما دائمًا.

- أجل، يمكنني أن أفهم ما الذي تتحدثين عنه، إن والداي من نفس النوع.

قالت الفتاة بصدق:

- ولكني دائمًا كنت أرغب في أن أكون ذات نفع للناس، خاصة وأننا الآن في وقت الحرب، وبعد الحرب أيضًا عندما يعود جرحانا إلى الوطن.

وعضت شفتها السفلى في أسف وشيء من الخجل وأردفت:

- أعتقد أنه ما كان ينبغي لي أن أحدثك على هذا النحو.

ثم حولت نظرها:

- هل يمكنني أن ألقي نظرة على مجلاتك، لو سمحت لي بالطبع؟

ابتسم قائلًا في ترحيب:

- بالتأكيد، لقد طلبت إليك ذلك منذ قليل، أليس كذلك؟

ودار بخلد (هاري)، إنها ليست إلا طفلة صغيرة تخاف الحديث إليه وتراه وغدًا لا خلاق له، ولهذا فإنها تحاول ألا تتوسع معه في الحديث ولعلها تراه أيضًا ذئبًا جائعًا! يا إلهي، لن أدع هذا يفت في عضدي..إلّا أن فكرة أنه ذئب قد منحته إحساسًا غير متوقع بالغبطة والسرور، جعله يميل بذقنه ويزيح خصلة من شعره بأنامله. بينما اختارت الفتاة من بين المجلات واحدة تحمل على غلافها صورةبيتي جرابلتبرز بشكل خاص أسنانها وصدرها وساقيها، وراحت الفتاة تقلب في صفحات المجلة كيفما اتفق لمرور الصفحات أمام ناظريها، ولكنه كان من الجليّ الواضح بالنسبة لهاريأنها لا تقرأ أي شيء.

ابتعدت الحافلة الآن عن المنطقة الموحلة التي تقع خلف المحطة وأخذت تشق طريقها في الشارع الرئيسي بالبلدة وكانت أغلب الدور قد أشعلت مصابيحها الكهربائية أو مشاعل الكيروسين، ولكن أحدًا لم يعد يبالي الآن بوضع الستائر على النوافذ، فكان بوسعه أن ينظر من خلال هذه النوافذ إلى الغرف الصغيرة العارية، ويرى العائلات رجالًا ونساء مجتمعين

في حلقات حول موائد الطعام أو في غرف المطبخ، يأكلون ويشربون أو منهمكون في حديث ما وقال لنفسه:تكون مقارنة غريبة عندما يفكر المرء في كل هؤلاء القوم السعداء ناعمين بالدفء في بيوتهم، بينما نحن نركب هذه الحافلة القديمة التي تتأرجح بنا على الطريق، مبتعدين عن الوطن وربما لن نعود. وجد نفسه يعيد قول هذه العبارة بصوت مسموع إلى الفتاة بجواره. لكنها ردت بحدة:

- لماذا تقول ذلك؟ ما الذي تعنيه يربك؟

هز كتفيه:

- كل ما أعنيه هو أنني لن أعود، هذه هي أول زيارة لي إلالمسيسبي، ولا أظن أن ثمة ما يدعوني إلى أن أعود إلى زيارتها مرة أخرى.

فجأة مالت على ركبتي (هاري)، وكأنها تبذل جهدًا فوق طاقتها وهي تحاول أن تنظر من النافذة، وكانت شفتاها منفرجتان قليلًا، ويداها على الصليب الذهبي الصغير الذي يتدلى من رقبتها على فتحة صدر ردائها المفتوحة على شكل حرف (Y)، ولاحظ (هاري) أن رائحة جسدها لم تكن رائحة عطر معين، وإنما كانت رائحة صابون! وقالت:

- سنمر ببيتي الآن، ستمر ببيتي الآن!

تثاقلت الحافلة نوعا ما ثم أنها انحرفت شرقًا مغادرة المدينة، وعندما عبرت فوق طريق مرصوف ومهدم يعبر الحقول التي في لون الطوب الأحمر المحروق، أشارت الفتاة إلى كوخ شبه مختف وراء صف من الأشجار وقالت:

- هذا هو بيتي، هذا هو.

غمغم (هاري):

- لست أرى أي أنوار.

هزت الفتاة كتفيها:

- لابد أنهما في البلدة اعرف أنهما لن يعودا إلى الدار هذه الليلة.

- وكيف تعرفين؟

- لقد قالت أمي أنها لا تتحمل العودة إلى البيت للعشاء الليلة، إنني أتفهم مقدار حزنها إلى حد ما.

وإذ أرخى الظلام سدوله، أصبح الهواء داخل الحافلة باردًا وأشعل السائق الشاب البدين سخانًا لم يستطع تبديد الجو البارد داخل الحافلة، وكل ما صدر عنه هو رائحة جازولين

حادة تزكم الأنوف، وكان (هاري) يتوقع الحافلة أن تكون مثل القطار وكان يعني أن تكون جيدة الإضاءة، وذلك حتى يمكنه أن يقرأ المجلات التي اشتراها من المحطة، غير أنه فيما عدا دخول البلدة أو التوقف عند محطة بنزين من تلك التي على شكل الكوخ، كانت الأنوار مطفأة على طول الطريق.

وفي ذلك الجزء من الحافلة، حيث كان (هاري) والفتاة يجلسان، لم يكن هناك أكثر من انعكاس الضوء الباهت على سقف الحافلة وكان البرد والظلام قد زحفا إلى (هاري) والفتاة في مقعديهما فاقتربت أيديهما وركبتاهما طلبًا للدفء، وعندما بدأت الفتاة في تنقيل ساقيها، غيّر (هاري) من جلسته كي يريحها.

ولم تكن الفتاة قد قالت شيئًا لمدة ساعة تقريبًا، وخمن (هاري) أنها كانت نائمة. لكنه عندما كان بين الحين والآخر يميل لينظر إلى وجهها، كان يراها تفتح عينيها ترنو إلى الظلام.. بينما علا غطيط الرجل العجوز، وراح يسعل بين الظلال، بينما راح الطفل الرضيع يمص في صوت غير مستحب على الإطلاق، وصعد اثنان إلى الحافلة أثناء وقوفها في المحطة السابقة، وجلسا في المقعدين خلف (هاري) والفتاة يتمتم كل منهما للآخر ببعض الكلمات ثم ينتهي الكلام بقبلة، ولم يتمكن (هاري) من معرفة عما إذا كانت الفتاة تشعر بالرجل العجوز أو بالطفل أو بالعاشقين خلفهما..

وإذ تحركت الحافلة تتهادى في ظلام الليل تطوى الأميال العابرة مسيسبي وآلاباما وجورجيا بعد قليل، ازداد البرد وانزلق (هاري) في مقعده لأسفل، بينما الفتاة – نائمة أو نصف نائمة – قد أدارت وجهها نحوه، وسقطت سترتها عن كتفيها فمد (هاري) يده وأحاطها بها حتى ذقنها وإلى نهايات شعرها الناعم، فهمست له بشيء لم يتمكن من سماعه.. خمن أنها تحلم..لم يكد يغفو قليلًا حتى أوقظه صوت الحافلة وهي تتوقف.. أو هو غياب الصوت وهي تتوقف..! وجد أنهما قد وصلا إلى محطة أخرى.. جناح محطة متواضع، ألحقت به حافلة طعام، بينما أشجار الصنوبر تمتد على جانبي الطريق.. والسماء من فوقهما بلا نجوم..

شعر (هاري) فجأة بتصلب.. وبقلق غريب على نحو مكدر.. وكأنه لابد أن يسير عشرة أميال حتى يزيل هذا التقلص عن ساقيه..وعلى النور الوامض للعلامة التي تعلو حافلة الطعام رأى أن الفتاة قد استيقظت.. فقال:

- ما رأيك في أن نخرج ونتناول فنجانًا من القهوة؟

ولدهشته ردت الفتاة:

- لا بأس.

وإذ نهضا قائمين، قالت المرأة في المقعد خلفهما:

- (إدي)!.. أستحلفك بالله!.. بوسع أن يرانا أحدهم!

أطلق الرجل سبة بينما قهقهت المرأة.. وشعر (هاري) بحمرة الخجل تعلو وجهه وهو يسير في الممشى نحو الباب. تبع الفتاة عبر الوحل الجاف بجانب الطريق..لم يكن هناك ركاب آخرون قد عنوا بالنزول من الحافلة, فكانت حافلة الطعام فارغة باستثناء الساقي وهو عجوز بلا أسنان وسائق الحافلة الذي كان يحتسي فنجانًا من القهوة السوداء. وعندما دخل (هاري) والفتاة كشر لهما عن أنيابه في المرآة المركّبة وراء المنضدة دون أن يرفع فمه عن حافة فنجان القهوة, وسألهما:

-كيف حالكما يا أولاد؟

أجاب (هاري):

-لا بأس!

لكنه لم يخمن ما الذي كان يدور في رأس السائق البدين.. ثم أنه قال للساقي بسرعة:

-فنجانين من القهوة, من فضلك, وبعض الكعك.

قال العجوز وهو يكشف لثته:

-حسنًا يا سيدي.

قالت الفتاة:

-لا أريد الكعك. شكرًا.

ورأى (هاري) أنها راضية كأنه طلبها لها, فقال:

-بل تأخذينها بالتأكيد. اثنتان من هذه الكعكات اللطيفة المحلاة بالسكر.

وابتسمت الفتاة لأول مرة, فأحنى (هاري) رأسه في بلاهة وسعادة على سبيل الرد على ذلك. وفكّر أنه لم يسبق له قط أن رأى مثل هذه الابتسامة الجميلة من قبل..كانت أسنانها صغيرة مستوية. وإذ رفعت ابتسامتها جانبي شفتيها بدت وجنتاها أكثر استدارة واصطباغًا باللون الوردي مما كانت عليه بالفعل. وقال الساقي العجوز:

-هاك الكعكات والقهوة.

وإذ انهمكا في تناول كعكاتهما – التي لم تكن طازجة أبدًا – ويحتسيان قهوتهما – التي لم تكن محلاة – راح (هاري) يتأمل وجه الفتاة في المرآة وراء الغلة المكدسة وزجاجات (دكتور

بير). كانت تقلقه فكرة لم يعرف كيف يصيغها في كلمات.. ولكنه كان يعرف أنه إذا مكث أطول مما يجب, فسوف يدعوه السائق إلى الحافلة. كان يريد أن يقول:من الغريب أننا على هذا النحو, كأننا زوج وزوجة. رغم أن أحدنا لم ير الآخر من قبل!ومن المحتمل أن يكون رأيه قد استقر على أن الفتاة لن تكف عن الابتسام, بل ربما قهقهت لو قال ذلك. سوف تخاف -للمرة الثانية- أن يكون ذئبا لا رجل. وأخيرا, إذ غامر وقال بالإفصاح عن جزء من أفكاره. قال:

-من الغريب أننا هنا على هذا النحو!

ولبهجته قالت الفتاة:

-نعم.. كأننا يعرف أحدنا الآخر مرة أخرى.

فقال (هاري):

-كلا..بل سنفعل..ينبغي أن نفعل..عليك أن تكتبي لي عندما أصل إلى المعسكر.. وعندما أحصل على إجازة مرة أخرى, فربما..

قاطعته:

-لن نفعل.. وليس بمقدورنا أن نتراسل..فأنت لا تعرف أين ستكون..ولا تعرف ما قد يحدث..بل إننا لا يعرف أحدنا اسم الآخر.

ابتسم قائلًا:

-هذا سهل..

فأصبح صوت الفتاة خافتًا إلى درجة الهمس وهي تقول:

-لا ينبغي أن نعرف. إذ لم يرد لنا أن يميل أحدنا إلى الآخر إلى هذا الحد. وأن نلتقي على هذا النحو.

بدأ (هاري) يرتبك, ويتلعثم في حديثه, كما هو دائمًا عندما ينفعل وقال:

-لا أفهم!.. ماذا تظنينني؟.. ذئب؟!.. هل هذا سبب ما تقولين؟.. أنت غاضبة مني لأنك تعتقدين أنني أحاول اصطيادك, أليس كذلك؟

قالت:

-أوه, لا.. كلا بالطبع.. ليس الأمر كذلك.

وبدت خائفة ومرتبكة من رد فعل (هاري).. وارتفع الصليب الذهبي الصغير وتوهج في

الضـوء.

مـدت يدهـا كي تلمـس كمـه.. ولكـن..دار السـائق الشـاب البديـن في مقعـده في تلـك اللحظـة وسـار بطـول حافلـة الطعـام, وذهـب إليهـما وقـال:

-أهلًا يا طائري الغرام الصغيرين!

ثم أردف:

-علينـا أن ننقـل صنـدوق القمامـة القديـم هـذا إلى (أطلانطـا) في وقـت مـا مـن هـذا الأسـبوع كـما تعرفـان!.. ولكـن بالطبـع إذا فضلتـما أن تبقيـا هنـا في هـذا العـش الصغـير الدافـئ, فأنـا عـلى يقـين مـن أن (بـوب) سـوف يجـد لكـما مكانـًا مناسـبًا للنـوم. أليـس كذلـك يـا (بـوب)؟

اكفهر وجه العجوز وقال:

-هذه حافلة طعام محترمة, ولا مكان فيها للنوم.

ضحك السائق البدين وضرب الطاولة بيده:

-حسـنًا يـا (بـوب).. قـل لهـما هـذا.. حسـنًا.. هيـا بنـا يـا طائـري الحـب.. لسـتما أول مـن يتعـين عليهـما أن يقنعـا بحافلـة.

صعـد الـدم إلى رأس (هـاري), وشـعر برغبـة قويـة في أن يلكـم السـائق في أنفـه الناعـم الـوردي, ولكـن بعـد فـوات الأوان.. فدائمًـا لم يكـن ثمـة جـدوى مـن إخـراس امـرئ بعـد الـضرر الـذي تسـبب فيـه.

همست له الفتاة:

-دعك منه.. أرجوك.

وتبعـت السـائق خارجـة مـن حافلـة الطعـام, وصعـدت الدرجتـين العاليتـين مـن الحافلـة, بينـما دفـع (هـاري) للسـاقي العجـوز ثمـن القهـوة والكعكات..وعندمـا صفـق السـائق الوغـد بـاب الحافلـة وراءه بشـدة وهـو يقـول شيء مـا متبرمًـا, لم يهتـم (هـاري) لمـا يقـول ولم يسـأله عـما قالـه أو حتـى يقـول له:اذهـب إلى الجحيـم. كان كل مـا يريـده هـو أن يتحـدث إلى الفتـاة. ولمـا كانـت الفتـاة ترقـد مكومـة عـلى المقعـد الخلفـي, فقـد اضطـر (هـاري) إلى أن يتحـرك مـن فوقهـا ليصـل إلى مقعـد النافـذة.. وعندمـا لمـس إحـدى يديهـا وجدهـا بـاردة..ولاءم نفسـه بـين وضعـه ووضعهـا كملعقتـين.. هكـذا فكـر وهـو يتذكـر عبـارة كان هـو وأخـوه قـد اسـتخدماها وهـم أطفال..وسـحب معطـف الجيـش الثقيـل فوقهـما. رقـدا وجهًـا لوجـه في الظلام..صامتـين.. بينـما سرعـة الحافلـة تتزايد..وعـلى لمعـة الأنـوار الأماميـة لسـيارة مـرت بالحافلـة رأى (هـاري) الفتـاة تنظـر إليـه. قـال:

-لم أعرف أنك متيقظة!

غمغمت:

-لم أستطع النوم..

وتساءل (هاري) عما إذا كان المراد بهذا هو لومه.. وقال:

-آسف.. ما كان يجب أن أنفعل.

قالت الفتاة:

-إنها غلطتي.

رد عليها:

-بل هي غلطتي أنا.

وشعر (هاري) بأنه نصف دائخ من السرور بدفئها..واقترب كل منهما من صاحبه..كان يريد أن يكون كل شيء هو (غلطته) هو..قال:

-من المؤكد أنك جميلة.

ضحكت بنعومة:

-إنك حتى لا تستطيع أن تراني!

هتف بخفوت:

-بل أستطيع.. أستطيع أن أرى بعض الشيء.

ومد (هاري) أطراف أصابعه فلمس طرف أنفها.

-أستطيع أن أرى أنفك ووجنتيك وذقنك.

ودغدغ وجنتيها وذقنها والصليب الذهبي فيما خط حلقها الأبيض الرقيق.

-إنني سعيد لأنك لست نائمة أو غاضبة أو أي من هذه الأشياء.

قالها (هاري) وهو يتساءل ما الذي جعله يقول هذا الهراء.

-وكيف أنام؟ يجب أن أنزل بعد قليل!

شعر (هاري) بنبض معصميها معترضًا..

_كلا.. كلا.. عليك أن تظلي في الحافلة حتى نصل إلى أطلانطا.

هزت رأسها وقالت:

-هذا مثل الكتابة أيضًا.. يجب أن نتصرف كما لو لم نكن قد التقينا أصلا.

ثم رفعت يدها ولمست جبهته وانفه وذقنه وقالت:

-وأنا أيضًا يمكنني أن أرى وجهك.. إنك لطيف.. ولكن على أن أهبط بعد قليل..

وناداهما السائق في الظلام:

-هيا يا طائري الغرام.. انهضا وأشرقا!

خشي (هاري) أن يوقظ صوت السائق كل من في الحافلة ولكن الرجل العجوز استمر يشخر, وظل الوليد يصدر صوت مصه الثابت.. وحتى الاثنان الجالسان وراءه لم يتحركا. وصاح السائق:

-أتريدين أن تتوقفي عند البوابة.. أم تريدين أن تذهبي إلى البلدة؟

فقالت الفتاة بثبات:

-بل عند البوابة.. فثمة من هنالك دائمًا.

قال (هاري):

-لا يمكن أن تذهبي!

قالت الفتاة:

-عليّ أن أذهب.

قال في عناد:

-لا يمكن أن تذهبي!

قالت في رباطة جأش:

-أريد أن أذهب.

قال في يأس:

-أخبريني باسمك؟

لم ترد عليه وتسللت من تحت معطفه ونهضت واقفة في الممشى.. وحاول (هاري) أن ينهض هو الآخر, ولكنها منعته وردته برفق إلى مقعده.. وهمست له:

-ابعد. كما أنت.

ولدهشته شعر -من خلال الظلام- بدنو وجهها ورائحة جلدها ودفء شعرها. قبلت وجنته ثم بعد لحظة- شفتيه ودست شيئًا في كفه.. وفى اللحظة التالية كانت تسير في الممشى نحو الباب.. وسمع (هاري) السائق البدين يقول:

-حسنًا.. اعتقد أن صديقك لا يستطيع أن يتبعك إلى هناك.

وأبطأت الحافلة قليلًا وسارت على جانب الطريق حتى توقفت تمامًا..وقال السائق:

-حسنًا.. انزلي هنا يا أختاه.

وضغط (هاري) وجهه على النافذة, إذ انفتح باب الحافلة وانغلق.. وفى أطياف الأنوار الأمامية الشبيهة بضوء القمر, رأى عمودين حجريين عاليين, بينهما قوس حديدي للزينة.. وداخل القوس قرأ:

مستشفى القديسة آن

(1896)

وفكر (هاري): على الأقل عرفت عنوانها. وإذ ارتجت الحافلة عائدة إلى منتصف الطريق, لمح (هاري) الفتاة تسير نحو البوابة.. فدق بمفاصل أصابعه على النافذة وهو يشعر بجلد أصابعه يتشقق وينزف.. لكن الفتاة لم تستدر.. ولم تكد تصل إلى المدخل حتى ابتلعها الظلام.

تحسس (هاري) الشيء الذي أسقطته الفتاة في يده اليسرى, ورغم أنه لم يتمكن من رؤيته, فقد خمن انه الصليب الذي كانت تلبسه حول عنقها, وأداره بين أصابعه وقبله وكان على وشك أن يضعه في جيبه, لكنه توقف..نهض وسار في ثبات إلى الأمام, وعندما رآه السائق قال:

-لا تخلع قميصك يا فتى.. فلن نصل أطلانطا قبل ثلاث ساعات على الأقل.. والواقع إننا - في هذه العلبة الصفيح- لن نصل إلى هناك قبل عدة سنوات!

فقال (هاري):

-إنما أريد أن أرى شيئًا.

وعندما استدار السائق ينظر إلى الطريق, رفع (هاري) الصليب نحو أحد الأنوار على لوحة الأدوات.. وتبين بعد لحظات اسم الفتاة مكتوب بخط دقيق على ظهر الصليب. وشعر بأن عينيه تطرفان سرورًا..رغم كل شيء فقد أعطته اسمها..! لابد أنها كانت تريد منه أن يكتب إليها!!

قال للسائق بسرعة:

-هل معك قلم رصاص؟:

فقال السائق وهو يسحب واحدًا أصفر اللون من فوق أذنه:

-بالتأكيد.. ولكنك لا تستطيع الكتابة في هذا القارب!

فقال (هاري):

-يمكنني أن أحاول على الأقل.

وجثم على الدرجة العليا من الحافلة وظهره إزاء الباب.. وأخذ من أحد جيوبه مظروفًا ملطخًا وسوّاه على ركبته.. وبالقلم الرصاص المفلول - وهو يرتفع وينخفض بين أصابعه بشكل عشوائي- كتب اسم الفتاة واسم المستشفى واسم البلدة التي كانوا يقتربون منها..

ثم.. وعلى نحو طفولي ساذج.. ولكن بعناية شديدة لا حد لها كتب:

-عزيزتي..

الساحر
دانيلو كيش

يمضي سبعة عشر عاما على معجزة القيامة للسيد المسيح على الدروب الترابية التي تخترق السامرة ثم تغوص ضائعة في رمال الصحراء المغبّرة، ظهر من أطلق عليه مريدوه اسم الساحر، (سيمون) الساحر ومن لقبه أعداؤه-احتقارًا- بالأراجوز. يقول البعض أنه ينحدر، في الأصل، من إحدى نواحي السامرة، فيما يزعم البعض الآخر أنه نزح إلى السامرة من نواحي الأناضول وينبغي القول انه أسهم، عمدا، في شيوع هذه الفتنة لأنه إذا سئل عن مسقط رأسه أجاب بإيماءة من ذراعه شملت في إشارتها نطاقا يبدأ من الكفر المجاور وينتهي حيث الأفق. وكان متوسط القامة، شعره أسود مفلفل، مفرود القامة ولحيته مفلفلة أيضا، يخالطها شيب. انفه الضخم المعقوف يجعل وجهه أشبه بخطم الخروف. كانت له عين أبرز من الأخرى ما يضفي على سيمائه لمسة ساخرة. أذنه اليسرى مزينة بقرط من الذهب: أفعى تبتلع ذنبها. يتمنطق بحبل كتان يستخدمه أيضا في ألاعيب الحواة التي يلجأ إليها أحيانا؟ كان الحبل ينتصب فجأة على نحو عمودي وأمام أعين المتفرجين الذاهلة يتسلقه كما يتسلق شجرة. أو يطوق بها رقبة عجل قبل أن يقطع رأسه بضربة سيف واحدة مبرطما ببعض الأدعية السحرية. يبقى الرأس والجيفة لهنيهات، على رمل الصحراء جنبا إلى جنب؛ وعندئذ يردد الساحر لذلك الدعاء السحري ولكن معكوسا، فيعاود الرأس التصاقه بالبدن فيما يبقى حبل الكتان على الأرض، ويفك (سيمون) عقدة الحبل ويتمنطق به مجددا إلا إذا شاء أحد المتفرجين التأكد من طبيعة جدائله فإذ ذاك يمد إليه طرفا من الحبل المتصلب كأنه يمد إليه طرف عصا، وما أن يمسك به المتفرج الظنّان حتى يرتخي الحبل ويسقط على الأرض مثيرا سحابة من غبار.

يجيد اليونانية والقبطية والآرامية والعبرية، هذا إلى عدد من اللهجات المحلية، وان افترى عليه أعداؤه انه يتكلم هذه اللغات جميعها بلكنة البدو، لم يكن (سيمون) ليعير ألسنة السوء هذه أي انتباه ما حمل البعض على الظن بأنه يعتبر هذه الأقاويل مديحًا. وقيل أيضا انه كان متيقظ الذهن وخطيبا حاذقا غالبًا لخصومه حين يتوجه بخطبه إلى تلامذته ومريديه أو إلى جمهرة من المستمعين الشكّاكين فإذ ذاككانت عيناه تبرقان كنجمين، كما يصف أحد تلامذتهكان له صوت شيطان ونظرة ألعبانكما يصف أحد خصومه.

يلتقي الساحر (سيمون) في أسفاره على الدروب المتشابكة المتشعبة من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب، أعدادا غفيرة من المبشرين وغالبا ما تتقاطع دروبهم فتلاميذ يوحنا وبولس، ويوحنا وبولس نفساهما ينشرون تعاليم يسوع الناصري. اثر نعالهم في اليهودية

والجليل والسامرة يصادفها (سيمون) عند مدخل البلدة. تبدو البلدة ناعسة في تلك الساعة من اليوم حيث يسمع نباح كلب وترانيم شفاء الخرفان. ثم يعلو من البعيد صوت رجولي، جهوري وجذّاب، يتسلل إلى القلب ببطء: إنهم الرسل الذين يبشرون بإله واحد قدير. يلوذ (سيمون) بكوخ ريثما يبتعدون، ثم يدخل البلدة بدوره قبل أن تزاحم الخلق.

عندئذ يبدأ بالتبشير هو أيضا، يتجمهر الأهلون من حوله متبرمين.لقد سمعنا للتو كلا من بولس ويوحنا، ويقولون فقد نلنا من الخطب مئونة عام وأزيدلكن الساحر يقولإني لست رسولا، إني من ظهرانيكم. هم يضعون الأيدي عليكم فتمنحون روحا قدسا! أما أنا فأمد لكم يدي لانتشلكم من الغبار. ويرفع عندئذ ذراعيه نحو السماء فينحسر كماه عن يديه البيضاوين الجميلتين وأصابعهما الرفيعة كما تكون أصابع العاطلين ومحترفي ألعاب الخفة.إنهم يعللونكم بالخلاص الأبدي أما أنا فأعللكم بالمعرفة. ولينضم إلي منكم من يرغب. كان الناس قد اعتادوا أمثال هولاء المتشردين، من كل حدب وصوب، الهائمين في الآفاق، القادمين خصوصا من الشرق، أزواجا وفرادى، ويتبعهم صحب في بعض الأحيان بعضهم يترك الركوبات كالبغال والجمال عند مدخل البلدة، أو عند سفر الجبل أو في الوادي المجاور، البعض يدخل ممطيا دابته، وينصرف، دون أن يترجل عنها، إلى أداء عروضه البهلوانية، ولكن منذ نحو خمسة عشر عاما، منذ وفاة ناصري ما، أصبح الوافدون من الشباب المتعافين ذوي لحى مشذبة، ممسكين بعصا الرعاة، زاعمين جميعهم أنهم رسل الهداية. نعالهم مكسوة بغبار الأسفار وخطبهم متشابهة كأنهم درسوا جميعا على كتاب واحد: كما أنهم يتخذون جميعا من نفس المعجزة التي شهدوها مرجعا: لقد أحال الناصري أمام أعينهم الماء خمرا وأطعم جمهرة من الناس بضع سمكات. ويزعم بعضهم انه رآه بأم عينيه صاعدا إلى السماء في كنف نور عظيم مرتقيا إلى القبة السماوية مثل حمامة. وكان العميان الذين يرافقونهم يشهدون بأن هذا النور هو الذي أعمى أبصارهم لكنه منحهم في المقابل نعمة النور الرباني. يعللون المتصدق عليهم بكسرة خبز وزق من النبيذ بالحياة الأبدية والنعمى، وعندما يطردهم القرويون من بيوتهم ويطلقون الكلاب في أثرهم، كانوا يتوعدونهم بجهنم الأبدية حيث تشوي الأبدان بنار هائلة، كما تشوى الخرفان المخوذقة.

هذا لا يعني أنه ليس من بين هؤلاء المبشرين من يجيد الخطابة ومن له موهبة حيال توجس العامة والسلطات الأكثر تشككًا، في إيجاد الأجوبة الشافية عما لا يحصى من أسئلة محيّرة التي ابعد من شؤون النفس إلى أحكام البدن والعمل في الحقول وتربية الحيوان. كما كانوا يشفون الفتيات من بثورهم ويقدمون لهن النصح حول أساليب الحفاظ على تعففهن بكافة السبل، ويشرحون للمسنين كيف التهيؤ لدنو النهاية وأي كلمات هي الأول بالتلاوة، عندما تخبو ذبالة العمر، وكيف يشبكون الذراعين ليصبح انزلاقهم أيسر في الممر الضيق المفضي إلى النور، وينصحون الأمهات بما يشفين به مواليدهن دونما حاجة إلى

النطاسيين النصابين، أو بما يجنب أبناءهن ويلات الحملات العسكرية. وكل ذلك بالمجان، فكيف تحتسب أجرا كسرة الخبز تلك التي يقبلونها بامتنان أو كوب المياه العذبة التي يشربونها بجرعات صغيرة مغمغمين بكلمات غامضة غير مفهومة. هكذا كان المبشرون يتوافدون من جهات العالم الأربع، بلغات مختلفة وتقاليد جديدة، بلحى أو من دون لحى، لكنهم يبشرون، برغم الاختلاف بأمر واحد وحيد: معجزات الناصري.

يهبهم الناس الخبز والماء، مقابل الحياة الأبدية، ويصفون لهم بلادا عجائبية ينتقلون إليها بعد الموت: لا صحراء، ولا رمال ولا أفاعي ولا عناكب، بل شجر نخيل عريض السعفات، وينابيع ماء باردة عند كل موطىء قدم وعشب يصل حتى الركبتين لا بل إلى ما فوق الركب، حيث الشمس لينة والليالي مثل النهارات والنهارات إلى الأبد. هناك ترعى الحيوانات الطيبة، وتنتشي الأزاهير بعطرها في كل الفصول، هناك الربيع سرمدي، لا غربان ولا نسور، بل بلابل تصدح بالشدو طيلة النهار. وهكذا إلى أبد الآبدين.

سخر القوم من جنات عدن، التي ظهرت فجأة، فمن أين للشمس أن تشرق إلى الأبد وللحياة أن تكون خالية من الألم والموت؟- والتي كان يصفها هؤلاء الشبان ذوو العيون الزرقاء، باقتناع وحماسة، لكنها مع الوقت تحولت إلى حقيقة بدأ الناس يؤمنون بها. فعندما تتردد كذبة بإلحاح يبدأ الناس بالإيمان بها. ذلك أن الإيمان ضروري للشعب. وهكذا انتعل عدد من الشبان أخفا ذات سيور طويلة وارتحلوا معهم فكان بعضهم يعود إلى البلدة بعد سنتين أو ثلاث من الغياب، والبعض بعد عشر سنوات، مرهقين من تجوال لا ينتهي، وقد خالط الشيب لحاهم. ويصبحون قادرين على مخاطبة الناس برقة شابكي الأكف فوق بطونهم. يتحدثون عن معجزات الناصري وعن تعاليمه، ويبشرون بسنن جديدة، منصرفين عن الشهوات الدنيئة، مرتدين أسمال. ولكن إن بدا الارتياب، فالويل لمن يتجرأ على التشكيك في الحياة الأبدية. فإذ ذاك يسترسلون بعباراتهم البليغة المعنفة بعباراتهم النارية التي تهدر بالوعيد، وقصاص التكفير. كانوا يجيدون مقاومة المتشككين بالوعود والوعيد وكلما اتسعت رقه نفوذهم وازداد عدد مريديهم ازدادوا ثقة وحدة. وكان الناس ينضمون إليهم بأعداد متزايدة لأنهم كانوا يكافئون الأتباع ويعاقبون العصاة.

في ذلك الزمن، ظهر الساحر (سيمون).

كان (سيمون) يبشر بأن الرسل ليست على شيء وانم يهددون باله يبتلي من لا يطيع بالأوبئة والوحوش المفترسة والحيّات والعناكب السامة والنمور والضباع، وبالبرق والرعد والطاعون والجذام والزهري والأعاصير والعواصف والمجاعات والطوفان والكوابيس والأرق، بأحزان الصبا وعجز الشيخوخة. وإذا كان قد أنعم على سلفيينا المغبطين، بجنان الفردوس فقد حرمهما من أشهى ثمارها، الثمرة الوحيدة التي يستحقها الإنسان، والوحيدة التي بها

يتميـز الإنسـان عـن الهـوام والجـمادات - إنهـا معرفـة الخـير والشر.وعندمـا أراد سـلفنا المسـكين، مدفوعـا بالفضـول لا أكـثر، امتـلاك هـذه الثمـرة، مـاذا فعـل كان عقابـه مـن الإلـه العظيم؟صـاح (سـيمون) مترجحـا فـوق برميلـه المتخلخل.انتـم تعلمـون جيـدا، ألا يعظكـم بذلـك، كل يـوم، رسـله ومريـدوه؟ لقـد طـرده كأنـه مصـاب بالطاعـون أو كأنـه مجـذوم، طـرده بـلا رأفـة متوعـدا إيـاه بالعـذاب. انـه يدعوكـم إلى العبوديـة عوضًـا عـن الحريـة، وعـوض الثـورة يدعـو إلى الخضـوع، والى الزهـد عـوض الشـهوة، والى الديـن بـدل المعرفـة.

كان النـاس يسـمعون كلامـه بحـذر ولا مبـالاة، عـلى غـرار مـا يصغـي النـاس عـادة إلى الدعـاة: بحثـا عـن معنـى خفـي خلـف العبـارات الغامضـة. ذلـك أن النـاس كانـوا قـد اعتـادوا توسـل المقتدريـن. وذوي السـلطان والقديسـين، صيـغ المحابـاة والوعـود، لمـا يضمرونـه مـن وعيـد. لـذا يقيمـون عـلى التريـث ريثـما يفضـح الدعـي نفسـه ويـصرح آخـر الأمـر بسـبب مجيئـه والغـرض مـن أقوالـه الباطلـة هـذه، ومـن خطابـه الغامـض المجـرد مـن كل معنـى. ولـذا يقيمـون عـلى الإصغـاء، ورجاؤهـم أن يلجـأ هـؤلاء، آخـر الأمـر، إلى التدليـل عـلى صحـة رطانتهـم بألاعيـب حـواة أو ادوار مـن الخفـة.

واسـتمر (سـيمون) السـاحر يبـيّن كيـف أن الدعـاة يقولـون كلامـا غـير منطقـي عـن الـه وهمي.وبأنهـم يعللـون بالمسـتقبل، بالمسـتقبل الـذي لا وجـود لـه....

لم يلحـظ (سيمون)، أو تظاهـر فقـط بأنـه لم يلحـظ، جمهـرة النـاس وقـد تفوقـت مـن حولـه وانـه لم يبـق مـن السـامعين سـوى هـؤلاء الذيـن يزعمـون أنهـم أتباعـه، فيـما راحـت (صوفيـا)، امرأتـه الوفيـة، تمسـح جبينـه وقـد ناولتـه إبريقـا فـتر مـاؤه برغـم حرصهـم عـلى ابقائـه مدفونـا في الرمـل. وكانـت امـرأة في الثلاثـين مـن عمرهـا، ضامـرة الجسـم، ذات شـعر غزيـر، وعينـين سـوداوين مثـل حبتـي عنـب، وكانـت تتشـح فـوق ثوبهـا الخفيـف، بمشـامل مـن حريـر ملـون جـاءت بهـا بـلا ريـب، مـن الهنـد. وإذا كان أتبـاع (سيمون) يرمـون إليهـا بوصفهـا تجسـيدا للحكمـة والحسـن الأنثـوي في ذروة نضوجـه، فـان الدعـاة الجـدد يشـيعون بشـأنها عددا مـن الشـائعات، فيلمحـون إلى أنهـا امـرأة مثـيرة ماكـرة راقـت في عينـي رفيقهـا الخبيـث. ولم يكـن (سـيمون) لينكـر ذلـك. بـل إن ماضيهـا المشـين كان يعطـى، في أحاديثـه أمثولـة للتدليـل عـلى طغيـان القـدر وقسـوة هـذا العـالم. وفي الإثنـاءأردف (سـيمون) قائـلا، باصقاجرعةمـن الميـاه الفاتـرة، وقـد لمـح رهطـا مـن المريديـن بمشـامل بيضـاء يظهـر فجـأة، مـن ظـل البيـوت في الإثنـاء، تحـت كفـن السـماوات المظلـم، وبـين أسرار الأرض.عندئـذ قفـز (سـيمون) مـن عـلى برميلـه المتأرجـح وانتصـب، وجهـا لوجـه، قبالـة مناظـره الـذي يدعـو إلى اللـه. وقال:سـأصعد تـوا إلى السـماء.وأجاب المؤمـن في تحديه:كـم أود أن أراك فاعـلا

قـال (سـيمون):إنني لـن أتمكـن مـن بلـوغ السـماء السـابعة، غير أني سـأجتاز السـماوات السـت

الأخرى. وحده الفكر قد يبلغ السماء السابعة، لأن كل ما فيها نور. والسعادة محرمة على الإنسان الفاني.

قال احد الأتباع:كفانا ثرثرة، إن بلغت تلك الغيمة هناك نؤمن بكلامك.

وإذ ذاع في أرجاء القرية أن أمورا عجيبة غريبة تجري عند مدخل القرية، بقرب الزيتونة المسنة، وأن هذا الثرثار سيؤدي أخيرا، إحدى ألاعيب الخفة، تجمهر الناس مجددا من حولهم.عد إلينا بسرعة، صاح أحد المتفرجين ساخرا، ولكن اترك لنا شيئا مثابة ذكرى!. فما كان من (سيمون) إلا أن حل حبل الكتان عن خصره ووضعه عند قدميه.هذا كل ما أملك.

قالت (صوفيا):خذ هذا الوشاح. فالجو بارد هناك كأنك، في قعر بئر. ولفت المنديل حول عنقه .

قال المؤمن:حتام ننتظر؟

فرد أحد الأتباع متهكمًا:ريثما تغرب الشمس فيداري خيبته بجنح الليل.

قبّل (سيمون) جبين (صوفيا) مودّعًا، فقالت:وداعًا، واحرص على اتقاء البرد.

فجأة قفز (سيمون)، كما يقفز ديك، مضموم القدمين، محاكيا بيديه رفرفة سخيفة، باعثا بخفيه سحابة غبار من حوله. فصاح أحدهم ممازحا:كوكوديكو!. انه فتى ذو وجه أمرد ماكر العينين اللتين تستحيلان أخدودين مائلين عندما يضحك. يلتفت (سيمون) إليه فيقول:إنه ليس بالأمر اليسير يا بني، فكل جسم، حتى أخف ريشة، تجذبه الأرض اليها. فما بالك برمة بشرية ترن نحو مائتي رطل.

يحاول المؤمن جاهدا أن يكتم ضحكا حيال هذه المناوشات الكلامية، فيحجبه طي لحيته. و أردف الممازح قائلا،لو كنت قادرا على التحليق كما تفلسفت. لأصبحت الآن بين الغيوم.

قال (سيمون) وفي صوته رنة حزينة:إن الكلام أيسر على المرء من التحليق، أقر بذلك، فأنت مثلا، تجيد التهكم في حين أنك لم تتمكن، طوال حياتك البائسة، أن ترتفع عن الأرض مقدار متر واحد... أعني الآن استجمع طاقتي وأفكاري. متنكرا ما استطعت بهول الوجود الأرضي، ولإكمال العالم، وسراب الحيوات الفانية، بالمفترسات وهي تفترس بعضها بعضا، بالأفعى التي تعض الجدي الساعي بين الأشواك، بالذئاب التي تذبح الحملان، بالسرعوفة التي تلتهم ذكرها، بالنحلات التي تموت بعد لسعتها، بمخاض الأمهات اللواتي يلدننا، بجراء الهر التي يرميها الأولاد في النهر، برعب الأسماك في جوف الحوت، بهلع الحوت المشطط على الرمال، بحزن الفيل الذي يموت من الشيخوخة، ببهجة الفراشة العابرة، بجمال الزهرة الخادع، بوهم الوطء العابر، بفظاعة البزار المنثور، بعجز النمر المسن، باهتراء الأسنان في الفم، بأكوام أوراق الشجر اليابس التي تكسو أرض الغابات، بزعب فرخ الطير الذي تدفعه

أمـه إلى خـارج العـش، بـآلام دودة الأرض الجهنميـة التـي تسـفعها أشعة الشـمس كأنهـا عـلى نـار حاميـة، بفـراق العاشـقين المـؤلم، بفظاعـة المجذومـين، بالتحـول البغيـض الـذي يطـرأ عـلى المـرأة، بالجـراح، بأهـوال يراهـا العميـان.

ورأوا فجـأة جسـم (سـيمون) السـاحر النحيـل الفـاني يرتقـي عـن الأرض، يرتفـع مسـتقيما إلى أعـلى فأعـلى، خابطـا برفـق بذراعيـه كـما تخبـط السـمكة بزعانفهـا، رويـدا رويـدا، بحركـة شـبه خفيـة، وخصـلات شـعره ولحيتـه تتطايـر فيـما هـو يحلـق متمهـلا فيـما هـو يطـير. لم تسـمع صيحـة واحـدة، لم تسـمع زفـرة واحـدة، وسـاد صمـت مباغـت، كانـت الجمهـرة سـاكنة بـلا حـراك، كأن مـن فيهـا جمـد في مكانـه وشـخصت الأبصـار نحـو السـماء، حتـى العميـان شـخصوا بمحاجرهـم الفارغـة نحـو الأعـلى. اذ أدركـوا، حيـال الصمـت الشـامل، حقيقـة مـا يجـري مـن حولهـم، والى أي جهـة شـخص الجميـع والى أي ناحيـة التفتـت العيـون. والى أي صـوب اسـتدارت الـرؤوس.

لبـث المؤمـن، هـو أيضـا، جامـدا، فاغـر الفـم مذهـولا. لم يكـن مؤمنـا بالمعجـزات، الا معجـزات الايمـان، ولا يمكـن للمعجـزة إلا أن تكـون صنيعـه هـو السـاحر الوحيـد، الـذي أحـال المـاء خمـرا، ومـا تبقـى ليـس سـوى ألاعيـب خفـة، وخيـوط غـير مرئيـة. ولم يعـط الإتيـان بمعجـزة سـوى للمسـيحيين، ومـن بـين المسـيحيين جميعـا، فقـط لمـن كان إيمانهـم صلبـا مثـل صخـرة، كمثـل إيمـان المؤمـن بالنـاصري.

لكـن الفـزع الرهيـب تملّكـه لحظـة لأن مـا جـرى لا يعقـل إلا أن يكـون وهـم يصـم الحـواس، مثـل دجـل الموالـد المصريـة؛ ففـرك عينيـه وألقـى نظـرة إلى حيـث كان يقـف -أو إلى حيـث ينبغـي أن يكـون مـازال واقفـا- (سـيمون) السـاحر. لم يكـن هنـاك سـوى حبـل الكتـان ملتفـا كأفعـى والغبـار الـذي يرسـب رويـدا، الغبـار الـذي خلّفـه (سـيمون) باسـطا ذراعيـه كجناحـين بقفـزه كديـك هائـج، ثـم رفـع عينيـه محدقـا بمـا تحـدق بـه كل العيـون المرفوعـة ورأى السـاحر مجـددا. فقـد بـدا شـخصه الداكـن بوضـوح مختفيًـا في غيمـة بيضـاء، وبـدا شـبيها بنـسر عمـلاق، سـوى أنـه لم يكـن نـسرا، بـل رجـل في هيئـة رجـل، فالسـاقان سـاقا رجـل، والذراعـان ذراعـا رجـل والـرأس رأس رجـل، وان تعـذر عـلى الـرائي التثبـت مـن أن الرجـل الـذي بـات محاذيـا للغيـوم هـو (سـيمون) نفسـه لاسـتحالة التدقيـق في ملامـح وجهـه.

وطـرف المؤمـن عينيـه يحـدق بالغيمـة البيضـاء لعلـه يبـدد الوهـم الـذي خلـب أنظـار الحاضريـن جميعـا. فـإذا تصـوّر شـخص هـذا الخيـال الداكـن الـذي يقـترب مـن الغيـم والسـماء هـو حقـا (سـيمون)، فهـذا يعنـي أن كل معجـزات هـذا الرجيـم ليسـت سـوى واحـدة مـن حقائـق هـذا العـالم، أو يكـون العـالم لغـزا، ويكـون الإيمـان وهـما، فتفقـد حياتـه كل مرتكـز، ويغـدو الإنسـان مجـرد لغـز، مـن بـين ألغـاز عديـدة، وتغـدو وحـدة العـالم، والخلـق في حكـم المجهـول.

راح يصرخ بأعلى صوته:أيها الناس، اسمعوا وعوا!

لم يصغ إليه احد. كان الحشد مبهورًا وسط هبوب الغبار. لكنه صاح مجددا بأعلى صوته:يا أهل السامرة، الحق ما أقول لكم.

استدارت نحوه بعض الرؤوس من بين العميان أولا، فتابع:لقد رأيتم ما رأيتم وخدعتم بوهم الحواس: إن هذا الألعبان الذي اكتسب مهاراته في مصر...

قاطعته طوفيا:لقد وفى بوعده.

تابع المؤمن قائلا دون أن يلتفت إليها:ريثما أعد العشرة، سيسقط جسده مهشما على الأرض التي طالما نبذها؛ سيسقط مثل حجر عند أقدامكم، سوية التراب الذي لن ينهض عنه أبدا... ذلك أنها إرادة الله الواحد... واحد...

لكنه، برغم ذلك، طار، وجاءك بالبرهان على انه ساحر.

إثنان...

حتى لو هوى، لقد ربح الرهان

كان المؤمن قد أبقى عينيا مغمضتين فيما يعد، كأنه بذلك يريد أن يتحايل على الوقت. وعندها سمع صراخ المحتشدين ففتح عينيه، وإذا باللطخة الضئيلة السوداء تعاود الظهور من حيث توارت قبل قليل، هاوية من لدن غيمة متكاثفة شيئا فشيئا. كان جسم (سيمون) يهوي باتجاه الأرض، كحجر، مدوما على ذاته متقلبا، طولا وعرضا. كان الساحر متخبطا بخفق ساقيه وذراعيه، مرئيا بوضوح مطرد. راح الناس يتراكضون في كل اتجاه خشية أن يسحقها ثقل هذا الجسد الهابط توا من حجب الغيوم. بعد ذلك حدث كل شيء بسرعة، فكما يسقط جراب من الرمل المبلول من عربة عتّال، أو كما يهوى حمل أرخته براثن نسر أثناء تحليقه، سقط جسد (سيمون) الأفّاق محطّمًا على الأرض.

كانت البغي (صوفيا)، رفيقته الأثيرة المخلصة، أول من اقترب منه. أرادت أن تغطي عينيه بالوشاح الذي لفت عنقه به، لكنها لم تقو على ذلك حين اضطرت إلى التراجع ترتعد فرائصها لهول المنظر الذي باغتها، الجمجمة مهشمة، والأطراف محطمة، والوجه غارق في الدم ممتقع، والأحشاء مبتورة منتشرة كبقرة مبقورة، كان (سيمون) راقدا كومة من العظام المحطمة والمسحوقة، الممزوجة بلحم مهروس.

وصرخت البغي في الجميع:هذا أكبر برهان على تعاليمه (هو) فالإنسان صعود وسقوط!

ثم ولت في اتجاه درب الصحراء وهي تعوي كالكلاب.

***

في رواية أخرى قيل أن الساحر لم يعن بتحديه الله أو السماء السابعة بل الأرض، وهم

الأوهـام. وقيـل إنـه كان مسـتلقيا عنـد فيء زيتونـة، متوسـدا سـاعديه. خلـف رأسـه، شـاخصا بـصره إلى السـماء، يتأمـل. وإلى جـواره جلسـت (صوفيـا). ولا نعـرف مـدى صحـة هـذه المقولـة، غـير أن الزيتونـة وظـل الزيتونـة الـوارف يبقيـان، بـين الروايـات المتعـددة، العنصريـن المؤكديـن الوحيديـن في هـذه الحكايـة الغريبـة التـي تـدور حـول معجـزات (سـيمون)، وشـاءت المصادفـة أن يفـد المؤمـن وأتباعـه عـلى حـين غـرة. ولعـل رقـدة (صوفيـا) غـير اللائقـة هـي التـي أثـارت حنـق الوافديـن حـين بـادر أحـد أتبـاع المؤمـن وقـد أشـاح بوجهـه عنهـا اجتنابـا للمعصيـة، إلى سـؤال (سـيمون): أي الاحتمالـين هـو المسـتحب، أن تبـذر الحقـل عـلى الأرض وتحصـد في السـماء، أم أن تـذرو القمـح أدراج الريـاح - وهـو سـؤال لاهـوتي لا يحتمـل لبسـا في الإجابـة.

أسند (سيمون) جذعه المسترخي إلى احد مرفقيه، دون أن ينهض، وأجابه بازدراء:

كل أرض، هي أرض أينما بذل البزار. واختلاط الرجال والنساء هو القربان الحق.

سأله المؤمن في إنكار:كل رجل وكل امرأة؟

المـرأة هـي مصدر السـعادة، وأنـت، ككل رجـل مخبـل، تصـم أذنيـك لكيـلا يصمهـا الكفـر وتفـض أو تلـوذ بالفـرار حـين لا تجـد مـا تقولـه.

تبـع ذلـك سـجال لاهـوتي مطـول حـول قضايـا اللـه والعقـاب والتوبـة ومعنـى الحيـاة والتخـلي والـروح والجسـد، وكل هـذا مصحـوب ببراهـين وأدلـة وحجـج الأصـول والشـواهد بالعبريـة والقبطيـة واللاتينيـة.

قال المؤمن:الروح هي الألف والياء، والخير هو ما يجيزه الله.

قـال (سـيمون) مناظرًا:الأعـمال ليسـت خـيرة أو سـيئة في حـد ذاتهـا، فالبـشر هـم الذيـن يضعـون سـنن الأخـلاق وليـس اللـه.

-إن الإحسـان هـو عتبـة الأبديـة والمعجـزات هـي البرهـان للذيـن لم تـبرأ قلوبهـم بعـد مـن الشـك.

-أيسع إلهكم أن يجعل عوضا للضير الذي يلحق بالعذارى؟

قـال المؤمـن وقـد أحرجـه السـؤال في وجـود (صوفيـا) التـي ارتسـمت عـلى ثغرهـا ابتسـامة غامضـة: لـه القـدرة الروحيـة.

سأل (سيمون) في عناد:وماذا عن القدرة المادية؟!

قال المؤمن بعد تردد:إنه من شفى المجذومين. ومن...

قاطعه (سيمون) قائلا:ومن أحال الماء خمرا، الخ الخ...

وهتـف وقـد أغضبـه عنـاد المؤمـن وتعللـه المتـمادي بمعجـزات اللـه وأولياؤه:بامـكاني اخـتراع المعجـزات مثـل ناصريكـم.

-كلام كبير لا فعل.

قال أحد اتباع المؤمن:لقد تعلّم كل حيل الدراويش في موالد مصر، فاحذر ألاعيبه.

صـاح (سـيمون) في عناد:وناصريكـم أيضـا - هـذا الـذي لا يحـضرني اسـمه الآن - قـد يكـون تعلـم السـحر في مـصر.

-لقد تكررت معجزاته.

قـال (سـيمون) بعـد تفكـير طويل:ادفنـوني تحـت سـت أذرع مـن الـتراب، وسـأبعث حيـا بعـد ثلاثـة أيـام عـلى غـرار...

-يسوع، أنت تعلم جيدا ما اسمه.

-أجل، تماما مثله.

وعـلى الأثـر هـرع أحـد أتباعـه إلى قريـة مجـاورة وعـاد برفقـة جمـع مـن الحفاريـن الذيـن كانـوا يحفـرون بـئرا في الـوادي، وكانـوا يحملـون عـلى أكتافهـم الفـؤوس والمعـاول والمعـازق. وخلفهـم هـرع سـكان القريـة جميعـا، كل مـن يسـتطيع الانتقـال، لأن خـبر مجـيء السـاحر المـصري الـذي سـيعيد المعجـزات قـد سرى في الأرجـاء كالنـار في الهشيم. وعـلى عمـق سـت أذرع بـاشر الحفـارون عملهـم، وسرعـان مـا انكشـفت الطبقـة الرمليـة العليـا عـن طبقـة أكـثر صلابـة مـن الحـصى، تلتهـا طبقـة مـن الـتراب الجـاف الأصفـر، كانـت المعـاول تفتـت الطـين الـذي مـازال يحفـظ أثـر الجـذور. وكانـت ديـدان الأرض التـي تنهـال عليهـا النصـال المسـننة تقطيعـا، تتلـوى منكمشـة تحـت أشـعة الشـمس الحارقـة. وكانـت (صوفيـا) تقـف صامتـة إلى جانـب الحفـرة التـي يتعاظـم عمقهـا، فيـما راح (سـيمون) كأمـير يـشرف عـلى حفـر بـئر في أرض أو صـب ركائـز داره الجديـدة، يغـدق بتعليماتـه عـلى الحفاريـن ويقيـس بخطواتـه الواسـعة طـول الحفـرة وعرضهـا، مطمئنـا إلى عمقهـا المطلـوب بوسـاطة حبلـه الكتـان، ساحقا الرمـل والـتراب بـين أصابعـه. وحـين أعـد التابـوت - أربعـة ألـواح خشـنة مـن خشـب الأرز العطـر جمعـت عـلى عجـل بواسـطة مسـامير مـن خشـب - خلعـت (صوفيـا) وشـاحها ولفتـه حـول عنـق (سـيمون). وقالـت:

قاع الحفرة بارد مثل قاع بئر.

عندئـذ ابتعـد (سـيمون) عنهـا وبانحنـاءة مباغتـة رفـع التابـوت بـين يديـه ورجـه بقـوة كأنـه يـود الاطمئنـان إلى متانتـه، ثـم قفـز إليـه بخفـة واسـتلقى في داخلـه. ثـم اقـترب العـمال واثـر إشـارة منـه راحـوا يدقـون المسـامير الغليظـة بواسـطة الفـؤوس. همـس المؤمـن في اذن احـد اتباعه.

فاقترب هذا الأخير وبعد التثبت من متانة المسامير هز برأسه موافقا. ورفع يده التي سرت رعدة فيها، فمرر العمال الحبال من تحت التابوت وأنزلوه بتأن في الحفرة. لبثت (صوفيا) وحدها على مقربة، ساكنة بلا حراك. راح التراب ينهال على غطاء التابوت بوقع يشبه قرع الطبل المتباعد. ولم تمض سوى هنيهات حتى علت كومة من التراب في مكان الحفرة بقرب الزيتونة المسنة، كأنها جبل رمل. واعتلى المؤمن تلة التراب وباسطا يديه نحو السماء راح يتلو الصلوات بصوت خفيض. مغمض العينين، منحني الرأس، بدا كأنه رجل يصغي إلى أصوات تأتي من بعيد. وخلال اليوم نفسه محت رياح آثار الأقدام العارية وخفاف الجمال على الرمل المتماوج. وبعد ذلك بثلاثة أيام -وكان يوم جمعة- نبشت الحفرة ورفع التابوت منها. كانت أعداد المتجمهرين تفوق أعداد الذين تجمهروا يوم الدفن، لان أخبار الساحر، الدجّال، صانع المعجزات قد شاعت حتى بلغت أصقاعا بعيدة. وكان كل من (صوفيا) والمؤمن وأتباعه أقرب إلى الحفرة من سواهم لأن التحكيم منوط بهم.

اجتاحتهم في البداية رائحة نتانة فظيعة، رائحة تليق بجهنم. ثم لاحت لأعينهم تحت التراب، ألواح التابوت الداكنة كأن الصدأ يكسوها. نزع الحفارون المسامير ورفعوا الغطاء، بدا وجه (سيمون) الساحر كتلة بلا شكل كالطاعون، وفي محجريه ديدان ناغلة. وحدها أسنانه الصفراء بقيت على حالها، وقد كز بعضها على البعض كما في تكشيرة أو كأن الميت يضحك..غطت (صوفيا) عينيها وصرخت. ثم استدارت بغتة نحو المؤمن وقالت بنبرة أرعدته:

هذا أيضا برهان على صحة تعاليمه (هو)..فحياة الإنسان سقوط وجحيم، والعالم في عهدة الطغاة، اللعنة على الطغاة جميعًا.

أفسح المحتشدون لها في الطريق وشقت الجمهرة الصامتة باتجاه الصحراء وهي تنتحب. وأخيرًا عاد جسدها الفاني إلى ماخور ما، أما روحها فهامت نحو وهم جديد.

العرجاء
جي دي موباسان

يا للذكريات القديمة! إنها تلح علينا ولا نعرف كيف نهرب منها! والذكرى التي تلوح لي الآن قديمة جدًا..لا أدري كيف بقيت في عقلي بهذه الحدة وهذا الوضوح!

لقد شاهدت بعد هذه الذكرى أحداثًا جسام وفظائع أشد شناعة وكوارث أفظع وأشد هولًا.. إلا أن الشيء الوحيد الذي يثير حيرتي هو أنه لا يمر يوم.. يوم واحد بدون أن أرى صورة الأم (كلوشيت) أمام عيني..صورتها كما عرفتها فيما سبق..منذ وقت بعيد..وقتها كنت في العاشرة أو الثانية عشر من عمري..

الأم (كلوشيت) هي خياطة عجوز كانت تأتي إلى بيتنا مرة كل أسبوع.. كان هذا اليوم هو يوم الثلاثاء..كانت ترفو ثيابنا وتصلح ما يمكن إصلاحه منها..وكان أبواي يقيمان في إحدى هذه البيوت الريفية التي أصطلح الناس على تسميتها قصورًا, بينما هي في واقع الأمر لا تعدو أن تكون أكثر من مجرد بيوت ريفية عادية ذات أسطح مائلة تجمع بينها أربع أو خمس مزارع.

أما القرية- وهى قرية كبيرة- ربما هي مركز, تبدو على بضع مئات من الأمتار, محشورة حول الكنيسة- وهى كنيسة مشيّدة بالطوب الأحمر الذي تبدل لونه مع مرور الوقت وأصبح أسود.

كانت الأم (كلوشيت) تأتي إلى البيت كل يوم ثلاثاء إذن, فيما بين السادسة والنصف والسابعة صباحًا.. ثم أنها تصعد رأسًا إلى غرفة الثياب وتقوم بعملها في الحال.

هذه المرأة كانت طويلة القامة, نحيلة الجسم, مشعرة, ينبت الشعر في كل مكان في وجهها بشكل عجيب, حتى أنها لها لحية تدعو إلى الدهشة..وتبدوا بخصلات شعرها الطويلة المجعدة كما لو أن مجنونًا قد زرعها فبدت أشبه برجل يرتدى ملابس تشبه ملابس النساء. كان الشعر ينبت فوق أنفها وتحته وحوله وفوق ذقنها ووجنتيها.. وكان حاجباها كثيفين وطويلين بشكل واضح.. ولونهما اشهب كأنهما شوارب نمت في مكان خطا!

وكانت تعرج!.. ليس ذلك العرج الذي يعرجه العاجز الكسيح ولكن عرج يبدو كأن سفينة تتأرجح عند المرفأ.. وحين تميل ببدنها الضخم المعروق المعوج على ساقها السليمة.. كان يبدو عليها أنها سوف تختفي في حفرة في باطن الأرض! وكلما رأيتها وهى تمشى تذكرت مشهد العاصفة, لأنها كانت تتأرجح دائمًا!

كانت تغطى رأسها بقبعة كبيرة بيضاء لها أشرطة تتدلى خلف ظهرها, ويبدو كأنها

تقطع الأفق من الشمال إلى الجنوب ومن الجنوب إلى الشمال في كل حركة من حركاتها.

كنت أهيم حبًا بهذه المرأة!

حتى أنني ما أكاد أصحو من نومي حتى أهرع إلى غرفة الثياب, وهناك أجدها جالسة ترفو شيئًا من الملابس, وتحت قدميها سجادة صغيرة, لكنها ما أن تراني حتى ترغمني على أن آخذ هذه السجادة وأجلس فوقها حتى لا أصاب بالبرد في غرفة كبيرة باردة كهذه خاصة وأنها تقع تحت السطح مباشرة. وكانت تقول:

-إن البرد يمتص الدم من العروق!

وكانت تحكي لي حكايات وهى تعالج الإبرة بأصابعها الطويلة المقوسة التي لا تكف عن الحركة والنشاط. وكانت عيناها تبدوان خلف نظارتها السميكة ذات الزجاج المكبِّر التي تضطر إلى لبسها بعد أن تقدمت بها السن وضعف بصرها؛ كانتا تبدوان واسعتين وعميقتين ومزدوجتين.

وكانت بقدر ما أستطيع أن أتذكر –تعرف الكثير من القصص التي ترويها لي والتي تثير قلبي الصغير. وكانت تملك روحًا عالية يندر أن تكون لامرأة مسكينة مثلها.

كانت تحمل بين ضلوعها قلبًا كبيرًا ونفسًا نبيلة. وكانت تروى لي الأحداث التي تقع في المركز.. مثلا: بقرة هربت من الإسطبل وعثروا عليها ذات صباح أمام طاحونة (بروسبير ماليه) وهى تتأمل الأجنحة الخشبية وهى تدور... وهذه قصة بيضة دجاجة عثروا عليها في برج الكنيسة ولا يمكن لأحد أن يفهم كيف يمكن لأي مخلوق أن يبيضها هناك!..وهذه قصة كلب (جون بيلاس) الذي قطع عشرة أميال ليستعيد بنطال سيده الذي سرقه أحد المارة من فوق الحبل حيث أضطر سيده أن ينشره هناك بعد أن أغرقه المطر وهو في منطقة مقطوعة!

كانت تمر على ذهني هذه الأحداث الساذجة بشكل لطيف وهى تسردها عليّ بطريقة تجعلها ترتسم في ذهني في أطار من المآسي التي لا يمكن أن ينساها مخلوق. وفي إطار من الرومانسية والغموض. وكانت القصص العجيبة التي ينظمها الشعراء وتحكيها لي أمي في المساء لا ترقى في حلاوتها وروعتها وسحرها إلى القصص التي كانت ترويها لي في هذه القرية.

وذات يوم –وكان ثلاثاء- قضيت صباحه في صحبة الأم (كلوشيت), أستمع إليها وأردت أن أرجع إليها في وسط النهار.. كنت قد جمعت ثمار البندق ومعي أحد الخدم من الغابة المجاورة خلف مزرعة (نواربيه)..أذكر ذلك بمنتهى الوضوح كما لو أن كل هذا قد حدث بالأمس فقط!..

وما أن فتحت باب غرفة الثياب حتى رأيت الخياطة العجوز مطروحة فوق الأرض بجوار

مقعدهـا, ووجههـا عـلى الأرض مبـاشرة, وكفيهـا ممـدودان أمامهـا والإبـرة لا تـزال بـين أصابعهـا, بينـما في يدهـا الأخـرى قميصًـا مـن قمصـاني, وإحـدى سـاقيها (ويبـدو أنهـا السـاق الأكـبر) كانـت ملفوفـة في جـورب أزرق وممـدودة تحـت المقعـد, والنظـارة تلمـع بجـوار الجـدار وقـد تدحرجـت بعيـدًا عنهـا.

***

اندفعت خارجًا وأنا أصرخ بعنف!..

أسرعوا إليها وعلمت بعد بضع دقائق أن الأم (كلوشيت) قد ماتت!!

***

لا أعـرف كيـف أصـف ذلـك الانفعـال الشـديد المريـع الهائـل الـذي احتـل قلبـي الصغـير, ولكننـي هبطـت في خطـى بطيئـة إلى حجـرة الصالـون ومضيـت إلى ركـن مظلـم واختبـأت في جـوف مقعـد عمـلاق وجثـوت عـلى ركبتـي لأبـكى!..وفي هـذا المـكان بقيـت لمـدة طويلـة بـلا ريـب لـن الليـل قـد أقبـل عـلىّ وأنـا عـلى هـذه الحـال!

وعلى حين غرة دخل بعضهم ومعهم فانوس..لم يرني أحدا منهم..

سـمعت أبي وأمـي يتحدثـان مـع رجـل عرفـت مـن صوتـه أنـه الطبيـب..كانـوا قـد أرسـلوا في طلبـه.. وراحـوا يسـألونه وهـو يـشرح لهـم أسـباب الوفـاة في عبـارات لم أفهـم منهـا أي شيء عـلى الإطلاق..وعـرض عليـه أبي كأسًـا مـن الـشراب وبعضًـا مـن الكعـك فلـم يرفـض وجلـس معهـما.. وراح يتحـدث مـن جديد..وعلـق حديثـه هـذه المـرة في ذهنـي بكافـة تفاصيلـه..

وسوف يظل عالقا به حتى الموت..

***

أستطيع أن أنقل قصته فيما يلي.. كلمة كلمة..قال:

-آه يـا لهـا مـن امـرأة مسـكينة!.. كانـت أول مريضـة لي في هـذه القريـة.. لقـد انكـسرت سـاقها في نفـس اليـوم الـذي قدمـت فيـه للإقامـة هنـا, ولـو أكـن قـد وجـدت متسـعًا مـن الوقـت.. وكانـت جميلـة.. كانـت جميلـة للغايـة.. هـل تصدقـون ذلك؟..أمـا قصتهـا فلـم أخـبر بهـا أحـدًا مـن قبـل عـلى الإطـلاق ولم يعرفهـا غـيري.. أنـا ورجـل آخـر لم يعـد موجـودًا في هـذه البلـدة ولا هـذا البلـد بأكمله..أمـا الآن وقـد ماتـت, فإننـي أسـتطيع أن أتحلـل مـن كتمانهـا..في ذلـك الوقـت كان قـد أقبـل مـدرس شـاب للإقامـة في المركـز.. وهـو شـاب وسـيم, طويـل القامـة كالضبـاط.. راحـت كل الفتيـات يطاردنـه ويتـوددن إليـه..أمـا هـو فـكان يتجاهلهـن..وأعتقـد أن الدافـع وراء تصرفـه هـذا كان خوفـه مـن رئيسـه, ناظـر المدرسـة, الأب (جرابـو) فقـد كان رجـلًا شريـرًا لا

يستريح إليه أحد..

وصمت لحظة ثم تابع:

-وكانت (هورتنس) الجميلة التي لقت حتفها اليوم بين أيديكم (والتي عرفت باسمها (كلوشيت) (أي العرجاء) وذلك بعد الحادثة التي وقعت لها في الوقت الذي كانت تعمل فيه لدى الأب (جرابو)..ووقع اختيار الفتى الوسيم على هذه الشابة الجميلة من دون بقية الفتيات.. ومهما يكن من أمر فقد أحبته هذه الأخرى بدورها..وتواعدا على اللقاء في مخزن الحبوب بالمدرسة بعد أن تنتهي من عملها في الخياطة عند نهاية النهار..وعندما انتهت من عملها تظاهرت بالعودة إلى الدار, لكنها لم تفعل.. وبدلا من ذلك صعدت إلى الطابق الثاني وذهبت إلى مخزن الحبوب واختبأت بين أكوام التبن في انتظار حبيبها..ولم يمض وقت طويل حتى لحق بها وبدأ يمارس معها الحب..

وهذه المرة فتح الباب من جديد وظهر ناظر المدرسة!..فاجأهما بالسؤال:ماذا تفعل هنا يا (سيجسيبرت)؟.. وارتبك الشاب أيما ارتباك وأيقن أن أمره انكشف واستبد به رعب هائل, فأجاب في غباء: لقد أتيت لكي أستريح قليلًا فوق أكوام التبن... وكان المخزن واسعًا للغاية ومعتمًا كذلك, ودفع (سيجسيبرت) بالفتاة المرعوبة بعيدًا عنه وهو يقول محنقًا: ابتعدي.. اختبئي فورًا.. سوف أفقد وظيفتي.... وشعر الناظر بهمسات فقال: (سيجيبرت).. أنت لست وحدك هنا؟..

أجابه الشاب:

-بل أنا وحدي يا سيد (جرابو)..

سأله الناظر في إصرار:

-:كلا.. فإنني أسمعك تتحدث إلى أحدهم..

أجاب الشاب مستميتًا في الدفاع عن نفسه:

-أقسم لك أنني وحدي.

قال الشيخ العجوز في مكر:

-هذا هو ما سنتحقق منه.

وأغلق الشيخ الباب وأوصده بالمفتاح من الخارج!.. ثم أنه هبط ليبحث عن مصباح.. وكان الشاب في غاية الجبن ولا شك أنكما قد فهمتما.. الواقع أن الدنيا تمتلىء بمن هم على شاكلته فتشتت ذهنه وراح يقول لها وقد تملكه الحنق منها فجأة:

-والآن اختبئي فورًا.. لا يجب أن يعثر عليك هنا.. سوف تلحقين بي ضررًا هائلًا.. سوف أخسر وظيفة بسببك.. ولو حرمت منها لمت جوعًا.. سوف تدمرين مستقبلي.. اختبئي بالله عليك!

وفي هذه اللحظة سمع المفتاح وهو يدور في قفل الباب من جديد..وأسرعت (هورتنس) إلى طاقة المخزن.. نافذة صغيرة كانت تؤدى إلى الشارع, وفتحتها على عجل ثم قالت في صوت خافت بعد وقفت على إفريزها:

-تعال واحملني بعد أن يرحل.

قفزت من الطاقة..وفتش الأب (جرابو) المكان..لكنه لم يعثر على أحد..تملكته الدهشة لكنه هبط الدرج مرة أخرى عائدًا من حيث جاء..وبعد ربع ساعة جاءني السيد (سيجسيبرت) وحكى لي حكايته.. وكانت الفتاة قد بقيت بجوار الجدار وهى لا تستطيع الحركة.. فقد سقطت من الطابق الثاني!!..

وكان المطر يهطل بغزارة في هذا الوقت, فحملت الفتاة البائسة إلى داري, وكانت ساقها اليسرى قد أصيبت بكسر في ثلاثة مواضع.. وبرز العظم من اللحم.. لكنها لم تندم واكتفت بأن قالت:

-لقد أخذت جزائي.. وهو العقاب الذي أستحقه!

واستدعيت مساعدي ثم أرسلت في طلب أهل الفتاة.. وأخبرتهم بقصة ملفقة؛ أن سيارة مسرعة قد صدمتها وكسرت ساقها أمام داري..وبالطبع صدقها الجميع..وطفق رجال البوليس يبحثون عن مرتكب هذه الحادثة المزعومة طوال شهر بلا جدوى!

وختم الطبيب حديثه:

-هذه هي حكاية الأم (كلوشيت)..وأرى أن هذه المرأة كانت بطلة.. وأنها من تلك النساء اللاتي لا يترددن عن التضحية بأنفسهن والإقدام على الاعتراف على ما فعلن بشجاعة.

وتنحنح ثم تابع:

-وقد كان هذا هو حبها الوحيد..وماتت هذه الفتاة عذراء.. شهيدة.. وهى امرأة كبيرة الروح, نبيلة الأخلاق..ولو لم أكن شديد الإعجاب بها لما سردت عليكم قصتها هذه..وهذه قصة لم أشأ أن أذكرها لأي مخلوق طوال حياتها..وبلا شك أنتما تعرفان السر وراء كتماني لهذا حتى هذه اللحظة..

وصمت الطبيب, بينما راحت أمي تبكى.. وغمغم أبي ببضع كلمات لم أتبينها ثم غادروا الغرفة..وبقيت في مكاني جاثيًا على ركبتي فوق المقعد الكبير وأنا أذرف الدمع..وسرعان ما

سـمعت جلبـة غريبـة في المـكان ووقـع أقـدام وارتطـام شيء بدرجـات السـلم..وأدركت أنهـم كانـوا ينقلونهـا..

جثة (كلوشيت)!..

المجنونة
جي دي موباسان

أستطيع أن أقص عليكم قصة مريعة عن الحرب الفرنسية – الروسية.

قالها السيد (دندولين) لبعض الأصدقاء الذين اجتمعوا في قاعة التدخين بقصر بارون (راجوت).

تعرفون داري في (فاو برج دي كورميل)، كنت أعيش هناك عندما جاء الروس وكانت لي جارة هي امرأة مجنونة، فقدت أحاسيسها في سلسلة متتابعة من سوء الحظ. في سن السابعة والعشرين فقد والدها وزوجها وطفلها الوليد، كلهم فيغضون شهر واحد.

عندما يقتحم الموت الدار مرة، فمن الصعب غالبًا أن يرتد راجعًا في الحال كما لو أنه قد عرف الطريق، وغرقت المرأة الشابة في الحزن حتى النخاع، رقدت في فراشها وأصابها الهذيان لستة أسابيع. ثم نماذج من الإعياء الهادئ خلفت تلك الأزمة العنيفة، وظلّت هي بلا انفعال، تأبى الطعام.. فقط تحرك عيناها! في كل مرة يحاول إيقاظها؛ تصرخ كما لو كانوا يهمون بقتلها، ومن ثمَّ انتهى بهم الأمر إلى تركها تكمل رقادها المستمر في الفراش، إلا في مرات قليلة يأخذونها للاستحمام، وتبديل الكتَّان أو تغيير حشية الفراش.

خادمة عجوز ظلت معها، لتعطيها شيئًا تشربه أو قطعة من اللحم البارد من وقت لآخر. ماذا حدث في هذا العقل التعس؟ لم يعرف أحد أبدًا، فهي لم تتكلم على الإطلاق حتى الآن. هل كانت تفكر في الموتى؟ هل كانت تحلم أحلامًا حزينة، بدون وعي كامل عن أي شيء حدث؟ أو هل أن ذاكرتها قد ركدت كماء لا يعبره تيار؟ ولكن، على أية حال، فعلى مدى خمسة عشر عامًا ظلت فاترة الهمة في عزلة تامة.

انتهت الحرب، وعند بداية ديسمبر عاد الألمان إلى (كورميل). أتذكر هذا كما لو أنه قد حدث بالأمس. كان صلبًا قاسيًا كافيًا لشق الصخور. أنا نفسي رقدت مجمدًا على مقعد وثير ذى مساند يدوية. غير قادر على الحركة. هذا بالإضافة إلى إصابتي بالنقرس. عندما كنت أسمعهم بخطواتهم الثقيلة المنظمة وأراهم يعبرون الطريق من نافذتي.

لقد عكروا الماضي بشكل لا يطاق، بتلك الحركة الخاصة بهم الشبيهة بدمية تسير على سلك. ثم أمر الضباط رجالهم بأن يعسكروا في المساكن. وكان لدي سبعة عشر منهم. جارتي – المرأة المجنونة – كان لديها دستة. واحدًا منهم كان القائد. هادئ الانفعالات نوعًا. منظم العنف إلى حد ما.

خلال الأيام القليلة الأولى، كل شيء أصبح معتادًا. الضباط في النزل المقابل قالوا أن السيدة

مريضة، ولم يرغبوا في خوض مأزق بخصوص هذا، ولكن سرعان ما كانت المرأة التي لم يروها أبدا تثير أعصابهم، سألوا عن نوع مرضها، وعرفوا أنها راقدة في الفراش منذ خمسة عشر عامًا، على أثر صدمة مخيفة، لا شك أنهم لم يصدقوا هذا، واعتقدوا أن المخلوق المجنون المسكين لا يغادر الفراش كنوع من الكبرياء ! لهذا لم تأت قريبًا من البروسيين أو تتحدث إليهم أوحت لتراهم.

أصر القائد على أن تستضيفه، وعندما كان في الحجرة خاطبها بخشونة:لابد أن أتوسَّل إليك لتستيقظي، مدام، ولكي تهبطي مع الدُرج حيث يمكننا جميعًا رؤيتكلكنها – فقط- أدارت عينيها الغامضتين إليه دون رد، ولذلك استطرد:أنا لم أخطط لاحتمال أي تجاهل، ولو أنك رفضت مغادرة الفراش بمحض إرادتك، فيمكنني بسهولة العثور على وسيلة تجعلك تسيرين دون أي مساعدة!

لكنها لم تبد أي إشارة تدل على أنها حتى سمعته، وظلَّت هادئة دون أن تحرك ساكنًا. عندها اهتاج غضبًا، واعتبر هذا الصمت الهادئ نوعًا من التعالي المتغطرس؛ لذلك أضاف:لو أنك لم تهبطي إلى الطابق الأرضي غدًا...ثم غادر الحجرة.

في اليوم التالي تمنت الخادمة العجوز أن تستطيع إقناعها بارتداء ملابسها، لكن المرأة المجنونة بدأت تصرخ في عنف، وعاندت بكل قواها. ركض الضابط لأعلى بسرعة. وركعت الخادمة عند قدميه، وبكت:إنها لن تهبط يا سيدي، لن تفعل، اغفر لها، إنها.. كم هي بائسة.

شعر الضابط بالحرج، وبالرغم من غضبه، لم يجرؤ على أمر جنوده بسحبها إلى الخارج. لكنه فجأة بدأ يضحك، وأعطى بعض الأوامر بالألمانية. وفي الحال كانت مجموعة من الجنود قد خرجت حاملة حشية فراش كما لو كانوا يحملون رجلًا جريحًا. وعلى ذلك الفراش، الذي لم يتغير حاله، ظلت المرأة المجنونة صامتة، راقدة في هدوء تام. لم تفعل أي شيء مختلف طوال المرة التي تركوها فيها راقدة. خلفها كان هناك جنديًا يحمل لفافة بها أغراض نسائية. وقال الضابط وهو يفرك كفَّيه:نحن فقط سنرى إذا ما كنت تستطيعين ارتداء ثيابك بنفسك، وتذهبين في تمشية قصيرة. ثم ذهب الموكب في اتجاه غابة (أيموفيل)؛ وفي خلال ساعتين عاد الجنود وحدهم. ولا شيء يخص المرأة المجنونة يمكن رؤيته. ماذا فعلوا بها؟ إلى أين أخذوها؟ لم يعرف أحد.

الثلج كان يسقط نهارًا وليلًا. وغلَّف السهول والأشجار بغطاء من الزبد المتجمد. وجاءت الذئاب ورابضت عند أعتاب بيوتنا.

التفكير في هذه المرأة المسكينة المفقودة اجتاحني، فأرسلت عدة طلبات إلى المسئولين البروسيين طالبًا بعض المعلومات. واقتربت كثيرًا من الحصول عليها، عندما جاء الربيع،

وغـادر جيـش الأعـداء، ولكـن ظـل منـزل الجـارة ظـل مغلقًـا ونمـا العشـب بكثافـة في ممـشى الحديقـة. وماتـت الخادمـة العجـوز في الشـتاء. ولم يشـغل أحـدًا بالـه كثـيرًا بمـا حـدث؛ أنـا وحـدي فقـط فكـرت في هـذا بمنتهـى الجـد والتركيـز. مـاذا فعلـوا مـع المـرأة؟ هـل هربـت في الغابـة؟ هـل عـثر عليهـا أحدهـم؟ وأخذهـا إلى المستشـفى دون أن يحصـل عـلى أيـة معلومـات منهـا؟ لا شيء حـدث يؤكـد شـكوكي. ولكـن بالتدريـج، خفـف الزمـن مـن مخـاوفي.

حسـنًا، في الخريـف التـالي، وكانـت أخشـاب المدفـأة في حالـة رديئـة جـدًا. ولأن النقـرس قـد غـادرني لبعـض الوقـت فقـد اسـتطعت الذهـاب بعيـدًا إلى الغابـة. قتلـت أربعـة أو خمسـة مـن الطيـور طويلـة المنقـار، وعندمـا ذهبـت لجلـب إحداهـا، الـذي سـقط في حفـرة امتـلأت بالفـروع، واضطـررت لأدخـل هـذه الحفـرة لألتقـط الطائـر. واكتشـفت أنـه قـد سـقط قريبًـا جـدًا مـن جثـة آدميـة ميتـة. فـورًا اكتسـحتني ذكـرى المـرأة المجنونـة كانفجـار في صـدري. عديـدًا مـن النـاس ماتـوا في هـذه الغابـة خـلال تلـك الحـرب الدمويـة اللعينـة، ولكنـي - بالرغـم مـن أني لا أعـرف لمـاذا - كنـت متأكـدًا، متأكـدًا كـما أخـبرك أننـي أرى رأس هـذا الكيـان المحطَّـم.

وفجـأة فهمـت وخمنـت كل شيء. لقـد هجروهـا عـلى تلـك الحشـية في الـبرد، والغابـة العاريـة، وتركوهـا لرأيهـا الخـاص مؤمنـين باختيـار عاقـل محكـم. وهـي تركـت نفسـها تهلـك تحـت تلـك الطبقـات الكثيفـة مـن الجليـد دون تحريـك ذراعًـا أو قـدم.

ثـم افترسـتها الذئـاب، وبنـت الطيـور أعشاشـها مـن صـوف فراشـها الممـزق، وحملـت أنـا مسـئولية عظامهـا..

فقط صليت لأجل ألا يرى أبناءنا أي حرب أخرى.

امرأتان
جي دي موباسان

كانتـا ثملتـين.. ثملتـين تمامًـا!.. البارونـة الشـابة (أندريـه دى فريزيـير) والكونتيسـة الشـابة (ناعومـى دى جاردنـر).. كانتـا قـد تناولتـا العشـاء معًـا عـلى انفـراد في الغرفـة الزجاجيـة التـي تطـل عـلى البحـر.. ومـن النوافـذ المفتوحـة هبـت نسـمة رقيقـة مـن تلـك النسـمات العذبـة التـي يحملهـا المحيـط.. نسـمة نديـة دافئـة.. وكانـت المرأتـان قـد اسـتلقتا فـوق مقعديـن خشـبيين مسـتطيلين وقـد راحـت كل منهـما ترشـف رشـفة مـن كأس الشـمبانيا مابـين لحظـة وأخـرى.. وتدخـن سـيجارة بـين لحظـة وأخـرى, وهـى تفصـح عـما لديهـا وعـما يكنـه قلبهـا إلى صاحبتهـا بطريقـة لم تكـن لتجـرؤ عليهـا لـولا تلـك الثمالـة الحلـوة التي اسـتولت عـلى روحهـا.. كان زوجاهـما قـد رحـلا إلى باريـس.. بالضبـط في مسـاء ذلـك اليـوم.. تركاهـما وحدهـما عـلى هـذا الشـاطيء الصغـير الـذي وقـع عليـه إختيارهـما.. لقـد اختارتـا هـذا الشـاطيء تجنبًـا لمناوشـات ومضايقـات الشـباب الذيـن تزخـر بهـم الشـواطيء المعروفـة والتـي يرتادهـا المصطافـون كل عـام في هـذا الوقـت مـن السـنة.. وكانتـا تتغيبـان خمسـة أيـام مـن كل أسـبوع, وتغشـيان المنتزهـات الريفيـة والمـروج البديعـة لتنـاول الطعـام في النزهـات الخلويـة اللطيفـة.. وتختلفـان إلى دروس السـباحة معًـا أيضًـا. وقـد جمعـت بينهـما تلـك الألفـة السريعـة التـي سرعـان مـا تتولـد في المصايـف حيـث لا عمـل لـدى المصطافـين سـوى اللعـب والمـرح والاسـتجمام.. هربتـا مـن مصايـف (ارتيرنـا) و(دبيـب) و(ترفـل), واسـتأجَرتا منـزلًا مهجـورًا بنـاه رجـل غريـب الأطـوار في وادي (روكفيـل) عـلى مقربـة من (فيكامـب) و.. ودفنـا زوجيهـما في ذلـك البيـت طـوال مـدة الصيـف!.. وأدار الخمـر رأس البارونـة.. وكذلـك الكونتيسـة الشـابة.. ولم تـدر البارونـة مـاذا تفعـل عـلى سـبيل التسـلية وإذ جـاء الوقـت.. أخـيرًا, اقترحـت عـلى صديقتهـا الكونتيسـة أن تتنـاولا عشـاء لذيـذًا مـع كئـوس الشـمبانيا. وقـد راق لهـما في البدايـة أن يقومـا يطهـو الطعـام بنفسـيهما.. وتناولتـاه في سـعادة لا توصـف.. ثـم احتسـتا كأسي الخمـر بغـير حسـاب لإطفـاء ظمئهـما الـذي أثارتـه حـرارة الموقـد.. وراحتـا تثرثـران وتمزحـان إثنـاء احتسـاء الشـمبانيا وتدخـين لفافـات التبـغ.. وسرعـان مـا أسـكرهما الـشراب إلى درجـة أن كلا منهـما لم تعـد تفقـه لمـا تقولـه معنـى!

ألقت الكونتيسة ساقيها فوق أحد المقاعد وبدت أكثر سكرًا من صاحبتها وهى تقول:

-لا ينقصنا في هذه السهرة سوى عاشقين!

نظرت إليها البارونة بعينين نصف مغلقتين من أثر الخمر فتابعت:

-الحـق أننـي لـو كنـت أتوقـع أن الأمـر سـوف يكـون عـلى هـذا النحـو لجئـت معـي بعشـيقين مـن باريـس ولمنحتـك واحـدًا منهـما!

أجابت الكونتيسة:

-أما أنا فأجد ما أريده من العشاق في أي وقت, ولو أنني أردت عشيقًا هذه الليلة بالتحديد لحصلت عليه فورًا.

غمغمت البارونة في استنكار:

-يا لك من واهمة!.. هنا.. في (روكفيل) يا عزيزتي.. لا شك أنك تقصدين عشيقًا فلاحًا إذن!

هزت رأسها نفيًا:

-كلا.. ليس فلاحًا تمامًا.

عادت تسألها:

-حسنًا.. أخبريني بما لديك.

ردت عليها في هدوء:

-وماذا تريدين أن أقص عليك؟

أجابتها في سرعة:

-أخبريني عن هذا العشيق!

قالت في شيء من الدلال:

-إنني لا أستطيع أن أحيا من دون الحب يا عزيزتي.. فلو أنني عشت من غير الحب لانتهيت!

وافقتها:

-نعم.. بالتأكيد.. أنا أيضًا كذلك!

واصلت كلامها:

-نعم.. إن الرجال لا يفهمون هذه الأمور وبصفة خاصة زوجانا!

هزت الثانية رأسها موافقة:

-نعم.. على الإطلاق.. وكيف تريدين أن يكون الأمر بخلاف ما تقولين؟

تابعت صاحبتها:

-إن الحب الذي نصبو إليه قوامه الرقة والدلال والغزل.. في هذه الأشياء غذاء لقلوبنا

وهو غذاء لا غنى عنه لحياتنا.. نعم.. لا غنى عنه على الإطلاق.

عادت صاحبتها توافقها:

-نعم.. بالفعل..

بينما تواصل:

-يجب أن أشعر بأن هناك من يفكر فيّ دائمًا.. وفي كل مكان!

ابتسمت صاحبتها في جذل بينما تابعت هي:

-حين أنام وحين أستيقظ.. يجب أن أعرف أن ثمة من يحبني ويشتهيني في مكان ما.. وأن هناك من يحلم بي ويشتاق إليّ.. وبغير هذا فإنني أكون بائسة يائسة.. إنني..آه.. إنني تعيسة للغاية.. لا أجد أمامي إلا البكاء طوال الوقت!

أجابتها مغمغمة:

-وأنا كذلك.

سألتها في لهفة واضحة:

-ألا ترين إذن أن الحياة بغير حب مستحيلة؟

أجابت في ثقة:

-بالتأكيد!

ارتسمت على شفتيها ابتسامة وهى تقول:

-إن الزوج عندما يكون رقيقًا لمدة أسبوع أو ستة أشهر أو سنة أو سنتين يصبح وحشًا بعد ذلك دون شك.. وحشًا حقيقيًا لا يعنيه أي شيء.. عندئذ يظهر على حقيقته ويتشاجر بسبب الفواتير مهما كانت قيمتها ضئيلة لا تذكر.. والمرأة لا يمكنها أن تحب رجلًا يعيش معها بصفة مستمرة!

أومأت صاحبتها:

-الحق ما تقولين!

لوحت بكفها:

-أين بلغت من حديثي يا ترى؟.. إنني لا أتذكر أبدًا..

أجابتها:

-كنت تقولين أن كل الأزواج وحوش.

تذكرت:

-آه... نعم.. كلهم وحوش.

أدارت صاحبتها الكأس في يدها وقالت:

-هذا صحيح.

سألتها:

-وماذا بعد؟

سألتها بدورها:

-ماذا كنت أقول بعد ذلك؟

هزت كتفيها قائلة:

-لا أدري.. إنك لم تقولي أي شيء على الأرجح!

عادت تكرر:

-ولكنني كنت أريد أن أقول لك شيئًا مع ذلك.

عقدت الأخرى حاجبيها وقالت:

-نعم.. هذا صحيح.. انتظري..

ضربت صاحبتها جبينها بكفها وقالت:

-نعم.. لقد تذكرت.

غمغمت في ارتياح:

-حسنًا.. إنني مصغية إليك.

ارتاحت في مقعدها وقالت في نعومة:

-كنت أقول أنى أجد ما أريد من العشاق في كل مكان.

سألتها في سرور ولهفة:

-وكيف تحققين ذلك؟

أشارت إليها بسبابتها:

-إن الأمر في غاية البساطة.. استمعي إليّ جيدًا

-حسنًا

-عندما انتقل إلى بلد جديد فأنني أبدأ بجمع المعلومات ثم أختار بعد ذلك.

هتفت في دهشة:

-تختارين ماذا؟

أجابت:

-بالتأكيد أجمع المعلومات في البداية.. ثم استعلم عن كل ما أريد قبل أن أقدم على أي شيء.. يجب أن يكون الرجل الذي وقع عليه اختياري كتومًا وثريًا وكريمًا.. أليس كذلك؟

وافقتها:

-هذا صحيح.

فتابعت:

-ثم يجب بعد ذلك أن يعجبني كرجل.

هزت رأسها قائلة:

-هذا أمر مفروغ منه.

غمزت صاحبتها بعينها:

-ثم بعد ذلك أرمي شباكي عليه.

هتفت مفغورة الفم:

-ماذا؟

قالت في زهو:

-نعم.. تمامًا كما يفعل الصياد عندما يصيد السمك.. ألم تحاولي يومًا استعمال الصنارة؟

هزت رأسها نفيًا:

-كلا أبدا

ضحكت قائلة:

-إنك مخطئة..إنه عمل مسل للغاية.. كما أنه جدير بالمثقفات.. حاولي رمى شباكك!

سألتها في انبهار:

-وكيف تفعلين؟

ضحكت قائلة:

-ما أبخلك!.. إن النساء تلقى شباكها على الرجال الذين يرقن لهن, ولا خيار للرجال في ذلك.. إن هؤلاء الأغبياء يحسبون أنهم هم الذين يختارون والواقع هو العكس.. نحن اللاتي نختار.. دائمًا.. اعلمي أن المرأة مادامت جميلة وذكية مثلي ومثلك فإن كل الرجال يمكن أن يصلحوا لها دون استثناء.

ثم غمزت بعينها اليسرى قائلة:

-إننا نقضي اليوم كله نستعرضهم من طلوع الشمس حتى غروبها وحين يقع اختيارنا على واحد منهم, فإننا نرمي شباكنا عليه دون انتظار!

سألتها صاحبتها:

-ولكن حتى الآن لم تخبريني كيف تفعلين ذلك؟

ضحكت وأجابت:

-أفعل ماذا؟.. ولكنني لا افعل أي شيء..إنني أتركهم يتأملونني, وهذا كل شيء.

قالت مندهشة:

-تتركيهم يتأملونك؟!

كررت في زهو:

-بالتأكيد.. وفي هذا الكفاية.. فإن الرجل الذي تروق له امرأة يتأملها.. يتأملها مرة بعد مرة ولا يلبث أن يراها أجمل امرأة على وجه الأرض وأكثرهن فتنة وإثارة.. عندئذ يبدأ في مغازلتها..

وأشارت إلى صدرها:

-أما أنا فأدعه يفهم عندها أنه يروق لي, ولكن بدون أن أنطق بكلمة بالطبع.. ويقع هو صريعًا هواي, وعندئذ لا أدعه يفلت من يدي, وتظل علاقتي به مرهونة بتصرفاته.

سألتها في فضول:

-وهل تتصرفين بهذه الطريقة مع كل من تريدين؟

أجابتها:

-نعم.. كلهم تقريبًا.

قالت في شيء من الانتصار:

-هناك من يقاوم إذن؟

أجابت:

-نعم.. في بعض الأحيان.

سألتها في فضول متزايد:

-ولما؟

لوحت بكفها:

-أوه.. لماذا؟.. كل الرجال يتصرفون كما تصرف (جوزيف) لأسباب ثلاثة.. إما أنه شديد التعلق بامرأة.. أو أنه شديد الحياء.. وإما أنه.. كيف أقولها.. يعجز عن غزو امرأة حتى النهاية..

غمغمت:

-أوه.. يا عزيزتي.. هل تعتقدين ذلك؟

قالت مؤكدة:

-نعم.. نعم.. إنني واثقة تماما مما أقوله، هناك الكثير من هذا النوع الأخير.. كثيرون جدا.. أكثر بكثير مما يمكن أن تتخيلي.. أوه.. إنهم يبدون كغيرهم من الرجال.. فهم يلبسون مثلهم.. ويزهون كما يزهو الطاووس بنفسه.. ولكن.. كلا.. إنهم ليسوا كالطاووس.. بل هم حمقى لا يحسنون التصرف.

تمتمت صاحبتها:

-أواه أيتها العزيزة.

لكنها واصلت حديثها:

-.. أما الخجولون منهم فغالبا ما يكونون على درجة لا توصف من الغباء.. فهم لا يعرفون كيف يخلعون ثيابهم عندما يرقصون وحدهم, وعندما تكون برفقتهم امرأة.. ويجب أن تكون المرأة مع مثل هذه النوعية من الرجال قوية الإرادة!.. وأن تستخدم عينيها, وأن تعرف كيف تضغط على يد الرجل.. لأن هذه الطريقة قد تكون عديمة الجدوى في بعض الأحيان, فإن الرجال لا يعرفون كيف يبدأون, وعندما تفقد المرأة وعيها أمامهم كوسيلة

أخرى, فإنهم لا يفهمون ويخفون لإسعافها, وإذا ما أبطأت في استرداد رشدها أسرعوا يبحثون عن المساعدة!

ثم رشفت من كأسها قبل أن تتابع:

-أما النوع الذي أفضله أنا أكثر من سواه فهم عشاق النساء الأخريات, هؤلاء أضع يدي عليهم بالقوة.. إذا صح هذا التعبير.

سألتها:

-هذا جميل: ولكن ماذا تفعلين حين لا يكون هناك رجلًا كما هو الحال الآن؟

قالت في بساطة:

-أعثر عليهم.

رددت:

-تعثرين عليهم؟.. ولكن أين؟

مطت شفتيها مجيبة:

-في أي مكان.. وهذا ذكرني بقصتي بالمناسبة!

قالت صاحبتها في لهفة:

-أوه.. قصيها عليّ.

بدأت تحكى:

-منذ عامين, حملني زوجي على قضاء الصيف في عزبته ببجرول.. وهى عزبة مهجورة مقفرة لا يوجد بها مخلوق.. أتسمعين؟.. لا أحد على الإطلاق.. والتقيت أحد الخدم هناك بالصدفة.

قالت بتلقائية:

-أوه يا (أندريه)!

وتابعت صاحبتها:

-.. ثم أنني قد رفعت الكلفة التي بيني وبينه بعد ذلك.. وأصبح كأنه صديق حميم لدي !.. وكنت قد أطلقت عليه اسم (جوزيف) وقد أصبح في حاله لا تدعو إلى الحسد وأصابه الشحوب والهزال.. حتى بدا كالديك!.. وراحت عيناه تدوران في محجريهما كما يفعل المجنون.. وقد استمتعت كثيرًا بمنظره هذا.. رغم كل شيء!.. وكان ذلك الصيف هو

أجمـل صيـف في حيـاتي!

استحثثتها بلهفة:

-وماذا حدث بعد ذلك؟

قالت:

-بعـد ذلـك؟.. في ذات يـوم.. وكان زوجـي غائبًـا.. قلـت لـه أن يعـد المركبـة وأن يذهـب بي إلى الغابـة وكان الجـو حـارًا.. شـديد الحـرارة كذلـك..

قالت صاحبتها في سرعة:

-أوه يا (أندريه).. قولي لي كل شيء.. أسرعي بالله عليك.. إن هذه القصة تروق لي بشدة!.

مدت إليها بكأس من الخمر:

-إليك هذا الكأس من الشمبانيا وإلا احتسيت الزجاجة كلها وحدي.

تناولت منها الكأس وهى تقول:

-.. بعد ذلك أغمى عليّ وأنا في الطريق..

رشفت من كأسها ثم سألت:

-.. وكيف تأتى أن يحدث ذلك؟

ضحكت:

-مـا أغبـاك!.. قلـت لـه أننـي أشـعر بأننـي سـيغمى عـلي وأنـه يجـب أن يحملنـي فـوق العشـب.. وحيـث ألقيـت نفسي فـوق العشـب تظاهـرت بأننـي عـلى وشـك الاختنـاق وطلبـت منـه أن يفـك أزرار بلـوزتي.. وبعـد أن فـرغ مـن ذلـك غبـت عـن الوعـي..

سألتها في دهشة:

-هكذا؟

أجابت:

-أوه.. كلا بالطبع!

هممت:

-إذن؟

قالت:

-حسنًا.. اضطررت إلى البقاء غائبة عن الوعي والصواب نحو ساعة.. ولم يجد هو أي دواء.. ولكنني تمسكت بالصبر ولم أفتح عيني إلا بعد أن أرتكب فعلته الشنعاء!

قالت صاحبتها بانبهار:

-أوه يا (أندريه).. وماذا قلت له؟

أجابتها:

-لا شيء بالطبع.. وكيف أعرف ما جرى لي مادمت غائبة عن الوعي؟.. إنني شكرته وقلت له أن يحملني مرة أخرى إلى العربة, ومضى بي إلى القصر, ولكنه أوشك أن يقلب المركبة وهو يدور بها عند الملف.

تمتمت:

-أواه يا (أندريه) أهذا كل شيء!!

رددت:

-نعم..هذا كل شيء!

غمزت بعينها:

-ألم تفقدي الوعي مرة أخرى؟!

أجابت:

-كلا.. بالطبع, لأنني لم أشأ أن أتخذ من هذا الخادم عشيقًا لي.

سألتها:

-وهل أبقيته في خدمتك لفترة طويلة؟

هزت رأسها مجيبة:

-نعم.. وهو لا يزال في خدمتي إلى اليوم.. ولماذا أطرده وهو لم يفعل ما أشكو منه؟

سألتها في فضول:

-أوه يا (أندريه).. وهو.. هل لا يزال يحبك؟

أجابت في ثقة:

-طبعًا!

عادت تسألها:

-وأين هو الآن يا ترى؟

مـدت البارونـة أصابعهـا نحـو الحائـط وضغطـت عـلى زر الجـرس الكهـربي ففتـح البـاب في الحـال ودخـل خـادم طويـل القامـة مـلأ جـو الغرفـة برائحـة الكولونيـا التـي تنبعـث منـه. وقالـت لـه البارونـة:

-(جوزيف).. أظن أنه سوف يغشى عليّ.. اذهب واستدع لي وصيفتي.

تسـمر الرجـل في مكانـه لا يتحـرك, كالجنـدي أمـام ضابطـه, وألقـى نظـرة ملتهبـة عـلى سـيدته فاستطردت:

-أسرع بالذهاب أيها الغبي فإننا لسنا في الغابة الآن, وسوف تعتني بي روز أفضل منك..!

دار الرجل على عقبيه وغادر فورًا..

أما الكونتيسة الشابة فقالت:

-وماذا ستقولين لـ(روز) وصيفتك؟!

غمغمت مجيبة:

-سـأقول لهـا إننـي لم أعـد في حاجـة إليهـا, كلا, بـل سـأخبرها أن تفـك أزرار بلـوزتي, فـإن ذلـك سـينفس عنـى لأننـي اختنقـت.. الواقـع أننـي سُـكرى يـا عزيـزتي.. سُـكرى لدرجـة أننـي سـأقع إذا حاولـت الوقـوف!!

الأسير
جي دي موباسان

منذ التحقت (والتر شنافس) بجيش الغزاة الذي دخل فرنسا وهو يعد نفسه أتعس الرجال وأشقاهم.. كان (والتر شنافس) بدينًا، ثقيل الحركة، بطيء الخطوات، قدماه تؤلمانه أشد الألم كلما مشى.. وهما قدمان مفرطحتان بدينتان.. وكان مسالمًا وادعًا يكره الحرب ولا يطيق رؤية الدماء..وكان والدًا لأربعة أطفال يحبهم حب العبادة.. وزوجًا لامرأة شقراء شابة.. أصبح يفتقد كل ليلة حنانها و قبلاتها ورعايتها له.. وكانت له عادة أن ينام حتى وقت متأخر ويأوي إلى فراشه في وقت مبكر ويأكل على مهل أجود الأطعمة وأشهاها ويختلف إلى الحانات لاحتساء البيرة..كما أنه كان يظن أن كل ما هو جميل في الوجود يتلاشى باختفاء الحياة.. وكان يحقد كل الحقد على المدافع والبنادق والمسدسات والسكاكين والخناجر والحراب..

طبيعي.. إذ كان دائمًا يشعر بأنه غير جدير بالدفاع عن بطنه الضخمة وكرشه المتدلي ضد هذه الأسلحة الجبارة! وعندها كان يفترش الأرض إذا ما أقبل الليل متدثرًا بمعطفه بجوار زملاءه الذين راحوا يشخّرون، كان يسرح بخياله نحو أهله الذين تركهم خلفه والأخطار التي تحدّق به من كل جانب.. ماذا لو أنهم قتلوه؟ ماذا يكون من أمر أطفاله؟..من يطعمهم؟..من يشرف على تربيتهم؟..ولا سيما أنهم لم يكونوا من الأثرياء.. على الرغم من كل الديون التي قد استدانها قبل رحيله ولم يترك لهم إلا القليل من النقود..وكان كلما فكر في ذلك ذرف الدمع حارًا!

في بداية المعارك أحس بوهن في ساقيه.. ولو أنه قد ترك الأمر لتقديره الشخصي لسقط.. لولا أنه يعرف أن الجيش كله خلفه.. وأنه سوف يمر فوق جسده..ووقف شعر رأسه عندما دوى صفير الرصاص! هكذا كان (والتر شنافس) يعيش فريسة القلق والخوف!

كانت فرقته تتقدم نحو (نورمانديا). وأرسل ذات يوم مع نفر من زملاءه كانت مهمتهم هي استكشاف منطقة من البلد بعدها يعودون مرة أخرى..وكان كل شيء يبدو هادئًا وعلى ما يرام..لا شيء مطلقًا يدل على أنهم سيلقون أي نوع من المقاومة..كانوا يتقدمون في هدوء وأمان في جوف واد صغير تقطعه أخاديد عميقة.. عندما أوقفهم فجأة وابل من الرصاص أصاب نحو عشرين رجلًا منهم!..وفاجأتهم فرقة من الفرنسيين خرجت عليهم من قلب دغل صغير واندفعت نحوهم وهم شاهرين حرابهم في مقدمة بنادقهم..

في بداية الأمر تسمر (والتر شنافس) في مكانه جاحدًا لا يقو على الحراك..كانت المفاجأة قد أذهلته وسكت تفكيره بحيث لم يخطر له أن يهرب.. ثم تملكته رغبة مجنونة في الفرار!!..

إلا أنـه لم يلبـث أن تذكـر أنـه يجـري كالسـلحفاة إذا قيـس بالفرنسـيين النحـاف الذيـن يقبلـون مسرعـين كقطيـع مـن الماعـز.. ورأى عـلى بعـد سـت خطـوات منـه خندقًـا مملـوءًا بالأعشـاب وتغطيـه الأوراق الجافـة.. فألقـى بنفسـه فيـه مـن دون أن يفكـر في عمقه..كـما يلقـى الإنسـان بنفسـه مـن فـوق جـسر إلى النهـر..

خـلال طبقـة كثيفـة مـن الأعشـاب المتشـابكة والأغصـان المتعانقـة مـر كالسـهم.. والأشـواك تمـزق وجهـه ويديـه وسـقط في عنـف جالسًـا فـوق فـراش مـن الأحجار..ورفـع عينيـه بسرعـة فـرأى السـماء مـن خـلال الثقـب الـذي أحدثـه سـقوطه..وقد كان مـن الممكـن أن تفضحـه هـذه الفتحـة فزحـف عـلى أربـع في حـذر حتـى آخـر الفنـدق تحـت شـبكة مـن الأوراق بعيـدًا عـن سـاحة المعركة..وهنـاك جلـس مـن جديـد وهـو يرتعـد كالأرنـب المذعـور..

مـر بـه وقـت ليـس بالطويـل وهـو يسـمع صـوت طلقـات الرصـاص والـصراخ والأنـين ثـم خفـت كل شيء ولم يلبـث أن عـاد الصمـت والسـكون فشـملا المكان..وفجأة..تحـرك بجـواره شيء فـسرت في أوصالـه رعـدة عنيفـة..ولم يكـن ذلـك سـوى عصفـور صغـير حـط رحالـه فـوق الغصـن المجـاور وراح يرفـرف بجناحيـه.. وظـل (والـتر شـنافس) يرتجـف في شـدة سـاعة كاملـة!

هبـط الليـل فمـلأ الخنـدق بظلامـه الأسـود..ومضى الجنـدي يفكـر..مـاذا يفعـل؟.. ومـاذا يكـون مـن شـأنه الآن؟.. هـل يلحـق بفرقتـه؟.. وكيـف السـبيل إلى ذلـك؟.. وأيـن هـي فرقتـه أصـلًا الآن؟..لابـد لـه مـن طريقـة.. ولابـد أنـه سـوف يعـاني المخاطـر والأهـوال التـي عاناهـا منـذ بدايـة الحـرب.. وهـو لـن يجـد في نفسـه الشـجاعة عـلى احتـمال ذلك..ولكـن مـاذا يفعـل؟..لم يكـن ليسـتطيع البقـاء في هـذا الخنـدق والاحتـماء بـه حتـى تضـع الحـرب أوزارها..ولـو أنـه لم تكـن هنـاك ضرورة لـلأكل لمـا أفرحـه هـذا الاحتـمال أبـدًا!..

ولكـن كان لابـد أن يـأكل.. وأن يـأكل كل يوم..ولكـن مـاذا يفعل؟..إنـه الآن بمفرده..وحيـدًا في ثوبـه العسـكري..وعلى أرض الأعداء..بعيـدًا عـن هـؤلاء اللذيـن في مقدورهـم الـذود عنـه وحمايته.. ارتـج بدنـه برعشـة قوية..وأتتـه فكـرة عجيبة..مـاذا لـو أخـذوه أسيرًا؟!!

خفـق قلبـه وقـد انتابتـه رغبـة عنيفـة ملحـة في أن يقـع أسيرًا بـين أيـدي الفرنسـيين الأعـداء.. إن وقوعـه في الأسر معنـاه أنـه قـد أصبـح مـن مطمئنًـا هانئًـا..يـأكل مـا يشـتهي.. والأهـم مـن هـذا أنـه سـوف يظـل بعيـدًا عـن الرصـاص وحـراب البنـادق..لا يوجـد أي نـوع مـن الخطـورة بـين جـدران السـجن. أسيرًا بـين أيـدي الفرنسـيين..يا لـه مـن حلـم جميـل !!..وصـح منـه العـزم في لحظـة فقـال:

-سوف أسلم نفسي إليهم وأصبح أسيرًا!

ثـم أنـه نهـض وقـد اسـتقر رأيـه عـلى تنفيـذ هـذا المـشروع الممتـع الجميـل عـلى الفـور.. دون

أن ينتظر لحظة واحدة.. إلا أنه سرعان ما تسمّر في مكانه مرة أخرى وقد استولت عليه أفكار سوداء وتملّكه خوف جديد..فإلى أين يذهب؟.. ولمن يسلم نفسه؟..وكيف؟.. وفي أي جهة؟..وتلاحقت أمامه صور مريعة للموت!

لو أنه قد غامر بمفرده فإن الأخطار ولابد تنتظره في كل مكان.. خاصة وأن خوذته المدببة فوق رأسه! ماذا يكون من أمره لو قابل بعض الفلاحين بالمصادفة؟.. إنهم إذا ما رأوا بروسيًا وحيدًا فسوف يقتلونه ككلب..ثم أنهم سوف يمزقونه بفئوسهم ومعاولهم ويحولونه إلى عجينة تمامًا كما يفعل المقهور الذي بين يدي عدوه بلا حول ولا قوة!

بل ربما قابله بعض القناصة..وهؤلاء أيضًا لا يعرفون معنى الشفقة أو الرحمة.. وكذلك لا يتسمون بالعدالة..وسوف يقتلونه!.. لا لشيء إلا على سبيل التسلية واللهو.. ورأى نفسه بعين الخيال واقفًا لصق جدار وقد سدرت إليه اثنتي عشرة فوهة من فوهات البنادق..

بل ماذا يحدث لي إذا التقى بالجيش الفرنسي ذاته؟! قد يحسبه رجال الطليعة كشافًا خرج وحده للاستكشاف وبالتالي يطلقون عليه النار!.. وعلى الفور خيل إليه أنه يسمع صوت طلقات النار.. طلقات قادمة من بنادق الجنود المختبئة حوله في الأحراش..ورأى نفسه يسقط وسط الحقول وقد أخترق الرصاص كل مكان في جسده!..

جلس وقد أرهقه اليأس، وبدا أنه لا مخرج له هنا..وكان الليل قد أدلهم.. الليل الحالك السواد..راح يرتجف كلما سمع أقل حركة من الحركات التي تقع في الظلام..وجاء أرنب يتجسس فأحدث صوتًا!.. وعندها كان قلب (والتر شنافس) بين قدميه !.. وأوشك على أن ينطلق هاربًا لا يلوى على شيء، وكادت صيحات البوم تأتي على البقية الباقية منه بعد أن أثارت في نفسه عظيم الفزع!.. وراح يحملق في الظلمات بعينيه.. كان يخيل له في كل لحظة أن هناك من يسير خلفه!! وبعد ساعات ليست بالقليلة.. وبعد عذاب لا يُحتمل رأى من خلال سقيفة الأغصان والفروع السماء وهي تضيء من جديد وتصفو.. وعندها داخله الارتياح وتراخت أطرافه فتنفس الصعداء وقد أحس بالأمان واطمأن قلبه وأسلم عينيه للرقاد.

وعندما استيقظ كانت الشمس قد أوشكت أن تحتل وسط السماء، فقد رأى الوقت هو الظهيرة..ولم يكن هناك أي صوت يعكر هدوء الحقول..وأحس (والتر شنافس) بجوع رهيب! تثاءب وقد سال اللعاب من بين شفتيه عندما فكر في السجق الرائع الذي يقدمونه للجنود!..وتألم وهو يفكر في أمعائه المسكينة !..ونهض أخيرًا..وتقدم بضع خطوات..

أحس أن ساقيه ضعيفتين كأنهما قالبان من الهلام، فكان أن جلس وراح يفكر.. ومرت به دقيقة أو دقيقتان تأمل فيها وضعه ودرسه دراسة شاملة وافية..وفي كل لحظة كان يعُدِّل شيئًا في قراره وقد استبد به القهر.. وأخيرًا..لاحت أمامه في الأفق فكرة منطقية وعملية..

سوف يرتب مرور فلاح وحيد أعزل من السلاح و من أدوات العمل.. فيهرع إليه ويسلم نفسه!

وعندما استقر عزمه على هذا القرار حسر خوذته المدببة عند رأسه حتى لا تفضحه.. ثم أخرج رأسه من الحفرة في حذر وحرص شديدين..لم يكن هناك أي مخلوق..لكنه رأى في نهاية طريق الأشجار قصرًا شاهقًا عالي الأبراج.. وانتظر في مكمنه حتى هبط الليل وهو يتلوى من الجوع لا يرى غير الغربان والبوم ولا يسمع سوى أنين معدته!

وأقبل عليه المساء..

تمدد في أعماق الحفرة ونام نومًا قلقًا مضطربًا محمومًا تتخلله الأحلام المزعجة وتؤلمه بطنه الخاوية.. وطلع عليه الفجر للمرة الثانية هنا، فوقف يراقب ما يحيط به.. ولكن المكان كان مقفرًا كاليوم السابق واستبد به خوف لا حد له..خوف من أن يموت جوعًا !!

ورأى نفسه بعين الخيال طريحًا على ظهره في أغوار حفرته وهو مسبل العينين وقد دبت حوله الديدان والحيوانات.. وحشرات من كل نوع راحت تأكله من كل موضع دفعة واحدة، متسللة تحت ثيابه لتعض لحمه البارد.. وغراب ضخم ينقر عينيه بمنقاره الرقيق!..و عندئذ استولى عليه الجنون.. وتوقع أن يسقط مغشيًا عليه من شدة الوهن.. وأنه لن يقو على السير مرة أخرى..

هم بأن يركض صوب القرية وقد استقر منه العزم على أن يخاطر بكل شيء ولكنه لم يلبث أن أبصر ثلاثة من الفلاحين يذهبون إلى حقولهم وفي أيديهم فئوسهم ومعاولهم فتراجع إلى مخبأه..وأقبل عليه ظلام جديد!..

وهذه المرة تسلل من مخبأه وراح يتقدم نحو القصر المنيف..مقوس الظهر وقلبه يدُق بعنف بين ضلوعِه من الخوف والهلع مؤثرًا إياه على القرية التي بدت له شديدة الخطورة كوكر ملئ بالحيوانات الكاسرة..

وكانت نوافذ الدور الأرضي تسطع بالأضواء.. وإحداها مفتوحة على مصراعيها..تنفذ منها إلى الخارج رائحة لحم مشوي دخلت خياشيمه وتسللت إلى أعماق معدته فجعلته يلهث ويتلوى وملأته جرأة تعلو على جرأة اليائس!..وفجأة..بدون أية مقدمات..ومن غير تفكير ظهر بخوذته في إطار النافذة..

ثمانية من الخدم يأكلون حول مائدة كبيرة..

لمحته واحدة منهم فحدقت في وجهه بذهول ملتاع.. وسقط القدح من يدها.. وإلى حيث تنظر تحولت عيون الجميع..ورأوا العدو! وانطلقت في بادئ الأمر صرخة واحدة:

- يا إلهنا الرحيم !.. البروسيون يهاجمون القصر!

صيحة فزع من الأفواه الثمانية دفعة واحدة.. ونظرة ذعر في عيون الجميع.. ثم تدافع الجميع راكضين نحو الباب.. سقطت المقاعد في ارتباك.. ومر الرجال فوق أجساد النساء.. وفي لمح البصر خلت الحجرة منهم جميعًا، تاركين المائدة وما عليها من أصناف الطعام أمام عيني (والتر شنافس) المشدودة الواقف عند النافذة يطل برأسه منها!..

وبعد لحظة من التردد يتسلل من إطار النافذة ويتقدم نحو المائدة.. وكان الجوع قد جعله ينتفض كشخص مريض.. تسمر في مكانه وسكنت حركاته وأرهق أذنيه..كان البيت كله كأنه يتأوه..الأبواب تغلق..الأقدام تركض مسرعة في كل اتجاه..أصاخ البروسي السمع و قد استولى عليه الفزع.. واستمع إلى كل هذه الحركات العجيبة ثم لم يلبث أن سمع أصواتًا مكتومة كأن أجسادًا تسقط فوق الأرض الرطبة خارج القصر..أجساد بشرية تلقى بنفسها من الطابق الأول!..

وأخيرًا..

همدت الأصوات تمامًا.. وسكنت الحركة وأصبح القصر صامتًا كالقبر!..وأمام طبقة جلس (والتر شنافس).. وراح يأكل..كان يحشو فمه بقطع الخبز الكبيرة كما لو كان يخشى أن يقطع أحد عليه خلوته قبل أن يأكل ويشبع..وراح يدفع بالطعام إلى فمه المفتوح كبئر بيديه الاثنتين.. وهبطت كتل الطعام إلى جوفه القطعة تلو القطعة قبل أن ينتهي من مضغها جيدًا..وكان يتوقف في بعض الأحيان.. ما لو أنه يكاد يهلك من فرط ما يدفع إلى بطنه من طعام.. وعندئذ كان يتناول من الخمر ويملأ فمه ليدفع بالطعام داخل مضخة حلقه أكثر وأكثر!..وفرغت كل أطباق الطعام والخمر وزجاجات النبيذ! وأتمله الطعام والشراب وأخذه ذهول واصطبغ وجهه باللون الأحمر ودارت رأسه وظهر الزبد الأبيض من ركن شفتيه..

فك أزرار سترته حتى يستطيع أن يتنفس..ثقلت عيناه فألقى جبينه الثقيل بين يديه المعقودتين فوق المائدة..وفي هدوء غاب عن الوجود !..

خفت نور الهلال في الأفق وأوشك الفجر على البزوغ..تسللت ظلال في الممرات العديدة الخرساء وضوء القمر ينير طرف خوذته المدببة.. حيث لا يلقي الضوء إلا على حجرتين في الطابق الأرضي..

وفجأة دوى صوت كهزيم الرعد..

- إلى الأمام، اهجموا يا أولادي!!

وفي وقت واحد انفجرت الأبواب والنوافذ واندفع منها عدد هائل من الرجال دمروا كل شيء وغزوا البيت.. وفي لحظة واحدة كان خمسون رجلًا قد هجموا على المطبخ حيث

يرقد (والتر شنافس) في أمن و سلام.. وصوبوا إلى كرشه المنتفخ الضخم خمسين بندقية ورفعوه من مكانه ثم دحرجوه على الأرض كبرميل وشدوا وثاقه..وكان (والتر) المذعور يلهث مشدوهًا وهو لا يزال غير واع لما يحدث الآن ولا يرى سببًا لهجومهم عليه وضربهم له بهذه الطريقة!..وفجأة تقدم ضابط ضخم تلمع فوق صدره نياشين كثيرة.. فوضع قدمه فوق كرش (والتر شنافس) وصرخ:

- أنت أسيري.. سلم نفسك!

لم يفهم (والتر شنافس) من هذه العبارة سوى كلمة (أسير) فتأوّه مجيبًا:

- أوه.. نعم.. نعم.

وتعاونوا على حمله فأجلسوه فوق مقعد وراحوا يفحصونه في فضول جم وهم يلهثون في انبهار.. وجلس أغلبهم وهم لا يملكون أنفسهم من فرط الانفعال والتعب..أما (والتر شنافس) نفسه فكان يبتسم..يبتسم في سرور لا حد له..لقد أصبح في النهاية أسيرًا!..

دخل ضابط عليهم وقال:

- سيدي القائد.. لقد هرب الأعداء.. ويبدو أن كثيرًا مهم قد أصيبوا بالجراح.. وأصبحنا الآن سادة القصر!

مسح القائد جبينه وقال:

- النصر لنا!

وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة دون فيها هذه الكلمات:

- وبعد قتال عنيف مرير اضطر البروسيين إلى التخلي عن هجومهم وآثروا الانسحاب.. حاملين معهم موتاهم وجرحاهم وهم يقدرون بخمسين رجلًا.. ووقع بين أيدينا عدد كبير منهم.

وعاد الضابط يقول:

- ما هي الإجراءات التي يجب أن نتخذها يا سيدي؟

فكر القائد لحظة ثم قال في حزم:

- سوف ننسحب في هدوء حتى نتجنب هجومًا مفاجئًا بقوات تفوقنا في العدد والعتاد!

وأصدر أمره بالانسحاب..وراقب الجميع (والتر شنافس) الموثق القياد، وصوبوا إليه بنادقهم من كل صوب.. وتم إرسال البعض للاستكشاف..وتقدم الباقون في حذر وهم يتوقفون من وقت لآخر.. وعند مطلع الفجر وصلوا إلى مركز الشرطة..وكان الأهالي ينتظرون في جزع..

وعندما وقعت أعينهم على الأسير ارتفعت الأصوات المدوية.. ورفعت النساء أيديهم وبكت العجائز.. ورمى شيخ الأسير بعكازه فشج رأس أحد الحراس!! وصاح القائد:

- حافظوا على سلامة الأسير.. ابقوا عليه حيًا.

بلغوا المحافظة في النهاية، ففتح باب الزنزانة وألقى (والتر شنافس) فيها بعد أن فكوا وثاقه.. وأحاط بالسجن مائتا رجل مدججين بالسلاح لحراسته.. وعندئذ.. وعلى الرغم من عسر الهضم الذي كان يعاني منه منذ وقت طويل استولى على (والتر شنافس) فرح هائل فراح يرقص كالأطفال في جذل ساذج محركًا ساقيه وذراعيه وهو يصرخ في جنون وهوس حتى سقط أخيرًا من الإعياء بجوار أحد الجدران..

لقد أصبح أسيرًا.. ونجا من الموت!..وهكذا تم استعادة قصر (شامبينيه) من بين يدي العدو وبعد ست ساعات فقط من احتلاله!..

أما القائد (راتييه) تاجر الصوف الذي أحرز هذا النصر المهول فقد مُنح وسامًا!!

شيء عجيب
وليام فولكنر

عند باب غرفة الملابس، وقف الرئيس مرتديًا بزّته كاملة ما عدا الحذاء. جامدًا مسمرا في مكانه. كانت الساعة تدور في السابعة صباحًا. قطع الثلج تتساقط خارج النوافذ، فوقف يتأمله نحو ساعة من وراء الزجاج. وها هو يقف بجوربيه خلف الباب المؤدي إلى البهو، محنيًا قامته المديدة كأنما يركز سمعه عند نقطة معينة، وقد ارتسم على محيّاه قلق بالغ، هو القلق ذاته الذي لم يفارقه منذ نحو ثلاثة أسابيع. كانت تتدلى من يده مرآه يد فاخرة، فرنسية الطراز، يجدر بنا أن نراها على نضد الزينة الخاص بامرأة لا في أي مكان آخر، لا سيما أنه ما من امرأة يمكن أن تستعملها قي تلك الساعة المبكرة من أيام فبراير.

أخيرًا، أمسك مقبض الباب، وفتحه بمقدار بوصات قليلة محاذرًا ألا ينم عنه أي صرير، ثم دس رأسه من الشق ورأى العظمة ملقاة على بساط البهو السميك. كانت عظمة مطبوخة، ضلعًا علقت به كتل صغيرة من اللحم عليها، وإن على نحو خفيف، آثار أسنان بشرية في قضمات متداخلة اتخذت أشكالا هلالية. من فرجة الباب نفسها تناهت إلى مسامعه الأصوات أيضًا. ظل حريصًا على ألا يصدر أي صوت وهو يخرج المرآة قليلًا من الباب المشقوق. لبرهة لمح وجهه في المرآة فتأمله بنوع من عدم التصديق البارد - إنه وجه مقاتل جسور، ذلك القائد الحصيف الذي لا يعرف الزلل في توقع أفعال البشر والسيطرة عليها، والذي يجد نفسه الآن غارقًا في عجز طفل حائر. أمال المرآة قليلًا بعد حتى يتمكن من رؤية الرواق منعكسًا فيها. عندئذ رأى رجلين يقتعدان البساط مثلما يتواجه شخصان على ضفتي نهر. لم يكن يعرف هذين الوجهين، وإن عرف الوجه، إذ أن صورته لم تفارقه نهارًا، ولا فارقت أحلامه ليلًا منذ ثلاثة أسابيع. إنه ذلك الوجه المربع القاتم المفلطح بعض الشيء، الوجه المنغولي، المتجهم، الغامض، السري الذي لا يكشف شيئًا عن نوايا صاحبه. ولطالما رأي هذا الوجه حتى تخلى عن محاولة عد المرات أو تقدير العدد؛ حتى في هذه الأثناء وهو يرى الرجلين يجلسان القرفصاء في المرآة، ويسمع خصوتيهما المكتومين، فقد أحس، ربما في برزخ ما بين النعاس والتعب، أنه ينظر إلى وجه واحد فقط.

وفي ما عدا التفصيل الثانوي المتعلق بعدم ارتدائهما صديريًا وياقة، كان كل منهما يعتمر قبعة من الفراء ويلبس معطفًا جديدًا من الصوف، لقد كانا متأنقين بالكامل حتى الخاصرة، وإن كان الوقت ما يزال مبكرًا بعض الشيء حتى يحل ضحى النهار. لكن من الخاصرة ولأسفل، كانت ثيابها تنتهك كل حس بالذوق والأناقة. فنظرة واحدة إليهما تجعل المرء يظنهما خارجين للتو من إنجلترا على عهد بيكويك، دعك من أن سرواليهما التحتيين

الضيقين وفاتحي اللون لا ينتهيان بأحذية فيكتورية طويلة، ولا بأي أحذية على الإطلاق، بل بأقدام قائمة حافية. ورأى على الأرض، بجانب كل واحد منهما، صرّة من القماش الغامق لفت بعناية، وزوجين جديدين من الأحذية، وضع كل زوج منهما مقابل الثاني كأنما ينتعلهما جنديان من الأشباح.

فجأة، ومن غطاء سلة مصنوعة من لحاء البلوط الأبيض، وموضوعة بجانب أحد الرجلين، برز رأس ديك مصارعة يشبه الأفعوان، لمعت في المرآة الباهتة عينه الصفراء المدورة الهائجة. ومن هناك جاء الصوتان، جذلين محتشمين، هامسين:

-لم يفدك كثيرًا وجود الديك معك هنا.

-هذا صحيح. لكن من يعرف؟ بالتأكيد ما كان في وسعي تركه في المنزل مع أولئك الهنود الأوغاد الكسالى. تعرف جيدًا أنني كنت سأجده، حين أرجع، منتوف الريش بالكامل. لكن من المزعج أن أضطر لحمل هذا القفص ليل نهار.

-لو أردت رأيي فإنني أجد هذه المسألة في غاية الإزعاج.

-عدّاك العيب. أن نقبع هنا خارج هذا الباب طوال الليل بلا سلاح ولا أي شيء. افترض أن أشرارًا أو سواهم حاولوا اقتحام الغرفة في أثناء الليل، فلا أعرف عندئذ ماذا سنفعل. أعرف أنني لست راغبًا في دخول الغرفة.

-ومن يقبل شيئا كهذا؟ إنها مسألة كرامة.

-كرامة من؟ كرامتك؟ كرامتي؟ كرامة فرانك ويديل؟.

-كرامة الرجل الأبيض. أنت لا تفهم البيض. إنهم كالأطفال، عليك التعامل معهم بحرص لأنك لا تعرف البتة ما ستكون خطوتهم التالية. وإذا كانت الأعراف تنص علي أن يقبع الضيوف هنا خارج باب هذا الرجل طوال الليل في البرد، فعلينا فعل ذلك فحسب. إلى ذلك، ألا تفضل المكوث هنا على أن تكون مع البقية هناك في الثلج في واحدة من تلك الخيمات الملعونة؟.

-معك حق. يا له من طقس. يا لها من بلاد. لا أقبل بها ولو وهبوها لي مجانا!.

-بالطبع لن تقبل. لكن البيض هم هكذا: لا حسبان عندهم للذوق. لذا، ومهما طال مكثنا هنا، فإننا مضطران إلي التصرف مثلما يعتقد هؤلاء القوم أنه يجدر بالهنود الحمر أن يتصرفوا. لأننا لا نعرف ماذا يمكن أن نقول أو نفعل يثير حفيظتهم. فقد يشعرون بالإهانة أو الخوف. مثل اضطرارنا إلي التكلم بكلام البيض طوال الوقت.....

سحب الرئيس المرآة إلي الداخل وأقفل الباب ببطء شديد. مجددًا وقف ساكنًا جامدًا

في وسط الغرفة، مطرق الرأس، شاردا، حائرًا، لكن صلبًا متماسكا، فليست هذه هي المرة الأولى التي يواجه فيها الصعوبات؛ أما منشأ حيرته فهو أنه لا يواجه عدوًا في ميدان مفتوح، بل يجد نفسه محاصرًا في مكتبه رفيع المقام هذا، يحاصره أولئك الذين يعتبرونه، قانونيًا على الأقل إن ليس بتفويض إلهي، أباهم.

شعر، في ذلك الصمت الشتوي المطبق، أنه يخترق الجدران، ويتوحد مع المقر الرئاسي الجليل الساهر. غير مرئي، شعر أنه يعيش حالًا من الرعب الذاهل من كل واحدة من مجموعات ضيوفه الجنوبيين – تلك المجموعة الصغيرة القابعة خارج بابه، والأخرى الضخمة في ساحة القصر التي يشبه أفرادها الوجوه المحفورة في حجارة هذا المبنى الدائري الصلب الذي هو التجسيد الحي لكبرياء الأمة الشابة – في قبعاتهم الفرو الجديدة ومعاطفهم الصوف وملابسهم التحتية القطنية، في سراويلهم المطوية بعناية تحت أذرعتهم، وأحذيتهم الجديدة محمولة على الأيدي؛ قاتمون، لا زمنيون، محتشمون، وساكنون، تحت الوجوه المذهولة والبزات المليئة بالشارات الذهبية، والسيوف والنجوم، شارات الدبلوماسيين الأوروبيين.

غمغم الرئيس في سره:اللعنة. اللعنة. اللعنة.

مشى في الغرفة وتوقف لكي يحمل زوجي حذائه من مكانهما قرب الكرسي، ودنا من الباب المقابل. توقف ثانية وفتح الباب بخفة وحرص شديدين اعتاد عليهما خلال ثلاثة أسابيع خفية أن يقتحم أحد ضيوفه الباب ويقتله. لم يجد خلف الباب سوى زوجته تنام وادعة في سريرها. اجتاز الغرفة، حاملًا الحذاء، متوقفًا لكي يضع المرآة على نضد الزينة بين أشياء أخرى من المجموعة التي قدمتها الجمهورية الفرنسية الجديدة هدية لرئيس سابق، ثم أنه تابع سيره على أطراف أصابعه، حتى دلف إلى قاعة الانتظار، حيث رفع رجل يلبس عباءة طويلة رأسه نحوه ثم نهض على قدميه، وفي قدميه جوربان أيضًا. تبادلا النظرات برصانة. ثم سأل الرئيس الرجل بصوت خفيض:

-أكل شيء على ما يرام؟.

-لا بأس، هل......

أخرج الرجل عباءة أخرى طويلة.

قال الرئيس:حسن. حسن

وطرح العباءة على كتفيه قبل أن يتحرك الآخر لمساعدته.

-والآن أعطني الـــــــــــ.....

هذه المرة استبقه الآخر، وناوله القبعة التي اعتمرها الرئيس ثم أخفضا إلى وجهه. غادرا

الغرفة على أطراف أصابعهما، وفي يد كل منهما حذاؤه.

كان السلم الخلفي باردًا، فتكورت أصابع أرجلهما وهي تطأ درجاته، وارتفع بخار أنفاسهما في دوائر حول رأسيهما. هبطا السلم بتؤدة وقعدا على الدرجة السفلى وانتعلا حذاءيهما.

كان الثلج ما يزال يهطل في الخارج؛ وبدا أن ندف الثلج غير المرئية في السماء البيضاء، وعلى الأرض المفروشة بالثلوج، قد تجسدت بعنف مباغت عند بوابات الإسطبلات المعتمة. بدت كل جنبه في حديقة القصر أشبه ببالون أبيض يهبط بخفة وجمود فوق الأرض البيضاء، وبين هذه الأركان تناثرت بنوع من الترتيب المنتظم نحو اثنتي عشرة كومة أشبه بالخيام، ترتفع منها أعمدة الدخان نحو الثلج الذي لا رياح تعوقه، كأنما الثلج نفسه يشتعل بهدوء. ألقى الرئيس عليها نظرة عجلى غضوب، ثم قال لمرافقهتقدمفمشى هذا بخطوات سريعة، مطرق الرأس، مغطيًا وجهه بعباءته، ودخل إلى الإسطبل. انتهت الأيام التي كان الرئيس يخاطب الجندي بكلمةتقدمهذه، لكن الرئيس كان قريبًا منه إلى حد أن أنفاسنا شكلت سحابة معتمة واحدة. وانتهى اليوم الذي كانت غالبًا ما تستعمل فيه كلمةفرار. لكنهما ما كادا يدخلان إلى الإسطبل حتى ظهرا ثانية، وقد امتطى كل منهما جواده، واجتازا المرجة، مرورًا بالخيام المغطاة بالثلوج، إلى البوابات التي تفضي إلى تلك الجادة التي مازالت في طور الإنشاء، والتي ستحتفل بفخر مستقبلًا بالصفوف المهيبة من شباب الأمة، وسط إعجاب ودهشة العالم القديم وحسده، أما في تلك اللحظة فقد كان يحتل البوابات متنبئون حقيقيون بالمستقبل.

انتبه، قال الرجل الآخر، وهو يرتد إلى الخلف. انتحيا جانبًا- وغطى الرئيس وجهه بالعباءة، مفسحًا في المجال لكي تمر المجموعة: أولئك الرجال غامقو البشرات مربوعو القامات، بقبعاتهم الفرو، ومعاطفهم الرسمية، وأرجلهم الصلبة المغطاة من الفخذ حتى الركبة بجوارب من الصوف. اخترقت ثلاثة جياد الحشد وقد طُرحت على ظهورها ستة غزلان ميتة. أكمل الحشد طريقه دون أن يعيروا الرجلين التفاتة.

تمتم الرئيس:اللعنة. اللعنة. اللعنة؛ ثم بصوت عال أردف:لقد كان صيدكم وافرًا.

حانت نظرة خاطفة من أحد أفراد المجموعة نحوه، وقال بصوت جذل وسريع:وهو كذلك.

انطلق الجوادان مجددًا، وقال الرجل الآخر:

-لم أر معهم أي أسلحة.

قال الرئيس بتجهم:

-أجل، يجب أن أنظر في هذا الأمر.

بثياب النوم وبلحية غير حليقة، جلس الوزير إلى مائدة الإفطار محاطًا بأطباق لم يذق منها شيئًا، بدا على محياه الامتعاض وهو يحملق في الصحيفة الموضوعة على الطبق الفارغ أمامه. أمام المدفأة وقف رجلان – أحدهما جندي من سلاح الفرسان لم يذب الثلج بعد عن عباءته، جلس على مقعد خشبي طويل، بينما الآخر، الذي من الواضح أنه مساعد الوزير، ظل واقفًا.

هب الجندي منتصبًا حين دخل الرئيس ومرافقه.

قال له الرئيس:

-اجلس، اجلس.

واتجه إلى المائدة وهو ينضو عنه العباءة التي أخذها منه المساعد.

-قدم لنا بعض الإفطار، قال الرئيس،لا نجرؤ على الذهاب إلى البيت. ثم جلس. قدم لهم الوزير الطعام شخصيًا. سأله الرئيس:

-ماذا هنالك الآن؟

قال الوزير:

-هل تسأل؟.

ثم حمل الصحيفة مجددًا وأخذ يحملق بها:

-من بنسلفانيا هذه المرة. وهوى بالصحيفة فوق راحة يده،أولًا ماريلاند، نيويورك، والآن بنسلفانيا؛ من الواضح أن الشيء الوحيد الذي يستطيع إيقافهم هو أن يذوب الصقيع وتجري المياه ثانية في نهر بوتوميك. صاح بحدة وانفعال،شكاوى، شكاوى، شكاوى: هذا مزارع قرب جيتسبرج. كان عبده الزنجي في الحظيرة يحلب البقرة على ضوء القنديل بعد هبوط الظلام، حين - بلا شك ظن الزنجي أنهم مائتان، ما دام المزارع قد قدرهما بعشرة أو أحد عشر - قفزوا فجأة من العتمة معتمرين القبعات، وشاهرين الخناجر وهم عُراه من الخصر لأسفل. والنتيجة: تدمير الحظيرة وقتل البقرة واحتراق الشعير بنيران القنديل الذي تحطم؛ كما شوهد العبد يفر من المكان صوب الغابات، حيث بالتأكيد قضى خوفًا أو التهمته الحيوانات المفترسة. التعويض المترتب على حكومة الولايات المتحدة الأمريكية: للحظيرة والشعير مائة دولار، للبقرة خمسة عشر دولارًا، للعبد مائتا دولار. ويطلب الرجل أن يُدفع له التعويض بالذهب.

قال الرئيس وهو يأكل بسرعة:

-هكذا إذن؟ أحسب أن الزنجي والبقرة اعتبرهم من الجنود المرتزقة.

قال الجندي:أتساءل ما إذا ظنوا البقرة غزالًا.

قال الرئيس:أجل، هذه مسألة أخرى أود أن....

قـال الوزير:ومـن الـذي لا يتوهمهـم أي شيء عـلى سـطح الأرض أو في جوفهـا؟ إن سـاحل الأطلسي برمتـه، إلى شـمال نهـر بوتوميـك، يحتشـد بكائنـات قبعـات الفـرو والمعاطـف والجـوارب الصـوف، إنهـم يخيفـون النسـوة والأطفـال ويشـعلون الحظائـر ويهرِّبـون العبيـد ويقتلـون الغـزلان.....

قـال الرئيس:أجـل، أريـد أن أقـول شـيئًا حيـال هـذا. لقـد صادفـت زمـرة منهـم في طريقـي إلى هنـا. كان معهـم سـتة غـزلان. أظـن أننـي أصـدرت أوامـر صارمـة بعـدم السـماح لهـم بحمـل البنـادق.

مجددًا تكلم الجندي:إنهم لا يستعملون البنادق.

فقال الرئيس:ماذا؟ لكنني رأيت نفسي....

-لا يـا سـيدي، إنهـم يسـتعملون السـكاكين. يقومـون بتعقـب الغـزال ثـم ينقضـون عليـه ويجـزُّون رقبتـه.

-ماذا؟.

-لقـد رأيـت أحـد الغـزلان التـي اصطادوهـا يـا سـيدي، ولم يكـن مصابًـا بـأي عيـار نـاري سـوى أن عنقـه قـد جُـز بالسـكين بضربـة واحـدة.

مجددًا قال الرئيس:اللعنة! اللعنة! اللعنة!.

ثـم صمـت. وراح الجنـدي يسُـب. بينـما راح الآخـرون يصغـون بتجهـم وقـد طأطـأوا رؤوسـهم، مـا عـدا الوزيـر الـذي حمـل صحيفـة أخـرى. وقـال الرئيـس:

-لو أنك تقنعهم فحسب بارتداء بناطيلهم، على الأقل في أفنية البيت الأبيض.

نظر إليه الوزير وشعره منفوش مثل ببغاء ككتوه أخضر:

-أنا يا سيدي؟ أنا أقنعهم؟.

-لم لا؟ أوليسـوا تابعـين لوزارتـك؟ أنـا لسـت إلا الرئيـس. لقـد وصـل الأمـر إلى درجـة أن زوجتـي لم تعـد تجـرؤ عـلى الخـروج مـن غرفـة النـوم، ناهيـك عـن اسـتقبال صديقاتهـا. كيـف أشرح الأمـر للسـفير الفرنـسي عـلى سـبيل المثـال، لمـاذا لم تعـد زوجتـه تتجـرأ أن تـزور زوجتـي؟ لأن أروقـة البيـت ومداخلـه مليئـة بهنـود التشيكوسـو أنصـاف العُـراة، النائمـين عـلى الأرض، أو

المنشغلين بقضم نصف ضلع من اللحم؟ حتى أنا مضطر للفرار من مكتبي واستجداء الإفطار، بينما الممثل الرسمي للحكومة ليس لديه ما يفعله سوى....

صاح الوزير بحنق:

-... أن يشرح كل صباح لوزارة الخزانة لماذا يجب أن يحصل مزارع هولندي آخر في بنسلفانيا أو نيويورك علي ثلاثمائة دولار ذهبًا تعويضًا عن دمار مزرعته وماشيته، وأن يشرح لوزارة الخارجية أن العاصمة ليست محاصرة من قبل شياطين آتين مباشرة من الجحيم، وأن يشرح لوزير الدفاع لماذا تم تخريب عشر خيم عسكرية جديدة بالسكاكين بغرض تهوئتها.....

قال الرئيس بصوت معتدل:

-لاحظت هذا أيضًا، لقد نسيت ذلك.

-ها. لقد لاحظت سعادتك، قال الوزير بحنق، سعادتك رأيت ذلك ثم نسيته. أنا لم أره ولم يُسمح لي بنسيانه. والآن تتساءل سعادتك لماذا لا أقنعهم بارتداء البناطيل.

قال الرئيس مرتابا:

-يبدو أنهم قد يرضون بذلك، يبدو أن الملابس التي قدمناها لهم نالت رضاهم. لكن لا حسبان للذوق.

استأنف الأكل. ثم نظر إليه الوزير، وهمٌ بالكلام، لكنه اكتفى بالصمت، ناظرًا إلى الرئيس المُنشغل بالأكل وقد ارتسم على وجهه ملمح غريب، واسترخى وجهه الحانق كما لو أنه فرٌغ نفسه من الهواء. ثم تكلم بنبرة فاترة ورائقة، وشخص الآخرون بفضول نحو الرئيس.

قال الوزير:

-أجل، لا اعتبار للذوق. فالمعلوم أنه حين تقدم لشخص ما زيًا ما من باب التقدير والشرف، دعك عن مسألة الذوق ومن قبل زعيم قبيلة معروفة، فمن واجبه أن.....

قال الرئيس ببراءة:

-هذا ما فكرت به؟، ثم توقف عن مضغ الطعام وقال بحدة:ماذا؟، رافعًا رأسه. أشاح الثلاثة الأقل رتبة نظرهم سريعًا، أما الوزير فاستمر بالنظر إلى الرئيس من دون أن يفارق وجهه ذلك الفتور السري:ماذا تقصد بحق الجحيم؟.

كان يدرك مقصد الوزير مثلما أدركه الثلاثة الآخرون. بعد يوم أو يومين من وصول ضيفه المباغت، وبعد أن زالت إلى حد ما الصدمة الأولى، أصدر الرئيس مرسومًا بتخصيص الملابس

الجديـدة لهـم. أصـدر أمـرًا لصنـاع الملابـس والقبعـات مثلـما يأمـر صنـاع الأسـلحة والرصـاص في الطـوارئ الحربيـة، وتـكل بدفـع التكاليـف مـن جيبـه الخـاص. وقـد تمكـن مـن تقديـر عددهـم، الرجـال عـلى الأقـل، وبغضـون ثمـانٍ وأربعـين سـاعة، حـول مظهـر ضيوفـه الجـدي الهجـين إلى مظهـر لائـق عـلى الأقـل. بعـد يومـين، قـام الضيـف - وهـو نصـف تشيكوسـو ونصـف فرنـسي، رجل مربـوع سـمين لـه ملامـح رجـل عصابـات جاسـكوني وسـلوك غـلام مدلـل، يضـع سـوارًا قـذرًا حـول معصمـه وآخـر حـول رقبتـه، يطـارده منـذ ثلاثـة أسـابيع في صحـوه ونومـه، ولا يسـتطيع فـكاكا منـه - بزيـارة رسـمية لـه، وهـو مـا يـزال مـع زوجتـه في الفـراش عنـد الخامسـة فجـرًا، وكان اثنـان مـن خدمـه يحمـلان صرة، يتبعهـما مـا بـدا للرئيـس عـلي الأقـل مائـة شـخص مـن رجـال وأطفـال ونسـاء، احتشـدوا بصمـت في غرفـة النـوم،

بهـدف واضـح وهـو أن يشـاهدوه وهـو يرتـدي الـزي، ذلـك أنـه كان زيًـا - حتـى في خضـم إحساسـه بالرعـب الناشـئ عـن الصدمـة، وجـد الرئيـس نفسـه يتسـاءل بشـدة في أي مـكان مـن العاصمـة عـثر فيـدال أو ويديـل عـلى هـذا الـزي الـذي ليـس سـوى كتلـة، شـبكة، مـن الشرائـط الذهبيـة - ضفـادع، شرائـط زينـة، وشـاح، وسـيف - علقـت بشـكل مهلهـل عـلى قطعـة قـماش خـضراء فاتحـة، هـي بمثابـة رد الجميـل عـلى هديتـه السـابقة. هـذا مـا عنـاه الوزيـر، الـذي راح الرئيـس يحملـق فيـه، بينـما أشـاح الرجـال الثلاثـة بأنظارهـم نحـو المدفـأة.

-فلتقل دعاباتك، قال الرئيس،قلها سريعًا. هل انتهيت من الضحك الآن؟.

قال الوزير:

-أنا أضحك؟ علام؟.

-جيـد، قـال الرئيـس. وأبعـد الأطبـاق عنـه،إذن يمكننـا التكلـم في المسـائل المهمـة؟ هـل لديـك الوثائـق التـي قـد تحتـاج إلى الرجـوع إليهـا؟.

اقترب سكرتير الوزير:

-هل أُحضر الأوراق الأخرى يا سيدي؟.

-الأوراق؟، قـال الوزيـر؛ مـرة أخـرى بـدأ ينفـش شـعره،بحق الجحيـم، مـا حاجتـي إلى الـورق؟ وهـل كان لي مـن شـغل سـواها منـذ ثلاثـة أسـابيع؟.

قال الرئيس:

-جيِّد جيِّد، أفترض أنك راجعت المسألة بإيجاز في حال كنت نسيت شيئًا آخر

قال الوزير:

-سعادتك محظوظ بحق، إذا تمكنت من النسيان.

وأخـرج مـن جيـب منامتـه نظـارة معدنيـة. لكنـه بالـكاد اسـتعملها لينظـر ثانيـة إلى الرئيـس بحنقهـذا الرجـل، ويديـل، أو فيـدال أو أيًـا يكـن اسـمه - هـو وعائلتـه أو عشـيرته أو أيٌـا تكـن - يدُعـي امتـلاك كل ذلـك الجانـب مـن المسيسـبي الـذي يقـع إلى الطـرف الغـربي مـن النهـر موضـوع المشـكلة. أوه، وهـو يملـك صـك الملكيـة: فقـد حـرص والـده ذلـك مـن نيـو أولينـز عـلى ذلـك - حسـنًا، حـدث أنـه في مقابـل منزلـه أو مزرعتـه، يقـع المعـبر النهـري الوحيـد عـلى امتـداد نحـو ثلاثمائـة ميـل.

قال الرئيس بنفاد صبر:

-أعـرف هـذا كلـه، بطبيعـة الحـال يؤسـفني الآن أنـه مـا مـن وسـيلة لعبـور النهـر أساسًـا. لكـن عـدا ذلـك لا أرى أيٌ.....

قال الوزير:ولا هم كانت لديهم مشكلة، حتى جاء الرجل الأبيض.

قال الرئيس:آه، الرجل الذي كان....

رفع الوزير يده.

-اسـمع. لقـد بقـي نحـو شـهر معهـم، متظاهـرًا بالصيـد، متغيبًـا عـن الأنظـار طـوال اليـوم، لكـن مـن الواضـح أن مـا كان يفعلـه هـو التأكـد مـن أنـه ليـس مـن نعـبر نهـري آخـر قريـب. لم يكـن يجلـب أي صيـد معـه؛ وأتخيـل أنهـم ضحكـوا عليـه كثـيرًا عـلى طريقتهـم الخاصـة.

قال الرئيس:أجل، لا بد من أن ويديل وجد هذا مسليًا جدًا.

... أو فيدال - أيًا كان اسمه، قال الوزير بتوترلا يبدو أنه يعرف أو يهتم شخصيًا باسمه.

قال الرئيس:أكمل، كنت تتكلم عن المعبر النهري.

-أجـل. ثـم ذات يـوم، بعـد شـهر مـن مجيئـه، عـرض الرجـل الأبيـض شراء بعـض أرض ويديـل، فيـدال، ويديـل، اللعنة....

-سمّه ويديل، قال الرئيس.

-... عـرض الرجـل الأبيـض شراء قطعـة أرض مـن ويديـل. لم تكـن بالكبـيرة، بالـكاد تـوازي حجم غرفـة، قبـض منـه فيـدال أو ويديـل عـشرة أضعـاف سـعرها. ليـس رغبـة في الكسـب كـما تعـرف، فـكان يمكـن أن يعطـي الرجـل الأرض كهديـة أو يخسرهـا معـه في مبـاراة مـا، إذ لم يخطـر لأي منهـما أن الأرض الصغـيرة التـي أرادهـا الرجـل احتـوت عـلى المعـبر الوحيـد المتوافـر للدخـول إلى النهـر أو الخـروج منـه. لا ريـب في أن المسـاومة عـلى السـعر امتـدت أيامًـا أو ربمـا أسـابيع، كنـوع مـن اللعبـة لتمضيـة العصريـات والأمسـيات المتبطلـة، بينـما الجميـع يضحكـون مـلء قلوبهـم في المشـهد البهيـج، لا بـد أنهـم ضحكـوا كثـيرًا، لا سـيما حـين دفـع الرجـل السـعر لويديـل، لا بـد

أنهم ضحكوا كثيرًا في ما بعد حين رأوا الرجل الأبيض يبني تحت الشمس سياجًا حول أرضه، وبالتأكيد لم يخطر لهم البتة أن ما فعله الرجل الأبيض هو أنه وضع سياجًا حول المعبر الوحيد إلى النهر.

قال الرئيس مجددًا بنفاد صبر:

-أجل، لكنني لم أفهم بعد.....

مجددًا رفع الوزير يده، على نحو تفخيمي:

-ولا هم فهموا؛ ليس قبل مجيء المسافر الأول وعبوره النهر. كان الرجل الأبيض قد أنشأ هناك بوابة.

قال الرئيس:أوه.

-أجل. والآن لابد من أنهم تسلوا بمشاهدة الرجل الأبيض جالسًا الآن تحت السقيفة - كان قد رفع جيبًا من جلد الغزال على سارية لكي يلقي العابرون فيها أموالهم، والبوابة نفسها صُنعت بشكل يتيح له فتحها وإقفالها مستعينًا بالحبل وهو جالس على شرفة بيته المكون من حجرة واحدة من دون أن يضطر حتى إلى القيام عن مقعده - والبدء بتوسيع أملاكه، بما في ذلك شراء حصان.

قال الرئيس:

-آه، الآن بدأت الصورة تتضح.

-أجل. وتسارعت الأحداث بعدئذ. وحصل سباق بين جواد الرجل الأبيض وجواد ابن أخي الزعيم: البوابة مقابل ألف فدان من الأرض. وقد خسر جواد ابن الأخت. وتلك الليلة....

قاطعه الرئيس:

-آه، فهمت، تلك الليلة الرجل الأبيض قُتـــــــــــــــــــــــــــ.....

-فلنقل إنه مات، هذا جاء الوصف في تقرير مفوض الحكومة. رغم أنه أضاف مفسرًا أنه يبدو أن موت الرجل الأبيض نجم عن فلق في الجمجمة، لكن هذا الأمر ليس موضوعنا.

قال الرئيس:

-لا، موضوعنا هو احتشادهم هناك في البيت منذ ثلاثة أسابيع.

رجال ونساء وأطفال ومعهم عبيد من الزنوج، توافدوا على العربات منذ ذلك اليوم في نهاية الخريف، منذ اليوم الذي ظهر فيه مفوض الحكومة في منطقة قبيلة التشيكوسو

لـكي يسـتعلم عـن مـوت الرجـل الأبيـض. قطعـوا ألفًـا وخمسـمائة ميـل، عـبر مسـتنقعات الشـتاء والأنهـر، عـبر التضاريـس الشرقيـة للقـارة، يقودهـم طاغيـة بطريـرك سـمين ومتبلـد في عربـة، نائمًـا، وابـن أختـه بجانبـه، وهـو يضـع يـده السـمينة التـي تعـج بالخواتـم عـلى ركبـة ابـن الأخـت لإبقائـه ممسـكًا بالزمـام. سـأله الرئيـس:

-لماذا لم يوقفه المفوض؟.

صاح الوزير:

-يوقفـه؟ أخـيرًا سـاومهم المفـوض إلى حـد أن يسـمح بمحاكمـة ابـن الأخـت فـورًا، مـن قبـل الهنـود أنفسـهم، ناويًـا أن يدمـر البوابـة، مـا دام أحـد لم يكـن يعـرف الرجـل الأبيـض عـلى أي حـال. لكـن لا. يتوجـب إحضـار ابـن الأخـت لـكي يمثـل أمامـك، لـكي تتـم تبرئتـه أو إدانتـه وسـجنه.

-لكن لمٌ لم يمنع العميل بقيتهم من المجئ؟ لمٌ لم يبق البقية......

صاح الوزير مجددًا:

-يمنعهـم؟ اسـمع. لقـد انتقـل إلى هنـاك وعـاش بـين ظهرانيهـم، لكـن ويديـل أو فيـدال، اللعنـة! أيـن كنـت... أجـل، طلـب إليـه ويديـل أن يعتـبر البيـت بيتـه؛ وسرعـان مـا صـار كذلـك. إذ أنٌ لـه أن يعـرف أن أعـداد النـاس في المزرعـة تقـل صبيحـة كل يـوم؟ هـل كنـت لتعـرف؟ هـل كنـت لتعـرف الآن؟.

قال الرئيس:

-ما كنت لأحاول، كنت أعلنت فحسب يوم عيد شكر وطني. فإذن تسللوا ليلًا.

-أجـل. ويديـل والعربـة وبضـع عربـات علـف مضـت أولًا؛ كان قـد مـضي عـلى رحيلهـم شـهر قبـل أن يـدرك العميـل أنـه صبيحـة كل يـوم يقـل العـدد الباقـي بطريقـة مـا. كانـوا ينسـلون ليـلًا عـلى العربـات، عائـلات بأكملهـا، أجـداد وآبـاء وأطفـال وعبيـد وكلاب وأغـراض، وكل شيء. ولم لا؟ لمٌ يحرمـون أنفسـهم مـن هـذه العطلـة عـلى حسـاب الحكومـة؟ لم يفوتـون عـلى أنفسـهم، بمجـرد كلفـة بسـيطة هـي قطـع 1500 ميـل عـبر بـلاد مجهولـة في عـز الشـتاء، امتيـاز ومتعـة تمضيـة بضعـة أسـابيع أو ربمـا شـهر بقبعـات فـرو جديـدة ومعاطـف وثيـاب تحتيـة، في بيـت الأب الأبيـض العطـوف؟.

قال الرئيس:

-أجل، وهل قلت له أننا لم نوجه أي تُهمة ضد ابن أخته؟.

-أجـل. وكذلـك إذا عـادوا إلى ديارهـم، فالمفـوض نفسـه سـيعلن بـراءة ابـن الأخـت عـلى الملأ، ضمـن أي طقـس يعتبرونـه مناسـبًا. وأجابـه ويديـل قائـلًا... كيـف صـاغ كلماتـه؟.

راح الوزير يتكلم بنبرة بهيجة شبه مرحة، في محاكاة شبه حرفية للرجل الذي يكرر كلامه:

-كل ما نريده هو العدالة. إذا كان الفتى المغفل قد قتل رجلًا فأظن أن علينا معرفة ذلك.

قال الرئيس:

-اللّعنة. اللّعنة. اللّعنة، حسنًا سنوقف التحقيق. أحضرهم إلى هنا ولننه الأمر معهم.

أجاب الوزير:

-إلى هنا؟ إلى المنزل؟.

-لم لا؟ لقد استضفتهم لثلاثة أسابيع؛ تستطيع على الأقل استضافتهم ساعة، التفت نحو مرافقه،أسرع. أخبرهم أننا ننتظرهم هنا حتى نحاكم ابن الأخت.

جلس الرئيس والوزير وراء الطاولة التي رُفع عنها الطعام، ونظرا إلى الرجل الذي يقف قبالتهما مؤطرًا بالباب المفتوح الذي دخل منه، ممسكًا بيد ابن أخته مثل شخص يدخل للمرة الأولى أحد أقربائه إلى متحف متروبوليتان للشموع. راحا يتأملان الرجل الناعم السمين الواقف أمامهما بوجهه الناعم الرقيق الجامد، وأنفه الطويل الشبيه بأنف راهب، وأطرافه الضخمة، أخدان المتهدلان، بلون الشوكولا بالحليب، فوق وشاح متسخ بطل طرازه منذ خمسين عامًا؛ وكان فمه سمينًا صغيراً، وشديد الحُمرة. بيد أنه في مكان ما وراء تعبيرات وجهه التي تنم عن يقينية ما، كما وراء صوته الفاتر ومظهره شبه الأنثوي، كان يكمن شيء آخر: شيء ينم عن العزم والحدة والمباغتة والطغيان. وقفت وراءه مجموعة الخدم الصامتين الرصينين، قاتمي البشرات بقبعات فرو وعباءات وجوارب صوف، وكل واحد منهم يحمل سرواله مطويًا تحت إبطه.

ظل صامتًا لبرهة، منقلًا بصره بين الوجوه حتى رأى الرئيس. وقال بصوت ناعم:

-هذا ليس بيتك؟.

أجابه الرئيس:

-لا، إنه منزل هذا الزعيم الذي عينته بنفسي وزيرًا للعدل لكي يحكم بيني وبين شعبي الهندي. وسوف يحقق العدل لكم.

انحنى الرجل قليلًا:

-هذا مل ما نرجوه.

-حسن، قال الرئيس. كانت على الطاولة أمامه محبرة وريشة كتابة ومرملة، والكثير من الأوراق مع أشرطة وأختام ذهبية، وإن لم يكن باستطاعة أحد أن يقول ما إذ كانت نظراته الطويلة الحادة قد لاحظت وجودها أم لا. نظر الرئيس إلى ابن الأخت. شاب، نحيل وقف ممسكًا بيده اليمنى يد خاله السمينة المليئة بالقماش وراح ينظر بصمت إلى الرئيس، بهدوء عميق ومتنبه.

غمس الرئيس الريشة في الحبر.

-هل هذا هو الرجل الذي....

قاطعه الرجل بحماسة:

-الذي ارتكب هذه الجريمة؟ هذا ما قمنا بهذه الرحلة الشتوية الطويلة من أجل اكتشافه. إذا كان قد ارتكبها، إذا لم يكن الرجل الأبيض قد سقط فعلًا عن صهوة حصانه وارتطم رأسه بحجر، فعندئذ ابن أختي هذا يجب أن ينال جزاءه. لا نظن أنه من الصائب قتل رجل أبيض كأنه من الشيروكي أو الكريك.

أخذ يحملق بالشخصين المهمين اللذين راحا يزعمان الكتابة على الأوراق الخرقاء أمامهما؛ لبرهة التفت عينا الرئيس بعينيه الناعستين فأشاح عنه. لكن الوزير رفع حاجبيه عاليًا وراح يحملق في الخال.

-كان يجدر بك أن تجري سباق الخيول هذا في معبر النهر نفسه. فالمياه ما كانت لتخلف مثل ذاك الجرح الغائر في جمجمة الرجل الأبيض.

رفع الرئيس رأسه بسرعة ناظرًا إلى الوجه الثقيل، السري، متفرسًا في الوزير بترقب قاتم. لكن مباشرة تقريبًا تكلم الخال.

-كان يمكن هذا. لكن ذلك الرجل الأبيض كان بكل تأكيد سيطلب مالًا من ابن أختي لكي يسمح له بعبور بوابته.

ثم ضحك ضحكة بهيجة، سارة، ومحتشمة،ربما كان من الأفضل لهذا الرجل الأبيض لو أنه سمح لابن أختي بالعبور مجانًا. لكن هذا لم يعد موضوعنا الآن.

-لا، قال الرئيس، بنبرة تكاد تتسم بالحدة، فنظروا إليه ثانية. حمل الريشة فوق الورقة.ما الاسم الصحيح؟ ويديل أم فيدال؟.

مجددًا جاء الصوت المرح، ذي النبرة الثابتة،ويديل أو فيدال. ما يهم بأي اسم ينادينا الزعيم الأبيض؟ لسنا إلا هنودًا، نذكر بالأمس وننسى غدًا.

كتب الرئيس على الورقة فأصدرت الريشة صريرًا ترافق مع صوت آخر: صوت خافت،

ثابت، مكتوم، بدا يصدر من المجموعة الصامتة القاتمة وراء الخال وابن الأخت. رمل الرئيس الورقة وطواها ونهض لبرهة راحوا خلالها ينظرون إليه - الجندي الذي يقود الرجال في مناسبات أهم من هذه.

-ابن أختك ليس مذنبًا بهذه الجريمة. إن الزعيم الذي عينته لكي يقيم العدل بيننا يطلب منه العودة إلى دياره وألا يفعل هذا ثانية البتة، لأنه في المرة القادمة لن يكون مسرورًا.

تبدد صوته في صمت مفاجئ؛ حتى خلال تلك اللحظة تحركت الجفون بتثاقل نعسان، بينما من الكتلة القاتمة خلفه صدر ذلك الصوت الخافت، الدائم، صوت الاحتكاك الصامت للصوف، مثل موج يتحرك ببطء، ثم توقفت هذه الحركة لوهلة. تكلم الخال بنبرة تنم عن الصدمة وعدم التصديق:

-ابن أختي حر؟.

-إنه حر؟، أجاب الرئيس. جالت نظرات الخال المشدوهة في أرجاء الغرفة.

-بهذه السرعة؟ وهنا؟ في هذا البيت؟ حسبت أنه... لكن غير مهم.

راحوا ينظرون إليه مجددًا. وجهه ناعم ملغز،لسنا إلا هنودًا بالتأكيد هؤلاء البيض المشغولون ليس لديهم إلا القليل من الوقت للمسائل الصغيرة. ربما قد سببنا لهم ما يكفي من الإزعاج.

سارع الرئيس إلى القول:

-لا،لا، بالنسبة إلي لا فرق بين شعبي الهندي وشعبي الأبيض.

لكن من جديد طافت نظرات الخال بصمت في أرجاء الغرفة؛ واقفين جنبًا إلى جنب، داهم الرئيس والوزير الشعور بالخطر نفسه. بعد برهة قال الرئيس:

-أين كنت تتوقع عقد هذه الجلسة؟.

نظر إليه الخال،سيضحكك ذلك. في جهلي اعتقدت أنه حتى مسألتنا الصغيرة هذه ستنتهي في... لكن بلا يهم.

قال الرئيس:أين؟.

نظر الوجه الثقيل الساكن مجددًا إلى الرئيس،سوف يضحكك الأمر، رغم ذلك سأجيبك. في المنزل الأبيض الكبير تحت النسر الذهبي.

صاح الوزير:

-ماذا؟ في الـــــــــ.....

أشاح الخال نظره

-قلت إن هذا سيضحكك. لكن لا يهم. سيكون علينا الانتظار على أي حال.

قال الرئيس:

-الانتظار؟ انتظار ماذا؟.

-هذا مضحك حقًا، قال الخال. وضحك مجددًا، بصوته الساكن البارد،المزيد من قومي على وشك القدوم. يمكننا انتظارهم، ما داموا سيرغبون أيضًا في رؤية هذا وسماعه. لم تنم عن أحد تنهيدة تعجب، ولا حتى الوزير. فقط حدقوا به بينما قال بصوته الساكن:يبدوا أن بعضهم أخطأ في المنطقة. لقد سمعوا اسم عاصمة الزعيم الأبيض، لكن قد تكون هناك بلدة أخرى في بلادنا تحمل الاسم عينه، وحين استعلم بعض القوم عن الطريق، تم توجيههم خطأ وذهبوا إلى مكان آخر. الجنود الجهلة المساكين. ضحك بتسامح مرح وراء وجهه الناعس الملغز.لكن جاء رسوا وأبلغنا أنهم سيصلون في غضون هذا الأسبوع. ثم سنرى بشأن معاقبة هذا الفتى العنيد. وهز ذراع الفتى هزة خفيفة. ولولا هذه الحركة ما كان الفتى ليتحرك، وهو يحملق في الرئيس بعينيه الحادتين اللتين لا ترمشان.

للحظة طويلة ساد صمت لا يقطعه سوى صوت الاحتكاك الخافت الثابت الناجم عن مجموعة الهنود. ثم شرع الوزير بالكلام، بأناة، كأنه يخاطب طفلًااسمع، إن ابن أختك حر طليق. هذه الورقة تفيد بأنه لم يقتل ذلك الرجل الأبيض، وأن أحدًا لم يحق له باتهامه ثانية، وإلا فسنغضب أنا والزعيم الأكبر هنا. يمكنه العودة إلى الديار الآن على الفور. فلتعودوا جميعًا إلى الديار فورًا. ألا يقال إن قبور أسلاف رجل ما لا تهدأ إطلاقًا في غيابه؟.

مجددًا ساد الصمت. ثم قال الرئيس:

-إلى ذلك فإن البيت الأبيض تحت النسر الذهبي مشغول حاليًا بمجلس من الزعماء ممن هم أقوى مني.

ارتفعت يد الخال الغارقة في القماش المتسخ، وراحت سبابته تهتز باعتراض لائملا تتوقع حتى من هندي جاهل أن يصدق هذا، ثم أضاف من دون أي تغيير في نبرة صوته، ولم يعرف الوزير إلا لاحقًا حين أخبره الرئيس أن الخال لم يكن كلامه إليه،وأولئك الزعماء سيحتلون بلا شك ذلك البيت الأبيض لمدة على ما أفترض.

قال الوزير:أجل، حتى تذوب آخر ثلوج الشتاء بين الأزهار والعشب الأخضر.

قال الخال:حسنًا، سننتظر إذن. وعندها يكون هناك متسع من الوقت لكي يصل بقية

القوم.

وهكذا حدث أنه على تلك الجادة التي ستكون عظيمة الشأن مستقبلًا، سار موكب العربات تحت الثلج الهاطل ببطء، تتقدمه العربة التي تضم الرئيس والخال وابن الأخت، ويد الخال المليئة بالخواتم على ركبة ابن الأخت، تتبعها عربة أخرى تضم الوزير ومساعده، ويتبع هذه العربة صفان من الجنود، يسيرون بين الكتلة الرصينة القاتمة من الرجال والنساء والأطفال المحمولين على الأيدي أو الماشين على أقدامهم. وهكذا حدث أنه وراء مكتب المجلس التشريعي في تلك الحجرة التي احتضنت حلم المصير العظيم الذي يعلو على ظلم الأحداث وحماقات البشر، وقف الرئيس والوزير، بينما في الأسفل محاطين بالمتلاعبين الأحياء بالقدر، الذين انتشرت بينهم الأشباح المهيبة للذين حلموا بهذا القدر، وقف الخال وابن الأخت، وخلفهم الكتلة القاتمة من الأنسباء والأصدقاء والمعارف الذين من بينهم نشأ ذلك الخفيف الخافت الناشئ عن احتكاك الصوف بالجلد. مال الرئيس على الوزير. وهمس في أذنه:هل المدفع جاهز؟ هل أنت واثق من أنهم يستطيعون رؤية ذراعي من الباب؟ وافترض أن تلك الأسلحة اللعينة انفجرت، فهي لم تُستعمل منذ استعملها واشنطن ضد كورنواليس: هل سيعزلونني؟.

قال الوزير:أجل.

قال الرئيس:فليكن الله في عوننا إذن. أعطني الكتاب.

ناوله الوزير الكتاب:سونيتات بترارك، الذي اختطفه الوزير عن طاولته أثناء مروره.

-فلنأمل أن أتذكر ما يكفي من اللاتينية بحيث لا يبدو إنكليزيًا ولا تشيكوسو، قال الرئيس. فتح الكتاب، ثم مجددًا انتصب الرئيس، غازي البشر، المنتصر في المعارك الدبلوماسية والقانونية والعسكرية، وتفرس في الوجوه القاتمة الثابتة المصممة المنتظرة؛ حين تكلم كان صوته هو صوت الرجل الذي جعل الرجال قبل ذلك يصمتون ويطيعون:فرانسيس ويديل، زعيم شعب التشيكوسو، وأنت، يا ابن أخت فرانسيس ويديل والذي سيصبح ذات يوم زعيمًا، اسمعا كلماتي.

ثم بدأ يقرأ. جاء صوته عاليًا، قويًا، فوق الوجوه القاتمة، يتردد صداه في مقاطع صوتية عميقة وجادة. قرأ عشر سونيتات. ثم أنهى كلامه رافعًا يده، وتبدد صوته ثم أنزل ذراعه. بعد برهة، من خارج المبنى، جاء صوت المدفعيات. وللمرة الأولى تركت الكتلة البشرية، مدمدمة بنوع من الذهول الراضي.

تكلم الرئيس ثانية:

-يا ابن أخت فرانسيس ويديل، أنت حر، عد إلى ديارك.

ثم تكلم الخال، هازاٌ سبابته خارج القماش المخرم الذي يحيط بيده.

-أيها الفتى العنيد، فكر في المتاعب التي تسبب بها لهؤلاء الرجال المشغولين.

واستدار نحو الوزير في اللحظة نفسها تقريبًا.

-والآن بخصوص مسألة المعبر النهري الملعون.

سقطت شمس الخريف دافئة علي كتفيه، وقال الرئيس بهدوء،هذا كل شيءواستدار إلي مكتبه بينما غادر الوزير. وحين رفع الرسالة وفتحها سقطت الشمس علي يديه وعلي الصفحة، مؤشرة إلي النهاية الرائعة للشتاء، ولاقتراب موسم الحصاد وارتفاع أعمدة الدخان فوق المداخن المسالمة.

فجأة أجفل الرئيس. فتح الرسالة بين يديه، محملقًا بها، مصدومًا ومركزًا انتباهه بينما الكلمات تتدافع أمام ناظريه وعقله كالرصاص.

سيدي وصديقي العزيز:

هذا مضحك حقًا. لقد تسبب مجددًا ابن أختي العنيد هذا الذي ورث شخصيته من قوم أبيه، ما دامت لا تشبهني بشيء- بالمتاعب لي ولك. إنه ذلك المعبر اللعين مجددًا. لقد جاء إلي منطقتنا رجل أبيض آخر لكي يصطاد بسلام كما ظننا، وبما أن غابة الرب والغزلان التي يضعها فيها هي ملك للجميع. لكنه هو أيضًا بات مهووسًا بفكرة امتلاك المعبر بعد أن سمع بابن جنسه الذي، على غرار التقليد الفضولي والمستمر للبيض، وجد جانبًا واحدًا من النهر متفوقًا كفاية علي الجوانب الأخرى بحيث يقوم الناس بدفع المال له لكي يمروا. فتمت المسألة مثلما يشتهي هذا الرجل الأبيض. ربما كنت مخطئًا، ستقول. لكن ها أحتاج إلي أن أقول لك؟ أنا رجل بسيط، وقريبًا سأصبح عجوزًا بكل تأكيد، والتدخل المستمر لأولئك الرجال البيض الذين يرغبون في العبور وجمع النقود والاهتمام بها هو مجرد إزعاج. إذ ما الذي يمكن أن يمثله المال لي، وأنا قدري أن أنفق سنواتي الآفلة تحت الأشجار القديمة التي قام صديقي وزعيمي الأبيض العظيم بإزالة وجه كل عدو من أفيائها، خلا وجه الموت؟ هذه كانت فكرتي، لكن حين تقرأ أكثر سترى ماذا حدث.

مرة أخرى هو هذا الفتي المتهور والعنيد. يبدو أنه تحدي الرجل الأبيض الجديد هذا (أو الرجل الأبيض تحداه؛ سأترك الحقيقة لحكمتك النافذة لكي تحلها) لمباراة سباحة النهر، والرهان هو المعبر الملعون إياه مقابل بضعة أميال من الأرض التي (هذا سيميتك من الضحك) لا يملكها ابن أختي المتحمس هذا. تم السباق، لكن لسوء الحظ فشل رجلنا الأبيض في الخروج من النهر إلا ميتًا.

والآن وصل مفوضك، ويبدو،أنه يشعر بأن هذا السباق لم تكن إليه حاجة ربما، وما كان

يجب أن يجري من الأساس. والآن ليس أمامي ما أفعله سوي أن أحرك عظامي القديمة وأحضر هذا الفتي المتهور إليك لكي تقوم بتأديبه. سوف نصل في غضون...

مد الرئيس ذراعه إلي الجرس وسحبه بعنف. حين وصل مساعده أمسكه من كتفيه وقاده إلي الباب ثانية.أحضر لي وزير الدفاع، وخرائط كل المناطق من هنا حتى نيو أورلينز، صرخ كالمجنون،بسرعة.

وهكذا رأيناه ثانية؛ اختفي الرئيس وحل محله القائد العسكري الذي وقف بجانب وزير الحرب خلف طاولة الخرائط، مقابلهم وقف قائد سلاح الفرسان. علي الطاولة انهمك الوزير في الكتابة بينما الرئيس ينظر إلي الخلف.اكتب بخط كبيرقال،بحيث يكون الكلام واضحًا حتى للنهود. فليكن معلومًا للجميع، أن فرانسيس ويديل وورثته، والمنحدرين منه من الآن فصاعدا وإلي الأبد...لا يحق لهم...هل كتبت لا يحق لهم؟ حسنًا، لا يحق لهم عبور الجانب الشرقي من النهر المشار إليه أعلاه... والآن اكتب لمفوض الحكومة اللعين، قال،ينبغي أن تكون الإشارة مضاعفة، علي جانبي المعبر: الولايات المتحدة الأمريكية لا تتحمل مسؤولية أي رجل أو امرأة أو طفل، أسود كان أم أبيض أم اصفر أم أحمر، يعبر هذا المعبر، ولا يحق لأي رجل أبيض شراء أو استئجار أو قبول هدية تحت طائلة العقوبة القصوى. هل يمكنني فعل ذلك؟

قال الوزير:

-أخشي أن لا، يا صاحب الفخامة.

قال الرئيس بسرعة:

-اللعنة.. احذف هذا الجزء الأخير إذن. ففعل الوزير. طوى الرئيس الورقتين وسلمهما إلي قائد سلاح الفرسان وقال له:اذهب، أوامرك هي أن توقفهم

قال الكولونيل:

-افترض أنهم امتنعوا عن التوقف، هل أطلق الرصاص عليهم؟.

قال الرئيس:

-أجل أطلق الرصاص علي كل حصان، وبغل وثور. أعرف أنهم لن يأتوا سيرًا علي الأقدام فلننطلق الآن

خرج الكولونيل. استدار الرئيس نحو الخرائط- وهو ما يزال متخذًا وضعية الجندي: متحمس،سعيد، كأنما يقود الفرقة بنفسه، أو كأنه قام روحيًا بنشر الجنود بمكر ودراية

عميقـة في المـكان الـذي لا يكـون في صالـح العـدو أبـدا، ووصـل قبله،سـيكون هناكقـال، ووضـع إصبعـه عـلي الخريطة،حـضر الحصـان أيهـا الجـنرال، حيـث أسـتطيع أن أواجهـه عنـد النقطـة وأرده عـلى أعقابـه خاسـئا.

أجاب الوزير:

-أمرك أيها الجنرال.

شمس الليل
وليام فولكنر

ها هو ذلك الضجيج مرة أخرى، يوم الاثنين في جيفرسون، لا يختلف عن أي يوم آخر من أيام الأسبوع، فالشوارع أصبحت الآن مسفلتة، وشركات الاتصالات والكهرباء تعبد الطريق كل يوم، بقطع المزيد من الأشجار المظللة - البلوط المائي والقيقب والخرنوب والدردار، لإفساح الطريق أمام الأعمدة الحديدية، التي تحمل عناقيدًا شبحية منفوخة لا حياة لها ولا تجري فيها الدماء. كما أصبح لدينا مغسلًا للملابس، يقوم بجولاته صباح الاثنين ليجمع أكوام الثياب في سيارات خاصة، مبهرجة الألوان، تهرب بملابس الأسبوع المغبرة مثل الأشباح خلف الأبواق الكهربائية الصاخبة للسيارات، حتى نساء العبيد اللواتي ما زلن يغسلن ثياب البيض، بحسب العادات القديمة، صرن ينقلن الملابس في هذه السيارات، وسط أصوات كاوتشوك الإطارات وهي تفرمل على الأسفلت مثل أصوات تمزيق الحرير.

قبل خمسة عشر عامًا كانت الشوارع الهادئة المغبرة والمظللة، صبيحة الاثنين تمتلئ عادة بنساء العبيد، وهن يوازن على رؤوسهن المعممة أعمدة من كتل الثياب المربوطة في ملاءات، يصل حجم بعضها إلى حجم بالات القطن في الحقل، ويسرن بها دون أن تلمسها أيديهن بين أبواب مطابخ البيض وقدور الغسيل السوداء قرب مداخل الأكواخ في نيجروهولو.

كانت (نانسي) تؤدي عملها في انتظام. تضع كومة الغسيل على رأسها، ومن فوق الكومة تركز قبعة القش البحرية السوداء التي كانت ترتديها صيفًا وشتاءً، كانت طويلة ذات وجه عال حزين غائر قليلًا حول فمها الذي فقد أسنانه، كنا أحيانًا نرافقها جزءًا من الطريق أسفل الممر الضيق ومن ثم عبر المرعى لنراقب الكومة المتوازنة، والقبعة التي لم تهتز قيد أنملة. حتى وهي تعبر الخندق، وتتسلق مرة أخرى أو حين تنحني لتمر عبر السياج. كانت تنزل على يديها وركبتيها، وتزحف عبر الفتحة ورأسها صلب، شامخ لا يتزحزح والكومة ثابتة كالصخرة أو كالبالون ثم تنهض على قدميها وتتابع السير.

أحيانًا كان معشر الرجال من أزواج النسوة الغسالات يقومون بإحضار الغسيل، ولكن (جوبا) لم يكن ليفعل ذلك ل(نانسي)، حتى قبل أن يخبره والدي بأن يبقى بعيدًا عن دارنا وحتى عندما كانت (ديلسي) مريضة، وكانت (نانسي) تأتي لتطبخ لنا الطعام.

وبعد مضي نصف الوقت اللازم لعبورنا أسفل الممر الضيق إلى منزل (نانسي) كي نخبرها، كي تأتي وتُحضّر الفطور، كنا نقف عند الخندق، لأن أبي يقول لنا أن لا نتعاطى بشيء مع (جوبا)، الذي كان رجلًا أسود قصيرًا على وجهه أثر لضربة مطواة، وكنا نرمي الأحجار على بيت (نانسي) حتى تطل من الباب، وتقف مستندة إليه وهي عارية تمامًا.

-ماذا تعنون بهذا؟ ترجمون بيتي بالحجارة، ماذا تريدون أيها الأبالسة الصغار؟

يجيبها (كادي):

-يقـول والـدي بـأن تـأتي وتحـضري الفطـور، ذلـك أنـه قـد مضـت نصـف سـاعة عـلى الوقـت ويجـب أن تـأتي في هـذه الدقيقة..فـورا.

أجابت (نانسي) وهي تتثاءب بصوت مسموع:

-لا أريد أن أحضر أي فطور، أريد أن أكمل نومي.

قال جاسون:

-أراهن أنك ثملة. يقول والدي أنك ثملة. ألست ثملة يا (نانسي)؟

-من يقول ذلك؟ دعه يقول. أريد أن أنام الآن. لن أحضر أي فطور.

بعـد ذلـك نتوقـف عـن رجـم دارهـا، ونعـود إلى بيتنـا، وعندمـا تـأتي هـي أخـيرًا يكـون الوقـت قـد تأخـر عـلى ذهـابي إلى المدرسـة، وكنـا نظـن أن سـبب ذلـك هـو الويسـكي. إلى أن جـاء اليـوم الـذي اعتقلوهـا فيـه مـرة أخـرى، وعـلى طريـق السـجن مـروا بالسـيد سـتوفال، الـذي يعمـل أمـين صنـدوق في البنـك، وشماسًـا في الكنيسـة الإنجيليـة وعندهـا بـدأت (نانـسي) بالـصراخ:

-متـى سـتدفع لي أيهـا الرجـل الأبيـض؟ متـى سـتدفع لي أيهـا الرجـل الأبيـض؟ لقـد مـرت ثـلاث مـرات، منـذ أن دفعـت لي سـنتًا واحـدًا.

لكـن السـيد سـتوفال أوقعهـا أرضًـا، بينـما اسـتمرت في قـول:متـى سـتدفع لي أيهـا الرجـل الأبيض لقـد مـرت ثـلاث مـرات منـذ...- إلى أن ضربهـا السـيد سـتوفال عـلى فمهـا، وسـقطت (نانـسي) في الشـارع وهـي تضحـك. اسـتدارت (نانـسي) وبصقـت بعـض الـدم والأسـنان وقالـت: لقـد مـرت ثـلاث مـرات ولم يدفـع لي سـنتًا واحـدًا.

هكـذا فقـدت (نانـسي) أسـنانها، ومـر النهـار والجميـع يتحدثـون عـن (نانـسي) والسـيد (سـتوفال)، كان العابـرون قـرب السـجن يسـمعونها طـوال الليـل، تغنـي وتزعـق وكانـوا يـرون يديهـا معلقتـين بقضبـان النافـذة. وقـف العديـد منهـم قـرب السـياج يسـتمعون لهـا وللسـجان وهـو يحـاول أن يخرسـها. لم تسـكت إلى مـا قبـل طلـوع النهـار، عندمـا بـدأ السـجان يسـمع أصـوات ارتطـام وكشـط في الأعـلى. عندمـا صعـد وجـد (نانـسي) معلقـة عـلى قضيـب النافـذة، قـال أن السـبب هـو الكوكايـين وليـس الويسـكي لأنـه لا يوجـد أسـود يحـاول الانتحـار. إلا إذا كان دمـه محشـو بالكوكايـين، لأن الأسـود الـذي يمتلـئ بالكوكايـين لا يعـود أسـود ثانيـة! أنزلهـا السـجان وأنعشـها حتـى عـادت للوعـي وللحيـاة ثـم أوسـعها جلـدًا وضربًـا، حاولـت شـنق نفسـها بثوبهـا، كانـت قـد ثبتتـه تمامًـا، لكـن عندمـا تـم اعتقالهـا لم يكـن عليهـا سـوى هـذا الثـوب، لـذا لم يكـن

لديها شيء لتربط يديها به، لم تستطع أن تفلت يديها من إفريز النافذة. لذا عندما سمع السجان الأصوات صعد راكضًا ووجد (نانسي) مدلاة من الشباك عارية تمامًا.

عندما كانت (نانسي) تطبخ لنا، كنا نرى مريولها منفوخًا. كان هذا قبل إخبار والدي (جوبا)، بأن يبقى بعيدًا عن المنزل. كان (جوبا) يجلس في المطبخ خلف الموقد، وندبة السكين على وجهه الأسود كقطعة سلك قذرة. قال إن (نانسي) تضع تحت ثوبها بطيخة. كان الفصل شتاءً وسأله (كادي):

-وهل يوجد بطيخ في الشتاء؟

-أنا لم آت بها، أنا لم أعطها إياها ولكني أستطيع أن أنزلها كما كانت بالضبط.

قالت (نانسي):

-ما الذي يجعلك تتكلم هكذا أمام هؤلاء الأطفال؟ لماذا لا تذهب إلى عملك؟ هل تريد أن يقبض عليك السيد جاسون، وأنت تتجول حول المطبخ وتتكلم بهذه الطريقة أمام الأطفال؟

رد عليها (كادي):

- يتكلم بأي طريقة يا (نانسي)؟

وقال (جوبا):

-لا أستطيع أن أبقى حول مطبخ الرجل الأبيض. ولكن الرجل الأبيض يستطيع أن يبقى في مطبخي. ويستطيع الرجل الأبيض أن يأتي إلى بيتي، ولا أستطيع أن أمنعه. عندما يأتي الرجل الأبيض إلى داري، لن يكون لدي دار. فأنا لا أستطيع منعه وهو يستطيع أن يطردني خارجه. ولا يجب أن يفعل هذا.

كانت دلسي مريضة منذ وقت طويل، وكنا نحن في المكتبة بعد العشاء. كانت دلسي ما تزال معتلة في كوخها بينما أمر والدي (جوبا) بالبقاء بعيدًا عن المكان. وقالت أمي:

-ألم تنتهي (نانسي) بعد؟ يبدو لي أنها أمضت وقتًا طويلًا في غسيل الأطباق. ليذهب كوينتين وير، اذهب لترى إذا كانت (نانسي) قد انتهت، يجب أن تعود إلى بيتها.

عندما ذهبت إلى المطبخ، كانت الأطباق مرفوعة والنار مطفأة، أما (نانسي) فقد انتهت من عملها، وجلست على كرسي بجانب المدفأة الباردة. نظرت إليَّ فقلت لها:

-إن أمي تسأل إذا كنت قد انتهيت.

-نعم لقد انتهيت.

-ماذا هناك؟

-ما أنا إلا زنجية، إن هذه ليست غلطتي.

ثـم نظـرت إليّ وهـي تجلـس عـلى المقعـد بجانـب المدفـأة البـاردة، تعتمـر قبعتهـا البحريـة. كانـت المدفـأة البـاردة، وكل شيء ولكنـك عندمـا تفكـر بالمطبـخ تـراه دافئـًا ومزدحـمًا ومرحـًا. والآن أصبـح الموقـد بـاردًا، والأطبـاق مرفوعـة ولا يوجـد أحـد ليـأكل في تلـك السـاعة.

-هل انتهت؟

-نعم يا أمي.

-ماذا تفعل؟

-إنها لا تفعل شيئًا لقد انتهت.

-سأذهب لأرى.

-ربما تنتظر (جوبا) ليأتي ويصطحبها إلى البيت.

-(جوبـا) ذهـب. فقـد أخبرتنـا (نانـسي) كيـف أنهـا اسـتيقظت ذات صبـاح وكان (جوبـا) قـد اختفـى.

قالت (نانسي):

-لقد تركني، وذهب إلى ممفيس على ما أظن، مراوغًا شرطة المدينة على ما أظن.

-ونعم الخلاص، آمل أن يبقى هناك.

-إن (نانسي) تخاف من الظلام.

-وأنت كذلك.

-أنا لست كذلك!

-أيها القطة المرعوبة!!

-أنا لست قطة مرعوبة.

قالت أمي:كفا!، بينما قال أبي:-سوف أسير عبر الممر الضيق مع (نانسي)

-إنها تقول أن (جوبا) قد عاد.

سألت أمي: هل رأيته؟

-لا، جاء شاب أسود وأبلغها بأنه قد عاد إلى البلدة، لن أمكث طويلًا.

-تتركني لوحدي، لترافق (نانسي) إلى بيتها؟ هل سلامتها أعز عندك من سلامتي؟

-لن أتأخر كثيرًا.

-هل تترك هؤلاء الأطفال الضعاف بدون حماية من أجل تلك السوداء؟

هتف (كادي):

-أنا ذاهب أيضًا، دعني أذهب يا أبي.

-ماذا سيفعل بهم إذا كان حظه سيئًا لدرجة الحصول عليهم؟قالها أبي، وهتف (جيسون):

-أنا أريد أن آتي أيضًا!

صاحت أمي في (جيسون) موجهة حديثها إلى أبي – يمكنك أن تشعر من الطريقة التي نظرت بها إليه، بأنها تظن أن أبي كان يقدح زناد فكره طوال اليوم، بأن يفعل أكثر شيء تكرهه. وأنها كانت تعلم طوال الوقت أنه سوف يفكر فيما يفعله بعد فترة. لكنها ظلت على هدوءها، لأن أبي وأنا كنا نعلم بأن أمي تريدني أن أبقى معها، لو فكرت بالأمر في وقته. لقد كنت أنا أكبرهم وفي التاسعة من عمري، كان (كادي) في السابعة، و(جيسون) في الخامسة، لذا لم ينظر والدي إليّ، لكنه قال:

-اطمئني، لن نتأخر.

اعتمرت (نانسي) قبعتها، وعندما وصلنا إلى الممر الضيق، قالت:

-لقد كان (جوبا) لطيفًا معي. كلما كان في جيبه دولاران كان أحدهما لي.

سرنا عبر الممر. وقالت:

-سأكون بخير عندما أستطيع عبور الممر حينها فقط سأكون بخير.

قال (كادي):يبدو الممر معتمًا دائمًا. بسبب هذا أصيب (جيسون) بالهلع في عيد الهالوين.

صاح (جيسون) محتجا:أنا لم أخف!

وقال أبي:ألا تستطيع العمة راشيل أن تفعل معه شيئًا؟

كانت العمة راشيل عجوزًا، تعيش في كوخ بقرب كوخ (نانسي)، لها شعر أبيض وتدخن الغليون على باب بيتها طوال النهار. وهي لم تعد تعمل أبدًا، يقولون إنها والدة (جوبا) وكانت تعترف أحيانًا بذلك، في حين كانت في أحيان أخرى تنكر أي صلة قرابة لها مع (جوبا).

-نعم لقد خفت، إنك تخاف أكثر من فروني، لقد خفت حتى أكثر من تي. بي وخفت

أكثر من الزنوج.

قالت (نانسي):لا يستطيع أحد أن يفعل معه شيئًا، إنه يقول بأنني أصحي الشيطان فيه ولا يعيده إلى هدوئه إلا شيء واحد.

قال أبي:حسنًا، لقد ذهب الآن، لا يوجد شيء تخافين منه. لو يمكنك فقط أن تتركي الرجال البيض بحالهم

-كيف تترك الرجال البيض فقط؟ كيف تتركهم؟

ردت (نانسي):إنه لم يذهب إلى أي مكان، إني أشعر به، إنني أشعر به الآن في هذا الممر الضيق وأنه يسمع حديثنا وكل كلمة. أنه يختبئ في مكان ما وينتظر. لا أراه ولا أريد أن أراه مرة أخرى، وهو يحمل ذلك السكين المدلى بسلك وراء ظهره، داخل القميص ولن أدعه لا يفاجئني.

ردد (جيسون):لم أكن خائفًا!

قال أبي: لو أحسنت التصرف لكنت في غنى عن هذا كله، ولكن لا بأس، الآن على الأرجح أنه في سانت لويس وربما تزوج امرأة أخرى، نسى أمرك.

قالت (نانسي): إذا فعل ذلك فالأفضل لي أن لا أعرف، لأني سأقف هناك وأقطع ذراعه كلما حاول أن يضمها إليه، أو أقطع رأسه وأشق بطنها وسوف...

قال أبي: -اخرسي!

بينما سأل (كادي): تشقين بطن من يا (نانسي)؟

قال (جيسون): لم أكن خائفًا! وأستطيع أن أسير الآن بمفردي في هذا الممر.

-نعم. لن تجرؤ أن تضع قدمك فيه لو لم نكن نحن معك.

كانت (ديلسي) ما تزال مريضة، لذا بقينا نحضر (نانسي) كل ليلة، إلى أن قالت أمي:

-إلى متى سيستمر هذا الأمر، أن أترك لوحدي في هذا البيت الكبير وأنت تذهب لترافق زنجية مرعوبة إلى منزلها؟

أقمنا لـ (نانسي) في المطبخ فراشًا من القش. وفي إحدى الليالي، صحونا بعدما سمعنا صوتًا قادمًا من الدرج المظلم في الأعلى، لم يكن صوت بكاء. هناك ضوء في غرفة أمي، سمعنا أبي ينزل إلى القاعة أسفل الأدراج الخلفية. ذهبت أنا و(كادي) إلى القاعة، كانت الأرضية باردة، كنا نحاول إبعاد أصابع أقدامنا بعيدًا عن الأرضية الباردة، نحن نستمع إلى الصوت.

كان يشبه الغناء ولكنه ليس بالغناء، كان أحد تلك الأصوات، التي تصدر عن الزنوج. ثم

توقف الصوت، وسمعنا والدي يصعد الدرج الخلفي مرة أخرى، ذهبنا إلى رأس الدرج، عاد الصوت مرة أخرى في ممر الدرج. لم يكن عاليًا واستطعنا رؤية عيني (نانسي) في منتصف الدرج قرب الجدار، كانت عيناها تشبهان عينا قط. مثل قط كبير، يرقبنا من اتجاه الجدار عندما نزلنا الدرج حيث تجلس، توقفت عن إصدار الصوت، بقينا واقفين حتى عاد أبي من المطبخ، ومسدسه في يده. عاود النزول إلى أسفل مع (نانسي) ثم عاد وهو يحمل فراشها.

وضعنا الفراش في غرفتنا بعد أن انطفأ النور في غرفة والدتي، ورأينا عيني (نانسي) مرة أخرى.

همس (كادي):(نانسي) هل أنت نائمة؟

همست (نانسي) شيئًا: مثل آه أو لا، أعلم وكأن أحدًا لم يقلهما، أو أنهما قدمتا من مكان غير معروف، وذهبتا إلى مكان آخر غير معروف، وكأن (نانسي) لم تكن هناك أبدًا.

كنت أنظر إلى عينيها عند الدرج بحدة، شعرت وكأنهما انطبقتا على جفني، مثلما تفعل الشمس، عندما تغمض عينيك ولا تراها. همست (نانسي):

-يا إلهي!

-هل هو (جوبا)، هل حاول أن يدخل إلى المطبخ؟

-يا إلهي!

وظلت ترددها إلى أن اختفى الصوت كما يختفي ضوء الشمعة.

-هل تستطيعين رؤيتنا يا (نانسي)؟وهي تستطيعين رؤية أعيننا أيضًا؟

-أنا لست إلا زنجية سوداء، الله أعلم.

-ما الذي رأيته في المطبخ؟ من الذي حاول الدخول؟

-الله أعلم.

وكنا نستطيع رؤية عينيها. لقد تحسنت حالة (ديلسي) وجهزت لنا الغداء، وقال لها أبي:

-تستطيعين أن تبقي في الفراش يومًا أو يومين آخرين.

- لا يمكن! لو تأخرت يومًا أو يومين، لتحول هذا المكان إلى زريبة، اخرجوا من هنا الآن ودعوني أعيد تنظيم مطبخي مرة أخرى.

جهزت (ديلسي) العشاء أيضًا في تلك الليلة قبل حلول الظلام. وجاءت (نانسي) إلى المطبخ.

-كيف تعرفين أنه عاد؟ فإنك لم تريه.

-(جوبا) أسود.

-إنني أشعر به، أشعر به مختبئًا في ذلك الجب.

-الليلة؟ هل هو هناك الليلة؟

-(ديلسي) زنجية أيضًا.

-حاولي أن تأكلي شيئًا.

-لا أريد شيئًا.

-أنا لست زنجيًا.

صبت لـ(نانسي) فنجانًا من القهوة، وأضافت:

-هل تعلمين أنه هناك الليلة؟ وكيف تعلمين ذلك؟

قالت (نانسي):

-أنا أعلم أنه هناك ينتظر، أعلم ذلك علم اليقين، لقد عشت معه طويلًا وأعرف ماذا يريد أن يفعل حتى قبل أن يعرف هو.

غمغمت (ديلسي):

-تناولي بعض القهوة.

رفعت (نانسي) الفنجان إلى فمها، نفخت فيه وخرج فمها منه، كالأفعى تفح، وكأنه فم مطاطي أو كأنها لم تبق من شفاهها أي لون وهي تنفخ في القهوة.

قال (جيسون):

-إني لست أسود، وأنت سوداء يا (نانسي).

-يا الله، لقد ولدت هكذا يا بني. وقريبًا لن أكون شيئًا، سأعود قريبًا من حيث أتيت.

بدأت تشرب قهوتها، وهي تمسك الفنجان بيديها الاثنتين، ثم بدأت بإصدار ذلك الصوت مرة أخرى. أطلقت الصوت داخل الفنجان فسقطت القهوة على يديها وثوبها وكانت عيناها تنظر إلينا، وهي جالسة منحنية تستند على ركبتها تمسك الفنجان بكلتا يديها وتنظر من خلال الفنجان المبتل وتطلق هذا الصوت.

قال (جيسون):

-انظر إلى (نانسي)، إنها لن تطبخ لنا الآن فقد عادت (ديلسي) إلى صحتها.

هتفت (ديلسي):

-اخرس أنت!

في حين كانت (نانسي) تطلق ذلك الصوت، وهي تنظر إلينا ممسكة الفنجان بكلتا يديها، وبدت كأن هناك اثنتين منها واحدة تنظر إلينا والأخرى تصدر ذات الفحيح. توقفت (نانسي) عن الشرب، وهي ما تزال ممسكة بالفنجان بيديها السمراوين، وحاولت أن تشرب القهوة مرة أخرى، ولكن سكب الفنجان على يديها وعلى ثوبها. فوضعته جانبًا في حين مضى (جيسون) يتأملها.

-لا أستطيع، إنني أحاول ابتلاعها ولكنها لا تنزل.

قالت (ديلسي):

-انزلي إلى الكوخ، سيجهز لك (فروني) فراشًا وسأوافيك بعد قليل.

سألتها (نانسي):

-ألن يوقفه أي زنجي؟

قال (جيسون):

-أنا لست زنجيًا، هل أنا كذلك يا (ديلسي)؟

-لا أظن ذلك! ماذا ستفعلين الآن؟

حملقت (نانسي) فيها، وكانت عيناها تدوران بسرعة دون أن تتحرك، كانت خائفة من أن لا تجد الوقت لتنظر، وتحدق بنا نحن الثلاثة في وقت واحد ثم قالت:

-هل تذكرون تلك الليلة التي نمت فيها في غرفتكم؟

أخبرتنا كيف استيقظنا في اليوم التالي، ولعبنا بهدوء على فراشها إلى أن استيقظ أبي وصار لزامًا عليها أن تنزل لتحضير الفطور.

-اذهبوا واسألوا أمكم إذا كنت أستطيع البقاء هنا الليلة. أنا لا أريد فراشًا ويمكننا أن نلعب المزيد.

سأل (كادي) أمي وكذلك (جيسون).

-لا أستطيع أن أترك سودًا ينامون في بيتي.

ظل (جيسون) يبكي إلى أن هددت أمي بأنه لن يتناول الحلوى لثلاثة أيام، إذا لم يتوقف

عـن البـكاء. عندهـا قـال أنـه سـيتوقف إذا قامـت (ديلـسي) بصنـع كعكـة شـيكولاتة، وكان أبي واقفًـا هنـاك.

-لماذا لا تفعل شيئًا حول الموضوع؟قالت أميلماذا يوجد رجال شرطة هنا؟

قال (كادي):

-لماذا تخاف (نانسي) من (جوبا)؟ هل تخافين من أبي يا أمي؟

وقال أبي:

-ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ إذا كانت (نانسي) لم تره بعد فكيف يمكن للضباط أن يروه؟

-إذن لماذا كل هذا الخوف من طرفها؟

-تقول إنه هنا، تقول إنها تعلم أنه الليلة هنا.

-ومـع ذلـك فنحـن ندفـع الضرائب.كانـت هـذه مـن أمي،وأنـا عـلي أن أنتظـر هنـا في هـذا البيـت الكبـير وحـدي، بينـما أنـت ترافـق امـرأة سـوداء لبيتهـا.

-إنك تعلمين أنني لا أبيت الليل في الخارج، ومعي سكين!

-سوف أتوقف إذا صنعت (ديلسي) كعكة شيكولاتة!

أمرتنـا أمـي بالخـروج وقـال أبي لـ(جيسـون) إنـه لا يعلـم إذا كان سـيحصل عـلى كعكة شـوكلاته أم لا ولكنـه يعلـم مـا الـذي سـيلاقيه (جيسـون) بعـد دقيقـة، عدنـا جميعًـا إلى المطبـخ وأخبرنـا (نانـسي). قـال لهـا أبي أن عليهـا العـودة للبيـت وتوصـد البـاب وسـوف تكـون بخـير، وقـال (كادي):

-هل (جوبا) غاضب منك؟

كانـت (نانـسي) تحمـل فنجـان القهـوة بـين يديهـا، تسـتند عـلى ركبتيهـا والفنجـان بينهـما وكانـت تنظـر في الفنجـان.

-ماذا فعلت حتى غضب منك (جوبا)؟

أفلـت الفنجـان مـن بـين يـدي (نانـسي)، وسـقط عـلى الأرضيـة ولم ينكـسر، لكـن القهـوة اندلقـت. جلسـت (نانـسي)، وقـد لفـت يديهـا عـلى هيئـة فنجـان، ثـم بـدأت بإطـلاق ذلـك الصـوت مـرة أخـرى، ليـس عاليًـا كأنهـا تغنـي ولا تغنـي وأخذنـا نراقبهـا.

هتفت (ديلسي):

-هيـا توقفـي عـن هذا..تمالـكي نفسـك وانتظـري هنـا فسـوف أطلـب مـن فـيرني أن يرافقـك إلى المنـزل.

ثـم خرجـت (ديلـسي) ونظرنـا إلى (نانـسي)، كانـت كتفاهـا ترتجفـان. ولكنهـا توقفـت عـن إطـلاق الصـوت. ظللنـا نراقبهـا. وقـال (كادي):

-ماذا سيفعل لك (جوبا)؟

نظرت (نانسي) إلينا:

-لقد غادر!

-لقد تمتعنا في تلك الليلة التي أمضيتها في غرفتكم أليس كذلك؟

قال (جيسون). -كلا. أنا لم أتمتع.

وقال (كادي): -لقد كنت نائمًا! إنك لم تكن معنا.

قالت (نانسي):-لنذهب إلى منزلي ونتمتع أكثر إذن!

قلت لها: -إن أمي لن تسمح لنا، كما أن الوقت متأخر الآن.

-لا تقلقوها سوف نخبرها في الصباح، لن تقلق كثيرًا!

-إنها لن تسمح لنا.

قالت (نانسي): -لا تطلب منها الآن. لا تزعجها.

وقال (كادي):-لم يقولا بأننا لا نستطيع الذهاب.

قلت له:-لأننا لم نسأل!

قال (جيسون):-إذا ذهبتما فسوف أخبر عنكما!

-سـوف نتمتـع كثـيرا، ولـن يباليـا كثـيرًا، فقـط إلى بيتـي. لقـد عملـت عندكـم وقتًـا طويـلًا، لـذا فهـما لـن يباليـا.

-أنا لست خائفًا من الذهاب، (جيسون) هو الذي يخاف، وسوف يخبر عنا.

قال (جيسون):أنا لست خائفًا!

قال (كادي):بل أنت خائف، وسوف تخبر عنا.

-أنا لن أخبر عنكم ولست خائفًا.

-(جيسون) لا يخشى بأن يذهب معنا، هل أنت خائف يا (جيسون)؟

كان الممر الضيق معتمًا، ممرنا عبر بوابة المرعي. وقال (كادي):

-إذا قفز علينا شيء من خلف ذلك الباب، فإن (جيسون) سوف يولول.

-لن أفعل ذلك!

سرنا عبر الممر الضيق، فيما كانت (نانسي) تتكلم بصوت مرتفع.

-لماذا تتكلمين بصوت مرتفع هكذا يا (نانسي)؟

-اسمعوا! كوينتين و(كادي) و(جيسون) يدّعون بأني أتكلم بصوت مرتفع.

-إنك تتكلمين وكأننا أربعة هنا، تتكلمين وكأن أبي هنا أيضًا.

-من؟ أنا أتكلم بصوت مرتفع يا سيد (جيسون)؟

-لقد نادت (نانسي) (جيسون) بلقب سيد.

-اسمعوا كيف يتكلم (جيسون) وكوينيتين و(كادي).

-إننا لا نتكلم بصوت مرتفع، بل إنك أنت التي تتكلمين وكأن أبي.

-صه. اسكت يا سيد (جيسون).

كانت تتكلم بصوت مرتفع، عندما عبرنا الأخدود وانحنينا لنمر عبر السياج، الذي كانت تنحني لتمر خلاله حاملة الثياب على رأسها ثم وصلنا إلى بيتها. كنا نسير بسرعة وعندما فتحت الباب كانت رائحة البيت تشبه رائحة المصباح، أما رائحة (نانسي) فكانت كرائحة الفتيل. وكأنهما كانا ينتظران رائحة أخرى. أضاءت المصباح وأغلقت الباب وأقفلته بالمزلاج ثم بدأت تتكلم، لكن بصوت منخفض وهي تنظر إلينا:

-ماذا سنفعل؟

-ما الذي تريدون كلكم أن تفعلوه؟

-لقد قلت أننا سنستمع.

كان هناك شيء في منزل (نانسي)، شيء تستطيع شمه، حتى (جيسون) شم ذلك، هتف:

-لا أريد أن أبقى هنا، أريد أن أعود إلى البيت.

-إذن عُد.

-لا أريد أن أعود بمفردي.

-سوف نتسلى قليلًا!

-كيف؟

وقفت (نانسي) بجانب الباب وراحت تنظر إلينا، لكن هذه المرة كانت عيناها خاويتين

مـن كل شيء وكأنهـا توقفـت عـن اسـتعمالهما.

-ماذا تريدون أن تفعلوا؟

-هل تستطيعين أن تخبرينا قصة؟

-نعم.

-إذن احكي. ألا تعرفين أي قصص؟

ونظرنا جميعًا إلى (نانسي) التي غمغمت:

-نعم، أعرف.

جلسـت عـلى مقعـد بالقـرب مـن المدفـأة، هنـاك بعـض اللهـب. أوقدتهـا قليـلًا وأصبـح المـكان حـارًا نوعـا. لم نكـن نحتـاج إلى نـار فقـد، كان اللهـب كافيًـا. حكـت لنـا قصـة. كانـت تتكلـم وعيناهـا تراقبنـا، أو كأنهـا صوتهـا ليـس هـو صوتهـا، أو كأنهـا تعيـش في عـالم آخـر. تنتظـر في مـكان آخـر، وكأنهـا كانـت خـارج البيـت. صوتهـا وشـكلها كانـا خـارج البيـت، تلـك النانـسي التـي كانـت تنحنـي أسـفل السـياج، وهـي تحمـل بقجـة الثيـاب بتـوازن عـلى رأسـها وكأنهـا لا تحمـل وزنًـا أو كأنهـا تحمـل بالونًـا، كانـت هنـاك وكان هـذا كل شيء.

-..وهكـذا كانـت الملكـة تسـير صاعـدة إلى الأخـدود، وكان الرجـل الشريـر يختبـئ هنـاك، وكانـت تقـول: لـو أسـتطيع فقـط عبـور هـذا الأخـدود، هـذا مـا كانـت تقولـه.

-أي أخدود؟ أهو أخدود مثل ذلك الذي في الخارج؟

-لماذا تريد الملكة أن تدخل إلى الأخدود؟

-لكي تصل إلى بيتها..كان عليها أن تعبر الأخدود لكي تصل إلى بيتها.

-لماذا أرادت أن تذهب إلى بيتها؟

نظـرت (نانـسي) إلينـا ثـم توقفـت عـن الـكلام، كانـت سـاقا (جيسـون) بارزتـين خـارج بنطالـه بسـبب صغـر حجمـه وقـال:

-لا أظن أن هذه القصة جيدة، أريد أن أعود إلى البيت.

-ربما لدينا قصة أفضل، أظن أنهم يبحثون عنا الآن!

ثم اتجه نحو الباب.

-كلا. لا تفتح الباب.

نهضت بسرعة وسبقت (كادي) نحو الباب وقالت:

-لا تلمس الباب ولا المزلاج الخشبي.

-لم لا؟

-تعالوا إلى المصباح، سوف تتسلى. لا تذهبوا.

-إن علينا أن نذهب، إلا إذا تسلينا كثيرًا.

وعاد هو و(نانسي) نحو نار المصباح.

-أريد أن أعود إلى البيت. سوف أبلغ عنكم.

-أعرف قصة أخرى.

ووقفت بجوار المصباح ونظرت إلى (كادي) مثلما تكون عيناك تنظر إلى عود موضوع بتوازن على أنفك. كان عليها أن تنظر إلى الأسفل، لترى (كادي) ولكن عيناها كانتا هكذا كأنما يوازنان عودًا.

-لن أستمع إليها..سوف أطرق على الباب.

-إنها قصة جيدة، بل وأفضل من الأولى.

-عن ماذا تتحدث هذه القصة؟

كانت (نانسي) تقف بجوار المصباح، ويدها فوقه أمام الضوء طويلة وسمراء.

-إن يدك على هذه الكرة الساخنة. ألا تشعرين بحرارتها على يديك.

نظرت (نانسي) إلى يدها على لهب المصباح، ورفعتها ببطء، ووقفت هناك تنظر إلى (كادي)، وهي تلوي يدها وكأنها كانت مربوطة بخيط إلى معصمها.

-لنفعل شيئًا آخر.

-أريد أن أعود إلى البيت.

قالت (نانسي):

-إن لدي بعض الفشار.

ونظرت إلى (كادي)، ثم إلى (جيسون) ثم إلي ومن ثم إلى (كادي) مرة أخرى.

-إن لدي بعض الفشار.

-أنا لا أريد الفشار. أفضل الحلوى.

نظرت (نانسي) إلى (جيسون) وكانت لا تزال تلوي يدها الطويلة السمراء. وقالت:

-بإمكانك أن تمسك بوعاء تحميص الذرة.

-حسنًا، سوف أبقى إذا تمكنت من فعل ذلك.

أشعلت (نانسي) النار وقال (كادي):انظروا إلى (نانسي) إنها تضع يدها في النار، ما بالك يا (نانسي)؟

-إن لدي فشار.

وأخرجت وعاء التحميص من تحت السرير، كان مكسورًا فأخذ (جيسون) بالبكاء وقال لا يمكننا أن نحصل على فشار.

-علينا أن نعود إلى البيت على أية حال. هيا يا كوينتين.

-مهلا. انتظرا سوف أصلحه ألا تريدان مساعدتي في إصلاحه.

-لا أظن أنني أريد شيئًا، الوقت متأخر جدًا الآن.

-هل تساعدني يا (جيسون)؟ ألا تريد أن تساعدني؟

-كلاقال (جيسون):أريد أن أعود إلى البيت.

-صه، راقبني وانظر كيف يمكنني أن أصلحه، بحيث يمسكه (جيسون) ويحمص الذرة

ثم أحضرت قطعة سلك وأصلحت وعاء التحميص.

-إنه لن يمسك جيدًا.

-نعم سوف يمسك، انظروا جميعًا ستساعدونني في تقشير الذرة.

كانت الذرة موضوعة تحت السرير أيضًا، قمنا بتقشيرها ووضعها في وعاء التحميص، وساعدت (نانسي) (جيسون) في تثبيت الوعاء فوق النار.

-إنها لا تفرقع، أريد أن أعود إلى البيت.

-انتظر! سوف تبدأ بالفرقعة وعندها سوف تتسلى.

كانت تجلس بقرب النار، كان المصباح قد أدير عاليًا لدرجة أنه بدأ يدخن.

-لماذا لا تخفضين منه قليلًا؟قلت لها:

-إنه على ما يرام. سوف أنظفه، انتظروني سوف يكون الفشار جاهزًا خلال دقائق.

-لا أصدق أنه سيبدأ بالفرقعة، يجب أن نعود إلى البيت على أي حال، فإنهم سيقلقون علينا.

-كلا، سوف يفرقع، ستقول (ديلسي) لأمكم أنكم معي ولأنني عملت لديكم وقتًا طويلًا فهم لن يبالوا كثيرًا إذا كنتم في منزلي. والآن انتظروا فإن الفرقعة ستبدأ خلال دقائق.

دخل بعض الدخان في عيني (جيسون)، وبدأ يبكي ثم أسقط الحماصة في النار. أحضرت (نانسي) رقعة مبلولة، ومسحت وجه (جيسون) ولكنه لم يتوقف عن البكاء. لم يسكت. أخرج (كادي) وعاء التحميص من النار، وقال:

-لقد احترقت وعليك إحضار المزيد من الذرة يا (نانسي).

-هل وضعتها كلها فيها؟

-نعم.

نظرت (نانسي) إلى (كادي) ثم أخذت الحماصة من (كادي) وفتحتها وسكبت البوشار الأسود في مريولها. ثم أخذت تفرز الحبوب بيديها الطويلتين السمراوين فيما نحن جميعًا نراقب.

-أليس لديك المزيد؟

-نعم، انظروا! هذه لم تحترق وجميع ما نحتاج فعله...

-أريد أن أذهب إلى البيت، سوف أبلغ عنكم.

أخذنا نصغي جميعًا، كان رأس (نانسي) قد اتجه نحو الباب المغلق بالمزلاج، وعيناها تلمعان في ضوء المصباح الأحمر. وقال (كادي):

-صه! هناك شخص قادم.

عادت (نانسي) لإطلاق ذلك الصوت مرة أخرى بصوت غير مرتفع. كانت تجلس قرب النار ويداها الطويلتان تتدليان بين ركبتيها، وفجأة بدأ الماء يقطر من وجهها في نقاط كبيرة، ويسيل أسفل وجهها في كل نقطة، منه تجري كرة ضوء نارية إلى أن يصل إلى ذقنها.

-إنها لا تبكي.

-أنا لا أبكي.. من هناك؟

-لا أعلم.

ذهب (كادي) إلى الباب وأخذ ينظر.

-علينا أن نعود الآن إلى البيت ها هو أبي قادم.

-لقد أجبرتموني جميعًا على المجئ إلى هنا.

كان الماء ما يزال يجري على وجه (نانسي)، واستدارت في مقعدها ثم قالت:

-اسمعوا أخبروه أنكم استمعتم هنا، وأنني اعتنيت بكم جيدًا حتى الصباح. أخبروه أن يسمح لي بالذهاب معكم إلى البيت والنوم على الأرضية. أخبروه أنني لا أحتاج إلى فراش. سوف نستمتع معًا، فهل تذكرون كم استمتعنا في المرة الأخيرة؟

-أنا لم أستمتع أبدًا، إنك سببت لي الأذى وأدخلت الدخان في عيني.

دخل أبي ونظر إلينا.. لم تنهض (نانسي) لكنها قالت:

-أخبروه!

-لقد أحضرنا (كادي) إلى هنا، لم أكن أريد ذلك.

اقترب والدي من النار، ونظرت (نانسي) إليه فقال لها:

-ألا تستطيعين الذهاب إلى العمة راشيل والبقاء عندها؟

نظرت (نانسي) إلى أبي، كانت يداها بين ركبتيها. فقال أبي:

-إنه ليس هنا وإلا كنت رأيته، لم يكن هناك شخص واحد على الطريق.

-إنه في الأخدود ينتظر.

-كلام فارغ، هل تعلمين أنه هناك؟

-لقد وصلتني إشارة.

-أية إشارة؟

-لقد وصلتني. كانت موضوعة على الطاولة عندما دخلت، فقد كانت هناك عظمة خنزير، وعليها بعض اللحم والدم بالقرب من المصباح. إنه في الخارج هناك، وعندما تغادرون هذا الباب سأكون قد انتهيت.

-من الذي انتهى يا (نانسي).

-أنا لست بواشٍ.

-هراء!

-إنه هناك في الخارج ينظر من النافذة في هذه اللحظة ينتظر خروجكم جميعًا وعندها سأكون في خبر كان.

-كلام فارغ! اقفلي باب بيتك وسنأخذك عند العمة راشيل.

-لن ينفعني هذا الأمر بشيء.

-إذن ماذا تريدين؟

-لا أعرف، لا أستطيع أن أفعل شيئًا. فقط نسيان الأمر وهذا لن ينفعني بشيء، أظن أن الأمر عائد إلي، أظن أن ما سأناله هو عائد إلي.

-تنالين ماذا؟ ما الذي لك؟

-لا شيء..يجب أن تذهبوا جميعًا إلى النوم.

-لقد أجبرني (كادي) على الحضور إلى هنا!

-اذهبي إلى العمة راشيل.

-لن ينفعني بشيء، حتى إن مطبخكم لن ينفعني بشيء وحتى عندما أنام على أرضية الغرفة مع أولادك وفي الصباح التالي ها أنا والدم...

-اقفلي الباب وأطفئي النور واخلدي للنوم.

-إني أخاف من الظلام، أخاف أن يحدث الأمر في الظلام.

-هل تعنين أنك ستبقين جالسة هنا والأنوار مضاءة؟

بدأت (نانسي) تطلق الصوت نفسه مرة أخرى وهي جالسة أمام النار ويداها مدفونتان بين ركبتيها.

-آه يا الله! هيا يا أولاد حان وقت النوم.

-عندما تذهبون جميعًا، أذهب وسأكون ميتة غدًا..لقد وفرت بعض المال لكفني.

حمل أبي (جيسون) على ظهره، وخرجنا من باب منزل (نانسي)، وبقيت هي جالسة أمام النار. قال لها أبي:

-تعالي وضعي المزلاج.

لكنها لم تتحرك ولم تنظر نحونا مرة أخرى. تركناها مكانها بجوار النار وباب منزلها مفتوح حتى لا يحدث ما تخشاه في الظلام.

تحت نجوم المساء
وليام فولكنر

لا أعرف ماذا كنا بالضبط!

بدونـا كأمريكيـين. (كومـن) فقـط بـدت مختلفـة. ولكـن بعـد ثـلاث سـنوات، بالجاكـت البريطـاني، والأجنحـة الإنجليزيـة، والشرائـط الملونـة هنـا وهنـاك، لا أحسـب أننـا تجشـمنا عنـاء محاولـة معرفـة حتـى مـن نحـن، أو أن نفكـر في الأمـر، أو حتـى نتذكـره.

في تلـك الحيـاة، وفي ذلـك اليـوم، صرنـا أقـل مـن ذلـك حتـى، أو أكـثر: فأمـا أنـه كان في مؤخـرة وعينـا أو في الظاهـر أننـا لم نتسـاءل خـلال ثـلاث سـنوات. قـال حَاكِـم الإقليـم- الـذي التحـق بنـا بعـد فـتره معتمـرًا الطربـان، وشريطـة الرائـد تزيـن كتفيـه- إننـا أشـبه بأشـخاص يخوضـون في الماء!

-لكـن عـما قريـب سيفوح عفـن الكراهيـة والكلـمات. نحـن أشـبه برجـال يسـعون في المـاء، حابسـين أنفاسـنا، يـرى واحدنـا أطـراف الآخـر الكاملـة بالغـة الصغـر، في تيبّـس تـام دونمـا لمـس، دونمـا اتصـال، دونمـا أي شـئ عـلى الإطـلاق، لا شيء غـير العجـز والعـوز.

كنـا في السـيارة وقتهـا، متجهـين إلى آميـان. يقـود السـيارة (سرتـورس) وبجانبـه (كومـن)، رأسـه يعلـو أكـثر منـه بقليـل، ويهتـز ذات اليمـين وذات الشـمال كـرأس دميـة تحركهـا الخيـوط بينـما الحَاكِـم و(بلانـد) وأنـا في المقعـد الخلفـي، كل واحـد منـا يحمـل في جيوبـه قنينـة شراب أو اثنتـين، مـا عـدا الحَاكِـم. كان رجـلًا ربعـةً، قصـيرًا وممتلئًـا، لكنـه يتمتـع برجاحـة عقـل هائلـة. في ذلـك الشـلال العنيـف مـن الكحـول الـذي لذنـا بـه هربًـا مـن ذواتنـا المحمومـة المحتومـة، كان أشـبه بصخـرة، يتكلـم برويـة ونـبرة جديـة تـزن أربعـة أضعـاف حجمـه.

قال بلهجة العارف:

-في بلـدي كنـت أمـيرًا! لكـن بعـد اثنـي عـشر عامًـا أحسـب أننـا أشـبه بطفيليـات تطفـو عـلى سـطح المـاء، أعـزل، معـزول، لا هـدف لـه، ولا يعـرف الكلـل. ليـس عـلى سـطح المـاء بـل في صفحـة المـاء، في ذلـك الخـط الفاصـل الـذي ليـس هـواء ولا مـاء، أحيانًـا نغـوص تحـت المـاء وأحيانًـا نرتفـع فوقـه. لقـد رأيـت موجـه عملاقـة في جـون، حيـث تكـون الميـاه ضحلـة، والجـون جامـد صامـت، ومشـئوم بعـض الشـئ متخـم بالألفـة والحنـين، بينـما وراء خـط الأفـق الآخـذ في العتمـة تثـور مجـددًا العاصفـة الآخـذة في الـزوال، تلـك كانـت الميـاه ونحـن الحطـام العائـم. حتـى بعـد اثنـي عـشر عامًـا ليـس الأمـر أوضـح مـن ذلـك. ليـس مـن نهايـة لـه ولا بدايـة. مـن العـدم أفقنـا، مغفلـين العاصمـة التـي فررنـا منهـا، وجنـوح السـفينة المقـدر؛ ففـي الفـترة الزمنيـة الفاصلـة بـين

موجتـين غامرتـين متنـا، وكنـا أصغـر سـنًا مـن أن نكـون عـلى قيـد الحيـاة.

مررنـا بحانـة في منتصـف الطريـق لـكي نـشرب ثانيـة. كانـت الأرض تنعـس في الظـلام، هـذا جـلي وأدركتـه. سـمعت الأرض تتنفـس، كأنهـا تخـرج مـن أثـير العـدم، كأنمـا لا تعـرف بعـد، ولا تصـدق أنهـا مسـتيقظة.

قال الحَاكِم في نعومة بال:

-الآن حل السلام، وكل البشر إخوة وأحباب.

وقال (بلاند) متحمسا:

-لقد خطبت أمام الاتحاد ذات مرة.

(بلانـد) هـذا كان أشـقر، طويـل القامـة، عريـض المنكبـين. حـين يمـر بغرفـة فيهـا فتيـات يـترك وراءه تنهيـدة مثـل قـارب يدخـل في مزلـق السـفينة. وكان مـن أهـل الجنـوب مثـل (سرتـورس)، لكـن عـلى عكسـه خـلال الأشـهر الخمسـة التـي قـام فيهـا بطلعاتـه الجويـة لم تصـب طائرتـه بـأي رصاصـة. لكنـه نقـل مـن كتيبـه أوكسـفورد – حيـث درس بمنحـة رود – مـع نظـارات ووسـام الشـجاعة. حيـث يسـتبد بـه السـكر يبـدأ بالتكلـم عـن زوجتـه مـع أننـا جميعًـا نعلـم أنـه ليـس متزوجًـا.

أخذ القنينة من (سرتورس) وعب منها. وقال:

-لدي أحلى زوجة في العالم دعوني أخبركم عنها.

قال (سرتورس) وهو يغمز:

-لا تخبرنا، أعطها ل(كومن)، فهو يريد فتاة.

قال (بلاند) ببلادة:

-حسنًا، يمكنك الحصول عليها يا (كومن).

سأله (كومن):

-أهي شقراء؟.

قال (بلاند) هازا كتفيه:

-لا أعرف.

والتفت صوب الحَاكِم، وأردف:

-لقد تكلمت مرة أمام الاتحاد، نعم أذكر شيئا كهذا.

قال الحَاكِم:

-آه، أكسفورد. أجل.

تابع (بلاند):

يستطيع الانتساب إلى مدارس الأثرياء، أولئك أصحاب الجلود البيضاء، لكنه لا يستطيع قيادتهم، لأن الطبقية تتعلق باللون لا بالنسب أو السلوك.

قال الحَاكِم بحزم:

-القتال أهم من الحقيقة، فيجدر بنا أن نحصر هيبته وامتيازاته على الأقل بحيث لا يفقد شعبيته بوجود مثل هذا العدد الكبير من المضطرين إلى أن يلقوا حتفهم.

سألته لأعرف:

-لماذا هو أكثر أهمية؟ حسبت أننا نخوض هذه الحرب لكي ننهي الحروب إلى الأبد.

بدرت عن الحاكم إيماءة صغيرة، مبهمة، اعتراضية، رقيقة، دقيقة، وقال:

-كنت رجلًا أبيض في تلك اللحظة. القتال أكثر أهمية بالنسبة إلى الأبيض لأنه إلا ما يسعه فعله؛ إنه مجموعه.

-إذن أنت ترى أبعد مما نرى؟.

-حين يكون المرء في العتمة وينظر إلى الضوء يرى أكثر مما يرى وهو في الضوء وينظر إلى العتمة. هذا هو مبدأ منظار التجسس. هدف العدسة أن تستفزه فحسب، بما لا يمكن للإحساس بالعذاب والرغبة أن يؤكده.

سأله (بلاند):

-ما الذي تراه إذن؟.

قال (كومن) مجيبا:

-أرى فتيات، أرى فدادين وفدادين من شعورهن الصفراء كالسنابل، وأنا بين السنابل. هل رأيتم كلبًا يجس متشممًا بين السنابل؟.

قال (بلاند):ليس يبحث عن الإناث.

التفت (كومن) إلى الخلف، متينًا وضخمًا. كان ضخمًا كجميع الريفيين. كانت مشاهدة عاملي صيانة يحشرانه داخل كابينة طائرة من طراز دولفين يشبه مشاهدة خدّامتين تحشران وسادة في غطاء ضيّق جدا عليها. قال:

-سأبرحك ضربًا لقاء شلن.

تمتمت:

إذن أنت تؤمن بعدل الإنسان؟.

كرر (كومن) الوعيد:

-سأبرحكم جميعًا ضربًا لقاء شلن.

هنا قال الحَاكِم:

-أنا أؤمن بالحالة، ببؤس الإنسان. هذا تعبير أفضل.

قال (كومن):

-سأعطيكم شلنًا إذن.

وقال (سرتورس):

-حسنا، هل جرب أحدكم بعض الويسكي في نسيم الليل؟.

ثم أخذ (سرتورس) القنينة وعب منها، ثم قال:

-فدادين لا تنتهي منهن، وأثداؤهن الصغيرة المدورة تتلألأ بين السنابل.

شربنا ثانية إذن، على الطريق الموحشة بين حقلي شمندر، في الظلمة الموحشة، وبدأ السُكر يعود إلى رؤوسنا من المكان الذي ذهب إليه، ملتفًا حولنا وحول صخرة الحَاكِم الرصينة الصاحية، حتى بدأ صوته يبدو بعيدًا ورقيقًا وحالمًا، وهو يقول إننا أخوة.

كان (مونهان) قد جاء عندئذ، ووقف قرب سيارتنا تحت شعاع مصابيح سيارته الأمامية، معتمرًا قبعة وسترة عسكرية أمريكية، وشريطا كتفيه مفكوكان، وأخذ يشرب من قنينة (كومن). وبجانبه وقف رجل ثانٍ، كذلك يلبس سترة أقصر وأضيق من ستراتنا، وكان ثمة ضمادة حول رأسه.

قال (كومن) مخاطبًا (مونهان):

-سأقتلك، سأعطيك الشلن.

وقال (مونهان):

-حسنًا

وأخذ جرعة أخرى.

قال الحَاكِم:

-نحـن جميعًـا أخـوة. أحيانًـا نقـف عنـد النـزل الخطـأ. نحسـبه ليـلا ونقـف، وهـو ليـس ليـلًا. هـذا كل مـا في الأمـر.

قال (كومن) مخاطبًا (مونهان):

-سأعطيك باوندًا إسترلينيًا.

قال (مونهان):

-حسنًا.

ثم ناول القنينة للرجل الواقف بجانبه.

فقال الرجل:

-شكرًا لك، لدي الكثير بعد.

قال (كومن):

-سأقتله!.

وقال الحاكم:

-كيف لا يسعنا العيش إلا في حدود الفؤاد، بينما نرى أبعد من ذلك.

وقال (مونهان) ردًا على (كومن):

-أكون ملعونًا لو سمحت لك، إنه ملكي.

والتفت إلى الرجل المضمد وتابع:

-أليس ملكي؟ خذ اشرب.

قال الرجل:

-شربت الكثير، أشكركم أيها السادة.

لكنني لا أحسب أن أيا منا انتبه لأمره حتى صرنا داخل حانةكلوش كلو.

كان المكان مكتظًا، مليئًا بالجلبة والدخان.

لكـن مـا إن دخلنـا حتـى اختفـى الصـوت في لحظـة واحـدة، مثـل خيـط يُقـص إلى نصفـين، وراحـت وجـوه الحاضريـن تتلفـت بنـوع مـن الرعـب الذاهـل، واندفـع النـادل العجـوز بمريلتـه القـذرة نحونـا، فاغـرًا فـاه، عـلا وجهـه تعبـير عـن عـدم التصديـق والذهـول بسـبب مـا يـراه،

وكأنـه ملحـد التقـى المسـيح أو الشـيطان.

مضينـا قُدُمًـا إلى الداخـل، والنـادل يتراجـع أمامنـا، تتبعـه الوجـوه المتلفتـة الحانقـة، واتخذنـا طاولـة بجـوار طاولـة أخـرى يجلـس إليهـا ثلاثـة ضبـاط فرنسـيين، راحـوا يتفرسـون بنـا وقـد عـلا وجوههـم التعبـير نفسـه الـذي تـدرج مـن الذهـول فالاسـتياء فالغضـب.

وقفـوا كشـخص واحـد؛ الغرفـة كلهـا، وتحـول الصمـت إلى خليـط مـن الأصـوات يشـبه المدافـع الرشاشـة. وعندهـا التفـت ورأيـت رفيـق (مونهـان) للمـرة الأولي، بسـترته العسـكرية الخـضراء وسرواله الأسـود الضيـق وجزمتـه السـوداء والضـمادة حـول رأسـه.

كان هنـاك جـرح تركتـه الحلاقـة عـلى ذقنـه، وبرأسـه المضمـد ووجهـه الناعـم والمذهـول والشـاحب والمريـض، بـدا أن (مونهـان) أنهكـه بالـشراب. كان شـابًا يافعًـا مـدور الوجـه، وقـد التفـت الضـمادة النظيفـة عـلى رأسـه مـرة واحـدة كأنهـا مجـرد تأكيـد عـلى فـارق العمـر بينـه وبـين الحَاكِـم الـذي يسـتقر الطربـان عـلى رأسـه.

إلى جانـب وقـف (مونهـان) بوجهـه المسـعور وسـترته المتوحشـة، محاطًـا بالفرنسـيين المصدومين الثائريـن، مسـتغرقًا بنـوع مـن القلـق والتهذيـب في مكابدتـه الخاصـة مـع الثمالـة التـي فرضهـا عليـه (مونهـان).

كان ثمـة شـئ أرسـتقراطي في ملامحـه: صلـب، مفعـم بالـروح العسـكرية، جميـع أزراره في عراويهـا، وبـدا بضمادتـه البيضـاء والجـروح الحديثـة في ذقنـه، غارقًـا في تأمـل شـعلة واضحـة مـن الإيمـان الراسـخ بالسـلوك الفـردي أمـام فـوضي عنيفـة لا مفـر منهـا. ثـم لاحظـت رفيـق (مونهـان) الثـاني، وهـو شرطـي عسـكري أمريـكي. لم يكـن يحتـسي الـشراب. بـل اكتفـي بالجلـوس بجـوار الألمـاني لافًـا السـجائر في كيـس قـماشي صغـير.

وعلي الجانب الآخر من الألماني أخذ (مونهان) يملأ كأسه، قائلًا:

لقد جئت به هذا الصباح، سآخذه معي إلى الديار.

سأله (بلاند):

-لماذا؟ ما الذي تريده منه؟.

قال (مونهان):

-لأنه ملكي.

ثم وضع الكأس الممتلئة أمام الألماني:

-خذ، اشرب.

قال (بلاند):

-فكرت مرة في أن آخذ معي واحدة لزوجتي، فقط لأثبت لها أنني شاركت في الحرب. لكنني لم أعثر البتة على واحد مناسب، أعني واحدًا كاملًا.

قال (مونهان):

-هيا، اشرب.

قال الألماني:

-لقد شربت الكثير، إنني أشرب منذ الصباح.

سأله (بلاند):

-أترغب في مرافقته إلى أمريكا؟.

-أجل أود ذلك. أشكرك.

فقال (مونهان) بترحاب:

-بكل تأكيد ستحب أمريكا، سأصنع منك رجلًا. اشرب.

رفع الألماني كأسه. لكنه بدا بالكاد قادرًا على حمله. كان الإجهاد والاستنكار باديين على وجهه، لكن بنوع من الصفاء كوجه رجل قد تغلب على نفسه. أتخيل أن شهداء المسيحية القدامى نظروا إلى الأسود بمثل هذه التعبير على وجوههم. كان مريضًا أيضًا. ليس من الشراب، بل من الإصابة في رأسه:

-لدي في بايروث زوجة وطفل صغير، صبي لم أره بعد.

أومأ الحَاكِم:

-آه، بايروث، لقد زرتها ذات مرة.

قال الألماني ملتفًا بسرعة إلى الحَاكِم:

-آه، لسماع الموسيقي إذن؟.

قال الحَاكِم:

-أجل، قلة منكم استشعرت أو تذوقت أو عاشت الأخوة الحقيقية. أما بقيتنا فيسعهم النظر إلى ما وراء القلب فحسب. لكن يمكننا إتباعهم لبعض الوقت في الموسيقى.

قال الألماني:

-ثم نضطر إلى العودة، هذا ليس حسنًا. لماذا نضطر دائمًا إلى العودة؟.

رد الحاكم:

-لم يحن أوان ذلك بعد، لكن عما قريب... لم يعد بعيدًا مثلما كان في السابق. لكن ليس الآن.

قال الألماني موافقا:

-أجل ستكون الهزيمة مفيدة لنا، لكن ليس الانتصار.

قال (كومن):تعترف إذن أنكم قد هُزمتم؟.

أخذ يتصبب عرقًا مجددًا. وكان منخرا (سرتورس) أبيضين تمامًا. تذكرت كلام (سرتورس) عن أننا نسير في المياه. بيد أن مياهنا عي الثمالة: عزلة الكحول تلك التي تجعل الرجال يصرخون ويضحكون ويتعاركون، ليس مع بعضهم بعضًا لكن من ذواتهم التي لا تحمل، لأنهم حين يثملون يصبحون أكثر رضي بها، وأقل رغبة في الفرار منها.

شيئًا فشيئًا راح صراخنا يتعالي، ونحن في غفلة عن العاصفة الفرنسية الثائرة حولنا (كانت الطاولات بدأت تفرغ من شاغليها، وتحلٌق من تبقي من الزبائن حول نضد صاحبة المكان، وهي امرأة عجوز تضع نظارات معدنية، وتتكون أمامها لفة من الخيطان) نتبادل الصراخ بألسن أجنبية انطلاقًا عن عزلاتنا التي لا مفر منها، هاذرين، من دون أن يسمع واحدنا الآخر؛ بينما انغمس الحَاكِم الألماني بأصوات خفيضة وأكثر أجنبية من أصواتنا، في نقاش حول الموسيقي والفن والانتصار الذي يولد من الهزيمة.

وفي الخارج، في عتمة نوفمبر الباردة، كان وقف إطلاق النار، ذلك الكابوس الذي لا يصدٌق، الفتنة الحية للشهوات الفائضة، والجشع المكفن بالرايات والبزات العسكرية.

قال (مونهان):بحق الرب، أنا كادح أيرلندي، هذه حقيقتي.

قال (سرتورس):وما لا مشكلة في ذلك؟.

ابيض منخراه كالجير على وجهه الداكن. كان أخوه التوأم قد قتل في يوليو.

كان يحلٌق معسرية كاملتحت مستوي طائرتنا، وشهد (سرتورس) إسقاط طائرته. طوال أسبوع بعد ذلك، صار (سرتورس) يعود من الدورية ويملأ خزانات طائرته بالوقود ويعاود التحليق، وحيدًا. ذات يوم رآه أحدهم، جاثمًا على علو نحو خمسة آلاف قدم فوق طائرةآكاي دبليوقديمة. أحسب أن الطيار الذي كان برفقة أخيه ذلك الصباح رأي رموز طائرة قد سرب الاستطلاع الألماني؛ على أيٌ حال هذا ما كان (سرتورس) يفعله، مستعملًا طائرة الآكاي دبليوكفخ، ومحلٌقًا فوقها بطائرته.

لا أحـد يعـرف مـن أيـن حصـل عـلى تلـك الطائـرة ومـن أقنعـة بالتحليـق بهـا، ولكنـه تمكـن مـن قتـل ثلاثـة مـن الهـن ذلـك الأسـبوع حـين انقضـوا عـلى طائـرة الآ كاي وفي اليـوم الثامـن توقـف عـن التحليـق، فقـال هيـوم:

-لابد من أنه قتله.

لكننـا لم نعـرف. لم يخبرنـا أبـدا!. لكـن بعـد ذلـك، عـاد إلى طبيعتـه مجـددًا. لم يعـد يتكلـم كثـيرًا؛ فقـط يقـوم بطلعاتـه الجويـة وربمـا مـرة في الأسـبوع يجلـس ويـشرب بهـدوء حتـى يبيـض منخـراه.

ملأ (بلاند) كأسه ببطء شديد، نقطة نقطة تقريبًا، بكسل قط سمين.

فهمـت عندهـا لمـاذا يكرهـه الرجـال وتحبـه النسـاء. وأخـذ (كومـن)، شـابكًا يديـه عـلى الطاولـة، وطرفـا كميـه غارقـان في بركـة مـن الـشراب المـراق، يحملـق بالألمـاني بعينـين محمرتـين جاحظتـين بعـض الشـئ. تحـت قبعتـه السـخيفة راح الجنـدي العسـكري يدخـن سـجائره القليلـة، شـاحب الوجـه تمامًـا، تتـدلي مـن جيـب صدرتـه سلسـلة صفارتـه، وقـد بـرز مسدسـه عنـد وركـه.

ورائهـم احتشـد الفرنسـيون مـن جنـود ونـدُّل وزبائـن حـول نضـد صاحبـة الحانـة، وسـمعتهم يتهامسـون عـن بعـد، مثـل الصرصـار في عشـب سـبتمبر، بينـما ظـلال أيديهـم ترتفـع عـلى الجـدار ثـم تختفـي.

قال (مونهان) ملوحا كفيه:

-لست جنديًا، لست أرستقراطيًا. لست شيئًا.

أسـفل كل إشـارة عـلى كتفيـه كان ثمـة قطـع صغـير، يوازيهـما قطـع أكـبر فـوق جيـب سـترته الأيـسر حيـث شـارة كتيبتـه.

-لا أعـرف مـا أنـا. إننـي في هـذه الحـرب اللعينـة منـذ ثـلاث سـنوات وكل مـا أعرفـه أننـي ميتًـا، و.........

سأل (بلاند):

-وكيف تعرف أنك لست ميتًا؟.

نظر (مونهان) إلى (بلاند)، فاغرًا فمه كالأبله.

قال (كومن) بحنق:

-سأقتلك لقاء شلن. لا يعجبني وجهك اللعين أيها الملازم اللعين.

وقال (مونهان) بفخر:

-أنـا كادح أيرلنـدي، هـذه حقيقتـي. كان أبي كادحًـا أيرلنديًـا. ولا أعـرف مـاذا كان جـدي. لا أعـرف إذا كان لي جـد. أبي لا يذكـر أبـاه. عـلى الأرجـح نتـج مـن مضاجعـات جـدني الكثـيرة، لـذا لم يضطـر أبي إلى أن يكـون نبيـلًا. لم يكـن عليـه ذلـك البتـة. لهـذا اسـتطاع أن يجنـي مليـون دولار مـن حفـر البلاليـع، بحيـث يسـتطيع رفـع رأسـه إلى النوافـذ الطويلـة المتلألئـة ويقـول... لقـد سـمعته وكـن يدخـن الغليـون وكانـت رائحتـه تكفـي لـكي تتقيـأ أيهـا الحقـراء التافهـون....

قال (بلاند) بتحد:

-أتتبجح الآن بمال أبيك أم ببلاليعه؟.

... وينظـر إليهـم ويقـول لي: حـين تكـون مـع أصدقائـك الراقـين، الذيـن التقيـت آبائهـم وأمهاتهـم وأخواتهـم في يـال، ذكّرهـم أن كل رجـل هـو عبـد فضلاتـه، لـذا فـإن أبـاك الـذي يرسـلونه إلى مطابخهـم الخلفيـة ليصلـح مواسـيرهم، وهـو ملكهـم جميعًـا... مـاذا قلـت؟

توقف فجأة ثم قال وهو ينظر إلى (بلاند).

قال الشرطي العسكري:

-اسمع يا بني، هذا كاف. على أن أسلم هذا السجين.

قال (مونهان) من دون أن ينزع ناظريه عن (بلاند):

-ماذا قلت؟.

-سألتك إذا كنت تتبجح بمال أبيك أم ببلاليعه؟.

قال (مونهان):

-لا، لمـاذا أتبجـح بذلـك، أكـثر مـما قـد أفعـل حـول الثلاثـة عـشر ألمانيًـا الذيـن أرديتهـم، أو حـول الشـارتين اللتـين تلقيتهـما مـن ملكـة اللعـين.

وأشار إلى (كومن) فقال:

-لا تناده هكذا.

وابتل كما سترته بالخمر المراقة على الطاولة.

قـال (مونهـان)، واضعًـا وضـع يـده عـلى شريطـي كتفيـه المفكوكـين، وعـلي المزقـين أعـلي جيـب سـترته:

-اسـمع، هـذا رأيـي في الأمـر، في كل مـا تتبجـح بـه حـول المجـد والنبـلاء. لقـد كنـت شـابًا؛ وظننـت أنـه يفـترض أن أنخـرط في الحـرب. ثـم انخرطـت فيهـا، ولم يكـن مـن وقـت للتوقـف حتـى

حين اكتشفت أنها غير مهمة. لكنها انتهت الآن. انتهت الآن. الآن أستطيع أن أكون من أريد، كادحًا أيرلنديًا، ابن مهاجر لم يجد شيئًا سوى حفر البلاليع حتى انقضى شبابه قبل أن يبدأ. لقد جاء من مستنقعات البراز، وابنه ذهب إلى مدارسهم الفاخرة، وعاد ليتبجح بذلك أمام كل الذين يمتلكون مستنقعات البراز، وقال الملك فيه كلامًا حسنا.

قال (كومن):

-سأعطيك شلنًا وأبرحك ضربًا.

رد (بلاند):

-لكن لماذا تريد أن تعيده معك؟

واكتفي (مونهان) بالتحديق به بصمت.

كان ثمة في ملامحه ما يشبه شهداء المسيحية أيضًا: ثائر، عاجز عن التعبير ليس بفعل الذهول، كأنما، وأكثر من أي واحد آخر منا، قد تكشف في داخله قرع الطبول المعطلة، طبول الجشع والشهوة التي استيقظت مذعورة على عجزها ويأسها المتراكم.

جلس (بلاند) مادًا رجليه، واضعًا يديه في جيبي سرواله، وقد علا وجهه الوسيم صفاء لا يطاق. وقال:

-على أي آلة سيعزف في أمريكا؟ ربما على رفش وضعت له أوتار صنعت من أحشاء قطط الأزقة؟ سيعزف ربما موسيقي مياه مراحيض مانهاتن لأبيك بعد العشاء.

اكتفي (مونهان) بالنظر إلى (بلاند) من دون أن تفارق وجهه تلك الشراسة وذلك السهو. التفت (بلاند) بوجهه الكسول صوب الألماني.

قال الشرطي العسكري:

-يا جماعة.

وقال (بلاند):

-أأنت متزوج يا حضرة الملازم؟.

رفع الألماني رأسه. وجال بناظريه سريعًا على الوجوه، ثم قال:

أجل شكرًا على الاهتمام.

كان يحمل الكأس دون أن يشرب منها. لكنه لم يكن أكثر صحوًا من ذي قبل. أصبحت الخمرة جرح رأسه النابض بها. قال:

-أسرتي متحدّرة من بارونات بروسيا الصغار. لدي أربعة أشقاء؛ الثاني في الجيش، الثالث لا يفعل شيئًا في برلين، الصغير طالب في الكلية العسكرية؛ وأنا، الأكبر، في الجامعة. هناك تعلَّمت. كان ثمة متسع من الوقت وقتذاك. ربما تم اختيارنا وجمعنا، نحن الشباب، من الأرض المنعزلة، لأننا نستحق أن نشهد الولادة السريعة لعصر جديد. كأنما القمامة القديمة، قمامة الإنسان القديمة، ستُكنس لكي يولد عرق جديد يتمتع بالبساطة البطولية التي عرفتها الأزمنة القديمة، ويسير الأرض الجديدة. تذكرون ذلك الزمن، أليس كذلك؟ حين التمعت العيون وفارت الدماء في الشرايين؟.

ثم أنه راح يحملق بنا وقال:

-لا أظن أن الحال لم يكن كذلك في أمريكا. أمريكا الجديدة، وقمامة المنزل الجديد لن تكون كثيرة كقمامة المنزل القديم.

أطرق لبرهة ناظرًا إلى كأسه وقد طفح وجهه رقة. ثم قال:

-عدت إلى البيت وقلت لأبي لقد تعلمت في الجامعة أن هذا ليس بجيد؛ لن أصبح بارونًا. فلم يصدق ما يسمعه. وراح يحدثني عن ألمانيا، أرض الأجداد؛ فقلت له لكنها هناك؛ أنت تسميها أرض الأجداد، وأنا أسميها أرض الإخوة، ذلك أن كلمة أجداد هي تلك البربرية التي ستُكنس أولًا، إنها رمز تلك الهرمية التي وصمت تاريخ الإنسان بالظلم والعسف، بدلًا من الأخلاق، بالقوة بدلًا من الحب.

استدعوا من برلين أخي الثاني؛ وعاد أخي الثالث من الجيش. ظللت أقول لن أصير بارونًا، لأن هذا غير جيد. ووقفت مع أبي في القاعة الصغيرة حيث أسلافي معلقون على الجدران؛ وقفت أمامهم كأنهم أعضاء محكمة عسكرية؛ وقلت أن فرانس يجب أن يكون بارونًا بدلًا مني، لأني لا أستطيع كذلك. وقال أبي بلي تستطيع، وستصبح بارونًا من أجل ألمانيا. ثم قلت، إذن أينبغي أن تكون زوجتي بارونة كرمي لألمانيا؟ وكأنني أمام محكمة عسكرية، اعترفت لهم أنني تزوجت ابنة موسيقي، ابنة فلاح.

هذا ما يجب أن يحدث إذن. ذلك الذي ذهب إلى برلين سيصير بارونًا. هو وفرانس توأمان، لكن فرانس صبح ضابطًا، والأكثر تواضعًا في جيشنا يستطيع تناول وجبة طعام من قيصرنا؛ لا يحتاج إلى أن يكون بارونًا. أما أنا فعشت في بايروث مع زوجتي وموسيقاي. بالنسبة إليهم صرت أشبه الميت، فلم تصلني منهم أي رسالة سوي تلك التي أخبروني فيها بوفاة أبي، قائلين إنني قتلته، وإن أخي عاد من برلين ليصبح بارونًا. لكنه لم يبق في البيت. في 1912 قرأت خبر مقتله في صحيفة في برلين، على يد زوج سيدة ما، وهكذا صار فرانس البارون في نهاية المطاف.

ثـم اندلعـت الحـرب. لكننـي في بايـروث مـع زوجتـي وموسـيقاي، لأننـا ظننـا أنهـا لـن تطـول، بمـا أنهـا لم تطـل قبـلًا. أرض الأجـداد الفخـورة بحاجـة إلينـا لا تعـرف ذلـك. وحـين تـدرك أنهـا بحاجـة إلينـا يكـون قـد فـات الأوان، وأي فـلاح قـوي يجـب أن ينخـرط في الجيـش. وهكـذا.....

سأله (بلاند):

-لماذا شاركت في الحرب إذن؟ أأجبرتك امرأتك؟ أرشقتك بالبيض ربما؟.

نظر الألماني إلى (بلاند)، وقال:

-أنا ألماني؛ وهذا يتجاوز الأنا. لم أُخلق لأكون بارونًا ولا قيصرًا.

ثم غامت عيناه، وقال:

-كانت ألمانيا قبل البارونات

-وستبقي بعدهم.

حتي بعد هذه الحرب؟.

-بـل أكـثر. في السـابق كان هنـاك الكبريـاء.. مجـرد كلمـة في الفـم. أمـا الآن، فـماذا يمكـن أن نسـميه؟.

قال الحَاكِم:أمة تنكس راياتها، إنسان يهزم نفسه.

قال الألماني:أو امرأة تحمل طفلًا.

قـال الحَاكِم:مـن الشـهوة يـأتي المخـاض، ومـن المخـاض يولـد البرهـان، الألوهيـة العظيمـة؛ الحقـة.

أخـذ الشرطـي العسـكري يلـف سـيجارة أخـرى، شـاخصًا نحـو الحَاكِـم، وقـد ارتسـم عـلى وجهـه تعبـير ثائـر وحانـق وفاتـر في آن. لحـس السـيجارة ثـم بـادرني:

حـين جئـت إلى هـذا البلـد اللعـين كنـت أحسـب الزنـوج زنوجًـا. لكـن فلأكـن ملعونًـا الآن لـو كنـت أعـرف مـا هـم. مـا هـو؟ حـاو؟.

قلت:

-أجل، إنه حاو.

-يُستحسـن إذن أن يُخـرج أفعـاه ويذهـب مـن هنـا. عـلى أن أسـلم هـذا السـجين. انظـروا إلى أولئـك الضفـادع هنـاك.

حـين نظـرت إلى الفرنسـيين الثلاثـة كانـوا يهمـون بالمغـادرة، والإحسـاس بالإهانـة والغضـب

يتفصد من ظهورهم.

قال الألماني:

-عرفت من المصحف أن فرانس أصبح عقيدًا ثم لواء، وأنّ الطالب في الكلية الحربية، الذي كان دائمًا جزءًا من عصابة ما، أصبح طيارًا حربيًا- آيس – وحصل على ميداليةالصليب الحديديمن القيصر شخصيًا. ثم جاء العام 1916، رأيت أن الطالب قُتل على يد طياركم بيشوب...- أحني رأسه قليلًا ل(كومن) -ذلك الرجل البارع. فصرت طالبًا في الكلية الحربية. كأنني كنت أعرف مال الأمر. فصرت طيارًا، رغم معرفتي بأن فرانس أصبح جنرالًا، ورغم أنني كل ليلة أقول لنفسي: لقد عدت ثانية، أعرف أن هذا ليس بالجيد.

هذا إلى أن فر قيصرنا. ثم علمت أنّ فرانس بات في برلين. أعتقد أن هناك حقيقة لم نخسرها جميعًا في الكبرياء، لأننا نعرف أنها لن تطول أكثر، وفرانس بأمان في برلين، بعيدًا عن القتال.

ثم هذا الصباح وصلني رسالة من أمي التي لم أراها من سبع سنوات وتخاطبني فيها كبارون، وتخبرني أن فرانس أُردي بالرصاص وعلي صهوة جواده، على يد جندي ألماني في برلين. كأن كل شئ قد نُسي، لأن النساء سريعات النسيان، ما دام كل شئ بالنسبة إليهن غير حقيقي – الحقيقة، العدالة، كل شئ – كلُّ ما لم يكن حمله باليد ولا يموت. فأحرقت جميع أوراقي، وصورت زوجتي وابني الذي لم أره بعد، وبطاقة هويتي، وأزلت كل الشارات عن سترتي...، وأشار إلى ياقته.

قال (بلاند):

-أتعني أنك لم تكن تنوي العودة؟ لماذا لم تطلق الرصاص على نفسك وتوفر على حكومتك طائرة؟.

قال الألماني:

-الانتحار يطاول الجسد فحسب، والجسد لا يحل شيئًا. ليس بالمهم. كل ما يمكن فعله به هو تنظيفه كلما أمكن ذلك.

قال الحَاكِم:

-إنه مجرد غرفة في النزل، إنه المكان الذي نختبئ فيه فترة وجيزة.

قال (بلاند):

-إن المرحاض، التواليت...

وقف الشرطي العسكري. ولكز الألماني على كتفه. راح (كومن) يحدق بالألماني. وقال:

-إذن تعترف أنكم هُزمتم.

-أجل، كان دورنا أولًا لأننا كنا الأشد مرضًا. وسيأتي دور بلدكم إنجلترا ثانيا. ثم سيتعافى هو الآخر.

فقال (كومن):

-لا تقل بلدكم، أنا من الأمة الأيرلندية. والتفت إلى (مونهان)،قلت ملكي اللعين. لم يكن لأيرلندا ملك منذ سلالة الإرنيل، ليبارك الرب ذيل جواده الأحمر.

أومأ الألماني إيماءة باهتة. وقال:

-أترى؟، من دون أن يوجه كلامه لشخص محدد.

فقال الحَاكِم:

-المنتصر يخسر ما يربحه المهزوم.

وقال (بلاند):

-وماذا ستفعل الآن؟.

لم يجب الألماني. جلس منتصبًا بوجهه العليل وضمادة رأسه النظيفة.

وجه الحَاكِم كلامه إلى (بلاند):

-ما الذي ستفعله أنت؟ ما الذي سنفعله جميعًا؟ جميع أبناء هذا الجيل الذين خاضوا هذه الحرب ماتوا الليلة. لكننا لا نعرف ذلك بعد.

نظرنا إلى الحَاكِم، (كومن) بعينيه الحمراوين الشبيهتين بعيني خنزير. (سرتورس) بمنخريه الأبيضين. (بلاند) المتكاسل على كرسيه، بشعره الشبيه بشعر النساء المدللات، وبسمته التي لا تطاق، وقف الشرطي العسكري فوق رأس الألماني.

قال (بلاند):يبدو أن الأمر يقلقك كثيرًا.

قال الحَاكِم:ألا تصدق؟ انتظر وسترى.

قال (بلاند):أنتظر؟ لا أعتقد أنني فعلت شيئًا خلال السنوات الثلاث الفائتة لكي أكتسب عادة الانتظار. ولا خلال الستة والعشرين عامًا الماضية. قبل ذلك لا أذكر. ربما أكون فعلت شيئًا .

قال الحَاكِم:

-سترى إذن دونما حاجة إلى الانتظار.

ونظر إلينا، بهدوء تام:

-أولئك الذين يتعفنون في الخارج هناك...، وأشار بيده الغليظة القصيرة،ليسو أكثر موتًا منا.

مجددًا لمس الشرطي العسكري كتف الألماني:

-اللعنة، هيا بنا يا صاح.

ثم أدار رأسه ونظرنا جميعًا إلى الجنديين الفرنسيين، الضابط والرقيب، الواقفين عند طاولتنا. ظللنا صامتين لبرهة. كان الأمر كأن البق الصغيرة اكتشفت فجأة أن مداراتها متواجدة جنبًا إلى جنب، وأنها غير مضطرة إلى أن تكون بلا هدف أو أن تستمر في الحركة.

بتأثير الكحول بدأت أحس بتلك الكرة الصلبة الحارة في معدتي، كما في المعركة، كما حين تعرف أن شيئًا ما سيحدث؛ تلك اللحظة التي تفكر فيها أن الأمر سيحدث الآن. الآن يمكنني أن أرمي كل شئ وأكون نفسي.

الآن. الآن، يا للشعور الرائع.

قال الضابط الفرنسي:

-لماذا هذا الشخص هنا يا مسيو؟.

نظر (مونهان) إليه، ثم رجع بكرسيه إلى الخلف ومال جانبيًا، موازنًا نفسه على إربتي فخذيه، طارحًا ذراعه على الطاولة.

قال الضابط:

-لماذا تفعل ما يهين فرنسا يا مسيو؟

أمسك الشرطي العسكري بـ (مونهان) بينما هو يهم بالوقوف. وقال:

-انتظر لحظة، على رسلك.

وراحت السيجارة تترجرج على شفتيه بينما يتكلم، ويداه على كتفي (مونهان)، وقد ارتفع عضد ذراعه إلى أعلي زنده قليلًا، ثم قال:

-وما شأنك أنت أيها الضفدع؟.

وراء الضابط وقف الفرنسيون الآخرون، ومعهم المرأة العجوز التي راحت تحاول اختراق الجمع.

قال الشرطي:

-هذا سجيني، وسآخذه أينما شئت، وأبقيه قد ما شئت. ما رأيك بهذا؟.

قال الضابط:

-بأي سلطة يا مسيو؟.

كان طويـلًا ذا وجـه شـاحب ومأسـاوي. ورأيـت عنـدئـذ أن إحـدى عينيـه مـن زجـاج، فقـد بـدت متجمـدة تمامًـا، ميتـة في وجـه يبـدو أكـثر مواتًـا منهـا.

نظـر الشرطـي العسـكري إلى عضـد ذراعـه، ثـم إلى الضابـط مجـددًا، ولمـس مسدسـه الـذي يتأرجـح عـلى خاصرتـه.

-سـأصحبه في طـول هـذه البـلاد اللعينـة وعرضهـا. سـآخذه إلى مجلـس شـيوخكم اللعـين وأُقيـم الرئيـس وأجلسـه مكانـه، ويمكنـك أن تمـوت غيظًـا حتـى آتي وأمسـح الـبراز عـن قدميـك مجـددًا.

قال الضابط:

-آه، أنت جندي أمريكي.. فهمت.

قالجنـدي أمريكيزامًـا شـفتيه، ومـن دون أن يتحـرك شئ في وجهـه الميـت، الـذي يشـكل إهانـة في حـد ذاتـه.

وراءه راحت صاحبة الحانة تصرخ بالفرنسية:

-طـاخ! طـاخ! طيـخ! طـوخ! كل فنجـان، كل طبـق، كل كأس, كل صحن...كلـه كلـه! سـأريكم، لقـد احتفظـت بهـا لهـذا اليـوم. ثمانيـة أشـهر منـذ سـقطت القذيفـة، احتفظـت بهـا في علبـة لهـذا اليـوم: الأطبـاق، الصحـون، الكـؤوس، كل مـا امتلكـه خـلال ثلاثـين عامـا، كلـه دُمـر، تحطـم دفعـة واحـدة! ويكلفنـي خمسـين سـنتيما للـكأس بحيـث أخـزي نفسي لـكي أجعـل زبائنـي....

يصـل السـأم أحيانًـا إلى نقطـة، إلى ذروة، لا تحتمـل. حتـى الكحـول لا يمكنـه الدنـو منهـا. لكنـه يحفـز الغوغـاء، مثلـما تحفزهـا تلـك الضعـة الكاملـة النابغـة مـن الرتابـة التـي لا تحتمـل. ثـم بـدا كأننـا جميعًـا تخلصنـا مـن أحمالنـا دفعـة واحـدة، مواجهـين بـلا خـزي ولا تحفـظ الشـبح الـذي بالغنـا طـوال أربـع سـنوات في تزيينـه بكلـمات كبـيرة، مندفعـين في كتلـة واحـدة متراصـة.

رأيـت الشرطـي العسـكري يقفـز عـلى الضابـط، ثـم نهـض (كومـن) وتصـدى لـه. رأيـت الشرطـي العسـكري يلكـم (كومـن) ثـلاث مـرات عـلى فكـه قبـل أن يرفعـه (كومـن) و يرميـه فـوق الحشـد، حيـث اختفـى أفقيًـا في الهـواء، وهـو يحـاول سـحب مسدسـه. ثـم رأيـت ثلاثـة جنـود فرنسـيين عـلى ظهـر (مونهـان) والضابـط يحـاول ضربـه بقنينـة، و(سرتـورس) يقفـز عـلى الضابـط

مـن الخلـف.

غـاب (كومـن) عـن الوعـي، ومـن الفسـحة التـي خلفهـا مكانـه اندفعـت مالكـة الخانـة صارخـة، بينـما حـاول رجـلان ردهـا إلى الخلـف، و هــي تحـاول أن تبصـق عـلى الألمـاني.

-بـاش! بـاش!، راحـت تـصرخ، وهــى تبصـق ويسـيل لعابهـا، وقـد غطـى شـعرها الرمـادي وجههـا، ثـم اسـتدارت وبصقـت بصقـه كاملـة عـلي:

-وأنتـم أيضـا!، صرخت،ليسـت إنجلـترا التـي دُمـرت! أنتـم أيضـا جئتـم لتلتقطـوا عظـام فرنسـا. كلاب! حيوانـات! كل شيء تحطـم! تحطـم! تحطـم!

وفى خضـم ذلـك كلـه، مـن دون أن ينبسـا بحركـة أو كلمـة، والحَاكِـم المقرفـص مثـل تمثـال، وكلاهـما يضعـان الطربـان مثـل نبيـين مـن العهـد القديـم.

لم يطـل الموضـوع. لا علاقـة للوقـت بمـا جـرى. أو بالأحـرى كنـا نحـن خـارج حـدود الزمـن، ضمـن، وليـس في، ذلـك السـطح، عنـد الحـد بـين القديـم الـذي نعـرف أننـا لم نمـت فيهـا، والجديـد الـذي قـال الحَاكِـم إننـا مـوتى فيـه. وراء الأيـدي التـي تلـوح بالقنـاني والأكـمام الزرقـاء والأيـدي المتسـخة ووجوهنـا التـي تشـبه أقنعـة تبتسـم ابتسـامات صفـراء في صرخـات متجمـدة معدومـة الصـوت لتخيـف الأطفـال، رأيـت (كومـن) ثانيـة. جـاء مندفعًـا مثـل محملـة في بحـر عاصـف، تحـت ذراعـه كان النـادل القديـم، وفى فمـه صفـارة الشرطـي العسـكري. ثـم قـذف (سرتـورس) كرسـيا عـلى اللمبـة الوحيـدة في المـكان.

اخـترق صقيـع الشـارع ثيابنـا ومسـام جلودنـا المترعـة بالكحـول وتسـلل إلى عظامنـا. كانـت السـاحة خاليـة، و الأضـواء خافتـة وبعيـدة. وكان الجـو هادئـا إلى حـد أننـي سـمعت صـوت الميـاه الراكـدة في البركـة.

مـن مسـافة بعيـدة تحـت السـماء المنخفضـة السـميكة سـمعت صوتًـا، صراخًـا أنثويًـا حـادًا مثـل كل الـصراخ، ثـم صراخ حشـد مـن الرجـال، يقطعـه مـن وقـت لأخـر صـوت فرقـة تعـزف نشـيدًا وطنيًـا. وقـف (كومـن) و(مونهـان) مسـتظلين بالجـدار، محاولـين إبقـاء الألمـاني واقفًـا عـلى قدميـه.

كان غائبـا عـن الوعـي، وكانـت الظلمـة تكتنفهـم باسـتثناء لمعـان الضـمادة الباهـت عـلى رأس الألمـاني، ولم يصـل إلى مسـامعي مـن طرفهـم سـوى سـيل الشـتائم الرتيبـة مـن فـم (مونهـان).

قال الحَاكِم:

-لم يكن من المحبذ أن يتحالف الإنجليز والفرنسيون.

كان يتكلم بسلاسة؛ بصوت أشبه بصوت الأرغن، لا يتناسب البتة مع حجمه.

-لا ينبغـي أن توحـد الأمـم المختلفـة قواهـا وتحـارب تحـت رايـة واحـدة. فلتقاتـل كل منهـا لهـدف مختلـف؛ فـلا ينشـأ نـزاع بينهـما، ويمـضى كل منهـا في طريقـة.

مـر (سرتـورس) بنـا، آتيـا مـن البركـة، حامـلًا بحـرص قبعتـه المليئـة مـاء التـي تنقـط بـين رجليـه. ثـم انضـم إلى الكتلـة القامّـة التـي تومـض فيهـا الضـمادة ويشـتم (مونهـان) برتابـة وفتـور. وتابـع الحَاكِـم:

-وكل واحـد يتبـع تقاليـده. شـعبي مثـلا، أعطـاه الإنجليـز البنـادق، فراحـوا يحملقـون بهـا ثـم جـاءوني قائلـين: هـذه الحربـة قصـيرة جـدًا: كيـف يمكـن أن يقتـل المـرء عـدوًا سريعـاً بحربـة بهـذا الحجـم والـوزن؟ كـما أعطوهـم حلـل عسـكرية ينبغـي أن تظـل مـزررة؛ مـررت بمجموعـة كبـيرة مـن الجنـود الجالسـين القرفصـاء وقـد غطـوا أنفسـهم حتـى الآذان بالبطانيـات وبأكيـاس الخيـش، واسـودت وجوههـم مـن الـبرد؛ وحـين رفعـت البطانيـات وجـدت أنهـم لا يلبسـون السراويـل القصـيرة.

يقـول لهـم الضبـاط الإنجليـز اذهبـوا إلى هنـاك وافعلـوا كـذا؛ فـلا يتحركـون البتـة. ثـم ذات يـوم، تحـت ضـوء القمـر المكتمـل، سـمعت الكتيبـة حركـة تنبعـث مـن وراء حفـرة مـا فخرجـت مـن الخنـدق جـارة إبـاى وضابطًـا آخـر معـي. تركنـا الخنـدق مـن دون أن نطلـق رصاصـة واحـده، ومـن تبقـى منـا، الضابـط وأنـا وسـبعة عـشر جنديًـا آخريـن، علقنـا ثلاثـة أيـام عـلى خطـوط العـدو الأماميـة وقـد تطلـب الأمـر لـواء بأكملـه لإخراجنـا مـن هنـاك. سـألهم الضابـط: لمـاذا لم تطلقـوا الرصـاص؟ لقـد تركتموهـم يتصيدونكـم مثـل الطيـور السـمان...

لم ينظـر الجنـود إليـه. وقفـوا كالأطفـال صامتـين، دونمـا أي إحسـاس بالخـزي. سـألت قائدهـم: هـل كانـت البنـادق محشـوة بالرصـاص يـا داس؟ فهبـوا واقفـين كالأطفـال، دونمـا أي إحسـاس بالخجـل، وقـال داس: أوه يـا ابـن الأكابـر. فقلـت لـه: قـل الحقيقـة للسـيد، فأجابنـي، لا لم تكـن البنـادق محشـوة.

سـمعنا صـوت الكتلـة يهـدر مـن بعيـد في الهـواء البـارد. كانـوا يسـقون الألمـاني مـن قنينـة. وقـال لـه (مونهـان):

-والآن أتشعر ببعض التحسن؟

غمغم الألماني:

-إنه رأسي.

كانوا يتكلمون بهدوء كأنهم يتناقشون حول اختيار ورق الجدران.

سب (مونهان) ثانية، وقال:

-سأعود لهم. بحق الله....

قال الألماني:

-لا،لا، لن أسمح بذلك. لقد دافعتم أصلًا....

وقفنا في العتمة تحت جدار نحتسى الشراب. بقيت معنا قنينة واحدة. وحين فرغت حطمها (كومن) بالجدار.

قال (بلاند): والآن ماذا.

قال (كومن): الفتيات، هلا يمكنكم تخيل (كومن) من الأمة الأيرلندية بين ذوات الشعر الأصفر مثل كلب بين السنابل؟.

وقفنا هناك، نستمع إلى الجلبة المنبعثة من الحانة. وقال (مونهان):

-هل أنت متأكد أنك بخير؟.

أجابه الألماني:

-شكرًا، أشعر أنني بخير.

فقال (كومن):هيا بنا إذًا.

وقال (بلاند):هل ستأخذه معك.

أجاب (مونهان):أجل، ما المانع؟.

-لم تأخذه إلى المقر؟ إنه مريض.

فقال (مونهان): أتريدني أن ألكم وجهك اللعين؟.

قال (بلاند):

-حسناَ.

رد (كومن):

-هيا بنا، أي أحمق يتشاجر بدلًا من أن يستمتع بوقته؟ كل الرجال إخوة، وكل زوجاتهم أخوات. فهيا بنا يا جنود منتصف الليل أنتم.

خاطب (بلاند) الألماني:

-اسمعني جيدا، أتريد الذهاب معهم؟.

بدا الألماني والحَاكِم، بربطتي رأسيهما، مثل جنديين مصابين بين خمسة أشباح.

-أسنده قليلًا

قال اقترب (مونهان) من (بلاند). وشتمه، قائلًا بالصوت الرتيب نفسه:

-أنا أحب المشاجرة، وحتى أنني أحب التعرض للضرب.

وقال الألماني:

-لحظة! مجددًا لن أسمح.

توقف (مونهان) الذي لا يبعد عنه قدمًا. وقال الألماني:

-لدى زوجة وابن في بايروث.

كان يوجه كلامه إلي، ثم كرر لي عنوان بيته مرتين.

قلت:

-سأرسلها، ماذا تريدني أن أقول لها؟.

-قل لها إنها لا تساوي شيئًا. سوف تعرف ما تقول لها.

-أجل سأقول لها إنك بخير.

-قل لها هذه الحياة لا تساوى شيئًا.

أمسكه (مونهان) و(كومن) من ذراعيه مجددًا. استدار ومضيا وهما يحملانه تقريبًا. نظر (كومن) مرة إلى الخلف، قائلًا:

-في حفظ الله.

قال الحَاكِم:

-وأنت أيضا.

ومضيا. رأينا ظليهما في العتمة عند مدخل زقاق منير ضيق، و الضوء البارد الخافت يسقط على الجسر وعلى الجدران جاعلًا مدخل الزقاق أشبه ببوابة عبراها، مسندين الألماني بينهما.

سأل (بلاند):

-ما الذي سيفعلونه به؟ هل سيرمونه في زاوية ما و يقتلونه؟ أم ثمة أسرة في المواخير الفرنسية أيضا؟.

قلت باستهانة:

-من يهمه هذا عموما؟.

انبعـث صـوت الفرقـة الموسـيقية قويًـا مـن الحانـة. كل مـرة كان جلـدي يرتعـش بفعـل الكحـول والـبرد كنـت أحسـبني أسـمع صـوت عظامـي تتهشـم.

قال الحَاكِم:

-منذ سبع سنوات وأنا في هذا الطقس، لكنني ما زلت لا أحب البرد.

جـاء صوتـه عميقًـا هادئًـا، كأن طولـه سـت أقـدام، كأنما حـين صنعـوه قالـوا في مـا بينهـم، وتابـع:

-سـنعطيهم شـيئًا لـكي يحمـل رسـالته معـه؟ لمـاذا؟ مـن سيسـمع رسـالته؟ هـو؟ لـذا سـنعطيه شـيئًا يسـمعها هـو نفسـه بـه.

سأله (بلاند):

-آه، أنا أيضًا لا أحب أن أكون بارونًا.

-خرجـت إذن وتركـت الأجانـب الذيـن سـيعاملون النـاس مثـل الثـيران أو الأرانـب يأتـون ويحتلـون الهنـد.

-بخروجـي مـن هنـاك أبطلـت في يـوم واحـد مـا تطـل فعلـه ألفـي عـام. أوليـس هـذا بالأمـر المهـم؟.

رحنـا نرتعـش مـن شـدة الـبرد الـذي صـار هـو الفرقـة، النشـيد الهـادر الـذي يدمـدم بيديـن باردتـين مخاطبًـا العظـام، لا الأذنـين.

قال (بلاند) بهدوء:

-حسنًا، أحسب أن الحكومة الإنجليزية تفعل لتحرير شعبك أكثر مما تفعله أنت.

لمس الحَاكِم (بلاند) على صدره، لمسة خفيفة. وقال:

-أنت حكيم يا صديقي. فلتسعد إنجلترا لأن جميع الإنجليز ليسو حكماء مثلك.

-إذن ستبقي منفيًا طوال حياتك؟.

أشار الحَاكِم بيده الغليظة القصيرة إلى القنطرة حيث اختفي (مونهان) و(كومن) والألماني:

-ألم تسمع ما قاله؟ هذه الحياة هراء.

قال (بلاند):

-يمكنـك التفكـير عـلى هـذا النحـو، لكـن لحـق اللـه، أكـره أن أفكـر أن مـا ادخرتـه خـلال السـنوات الثـلاث الماضيـة لم يكـن شـيئًا.

قال الحَاكِم برقة:

-ادخرت رجلًا ميتًا، سوف ترى.

وقال (بلاند):

-ادخرت قدري، لا أنت ولا أي شخص يعرف ما سيكون.

غمغم الحَاكِم:

-مـا قـدرك سـوى أن تكـون ميتًـا؟ مـن سـوء الحـظ أن جيلـك هـو المختـار. مـن سـوء الحـظ أن أفضـل أيـام حياتـك سـتمضيها ماشـيًا الأرض كـروح. لكـن هـذا قـدرك.

جـاء الـصراخ مـن بعيـد، أنثويًـا وطفوليًـا ثـم الفرقة مجـددًا، هـادرة، مثـل صراخ الرجـال، مرحة ببـؤس، هسـتيرية، لكـن أكـثر مـن أي شـئ أخـر، بائسـة. تثاءبـت القنطـرة في الضـوء البـارد بفـراغ عميـق وصامـت، مثـل بوابـة تـؤدي إلى مدينـة أخـرى، إلى عـالم أخـر. فجـأة تركنـا (سرتـورس). مـشي بثبـات نحـو الجـدار واسـتند إليـه، وجعـل يتقيـأ.

قال (بلاند):

-اللعنة، أريد شرابًا.

والتفت نحوي:

-أين قنينتك؟.

أجبته:

-فرغت.

-فرغت كيف؟ كان معك اثنتان؟.

-ليس معي واحدة الآن. اشرب ماء.

-الماء؟ من بحق العلي القدير يشرب الماء؟.

ثـم عـادت الكـرة السـاخنة الصلبـة إلى معـدتي مجـددًا، جذلـة، لا تحتمـل، حقيقيـة؛ مجـددًا تلـك اللحظـة التـي تقـول فيهـا الآن يمكننـي التخـلي عـن كل شـئ، وقلـت لـه:

-سوف تشرب الماء أيها الحقير.

لم يكن (بلاند) ينظر إليّ. قال بنبرة هادئة شاردة وفي وجوم:

-مرتين، مرتين في ساعة واحدة، ما رأيك بهذه الثمالة؟.

ثـم يمـم وجهـه شـطر نحـو البركـة. عـاد (سرتـورس)، ماشـيًا بثبـات. اختلـط صـوت الفرقـة بالـبرد الـذي يفتـت العظـم.

سألت:ترى كم الساعة الآن؟.

نظر (سرتورس) إلى ساعة رسغه ورد:الثانية عشرة.

قلت:لا يمكن، لابد من أننا تجاوزنا منتصف الليل.

زمجر (سرتورس):قلت لك إنها الثانية عشرة بالضبط.

كان (بلانـد) منحنيًا فـوق البركـة. كان ثمـة ضـوء قليـل هنـاك. حـين وصلنـا إليـه تسـمّر في مكانـه، مسـح وجهـه. كان الضـوء يغمـره. وفكـرت لبعـض الوقـت أنـه لابـد مـلأ وجهـه كلـه المـاء، حتـى اكتشـفت أنـه كان يبـكي. وقـف هنـاك، يمسـح وجهـه، ناشـجًا، إنمـا بصمـت.

ثم ناح كالأطفال:

-زوجتي الصغيرة المسكينة، زوجتي الصغيرة المسكينة!

الشرخ
وليام فولكنر

يتقدم الجنود، متحاشين حاجز القصف المدفعي الكثيف الذي يمتد بلا نهاية في الأرض الواسعة الغامضة، هابطين في حفر غائرة وماكرة أحدثها القصف، ثم خارجين منها ثانية، اثنان منهم يجرجران واحدًا من رفاقهما، بينما يحمل آخران البنادق الثلاث. ساقا الجندي الجريح الذي عصب رأسه بخرقة ملوثة بدمائه، تنسحبان شبه مشلولتين على الأرض، ورأسه يترنح، بينما ينساب عرقه بطيئًا على وجهه المتسخ بالدم المتجلط والهباب. وبين لحظة وأخرى تهب ريح خفيفة من لا مكان، فتفرق الدخان الرمادي فوق أجمات الحور المقصوفة. تجتاز الفرقة حقلًا زرع بالقمح قبل نحو شهر وظلت براعمه متشبثة بعناد في التربة بين قطع الحديد المتناثرة والخرق الرطبة.

تجتاز الفرقة الحقل وتصل إلى قناة تحدها الأشجار التي ترتفع في حد واحد على علو خمس أقدام. يرتمي الجنود في القناة يشربون المياه الفاسدة ثم يملأون الزمزميات. يترك الجنديان رفيقهما المصاب فيرتمي على ضفة القناة مغطسًا يده ورأسه في الماء، لكنه لا يستطيع أن يشرب بمفرده. فيسنده أحدهما بينما يقرب الثاني حافة الخوذة من فيه، ثم يعاود ملء الخوذة ويسكبها على رأس الجريح، مبللًا الخرقة الدموية. ثم يجفف وجه الرجل بقطعة قماش وسخة أخرجها من جيبه.

عند نهاية القناة تبدأ الأرض بالارتفاع تدريجيًا، ويقف الكابتن والملازم والرقيب محملقين في خريطة مهترئة. ويكشف جانبها عن طبقات جيرية من الأرض. يضع الكابتن الخريطة جانبًا يأمر الرقيب الجنود بالوقف، ليس بصوت عال. يرفع الجنديان رفيقهما الجريح المنهوك مع الآخرين ضفة القناة، وصولًا إلى جسر قوامه قارب طرح بالعرض بين الضفتين. عندئذ يقفون مجددًا، بينما ينهمك الكابتن والملازم في قراءة الخريطة مرة ثانية.

فيما هم يمضون قدما، راحت التربة الجيرية تبرز تدريجيًا تحت أقدامهم. وإلى مسامعهم تتناهى رشقات النيران في تلك الظهيرة الربيعية القاتمة كوابل من مطر ثقيل وسخ على سقف معدني لانهائي. الأرض جافة صلبة ومع ذلك يشق السير على الجنديين اللذين يجران رفيقهما الجريح. لكن حين يتوقفان يكافح الجريح ويخلص نفسه منهما ويمشي مترنحًا بمفرده، واضعًا يديه على رأسه، لكنه يتعثر ويهوي أرضًا. فيساعده الجنديان على النهوض ويعاودان الإمساك به من ذراعيه وهو يتمتم:

-... القبعة...، ويحرر يديه ليتحسس مجددًا رأسه. ينتقل الاضطراب إلى الأمام. ينظر الكابتن إلى الخلف ويتوقف عن السير، ومثله الجنود الذين يخفضون بنادقهم.

يقول أحد الجنديين:

-إنه يتحسس رأسه يا سيدي.

يساعدان الجريح على الجلوس، ينحني الكابتن بجانبه.

يغمغم الجندي:

-... القبعة... القبعة.

يفك الكابتن الخرقة. يمد الرقيب جعبته ويبلل الكابتن الخرقة ويجس جبين الجندي. يقف الجنود الآخرون بنوع من الفتور. ينهض الكابتن. يرفع الرجلان الجريح مجددًا. يأمرهما الرقيب بالتقدم حتى يصلان إلى قمة السفح الذي ينحدر بعدئذ نحو الغرب قليلا عند نجد منبسط بعض الشيء. إلى جهة الجنوب يستمر حاجز القصف المدفعي مدويًا، وترتفع أعمدة الدخان إلى جهة الغرب والشمال فوق الأشجار في السهل المجدب. لكنه دخان حرائق، دخان أشجار تحترق، لا دخان قصف مدفعي. يحدق الضابطان في البعيد، ويتوقف الجنود ثانية عن المسير من دون أن يتلقوا الأمر بذلك ويخفضون بنادقهم.

يهتف الملازم فجأة:

-يا الله يا سيدي، إنها بيوت تحترق! إنهم ينسحبون! الوحوش! الوحوش!.

-هذا وارد،يقول الكابتن، واضعًا يده فوق عينيه، ناظرًا إلى المسافة أيضًا.يمكننا الذهاب باتجاه ذلك الحاجز اللعين. ينبغي أن نجد طريقًا هناك. ويستأنف سيره.

يقول الرقيب:تقدموا، بذلك الصوت المعتدل. يرفع الجنود بنادقهم مجددًا بطاعة تامة.

قمة السفح مكسوة بعشب قاسٍ تمرح فيه الهوام والحشرات، مندفعة من تحت أقدامهم قبل أن تسقط الظهيرة المتلألئة. الجريح يهذي ثانية. من وقت لأخر يتوقفان ويناولانه الماء ويبللان ضمادته مجددًا، ثم يتولى جنديان آخران المهمة عنهما. ويقف الكابتن فجأة. ويتبعه رتل الجنود، مرتطمين بعضهم ببعض مثل عربات قطار شحن. عند قدمي الكابتن رقعة منخفضة من الأرض ينمو فيها عشب كثيف تبرز أنصاله من الأرض كالحراب. تبدو الرقعة أكبر من أن تكون قد أحدثتها قذيفة صغيرة، وأصغر من أن تكون قد أحدثتها قذيفة كبيرة. وليس فيها ما يدل على سبب نشوئها. يتأملونها بصمت، ويقول الملازم:

-غريب، ما الذي قد يكون أحدثها؟.

الكابتن لا يرد. يلتفت. يحيط الجنود بالرقعة المنخفضة، ويرمقونها بوجوم فيما يعبرونها. لكن ما إن يتجاوزونها حتى يصلوا إلى واحدة أخرى، ربما لم تكن بذات الحجم. يقول الملازم:

-لم أكن أعرف أن لديهم سلاحًا قد يتسبب بهذا.

من جديد لا يرد الكابتن. يسيرون على حافة هذه أيضًا. من جهة تنحدر قمة السفح حادة، طبقة إثر طبقة من الجير الجاف المنحوت.

يعترض طريقهم وهد. يبدل الكابتن اتجاهه ويسير بموازاته، حتى بعدها بفترة قصيرة ينعطف الوهد في زاوية مستقيمة ويعترض طريقهم مجددًا. قاع الوهد معتم؛ يتقدم الكابتن الطريق منحدرًا على مهل إلى الوهد. ويساعد الجنديان رفيقهم الجريح على الهبوط ثم يمضون قدمًا.

بعد فترة يصبح الوهد مكشوفًا. فيجدون أنهم قد دخلوا إلى رقعة أخرى من الأرض الواطئة لكنها غير واضحة الحدود تمامًا، وإن بدت متصلة برقعة أخرى متشابهة، فتبدو الرقعتان أشبه بقرصين متداخلين. يجتازون الأولى بينما تخز أنصال العشب أقدامهم، ويعبرون إلى الرقعة التالية.

هذه الرقعة أشبه بواد محاط بتلال مصغرة. فوق رؤوسهم يرون قبة السماء الفارغة البليدة حيث يتلاشى بعيدًا بعض الدخان الباهت: تنبعث ذبذبة من الأرض يمكن الإحساس بها أكثر مما يمكن سماعها. لا آثار للقصف هنا أيضًا، كأنهم دخلوا فجأة إلى منطقة معزولة، إلى عالم لم تبلغه الحرب، ولا أي أثر للحياة، وحتى الصمت نفسه ميت. يسقون الجريح ويمضون قدمًا.

يمتد الوادي، الأرض الواطئة، مبهمًا أمامهم، في سلسلة من الأحواض الدائرية المتداخلة التي تشكلت بفعل عامل غير ظاهر أو مفهوم. نصال العشب تخز أقدامهم، وبعد حين يجدون أنفسهم مجددًا بين أشجار أخرى تتماثل للشفاء فعلقت بها أوراق كثيفة ليست بالخضراء ولا اليابسة، كأنها هي الأخرى علقت في فجوة زمنية، فيُسمع حفيفها رغم أن الهواء ميت تمامًا. أرض الوادي ليست بالمستوية. بل تنحدر إلى منخسفات أرضية غامضة، ثم ترتفع مجددًا بالغموض عينه، وتبرز في وسطها كتل طبشورية صغيرة من طبقة التراب الرفيعة. الأرض لينة، والسير عليها أشبه بالسير على الفلين؛ فلا تصدر الأقدام وقعًا وهي تدوس عليها.يا لها من نزهة ممتعة، يقول الملازم أول وإن بصوت خفيض، لكنه يملأ الوادي الصغير بفجائية عاصفة تملأ الصمت، وتبدو الكلمات معلقة حولهم كأن الصمت هنا لم يتم إقلاقه منذ زمن بعيد بحيث نسى هدفه؛ مثل شخص واحد راحوا يجيلون أنظارهم بصمت في سفوح الأرض الواطئة، وأشباح الأشجار المتشنجة، والسماء الصامتة العنيدة. قال الملازم:

-هذا كمين لصيد الطيور أو ما شابه.

-أجل، رد الكابتن. وتعلقت كلمته بدورها في الهواء ثم تبددت كالكحول. اقترب الجنود

الذين في الخلف، ومضوا جميعًا ككتلة واحدة ناظرين حولهم بوجوم وترقب.

قال الملازم:

-لكن لا طيور هنا، ولا حشرات حتى.

قال الكابتن:

-أجل.

تلاشت الكلمة، وحل الصمت مجددًا، عميقًا وغامرًا. يقف الملازم ويهز شيئًا ما بقدمه. يقف الجنود. ويقوم الملازم والكابتن، من دون أن يلمسها، بفحص ما يبدو بندقية مصف مدفونة ومحطمة. الرجل الجريح يخرف مجددا.

يقول الملازم:

-ما هذه يا سيدي؟ تبدو مثل تلك البنادق التي يحملها الكنديون. بندقية روس، أليس كذلك؟.

يقول الكابتن:فرنسية، موديل 1914.

-أوه، يقول الملازم. يقلب البندقية جانبًا بمشط قدمه. حربتها ما زالت ملتصقة بخزان الرصاص، لكن الزند قد تلف منذ عهد بعيد. يمضون قدمًا على الأرض المتعرجة، بين الكتل الجيرية المنبثقة من التربة. الضوء، شعاع الشمس الواهن الدائخ، قليل في الوادي، راكد، بلا جسد أو حرارة. العشب المسنن يرتفع بكثافة عاليًا. ينظرون حولهم مجددًا إلى السفوح، ثم يرى الجنود في الطليعة الملازم يقف وينخس بعصاه إحدى الكتل الجيرية قالبًا إلى الأعلى محجريها المعفرين بالتراب ونظراتها الفارغة.

يصيح الكابتن:تقدموا.

يتحرك الجنود ناظرين بصمت وفضول إلى الجمجمة، ثم يشقون طريقهم بين الكتل الأخرى البيضاء كالرخام، المنبثقة عشوائيًا كالمسامير من التربة الضحلة.

يقول الملازم أول، مترنمًا:

-جميعها في الوضعية نفسها، ألاحظت يا سيدي؟ كلها منتصبة إلى الأعلى. يا لها من طريقة لدفن الشبان، جالسين! وفي هذه التربة الضحلة.

-أجل، يقول الكابتن. يخرف الجريح ويهرف. يقف الجنديان اللذان يحملانه. بينما يتجاوزهم رفاقهم ويحتشدون خلف الضباط.

يقول أحدهم:يريد أن يشرب، فيجيبه الآخر:فليشرب وهو يمشي.

ثـم يحمـلان الرجـل ويهـرولان بـه بينـما يحـاول أحدهـما أن يبقـي الجعـة عـلى فـم الجريـح، فترتطـم بأسـنانه وتدلـق المياه عـلى سـترته. ينظـر الكابـتن إلى الخلـف. ويصيـح بحدة:مـا هـذا؟.

يحتشـد الرجـال، عيونهـم جاحظـة، مترقبـة؛ يتفـرس في وجوههـم المتأهبـة الصامتة،مـاذا يحدث هنـاك في الخلـف أيهـا النقيب؟.

يقـول الملازم:الأرض ترتـج. ينظـر حولـه إلى الجـدران المنحوتـة، إلى الكتـل البيضـاء المنبثقـة مـن التربة.أشـعر بهـا بنفـسي، يقـول. ويضحـك ضحكـة رفيعـة بعـض الـشيء، ثـم يتوقـف عـن الضحـك. يقول:لنخـرج مـن هنـا يـا سـيدي، لنعـد إلى الضـوء ثانيـة.

يقول الكابتن:

-أنـت مـن الضوء هنـا. اهـدأوا قليـلًا أيهـا الرجـال، كفـوا عـن الاحتشـاد هكـذا. سـنخرج قريبًـا. سـنجد الطريـق ونعـبر حاجـز النـيران ونتصـل بالقاعـدة ثانية.

يلتفت ويمضي قدمًا. تتحرك الفرقة من جديد.

ثـم يتوقفـون جميعًـا عـن السـير كشـخص واحـد، ويتبادلـون النظـرات. مجـددًا تهتـز الأرض تحـت أقدامهـم. يـصرخ رجـل، صرخـة عاليـة، أشـبه بصرخـة امـرأة أو جـواد؛ حـين تهتـز الأرض للمـرة الثالثـة تحـت أقدامهـم يلتفـت الضبـاط إلى الخلـف ويـرون تحـت الجنـدي الغائـص نصفـه في الأرض حفـرة مازالـت في طـور التصـدع قبـل أن تنهـار الأرض تحـت رجـل ثـان. ثـم، بسرعـة ضربـة سـيف، ينشـق صـدع آخـر تحتهـم جميعًـا؛ تتكـسر الأرض تحـت أقدامهـم وتغـوص مثـل مربعـات حـادة الأطـراف مـن حلـوى الفونـدام، مكوّنـة ثقبًـا أسـود، أشـبه بانفجـار صامـت، تنبعث الرائحـة التـي لا يخطئهـا الأنـف. رائحـة الجيـف. بينـما يتبعـثرون ويتقافـزون (بصمـت الآن؛ إذ لم يعـد ثمـة صـوت منـذ صرخـة الرجـل الأولى) مـن فتحـة إلى أخـرى، والفتحـات جميعًـا تميـل وتنحـدر حتـى تتقـوض الأرض كلهـا تحـت أقدامهـم وتبتلعهـم الظلمـة. يرتفـع صـوت وسوسـة عميـق إلى شـعاع الشـمس في انفجـار تدمـيري مـن التحلـل والتربـة الباهتـة التـي تتعلـق قليـلًا حـول الفتحـة السـوداء.

يشـعر الكابـتن بنفسـه يغـوص في جـدار مـن الأرض المتحركـة، ومـن صرخـات الرعـب والعتمـة الخالصـة. يـصرخ شـخص آخـر. تتوقـف الصرخـة؛ يُسـمع صـوت الجريـح رفيعًـا وحـادًا مـن جـوف الشرخ،لسـت ميتًـا! لسـت ميتًا!ثـم ينقطـع صوتـه فجـأة، كأن أحدهـم وضـع يـده عـلى فمـه.

ثـم يسـتمر الكابـتن في الهبـوط منحـدرا، قبـل أن يجـد نفسـه مرميًـا عـلى أرض صلبـة، حيـث يتمـدد لوهلـة عـلى ظهـره بينـما يطفـو عـلى وجهـه عصـف المـوت والفنـاء. يجـد نفسـه متعلقًـا بـشيء ينهـار عليـه بخفـة، مصـدرًا صوتًـا مكتومًـا كأنمـا تبعـثر أشـلاء.

رويـدًا رويـدًا يـرى الضـوء منبعثًـا مـن تلـك الفوهـة المسـننة في الأعـلى، ثـم يـرى الرقيب

مائـلًا فوقـه بمصبـاح يـدوي صغـير. يقـول الكابتن:مـاكي؟ولا يجيبـه سـوى ضـوء المصبـاح عـلى وجهـه، يقـول الكابتن:أيـن السـيد مـاكي؟.

يقول الرقيب بصوف كالفحيح:

-لقد قضي يا سيدي.

يرفع الكابتن نفسه ويقتعد الأرض.

-كم بقي منهم؟.

-أربعة عشر يا سيدي.

-أربعة عشر. هناك اثنا عشر مفقودًا إذن. يجب أن نحفر بسرعة.

ينهـض منتصبًـا. الضـوء الخافـت مـن الأعـلى يسـقط بـاردًا فـوق الـركام، فـوق الثـلاث عـشرة خـوذة وضـمادة الجريـح البيضاء.أيـن نحـن؟.

عـلى سـبيل الإجابـة، يحـرّك الرقيـب المصبـاح في العتمـة عـلى طـول جـدار، نفـق يمتـد في عتمـة مفتوحـة، تـبرز عـلى جوانبهـا كتـل جيريـة. عـلى امتـداد النفـق، قعـودًا أو مسـتندة، تنـشر هيـاكل عظميـة بسـترات عسـكرية داكنـة وبناطيـل فضفاضـة، وقـد ألقيـت أذرعهـا المتحللـة جانبًـا؛ يتعـرف الكابـتن عليهـم بوصفهـم جنـودًا سـنغاليين مـن معـارك مايـو 1915، أُخـذوا عـلى حـين غـرة وقتلـوا بقنابـل الغـاز في الغالـب أثنـاء اختبائهـم في الكهـوف الجيريـة.

يأخذ المصباح من الرقيب ويقول:

-سنرى إذا كان هناك سواهم. أخرج عدة الحفر.

يصـوّب الضـوء نحـو نحـو الجـدار المظلـم ثـم إلى ضـوء النهـار الباهـت في الأعـلى. يتسـلق كومـة الـركام المتحركـة وهـو يشـعر أن الأرض ترتـج تحتـه مندفعـة إلى الأسـفل، وتبعـه الرقيـب، بينـما يـشرع الجريـح بالنحيـب ثانيةلسـت ميتًـا! ليسـت ميتًـا!حتـى يتحـول صوتـه إلى صراخ حـاد. أحدهـم يضـع يـده عـلى فمـه، كاتمًـا صوتـه الـذي سرعـان مـا يتحـول ضحـكًا عصبيـا، ثـم ينقلـب مجـددًا إلى صراخ، قبـل أن يُكتـم مجـددًا.

يتسـلق الكابـتن والرقيـب الـركام إلى أعـلى مسـافة يجـرؤان عليهـا، متشـبثين بـالأرض التـي تتحـرك تحتهـما في تنهـدات طويلـة مكتومـة. عنـد حافـة الجـرف يتجمـع الجنـود في كتلـة واحـدة، رافعـين وجوههـم البيضـاء الشـاحبة نحـو الضـوء. يمـرر الكابـتن الشـعلة نـزولًا وطلوعًـا عـلى الجـرف. ليـس مـن شيء، لا ذراع، ولا يـد عـلى مـدى النظـر. يبـدأ الهـواء يصفـو رويـدًا.سـنمضي قدمًـا، يقـول الكابـتن.

أجل سيدي، يقول الرقيب.

في الاتجاهين تكتنف الكهف ظلمة عميقة كثيفة، مليئة بالهياكل العظمية الخرساء القاعدة أو المسنودة على الجدران، وقد طُرحت أيديها جانبًا.

يقول الكابتن:لقد قذفنا الانهيار إلى الأمام.

يهمس النقيب:أجل سيدي.

يقول الكابتن:ارفع صوتك، ليس إلا كهفًا، إذا كان ثمة من دخل إليه قبلنا فنستطيع نحن الخروج منه.

-أجل سيدي.

-إذا كان الانهيار قذفنا إلى الأمام فيفترض أن يكون المدخل هناك.

-أجل سيدي.

يمد الكابتن المصباح أمامه. ينهض الرجال ويحتشدون بصمت وراءه، وبينهم الجريح، ينشج باكيًا. ثم يمضي الكهف باتجاه الضوء بينما تميل الرؤوس الهياكل القاعدة بصمت نحو الضوء أثناء مرورهم بهم. يصبح الهواء أثقل؛ سرعان ما يبدأون بالسير خببًا، وهو يتنفسون بتثاقل، ثم يصير الهواء أخف ويكشف ضوء المصباح منحدرًا آخر من الأرض، يسد النفق. يكف الجنود عن السير، ويحتشدون في كتلة واحدة. يرتقي الكابتن المنحدر. يزحف ببطء على حافته حتى يصل إلى سقف الكهف. يلتمع الضوء ثانية.

يهتف:فليتقدم اثنان مع أدوات الحفر.

ليتقدم جنديان نحوه. يريهما الفتحة التي يدخل منها الهواء في دفقات صغيرة مستمرة. يبدآن بالحفر، بتوحش وحماس، مهيلين التراب إلى الخلف. يبدأ آخران بمساعدتهما، ثم يصبح الشق نفقًا ويصبح في وسع أربعة جنود أن يحفروا معًا. يزداد تدفق الهواء. يحفرون بشراسة، صارخين صرخات أشبه بالعويل. الرجل الجريح ربما سمعهم، ربما أصابته عدوى الحماسة، فيبدأ بالضحك مجددًا، هستيريًا وبأقوى وبأعلى ما أوتي من صوت. ثم يندفع الجندي عند رأس النفق إلى الأمام. يتدفق الضوء حوله كالمياه؛ يحفر بجنون، في الظل يرون مؤخرته تختفي ثم يدخل نور النهار.

يترك الآخرون الجريح ويصعدون المنحدر، متصارعين عند الفتحة بمعول الحفر شاتمًا بهسيسه المخيف.

يقول الكابتن:

-دعهم أيها الرقيب. يتوقف الرقيب. يتنحى جانبًا ويراقب الرجال يمضون مبعثرين إلى خارج النفق. ثم ينزل هو والكابتن ويساعدان الجريح على صعود المنحدر. عند فتحة النفق يصرخ الجريح في سُعار:

يدفعونه بالقوة إلى الخارج وهو ما زال يزمجر....لست ميتًا! لست ميتًا.

يقول الكابتن:فلتخرج أنت أيها الرقيب.

فيرد الرقيب:من بعدك سيدي.

فلتخرج يا رجل، يقول الكابتن. يدخل الرقيب النفق. يتبعه الكابتن. يخرج إلى المنحدر الخارجي من الركام الذي كان يسد الكهف، والذي يقعي الرجال الأربعة عشر في أسفله. زاحفًا على يديه ورجليه كحيوان، يتنفس الكابتن في لهاث حاد. يقول في سرهقريبًا سيأتي الصيف، وهو يبتلع الهواء أسرع مما تحتمل رئتاه.قريبًا سيأتي الصيف والأيام طوال. يحتشد الرجال الأربعة عشر أسفل المنحدر. ذلك الذي في وسطهم يحمل الكتاب المقدس ويرتل الترانيم واجما، وقد طغى على صوته هذيان الجريح الواهن الممصر.

يوم عاصف جدا
وليام فولكنر

لم يكـن الأمريـكي – وهـو أكبرهـم سـناً – يرتـدي حُلتـه البدفـورد القرنفليـة. ولم تكـن بطويلـة الذيـل عـلى نمـط سـترات الجنديـة الإنجليزيـة الراقيـة، كان سرواله وسـترته مصنوعـين مـن الكتّـان. فيـبرز مـن تحـت حزامهسـام براونمثلـما يـبرز ذيـل سـترة جنـدي تحـت قـراب مسدسـه. وكان يرتـدي لفافـة سـاق بسـيطة وينتعـل حـذاء عـادي كالـذي يرتديـه رجـل الأربعـين بـدلًا مـن حذاءسـافيل رو، ولم يكـن لـون الحـذاء متناسـقًا مـع أي منهـما، أمـا شـارة جناحـي الطيـار عـلى صـدره فلـم تكـن مميـزة في شيء. لكـن الشرائـط التـي تحتهـا كانـت كذلـك، كـما ازدان كتفـاه بالشـارتين المعدنيتـين اللتـين تشـيران إلى رتبتـه ككابـتن طيـار. أمـا مـن الناحيـة الشـخصية فلـم يكـن بالطويـل. وكان نحيـل الوجـه يشـبه النـسر بعـض الـشيء، تشـع عينـاه ذكاء وإن كان مرهقـا بعـض الـشيء. كان قـد تجـاوز الخامسـة والعشريـن، وإذ يـراه المـرء لا تتبـادر إلى ذهنـه بالـضرورة أخويةفـاي بيتـا كابّـا، بـل ربمـا جمعيةجمجمـة وعظامـأو حتمنحـة رود.

أحـد الشـابين الواقفـين أمامـه لم يكـن يـراه عـلى الأرجـح، فقـد كان مترعـا حتـى الثمالـة بحيث اضطـر جنـدي أمريـكي إلى إسـناده عـلى رجليـه الطويلتـين النحيفتـين. وعـلي عكـس هـذا الشرطـي الضخـم، بـدا ذلـك الثمـل أشـبه بفتـاة متنكـرة. ربمـا كان في الثامنـة عـشرة، طويـل القامـة، أبيـض الوجـه، أزرق العينـين، ولـه فـم رقيـق يشـبه فـم الفتـاة أيضـا. كان يرتـدي معطفـا عسـكريًا أخـضر اللـون فاتحـا ، زُرر بشـكل خاطـئ وملطـخ بالطـين والسـخام، وعـلى شـعره الأشـقر، الـذي يخطـف البـصر، وضعـت قبعـة ضابـط البحريـة الملكيـة.

بادر الكابتن الأمريكي الشرطي العسكري قائلا :

-مـا هـذا أيهـا المعـاون؟ عـلام تتكبـد كل هـذه المشـقة؟ إنـه إنجليـزي، فمـن الأفضـل أن تـدع الشرطـة العسـكرية الإنجليزيـة تتـولى أمـره.

فقال الشرطي:

-أعرف أنه كذلك.

جـاء كلامـه لاهثـا متقطعـا مـن شـدة الإجهـاد. فبالرغـم مـن كل النعومـة الأنثويـة الظاهـرة عليـه، كان الفتـى الإنجليـزي أثقـل- أو أكـثر كسـلا - مـما يبـدو عليـه، قـال الشرطـي مخاطبـا الفتـي:

-قف على قدميك يا هذا! أنت في حضرة ضباطا.

عندئـذ بـذل الفتـى الإنجليـزي بعـض الجهـد، محـاولا الوقـوف بمفـرده عـلى قدميـه وتركيـز

نظراتـه. لكنـه ترنـح، طارحـا ذراعـه عـلى رقبـة الشرطـي، وباليـد الأخـرى أدي التحيـة للضابـط ويـده ترتعـش، وقـد تكـورت أصابعـه بعـض الـشيء عـلى صدغـه الأيمـن، مـن دون أن يكـف عـن الترنـح ومحـاولا الوقـوف بثبـات في ذات الوقـت.

قال:ابتهج يا سيدي. آمل ألا يكون اسمك بتي!.

أجابه الكابتن:لا.

قال الفتى:

-آه، كنت آمل بألا يكون كذلك. هذه غلطتي. لا إهانة ها؟.

فرد الكابتن بهدوء:

-لا إهانة.

لكنـه كان ينظـر إلى الشرطـي. عندئـذ تكلـم الضابـط الثـاني وهـو مـلازم طيـار. لكنـه لم يكـن في الخامسـة والعشريـن وكان يرتـدي البـزة القرنفليـة، والحـذاء الفاخـر وربمـا كان معطفـه إنجليزيـا أيضـا لـولا الياقـة. قـال:

-إنـه أحـد جنـود البحريـة، تراهـم يحملونهـم مـن المزاريـب هنـا طـوال الليـل. أنـت لا تـتردد كثـيرا عـلى البلـدة.

قال الكابتن:

-أوه لقد سمعت بهم. تذكرت الآن.

كـما لاحـظ عندئـذ، أنـه برغـم ازدحـام الشـارع- فقـد كان خـارج مقهـى شـعبي- وهنـاك الكثير مـن المـارة مـن جنـود ومدنيـين ونسـاء، لكـن أحـدا منهـم لم يطـل الوقـوف أمـام هـذا الشـهيد، وكأنـه مألـوف بالنسـبة إليهـم. ثـم نظـر إلى الشرطـي:

--ألا تستطيع إعادته إلى سفينته؟.

قال الشرطي:

-فكـرت في هـذا، لكنـه يقـول إنـه لا يسـتطيع الذهـاب إلى سـفينته بعـد الظـلام لأنـه يركـن السـفينة عنـد الغـروب.

-يركن السفينة.

-امسـك نفسـك أيهـا البحـار، صرخ الشرطـي وهـو يحـاول رفـع حملـة المتراخي.ربمـا بوسـع الكابـتن فهـم قصـده. ليسـامحني اللـه إن كنـت فهمـت شـيئا. يقـول إنهـم يركنـون المركـب تحـت

رصيف الميناء. يضعونه تحت الرصيف ليلًا، ولا يستطيعون إخراجه قبل ارتفاع المد في اليوم التالي.

قال، مخاطبا الملازم:

-تحت الرصيف؟ مركب؟ ما هذا الكلام؟ هل يقودون نوعا ما من الدراجات النارية البحرية.

قال الملازم:

-شيء من هذا القبيل، لقد رأيت هذه المراكب. إنها زوارق غامضة وما أشبه ذلك. تندفع في الميناء تروح وتجيء. لقد رأيتها. يفعلون ذلك طوال النهار وينامون هنا في المزاريب طوال الليل.

قال الكابتن عاقدا حاجبيه:

-يا الله، كنت أحسب أن هذه المراكب هي زوارق لقادة السفينة. أتقصد أنهم يستعملون الضباط فقط لكي يوصـ......

قاطعه الملازم:

-لا أعرف، ربما يستعملونهم لنقل المياه الحارة أو الخبز من سفينة إلى أخري. أو يرسلونهم على وجه السرعة لكي يحضروا لهم مناديلهم حين ينسونها وأشياء من هذا القبيل.

قال الكابتن:

-هراء.

وعاود النظر إلى الفتى الإنجليزي.

-هذا ما يفعلونه، البلدة تضج بهم طوال الليل. ثم تجدهم مرميين بالعشرات على الأرصفة فتأتي شرطتهم العسكرية وتحملهم بعيدا، مثل الممرضات في حديقة. ربما أعطاهم الفرنسيون الزوارق لكي يحملوهم عن الأرصفة خلال النهار.

قال الكابتن:

-آها، نعم لقد فهمت.

لكن بدا واضحا أنه لم يفهم، لأنه لم يكن يصغي، ولم يكن يصدق ما يسمعه. نظر إلى الفتي الإنجليزي:

-حسنا لا يمكننا تركه هنا بهذا الشكل.

من جديد حاول الفتى الإنجليزي أن يتماسك ويقف على رجليه.

-لا بأس عليك، بكل تأكيد، قال بصوت رقيق مرح وجذل تقريبا وبالغ التهذيب.اعتدت على ذلك، رغم أنه بلاط قاس. يجب أن تفعل القوات الفرنسية شيئا ما حيال الأمر. يستحق الضيوف حقلا مناسبا للعب، أليس كذلك؟.

قال الشرطي العسكري:

-ولا بد من أنه استعمل هذا الحقل جيدا، ربما يحسب نفسه فريقا من رجل واحد.

في هذه اللحظة جاء رجل خامس. كان شرطيا عسكريا بريطانيا.

-ليس الآن، قال متأففا،ما هذا؟ ما هذا؟

ثم رأى الشارة على كتفي الأمريكيين. فحياهما. التفت على صوت ما، مترنحا، محملقا. قال:

-أهلا ألبرت.

أجاب الشرطي البريطاني:

-ممم إنه السيد هوب.

ثم خاطب الشرطي الأمريكي:

-ماذا فعل هذه المرة؟.

قال الأمريكي:

-على الأغلب لا شيء! يا للطريقة التي تخوضون فيها الحرب يا شباب. لكنني غريب هنا. هاك. خذه.

سأل الكابتن:

-ما هذا أيها المعاون؟ ماذا كان يفعل؟.

-لن يعتبره بالشيء ذي البال.

قالها الشرطي الأمريكي، مشيرا برأسه في اتجاه الشرطي البريطاني ثم تابع:

-ربما يسميه بلبلًا أو أبا الفصاد أو شيئا من هذا الهراء. جئت ووجدت هذا الشارع مقفلا على امتداد ثلاثة أحياء بسور من الشاحنات الخارجة من أحواض السفن، وجميع السائقين يصرخون كالرعاع. ما المشكلة بحق الله. فمضيت في طريقي ووجدت أنها تسد التقاطع أيضا، فاتجهت إلى حيث المشكلة، ووجدت نحو دستة من السائقين في المقدمة،

يجـرون اجتماعـا أو شـيئا عـلى هـذا النحـو في وسـط الشـارع. تقدمـت منهـم وسـألتهم:ما الـذي يحـدث هنـا بالضبـط؟. سـمحوا لي بالمـرور، ووجـدت هـذا المغفـل ممـددا هنـا.....

قال الشرطي البريطاني محتجا:

-صه! إنك تتكلم عن أحد ضباط جلالة الملكة يا هذا.

فقال الكابتن:

-انتبه لألفاظك أيها المعاون، أكمل.. ووجدت هذا الضابط...ثم...

-وجدتـه نائمـا وسـط الشـارع، متوسـدا سـلة فارغـة. ممـددا هنـاك ويـداه تحـت رأسـه، شـابكا رجليـه، مجـادلا السـائقين في مـا إذا كان سـينهض ويتحـرك أم لا، قائـلا إن للشـاحنات يمكنهـا أن تعـود أدراجهـا و تجـد طريقـا آخـر، لكنـه لا يسـتطيع اسـتعمال أي طريـق آخـر، لأن هـذا الطريـق ملكـه.

-ملكه؟.

كان الفتي الإنجليزي يصغي بجذل واهتمام، وقال:

-عنـبر عسـكري، كـما تـرى، يجـب أن يسـود النظـام حتـى في طـوارئ الحـرب. عنـبر بالقرعـة. هــذا الشــارع لي. لســت أتعــدى عــلى أحــد، أليــس كذلــك؟ الشــارع التــالي لجيمــي ويذرســبون. طلبـت مـن الشـاحنات أن تمـر منـه لأن جيمـي لم يـأو إلى النـوم بعـد. فهـو مصـاب بـالأرق. فلتذهـب الشـاحنات مـن ذاك الطريـق، هـل فهمتنـي؟.

قال الكابتن:

-هل هذا هو ما حدث أيها المعاون؟.

-كـما أخـبرك. لقـد أبى النهـوض. ظـل ممـددا هنـاك فحسـب، وهـو يجادلهـم. ثـم طلـب مـن أحدهـم أن يذهـب إلى مـكان مـا ويجـلي معـه نسـخة مـن قانـون الحـرب عندهـم....

رد الكابتن مقاطعا:

-قانون الملك؛ أجل.

-.... ولـيروا إذا كان الكتـاب يبـين مـن لـه الأحقيـة في المـرور، هـو أم الشـاحنات. ثـم قمـت برقعـه عـن الأرض، ثـم جئـت أنـت. وهـذا كل شيء. ومـن بعـد إذن الكابـتن سأسـلمه إلى ممرضـة جلالتـه الــ....

قال الكابتن هازا رأسه:

-هذا يكفي أيها المعاون، يمكنك الذهاب. سأتولى هذا الموضوع.

ثم أنه حيا الشرطي وسار في سبيله. وتولى الشرطي الإنجليزي سند الفتي، وقال الكابتن:

-أيمكنك أخذه؟ أين مواقع كمونهم؟.

-لا أعرف يا سيدي إذا كانت لهم مواقع كمون أم لا. نحن ــــ ممم.. في الواقع أنا عادة أراهم في الخمارات حتى مطلع الفجر، بل حتى تشرق الشمس. لا يبدو أنهم يعودون إلى الفراش أبدا!

سأله وقد عقد حاجبيه:

-أتعني أنهم حقا لا يعودون إلى سفنهم؟

تململ الفتى في موضعه وأجاب:

-حسنا سيدي، ربما تكون هناك سفن، إذا شئت أن تسميها كذلك، لكن الرجل ينبغي أن يكون يرغب في النوم كالكلب الميت لكي يستطيع النعاس في إحداهما.

هذه المرة جاء صوت الشرطي مباشرا وقاطعا مثل بوابة حديدية توصد:

-لا أعرف يا سيدي.

-أوه، حسن جدا، لكنه ليس في وضع يسمع له بالبقاء في الحانات حتى الصباح هذه المرة.

قال الشرطي:

-ربما يمكنني أن أعثر له على خمّارة فيها طاولة خلفية يمكنه أن ينام عليها.

لكن الكابتن كان في عالم آخر ولم يكن يصغي. كان يتطلع إلى الرصيف المقابل، حيث أنوار مقهى آخر تسقط على الرصيف. تثاءب الفتى الإنجليزي بقوة كفرس النهر، فبان داخل فمه الواسع الزهري تماما كطفل. التفت الكابتن إلى الشرطي:

-أتمانع في الذهاب إلى هناك وأن تستعلم عن سائق النقيب بوجارد؟ أما السيد هوب فسأتولى أنا أمره.

أسند الكابتن الفتى عندما غادر الشرطي، واضعًا يده تحت ذراعه. ومن جديد تثاءب مثل حيوان الكسلان. وقال النقيب:

-اثبت، ستصل السيارة في لحظات.

فرد الفتى الإنجليزي، متثائبًا:

-طيب.

ما إن أصبح داخل السيارة حتى غفا فجأة بوداعة طفل رضيع، جالسًا بين الأمريكيين. لكن، ورغم أن الميناء الجوي كان يبعد ثلاثين دقيقة فقط، إلا أنهم وجدوه مستيقظا حين وصلوا، وبدا عليه الانتعاش التام، وراح يطال بمزيد من الويسكي. حين دخلوا إلى المطعم كان قد استيقظ بالكامل، اهتز جفنه قليلًا بسبب الإضاءة الساطعة في القاعة، بقبعته المهترئة وسترته الكاكية المزررة بشكل خطأ، وقد التف حول عنقه وشاح حريري قذر رأى فيه بوجارد شعار مدرسة تحضيرية شهيرة.

صاح الفتى بحيوية ووضوح، وبصوت مرتفع طروب، بحيث التفت الآخرون في الغرفة ناظرين نحوه.

-رائع. ويسكي. تمام؟.

ومضى مباشرة يتبعه الملازم أول. مثل كلب الراعي الألماني إلى المشرب في الزاوية، واتجه إلى الطرف المقابل من الغرفة، حيث خمسة رجال يلعبون الورق.

سأله أحدهم:

-أميرال أيّ سلاح هو؟.

قال بوجارد في بساطة:

-في الحال التي وجدته عليها فإنه أميرال البحريّة الاسكتلندية بالكامل.

رفع آخر رأسه و نظر مليًا إلى الفتى، قائلًا:

-أوه، عرفت أنّني رأيته في البلدة، ربّما لأنّه كان على قدميه لم أتعرّف عليه فورًا حين دخل. عادة ما تراه مرميًا على الرصيف.

قال الأوّل، متلفّتًا حوله:

-أوه، أهو واحد من أولئك الشبّان؟.

-هذا صحيح. لابدّ من أن تكون قد رأيتهم ممددين كالقتلى على الرصيف بينما يحاول رجال الشرطة العسكريّة الإنجليزيّة جرّهم.

قال الآخر:

-أجل، لقد رأيتهم بأم عيني!.

ونظروا جميعًا إلى الفتى الإنجليزي الواقف عند البار، يمزح بصوت مرتفع وبطريقة

صاخبة سخيفة مزعجة.

-بدوا جميعًا مثله أيضًا في السابعة عشرة. إنّهم يعملون على متن تلك الزوارق التي تعج بها الميناء.

قال الثالث:

-أهذا ما يفعلونه حقا؟ أتعني أنّ هناك فرقة احتياط عسكريّة للأغبياء؟ يا إلهي، لقد ارتكبت حماقة حين التحقت بالجيش. لكن لم يتمّ الترويج لهذه الحرب بالشكل المناسب.

قال بوجارد:

-لا أعرف، أحسب أنّهم يفعلون أكثر من مجرّد التسكّع على متن تلك الزوارق.

لكنّهم ما كانوا يستمعون إليه، بقدر انشغالهم بالضيف. قال الأوّل:

-إنهم يعملون بالساعة، حين ترى حال الواحد منهم بعد الغروب يمكنك أن تعرف الساعة بمنتهى الدقة. لكن ما لا أفهمه هو كيف أنّ رجلًا تكون هذه حاله عند الواحدة بعد منتصف ليل كلّ يوم، يمكنه حتى أن يشهد قتالًا بحريًا في اليوم التالي.

وقال آخر:

-ربّما حين تكون هناك رسالة يريدون إيصالها إلى سفينة ما، يعدّون نسخًا مماثلة يوزّعونها على عدد من الزوارق ويرسلونها نحو السفينة، وتلك التي تخطئ في الوصول إلى السفينة تطوف في الميناء حتى تجد مرساها في مكان ما.

قال بوجارد:

-لابدّ من أنّهم يفعلون ما هو أهم من ذلك وأخطر!.

ثم أنه هَمّ بقول شيء آخر، لكن، في تلك اللّحظة، جاء الضيف من المشرب باتّجاههم، حاملًا كأسًا. مشى بثبات كافٍ، لكنّه كان متورّد الخدّين، متلألئ العينين، و بادرهم بالصوت المرتفع المرح نفسه:

-أقول، لم لا تنضمون أيّها الرفاق...

ثم أنه توقّف. لقد بدا عليه أنّه لاحظ شيئًا ما، نظر إلى صدورهم وتأوه:

-آها، فهمت. أنتم طيارون. جميعكم. يا إلهي الرحيم. تجدون ذلك رائعًا، أليس كذلك؟.

أجاب أحدهم:

-أجل، إنه رائع.

-لكنه خطر، أليس كذلك؟.

فقال آخر:

-أسرع بقليل من كرة المضرب.

فحانت من الضيوف نحوه نظرة اهتمام بشوشة.

وقال آخر بسرعة:

-يقول بوجارد إنك قائد سفينة حربية.

-بالكاد سفينة. لكن شكرًا على أي حال. ولست قائدًا. روني يتولى القيادة. إنه يعاني قليلًا في الرتبة. فارق السن.

-روني؟.

-أجل. رجل لطيف حلو المعشر. لكنه كبير السن. ومحتال كبير.

-محتال؟.

-مخيف. لن تصدقوا ذلك. كلما لمحنا دخانًا وكنت أحمل المنظار، يحيد بالزورق ويبقيه كذلك لفترة بحيث لا أرى السفينة. أمس سبقني بهدفين.

حدق الأمريكيون بعضهم ببعض:

نحن نلعب هذه اللعبة. مع صواري السفن المثلثة، أترون. حين ترى الصاري تحرز هدفًا! لكننا ما عدنا نحتسب الإرجنستراس.

تبادل الرجال النظرات. تكلم بوجارد:فهمت. حين يرى أحدكم صاري سفينة يحقق هدفًا على الآخر. فهمت. ما هي الإرجنستراس؟.

-إنها سفينة بخارية ألمانية. الصاري الأمامي فيها مزود بالأشرعة، فتبدو شبيهة بالسفن العادية. شخصيًا لا أجدها تشبه السفن الشراعية لكن روني يعتقد ذلك. احتسبها مرة. ثم ذات يوم نقلوها من مكانها. فرأيتها واحتسبتها هدفًا. فقررنا بعد ذلك ألا نحتسبها. أفهمت الآن؟.

قال الذي أبدى سابقًا التعليق حول كرة المضرب:

-فهمت. أنت وروني تذهبان بالزورق، وتلعبان الورق. إمممم. هذا جميل. هل تلعبان الـــــــ....

هتف بوجارد:جيري!

فراح الضيف ينظر إلى جيري وهو ما زال يبتسم بعينين واسعتين. وقال جيري بالنبرة عينها التي تخفي مسحة من السخرية:

-هل مؤخر مركبك، أنت روني، مطلي باللون الأصفر؟.

غمغم الفتى الإنجليزي، وقد كف عن الابتسام و إن احتفظ ببشاشة وجهه:

-مؤخر أصفر؟

-كنت أحسب أنه حين يكون هناك ضابطان على مركب ما يقومون بطلاء مؤخره بالأصفر أو نحوه.

قال الضيف:

-بيرت وريفز ليسا ضابطين.

هتف الآخر:

-إذن هما يذهبان أيضًا. أيلعبان البيفر كذلك؟.

-جيري!، قالها بوجارد. فنظر الآخر إليه.

هز بوجارد رأسه قليلًا:

-تعال إلى هنا.

نهض الآخر. وانتحيا جانبًا.

-دعه وشأنه، ليس إلا ولدًا. حين كنت في مثل سنّه هل كنت تفقه ما تقول؟ لم تكن تملك من العقل ما يكفي للوصول إلى الكنيسة في الوقت المناسب.

قال جيري:

-لكن بلدي لم يكن منخرطًا في هذه الحرب منذ أربع سنوات، وها نحن نهدر أموالنا نتعرض للقتل طيلة الوقت، وليست حربنا حتى، وأولئك البحارة البريطانيون الذين يتعاملون مع الحرب....

-صه، إنك تتكلم مثل ليبرتي لون.

-يتعاملون مع الحرب كأنها مهرجان أو ما شابه....

ثم رخّم صوته محاكيًا صوت الفتى الإنجليزي:

-رائع! لكن خطرة. أليس صحيحًا؟.

قال بوجارد:

-صه.

-أحب أن أراه هو وروني هذا في الميناء ولو مرة واحدة. في أي ميناء بلندن. لا أحتاج إلى أكثر من طائرة. لا بل سأكتفي بدراجة هوائية وطوافتين! سأريه عندئذ بعض الحرب.

-حسنًا، الآن دعه وشأنه. سيرحل قريبًا.

-ما الذي ستفعله معه؟.

-سآخذه معي هذا الصباح. ليأخذ مكان هاربر في المقدمة. يزعم أن بمقدوره التعامل مع رشاش لويس. يبدو إن لديه واحدًا مثله على القارب! أخبرني أنه أطلق الرصاص مرة على مناورة عن بعد سبعمائة ياردة.

-حسنًا، خذ راحتك. ربما يستطيع أن يهزمك.

-يهزمني؟.

-بلعبة البيفر أعني. ثم تستطيع بعدها أن تلاعب روني.

قال بوجارد:

-سأريه بعض القتال إذا أراده على أي حالونظر إلى الضيف وأردف:جماعته منخرطون في الحرب منذ ثلاث سنوات، ويبدو أنه يتعامل معها مثل تلميذ جاء للمشاركة في يوم المبارة الحافل!. ونظر ثانية إلى جيري واستطرد:أما الآن، فاتركه لحاله. وحين دنونا من الطاولة، كان صوت الضيف مرتفعًا وبهيجًا:... إذا كان المنظار معه أولًا يقترب من المقاتلة وينظر، أما إذا رأيتها أولًا، فيبتعد بالقارب بحيث لا أرى شيئًا سوى الدخان. يا له من محتال, لكن الإرجنستراس ما عادت تحتسب. وإذا أخطأت واحتسبها، تخسر هدفين من رصيدك يا ناصح. وإذا أخطأ روني واحتسبها هذه المرة نصبح متعادلين! هههه.

كان الفتى الإنجليزي ما زال يهلوس بصوته الشجي السعيد عند الساعة الثانية. كان يخبرهم عن رحلته إلى سويسرا التي ألغيت عام 1914، وأنه بدلًا من الإجازة التي وعده بها والده لعيد ميلاده السادس عشر، كان عليه هو ومدرسه الخصوصي أن يقبلا بوايلز. ولكنهما ذهبا إلى منطقة مرتفعة جدًا هناك، لكنه يفضل سويسرا بغض النظر عن بقية الآراء. من ويلز تتاح للمرء الرؤية الشاملة بقدر ما يمكنه أن يرى من سويسرا.

-تتعب بالقدر نفسه وتجاهد النفس فتتنفس بالصعوبة نفسها على أي حال.

تجمهر الأمريكيون حوله، متجهمين نوعا، مصغين إليه بنوع من الاهتمام المصطنع. ثم

صاروا يخرجون تباعًا ويعودون مرتدين بزّات الطيران، حاملين الخوذات والنظارات. دخل ضابط خدمة يومية حاملًا صينية عليها أكواب من القهوة، ولاحظ الضيف أنّه كان منذ بعض الوقت يسمع هدير محركات الطائرات في الغبشة بالخارج. وفي الختام نهض بوجارد وقال له:

-تعال معي، سنحضر لك ملابسك.

كانت أصوات المحركات فظيعة ومرعبة حين خرجا من المقصف، وبالتوازي مع مدرج الطيران الخفي، كانت ثمة خطوط لنقاط غامضة من الأضواء الزرقاء والخضراء تلتمع في الجو. اجتازوا أرض المدرج إلى مقر بوجارد، حيث الملازم أول، ماك جينيز، يجلس على الفراش منهمكًا في عقد رباط حذاءه. تناول بوجارد بذلة ورماها على السرير، قائلًا:

-ارتد هذه.

فسأل الضيف:

-هل سأحتاج إلى هذا كله؟ هل سنغيب دهرًا؟.

-على الأرجح، من الأفضل أن ترتديها، فالطقس في الأعلى فوق ما يطاق.

أخذ الضيف البذلة:

-علينا الخروج يوم غد.... أعني اليوم. أتظن أن روني لن يمانع لو تأخرت بعض الشيء؟ ربما لا ينتظرني.

قال ماك جينيز:

-سنعود قبل وقت الشاي. بدا شديد الانشغال بانتعال حذاءه.أعدك. نظر الفتى الإنجليزي إليه. وسأله بوجارد:

-متى يفترض أن تعود؟

رد عليه:

-أوه حسنًا، أجرؤ على القول إنه سيمضي الأمر على ما يرام. سوف يسمحون لروني أن يحدد موعد الذهاب على أي حال، وسينتظرني في حال تأخرت قليلًا.

-سينتظرك. والآن ارتد البذلة.

ساعده ماك جينيز على ارتداءها. وقال بجنل:

-لو استطعت الصعود إلى فوق، أراهن أنه يمكن الرؤية أبعد مما يرى المرء من الجبال،

أليــس كذلك؟.

قال ماك جينيز:

-سترى أكثر على أي حال، ستحب الأمر.

هتف في جذل:

-أوه، أرجو أن ينتظرني فحسب. لكنها خطرة أليس كذلك؟.

قال ماك جينيز بنبرة سخرية:

-دعك من هذا الكلام، أنت تمازحني.

-كفى يا ماك، هيا بنا.

ثم موجها خطابه إلى الضيف:

-أتريد المزيد من القهوة؟

لكن ماك جينيز أجاب:

-لا. لدي ما هو أفضل من القهوة. القهوة تحدث بقعًا لا تزول عن الأجنحة.

-عن الأجنحة؟ ولماذا القهوة على الأجنحة؟.

قال بوجارد:

-كف عن هذا أقول لك يا ماك، هيا بنا.

عـاودوا عبـور المـدرج، واقتربـوا مـن صفـوف الضـوء المتذبـذب. حـين اقتربـوا بـدأ الضيـف يميـز الشـكل، الخطـوط الخارجيـة لطائـرة مـن طـراز هانـدلي بايـج. بـدت أشـبه بحافلـة تميـل إلى أعـلى نحـو هيـكل الطابـق الأول مـن ناطحـة سـحاب غـير مكتملـة البنـاء. نظـر الضيـف إليهـا بصمـت. ثـم قـال بصوتـه الحـماسي المـرح:

-بـل هـي أكـبر مـن السـفينة، أراهـن أنهـا تطـير عـلى دفعـات. لقـد رأيـت مثلهـا مـن قبـل. وكانـت تـأتي بقطعتـين: الكابـتن بوجـارد وأنـا في واحـدة. مـاك وشـاب آخـر في القطعـة الأخـرى. هـه؟.

كان بوجارد قد اختفى بالكامل، فقال ماك جينيز:

-لا، ترتفع كلها دفعة واحدة. لعبة كبيرة أليس كذلك؟ أشبه بصقر.

تمتم الضيف:

-صقر؟ نعم، أقول إنها سفينة قادرة على الطيران.

قال ماك جينيز، واضعًا قنينة باردة في يد الفتى:

-اسمع حين تشعر بالدوار اشرب من هذه.

-وهل سأشعر بالدوار؟.

-طبعا. جميعنا نشعر بالدوار. هذا جزء من الملاحة. هذا سيوقف الدوار. لكن إذا لم تفعل... أفهمت؟.

-ماذا؟.

-إذا تقيأت فلا تفعل ذلك جانبيًا.

-ليس جانبيًا؟.

-سيعود القيء على وجه بوغي ووجهي. أفهمت؟.

-آه فهمت. ولكن ماذا أفعل بالقيء؟.

كانا يتكلمان همسًا كشخصين في مؤامرة.

-فقط احن رأسك ودعه يخرج.

-فهمت.

عاد بوجارد، وقال:

-هلا أريته كيف يجلس في الحجرة الأمامية؟.

وصعد ماك جينيز قبله إلى الطائرة، حيث يضيق الممر صعودًا إلى المقصورة فيضطر المرء إلى أن يزحف.

قال ماك جينيز:

-خذ الطريق زحفا.

وقال الضيف:

-يبدو المكان أشبه بوجار كلب.

وافقه ماك جينيز ساخرا:

-أليس كذلك؟ سآتي معك.

منحنيًا سمع الضيف وهو يزحف قدمًا، وقال له:

-ستجد رشاش لويس هناك.

عاد إليه صوت الضيف:

-وجدته.

-سيأتي ضابط التسليح بعد قليل ويريك ما إذا كان محشوا.

قال الضيف،سيأتي محشو

ولم يكد ينهي كلامه حتى انطلق الرصاص من المدفع الرشاش دفعة واحدة صاعقة تبعها صراخ صاعد من الأسفل، من مقدمة الطائرة. وقال الفتى:

-لا بأس، لقد وجهته ناحية الغرب قبل أن أطلق الرصاص. لا شيء هناك سوى مركز البحرية ومقركم أنتم. أنا وروني دائمًا نفعل ذلك قبل أن نذهب إلى أي مكان. آسف إذا قمت بذلك في وقت مبكر جدًا. اسمي كلود بالمناسبة. لا أظن أنني ذكرته من قبل.

على الأرض وقف بوجارد وضابطان آخران. كانا قد جاءا راكضين، وقال أحدهما:

-لقد أطلق الرصاص ناحية الغرب، كيف بالله عليك يعرف اتجاه الغرب؟.

قال الآخر:أنسيت أنه بحار؟.

قال بوجارد:يبدو أنه ضابط مدفعية أيضًا.

-لنأمل ألا ينسى هو ذلك!.

أبقى بوجارد عينيه على ظل الرأس الذي يبرز من خزانة المدفع على بعد عشرة أقدام منه. وقال لماك جينيز الجالس بجواره:

-بيد أنه عرف كيف يشغله، حتى أنه ركّب أسطوانة الذخيرة بنفسه، أليس كذلك؟.

أجاب ماك جينيز:

-أجل، فقط لو أنه لا ينسى، فيحسب نفسه المدفع ومدرسه الخاص يصوبه من جبال الألب في ويلز.

قال بوجارد في صوت خفيض:

-ربما ما كان يجدر بي إحضاره معنا.

لم يجب ماك جينيز. ودفع بوجارد المقود قليلًا. أمامهم، في خزانة الرشاش، كان الضيف يحرك رأسه بلا توقف، ناظرًا حوله.

قال بوجارد:

-سنصل إلى هناك، نفرغ حولتنا ونعود، ربما في غبشة الغروب... فكر في الأمر، من المشين لبلاده أن يكون منخرطًا في هذه الفوضى منذ أربع سنوات وألا يرى حتى سلاحًا مصوبًا نحوه.

قال ماك جينيز:

-سيرى واحدًا الليلة إذا لم يبق رأسه في الداخل!

لكن الفتى لم يبق رأسه في الداخل. ولا حتى حين وصلوا إلى الهدف، وزحف ماك جينيز إلى مفصلا إطلاق القذائف. وحتى حين كشفتهم صفوف الأضواء وأشار بوجارد إلى الطائرات الأخرى منقضا بطائرته، مطلقًا المحركين بأقصى سرعة عبر الرصاص، كان وجه الفتى يلمع على ضوء الكشافات، مائلًا إلى الخارج، بارزًا بقوة مثل ممثل يحيطه كشاف ضوء على خشبة مسرح، وعلى وجهه تعبير طفولي مفعم بالبهجة والحبور.

وفكر بوجارد:

-لكنه يطلق الرصاص من هذا المدفع، ومباشرة نحو الهدف أيضًا

وجه الطائرة نزولًا أكثر، مشاهدًا عين الهدف تتذبذب أمام ناظريه، فرفع يده اليمنى في إشارة إلى ماك جينيز. ثم أنزلها. وبدأ يسمع قرقعة القذائف وصفيرها أعلى من هدير الطائرة التي انطلقت بعدئذ صعودًا وقد تحررت من حملها، خارجة للحظة من ضوء الكشافات. ثم انهمك بوجارد باجتناب مضادات الطائرات، قبل أن تعاود الكشافات رصده بما يكفي ليتبين الفتى الإنجليزي مائلًا أكثر جانبيًا، ناظرًا إلى الخلف وإلى تحت أسفل الجناح الأيمن، نحو عجلات الطائرة. وفكر بوجارد في أنه ربما قرأ عن ذلك في مكان ما، استدار، نظر إلى الخلف، لكي يرى بقية السرب.

ثم انتهى كل شيء، واستحالة العتمة باردة وفارغة ومسالمة وتكاد تكون ساكنة لولا هدير المحرك الثابت. عاد ماك جينيز إلى مقعده، لكنه ظل واقفًا وأطلق المسدس الملون، ووقف للحظة أطول، ناظرًا إلى الخلف حيث الكشافات تسبر الفضاء وتحبسه. جلس ثانية. وقال:

-حسنًا لقد رأيت طائراتنا الأربع. فلننطلق.

ثم نظر أمامه وسأل:

-ماذا حصل مع خادم الملك؟ لم تعلقه بقنبلة أليس كذلك؟.

نظر بوجارد. كانت الحجرة الأمامية خاوية غارقة في الظلام مرة أخرى، على خلقية

النجـوم، لكـن لم يكـن مـن شيء هنـاك مـا عـدا المدفـع الرشـاش. وقـال مـاك جينيـز:

-لا، ها هو. هل تراه؟ يميل إلى الخارج. تبًا قلت له ألا يتقيأ! ها هو يعود.

ظهر رأس الضيف مجددًا. لكنه سرعان ما عاود الاختفاء. فقال بوجارد:

-إنـه يعـود، أوقفـه. قـل لـه إن جميـع الطائـرات الألمانيـة سـتكون فوقنـا في غضـون نصـف سـاعة.

تأرجح ماك جينيز نزولًا عند مدخل الممر. صرخ:

-عُد!

كان الفتـى في الخـارج تقريبًـا؛ أقعيـا وجهًـا لوجـه مثـل كلبـين، وهـما يتبـادلان الـصراخ وسـط صخـب المحـركات عـلى جانبـي الجـدران النسـيجية. كان الفتـى يصيـح:

-قنبلة! قنبلة؟.

-أجل! أجل!. عد إلى سلاحك الآن بالله عليك.

عاد ماك جينيز إلى موقعه.

-لقد عاد. أتريدني أن أقود عنك لفترة؟.

قال بوجارد:حسنًا

ثـم أنـه تخـلى عـن المقـود لمـاك جينيـز قائلًا:خفـف سرعتهـا قليـلًا. لـن ينقضـوا علينـا قبـل الفجـر.

-حسنًا، قالها ماك جينيز. ثم حرك المقود فجأة،ما قصة هذا الجناح الأيمن؟.

-انظر... هل ترى؟ إنني أطير على الجناح وبعض الدفة. أشعر بهذا.

أمسك بوجارد المقود للحظة:

-لم ألاحـظ ذلـك. ثمـة عطـل سـلكي مـا عـلى مـا يبـدو. لم أحسـب أن أيًـا مـن تلـك القذائـف كان قريبًـا. انتبـه لهـا مـع ذلـك.

قال ماك جينيز:حسن، وإذن سترافقه غدًا، أعني اليوم، في زورقه.

-أجل، لقد وعدته. لا يمكنك جرح شعور فتى كما تعرف.

-لما لا تأخذ كوليير معك مع الماندولين الخاص به؟ عندها يمكنك الإبحار والغناء معا!.

وقال بوجارد:لقد وعدته، ارفع هذا الجناح قليلًا.

أجابه ماك جينيز:حسنًا

بعد نصف ساعة بدأت السماء تصير رمادية إيذانًا بالفجر وقال ماك جينيز:

-حسنًا، ها هم أولاء. انظر إليهم! يبدون مثل البعوض في أغسطس. آمل ألا يتحمس الآن ويحسب أنه يلعب الورق. إذا فعل فسيسبقه روني بنقطة، هذا إذا ما كانت للشيطان لحية!... هل يريد القيادة؟.

وفي تمام الثامنة كان الشاطئ، القناة، قد أصبح تحتهم. خفف بوجارد السرعة، وهبط بالطائرة نحو منعرج القناة. كان وجهه تبدو عليه أمارات الإرهاق، كالكلب الميت. وبدا ماك جينيز مجهدا وبحاجة إلى حلاقة. وصاح عندما رأى الفتى يميل فوق الجانب الأيمن من الحجرة مجددًا، ناظرًا إلى الخلف والأسفل تحت الجناح الأيمن:

-ما الذي ينظر إليه الآن؟

قال بوجارد:

-لا أعرف، ربما إلى ثقوب الرصاص، أحدث صوتًا ثاقبًا بالمحرك الأيسر،يجب أن نحصل على....

قال ماك جينيز:

-يمكنه أن يرى ذلك على مسافة أقرب من ذلك..أقسم إنني رأيت كشافًا ضوئيًا على ظهره في إحدى اللحظات. ربما كان ينظر إلى المحيط. لكن لابد من أنه رآه حين جاء من إنجلترا.

ثم هبط بوجارد بالطائرة، فارتفعت حدة الضوضاء، الرمل، التيار البحري الملتوي جرى جانبيًا مع الطائرة. بيد أن الصبي الإنجليزي ظل معلقًا إلى الخارج، ناظرًا إلى الخلف والأسفل نحو شيء ما تحت الجانح الأيمن، وقد امتلأ وجهه بالحماسة الطفولية، وظل كذلك إلى ما بعد توقف الطائرة كليًا، ثم أحنى رأسه بسرعة إلى الداخل، وفي الصمت المفاجئ للطائرة سمعاه يزحف في الممر. ظهر بينما الطياران ينزلان برشاقة من قمرة القيادة، وجهه مشع، متشوق، وصوته عال وحماسي.

-يا إلهي الرحيم! يا له من شاب. يا لحكمه الدقيق على المسافة! لو رأى روني ذلك فحسب! يا إلهي الرحيم! أوه ربما قنابلكم ليست مثل قنابلنا - لا تنفجر تلقائيًا حين ترتطم بالهواء.

نظر الأمريكيان إليه بحيرة. سأله ماك جينيز:

-ماذا يفعل؟ ماذا؟.

قال الفتى:القنبلة، لقد كانت رائعة؛ أقول، لن أنساها أبدًا. أوه أقول كما تعرف! كان ذلك رائعًا.

بعد برهة قال ماك جينيز، مصعوقًاالقنبلة؟. ثم تبادل الطياران النظرات؛ وهتفا معًا:الجانح الأيمن!. ثم هرعا يتبعهما الضيف حول الطائرة ونظرا تحت الجانح الأيمن فرأيا القنبلة، معلقة من ذيلها بشكل مستقيم مثل جرس منتفخ تحت العجلة اليمنى وطرفها يلامس الرمل. وبالتوازي مع أثر العجلات كان ثمة خط طويل رفيع خطه رأس القنبلة على الرمل. خلفهما جاء صوت الفتى الإنجليزي عاليًا، حماسيًا، طفوليًا:

-أنا نفسي وجلت. حاولت أن أخبركما. لكنني أدركت أنكما تعرفان عملكما أكثر مني. يا للبراعة. رائع. أوه، أقول، لن أنسى ذلك إطلاقًا.

قاده الجندي من البحرية نحو رصيف الميناء ودله على الزورق. وجد الرصيف خاليًا من المراكب، ولم ير الزورق حتى اقترب من حافة الرصيف ونظر مباشرة إلى الأسفل نحو المياه، حيث كان هناك رجلان منحنيان في بزتين قطنيتين متسختين، نظرا إليه لبرهة ثم عادوا الانحناء.

كان الزورق بطول نحو ثلاثين قدمًا، وعرض ثلاث أقدام. وقد طُلي باللون الحشيشي الفاتح بغرض التمويه، ووجه سطح مؤخره إلى الأمام فبرز عادما محركه الضخم، فقال بوجارد في نفسه:يا إلهي، إذا كان هذا كله محركًا....

عند مؤخر المركب كان مقعد القيادة حيث تنتصب دفة كبيرة ولوحة أزرار. وكان ثمة خيمة صلبة، مموهة أيضًا، تمتد بارتفاع قدم من الكوثل حتى بداية سطح المركب، وتلتف من هناك جانبيًا إلى الطرف الثاني من الكوثل، فتغطي عمليًا الزورق كله باستثناء عرض مؤخره، وقبالة الدفة حلقة أشبه بالعين بقطر ثمانية إنشات تقريبًا. كما رأى مدفعًا رشاشًا ثُبت على سطح الكوثل، وإذا تأمل الخيمة الواطئة - علمًا أن المركب برمته، ومعه الخيمة، لا يرتفع عن سطح الماء أكثر من ياردة واحدة.

حدّث نفسه بصمت:إنها من الفولاذ. إنها مصنوعة من الفولاذ.

كان وجهه رصينًا تمامًا، وقورًا تمامًا. شد معطفه على جسده وزرره وكأنه يشعر بالبرد.

سمع خطوات تقترب منه فاستدار، لكنه كان مجرد حاجب من الميناء الجوي، يرافقه جندي من البحرية يحمل بندقية. كان الحاجب يحمل صرة كبيرة لُفت بالورق.هذه من الملازم ماك جينيز إلى الكابتن.

أخذ بوجارد الصرة، ومضى الجندي والحاجب. فتح الصرة، فوجد في داخلها ملحوظة قصيرة كتبت بخط رديء وبعض الأشياء: دثار كنبة حريرية أصفر جديدة ومظلة يابانية

جديدة، من الواضح أنهما مستعاران، ومشط ولفة من ورق التواليت. أما الملحوظة فكانت تقول:

لم أستطع العثور على كاميرا في أي مكان، وكوليير لم يسمح لي بأخذ آلة المندولين الخاصة به. لكن ربما يستطيع روني العزف على المشط.

ماك

تأمل بوجارد الأغراض، بالرصانة ذاتها، ثم أعاد لف الصرة وحملها إلى نهاية الرصيف ورماها بهدوء في الماء.

رأى شخصين يدنوان وهو في طريقه إلى الزورق. عرف الفتى في الحال. كان طويلًا، نحيلًا، ثرثارا، وقد أحنى رأسه قليلًا نحو مرافقة الأقصر منه قامة وكان يسير متهاديًا بجانبه، واضعًا يديه في جيبيه، يدخن الغليون، كان الفتى في سترته الكاكية ومعطف واسع واقٍ من المطر، لكن بدلًا من قبعته اعتمر خوذة عجيبة من تلك التي يرتديها جنود المشاة، جارًا وراءه، كأنها صدى صوته، قطعة قماش أشبه بالستارة بطول بشكير طويل.

صاح الفتى من بعيد:

-مرحبًا يا ولد!.

بينما بوجارد كان منشغلًا بتأمل رفيقه، يقول في سره أنه لم ير في حياته رجلًا غريب الشكل أكثر منه. كان ثمة شيء شديد العصبية في كتفيه المنحنيتين ووجهه المطرق نوعا. كان رأسه يصل إلى كتفي الفتى. وكان وجهه يميل للحمرة كذلك. لكنه يوحي برصانة عميقة تكاد تبلغ حد العدوان. وكانت ملامحه ملامح شاب في العشرين يحاول منذ عام، حتى في أثناء نومه، أن يبدو في الحادية والعشرين! وكان يلبس كنزة من الصوف عالية القبة وسروالًا قطنيًا؛ وفوق ذلك سترة جلدية؛ وفوقها واقٍ من المطر متسخ يكاد يصل إلى قدميه، وكان ثمة شريطة مفقودة عن إحدى كتفيه. ويعتمر قبعة بحرية مربعة النقش، أحيطت بوشاح يغطي أذنيه، ويلتف حول رقبته لينعقد تحت أذنه اليسرى. كان الوشاح قذرًا بشكل لا يصدق، فإذا أُضيفت إلى ذلك يداه اللتان دسهما عميقًا في جيبيه وكتفاه المحنيتان، لبدا أشبه بساحرة شمطاء وقد أُعدمت شنقًا بتهمة الهرطقة.

صاح الفتى:

-ها هو! هذا روني. هذا الكابتن بوجارد.

قال بوجارد:

-كيف حالك؟.

ومد يده. لم يردّ الآخر، لكنه مد ببطء يده الباردة الصلبة. ونظر لبرهة إلى بوجارد ثم أشاح نظرة. وفي تلك اللحظة التقط بوجارد شيئًا ما في نظرته، شيئًا غريبًا أثار كل دهشة؛ نوع من الاحترام العميق الخفي، شيء أشبه بصبي في الخامسة عشرة يرى المهرج في السيرك.

لكنه ظل لا ينبس ببنت شفة. أطرق برأسه وتابع سيره ثم اختفى فوق حيد الطريق كأن البحر قد ابتلعه. ثم انتبه بوجارد إلى محرك الزورق يهدر.

قال الفتي:

-فلنصعد نحن أيضا.

ثم أنه اتجه نحو القارب، وتوقف فجأة. لمس ذراع بوجارد وقال همسًا بصوت رفيع يكاد يختنق حماسة:

-هناك، هل ترى؟.

أجابه بوجارد همسا أيضا:

-ماذا؟.

ونظر بصورة عفوية إلى الخلف وإلي الأعلى.

شده الفتي من ذراعه وأشار إلى الطرف الآخر من الميناء، قائلا:

-هناك! هناك. الأوجانونستراس. بدلوا مكانها ثانية.

في مواجهة الميناء شاهد سفينة قديمة صدئة شبه غاطسة في المياه. كان صغيرة وغريبة الشكل، وإذ تذكر بوجارد وصف الفتي، رأي أن الصاري يعبّر عن فوضى لا مثيل لها من السلاسل الحديدية والأسلاك تشبه، كما يسمح الكثير من الخيال الخصب، الصاري المثلث الشبيه بالسلة.

وكادت تند عن الفتي ضحكة وهو يهمس:

-أتظن أن روني لاحظها؟.

قال بوجارد:

-لا أعرف.

-أوه يا الله! إذا أخطأ واحتسبها قبل أن يتعرف إليها فسنتعادل. يا الله! لكن هيا تعال.

ثم صعد إلى القارب، وهو ما زال يحاول كتم ضحكته:انتبه سلم لعين!.

صعد الفتي أولًا، وأدى الرجلان الآخران له التحية العسكرية. أما روني فلم يبد منه إلا

ظهره الذي بدا محشورا في فتحة صغيرة أسفل سطح الزورق. صعد بوجارد بحماس، قائلا:

-يا إلهي، أعليك أن تتسلق هذا كل يوم؟.

-معجزة أليس كذلك؟ لكن كما تعرف نحن نخوض حربًا بالحيلة والدهاء، لا نتعجب لماذا تطول كثيرًا.

غاص الزورق في المياه ثم عاود الارتفاع، رغم وزن بوجارد الزائد. قال الصبي:

-يظل مرتفعًا هكذا، حتى لو سار على العشب، أو في وابل من المطر، فإنه ينطلق بكل خفه كفراشة.

هتف بوجارد:حقًا؟.

-نعم بكل تأكيد. وهذا هو السبب كما تعرف.

ولم يعلم بوجارد شيئا، لكن همه كان منصبا أكثر على العثور على موضع مناسب للجلوس. لم يكن هناك مقاعد للتجديف، ولا أي مقاعد أخري، عدا ماسورة طويل أسطوانية الشكل تمتد على طول القارب من مقعد الربان. ظهر روني ثانية، واتخذ مكانه وراء الدفة، ومال على لوحة الأزرار. لكن حين التفت إلى الخلف لم يتكلم، بل ارتسم تعبير فارغ على وجهه الذي بات ملوثا تماما بالشحم. بات وجه الفتي فارغًا أيضا. وقال، مخاطبًا أحد البحارين في المقدمة:هل أنت مستعد للانطلاق؟.

أجاب البحار:أجل سيدي.

وسأل البحار الآخر:مستعد؟.

-أجل سيدي.

-انطلقوا.

ومضي القارب، مصدرًا صوت (بقللة) بأسفل. بينما نظر الفتي إلى بوجارد وقال:

-عمل سخيف. مع ذلك أقوم به بانتظام. لا تعرف متى يأتي ضابط تافه ما.... تغيرت ملامح وجهه فورًا وعلاها شيء من الشرود.اسمع، ألن تبرد بهذه الثياب؟ لقد نسيت أن أحضر لك......

قال بوجارد:سأكون على ما يرام. لكنه وجد الفتي يهم بخلع معطفه، فقال له:كلا لن آخذه.

-هل ستخبرني إذا ما شعرت بالبرد؟.

-بالتأكيد. وراح يتأمل الماسورة التي صارت مقعدا.

كانت في الحقيقة نصف أسطوانية تشبه موقدًا ضخمًا شطر بالنصف، ورتجت بالبراغي وقد امتدت بطول عشرين قدمًا وبسماكة تزيد على القدمين، وبرزت إلى حافة الزورق، مضيفة المسافة عند جانبي الزورق بحيث لا تتسع إلا لأن يضع رجل قدميه ويمشي فقط.

قال الفتي:

-أسمينا الزورق موربيل.

-موربيل؟.

-أجل. قبل هذا كان أسمه أجاثا. على اسم عمتي. وأول زورق ركبناه أنا وروني ـسميناه (أليس في بلاد العجائب). وأنا وروني كنا الأرنبين الأبيضين. جميل، أليس كذلك؟.

-أوه أنت وروني تنقلتما بين ثلاثة زوارق؟.

قال الفتي:أجل. ثم مال نحو بوجارد وهمس بصوت ملؤه الحماسة والحبور:لم يلاحظ، انتظر حتى نعود.

قال بوجارد:نعم. ونظر إلى الخلف ثم فكر:يا الله! لا بد من أننا نمضي بسرعة شديدة..... ونظر إلى المياه ورأى الميناء يبتعد بسرعة، وفكر أن القارب يسير بسرعة إقلاع طائرةهاندلي بيج. بدأ القارب يخبط صفحة الماء، قافزًا من رأس موجة إلى التالية، مرتطما بالماء بعنف. كانت يده ما زالت متشبثة بالماسورة المشقوقة تحته. فراح يتأمله ثانية متتبعا إياه من حيث يبدأ تحت مقعد روني، إلى حيث يختفي.

وقال:أحسب أنه الهواء الذي فيه.

قال الفتي:ماذا؟.

-الهواء المخزن في القارب. هذا ما يجعله يطوف عاليًا.

-أوه أجل. اعتقد ذلك. لم أفكر بهذا من قبل.

وتقدم وجلس بجانب بوجارد وبشكيره يلوح في الهواء. كان رأسهما تحت الخيمة. وخلفهما ظل الميناء يبتعد حتى اختفي ولم تعد تظهر سوى صفحة الماء. بدأ المركب يعلو، مندفعا في قفزات طويلة إلى الأمام، هابطا بقوة، متجمدًا للحظة، ثم مرتفعًا ومرتطمًا بعنف من جديد؛ فتندفع المياه إلى القارب مثل رشة كثيفة من طلقات الرصاص.

قال الفتي:أرجو أن تأخذ هذا الممطر.

لم يجب بوجارد. التفت إلى وجه الفتي المتورد، وسأله بهدوء:

-صرنا في الخارج أليس كذلك؟.

-أجل... هلا أخذت المعطف؟.

-لا، شكرًا. سأكون بخير. أظن أننا لن نتأخر كثيرًا على كل حال.

-لا، سننعطف حالا. لن يعود الأمر بهذا السوء بعدها.

-أجل. سأكون بخير حين ننعطف. ثم انعطف الزورق فعلًا وصار يشق المياه بسلاسة أكبر. إذ لم يعد يمضي في مواجهة الأمواج العالية. أصبحوا الآن على مستوي منخفض أكثر، وانطلق القارب بسرعة متزايدة، مائلا من جانب إلى آخر. لكنه انطلق سريعًا والتفت بوجارد إلى الفتي، وقد لاحت على وجهه تلك الرصانة نفسها التي رافقته منذ صعوده إلى الزورق:

-إننا نمضي شرقًا الآن.

قال الفتى:مع بعض الميل نحو الشمال، هذا يجعل الرحلة أسهل بكثير، أليس كذلك؟.

أجاب بوجارد:أجل. في الخلف لم يكن من شيء سوي المدفع الرشاش المائل بدقة وخلفه أثر المياه المندفعة، والبحارين الجاثمين بهدوء وترقّب. وتابع بوجارد:أجل إنها أسهل، إلى أي حد سنستمر؟.

مال الصبي نحوه أكثر. جاء صوته مرحًا، فيه غبطة، وبعض الحياء:

-إنه استعراض روني. لقد فكر في الأمر. ليس أنني لم أكن لأفعل في نهاية المطاف، أي تعبير عن الامتنان وما شابه، لكنه أكبر سنا مني. يفكر بسرعة بأمور مثل الوجاهة والفروسية ومثل هذه الأمور. لقد فكر في الأمر ما إن أخبرته به هذا الصباح. قلت له: لقد كنت هناك ورأيت الأمر. وقال لي: لست تقصد الطيران. وقلت: قسمًا بلي. وقال: إلى أي مدى وصلت؟ بلا كذب الآن. وقلت: بعيدا جدا. كان شيئًا عظيمًا، حلقنا طوال الليل؛ وقال: حلقت طول الليل! لا بد من أنك وصلت إلى برلين، وقلت لا أعرف. وراح يفكر. وبدا واضحا أنه يفكر. لأنه أكبر سنًا كما تري، ولديه خبرة في أمور اللياقة. وصاح: برلين! لن يستمتع ذلك الشاب بمرافقتنا إذن. وظل يفكر وانتظرت، وقلت لكننا لا نستطيع أخذه إلى برلين. فهي بعيده جدًا ونحن لا نعرف الطريق، ثم قال ـــــ كأنه طلقة رصاص ـــــ لكن يمكننا الذهاب إلى كيل، وعرفت.....

صاح بوجارد قافزًا من مكانه، لكن من دون أن يبارحه:

-ماذا؟ إلى كيل؟ بهذا؟.

-بالتأكيد. لقد فكر روني في الأمر. إنه ذكي، حتى إن كان محتالًا. قال إن زيبروج ليست بعرض مهم لذلك الشاب. علينا أن نقدم أفضل ما لدينا من أجله. برلين! قال روني. يا

إلهـي! برلـين!.

قد التفت مواجها الفتى بتركيز شديد:

-لحظة، ما اختصاص هذا القارب؟.

-اختصاص؟.

-أعني ما الذي يفعله؟.

ثـم أردف، وهـو عـلى دراية مسبقا بالجـواب عـن سـؤاله، متشـبثًا بالماسـورة إياها:مـاذا يوجـد هنـا؟ طوربيـد، أليـس كذلـك؟.

-ظننتك تعلم.

بدا صوته بعيدا، جافًا، أشبه بصوت محرّك:

-لا، لم أكن أعلم. كيف تطلقونه؟.

-نطلقه؟.

-كيـف تخرجونـه مـن القـارب؟ حـين كان ذلـك البـاب الصغـير مفتوحًـا قبـل قليـل رأيـت محـركًا يقـع عنـد نهايـة هـذه الماسـورة.

-مـا تقـوم بـه هـو أنـك أنـت تجـذب أداة صغـيرة هنـاك كالزنـاد فينطلـق الطوربيـد إلى الـوراء ومـا إن تلامـس مروحتـه المـاء حتـى تبـدأ بالـدوران، وعندهـا يصبـح الطوربيـد جاهـزًا. ثـم كل مـا عليـك فعلـه أن تدير القـارب بسرعـة فينطلـق الطوربيـد قدمًـا.

-هـل تعنــي....؟. ولم يعـرف مـاذا يقـول، قبـل أن يجـد صوتـه ثانية:تعنـي إنـك تصـوب الطوربيـد والقـارب مـن طريقـه فيمـر عـبر المـكان نفسـه الـذي كان يحتلـه القـارب؟.

-عرفـت إنـك سـتفهم الفكـرة بسرعـة، قلـت ذلـك لـروني. طيـار مثلـك لا بـد سيسـتوعب الأمـر. مهمـة صعبـة نوعـا، لكـن لا يمكـن فعـل شيء حيـال الأمـر. هـذا أفضـل مـا يمكننـا فعلـه في الميـاه. عرفـت أنـك سـتفهمها.

قـال بوجـارد شـاعرًا بالهـدوء في صوتـه، وكأنمـا يحـدث نفسـه، بينـما القـارب يقفـز مـن موجـة إلى أخـري:

-هيـا اسـأله. مـاذا تسـأله؟ اسـأله كـم ينبغـي أن تكـون قريبًـا مـن الهـدف قبـل أن تطلـق.... اسـمع قـل لـروني، أتـري، فقـط قـل لـه ـــــــ فقـط قـل......

خذلـه صوتـه مجـددًا، فصمـت، وجلـس سـاكنًا، منتظـرًا أن يعـود صوتـه إليـه؛ كان الشـاب مـا

زال مائلا نحوه, مجددا جاء صوته قلقًا:

-أري أنك لست على ما يرام. هذه الزوارق المسطحة المخزية.

-ليس هذا، إنني فقط ـــــ هل تقضي أوامركم بالذهاب إلي كيل.

-كلا. إنهم يتركون أمر القرار لروني. كل ما يطلبونه أن نعود بالقارب.

-أجل.

-أفهم تمامًا. لا إجازات في الحرب. سأخبر روني.

ومضى إلى المقدمة. لم يتحرك بوجارد. اندفع القارب في قفزات طويلة. نظر بوجارد إلى المياه المتدافعة حوله، ثم رفع رأسه صوب السماء، محدثًا نفسه:

-يا إلهي، أيمكنك الاحتمال؟ أيمكنك الاحتمال؟.

عاد الشاب؛ التفت بوجارد إليه وقد اصطبغ وجهه بلون الورق المشحم:

-حسنًا لن نذهب إلى كيل، بل إلى مكان أقرب، وسنحقق على الأرجح الهدف نفسه. قال روني إنه عرف أنك ستستوعب.

راح يبحث في جيب معطفه. ثم أخرج قنينة وقال:

-هاك. لم أنس ليله البارحة. سأفعل الشيء نفسه من أجلك، جيدة للمعدة.

أخذ بوجارد جرعة كبيرة، وناول الشاب الزجاجة لكن الأخير رفض:

-لا ألمس الشراب أثناء الواجب، الأمور عندنا مختلفة بعض الشيء.

مضى القارب وبدأت الشمس تميل نحو الغروب. لكن بوجارد كان قد فقد أي إحساس بالزمن وبالمكان. رأى أمامه المياه البيضاء عبر الحلقة أمام روني، ويد الأخير على الدفة، وجانب وجهه، والغليون المطفأ المائل إلى الأسفل. ثم أنه انحنى الشاب نحوه وربت على كتفه. فنهض بشكل ما. ونظر إلى حيث يشير الشاب. كانت الشمس قد احمرت، وقبالتها، على بعد نحو ميلين، رأي سفينة، أشبه بسفينة صيد ـــــ يتمايل صاريها الطويل.

صاح الشاب:إنها تخصهم.

أمامه رأى بوجارد حاجز أمواج غائصًا مسطحًا ـــــ المدخل إلى ميناء، وصاح الفتي:قناةولوح بيده في الاتجاهين.إنها لي. حملت الريح صوته في الاتجاه المعاكس:المكان يغص بهم. من كل الجوانب وتحتنا أيضًا.

بدا أن الزورق يقفز من رأس موجة عملاقة إلى أخري؛ وفي الفترات الفاصلة حين تكون

المروحـة في الهـواء بـدا كأن المحـرك يحـاول اقتـلاع نفسـه مـن الجـذور. كان المـوج يتكـسر عـلى الحاجـز. لكـن سرعتـه لم تخـف، وحـين اقـترب مـن حاجـز الأمـواج بـات منتصبـا مثـل سـمكة أبي شراع. بـات الحاجـز عـلى بعـد ميـل، وعنـد نهايتـه تـلألأت أضـواء خافتـة تشـبه أسرجـة الإرشـاد. مـال الشـاب، قائلًا:أخفـض رأسـك، مدافـع رشاشـة، قـد تصيبـك طلقـة طائشـة.

صاح بوجارد:ماذا أفعل؟ كيف أستطيع المساعدة؟.

-أيها الوحش. أرهم الجحيم. عرفت أنك ستحب هذا!.

-أستطيع استعمال الرشاش!.

صاح الشاب:

-لا حاجة إلى ذلك، أعطهم الجولة الأولي. كما في الرياضة. نحن الفريق الزائر. إيه؟.

راح ينظر أمامه. قال:ها هي، أتراها؟.

باتـوا داخـل الميـنـاء الآن، وقـد انفتـح الحـوض أمامهـم حيـث ترسـو سـفينة شـحن ضخمـة نقـش عليهـا علـم الأرجنتـين.

صاح الفتى:

-يجب أن أعود إلى موقعي!.

ثـم في اللحظـة نفسـها تكلـم روني للمـرة الأولي. بـات الـزورق يمـضي الآن بسلاسـة أكـبر، مـن دون أن يبطـئ مـن سرعتـه. لمَ لم يلتفـت روني وهـو يتكلـم. فقـط أمـال فكـه البـارز وشـد أسـنانه بإحـكام عـلى الغليـون الفـارغ، ولفـظ بطـرف فمـه كلمـة واحـدة:

-بيفر.

رفـع الشـاب وجهـه فـوق الطوربيـد فجـأة بسـخط وذهـول. بوجـارد أيضـا نظـر إلى الأمـام ورأي ذراع روني تشـير إلى اليمـين نحـو طـرادة خفيفـة تبعـد ميـلًا يرتفـع فوقهـا الصـاري المثلـث، وبينـمـا هـو ينظـر إليهـا لعلـع مدفعهـا الرشـاش في اتجاههـم:

-اللعنة، صاح الشاب،، أيها المحتال! لقد سبقتني بثلاث نقاط يا روني!

لكنـه انحنـى مجـددًا فـوق أداة الإطـلاق ووجهـه متـورد ومذهـول ومتيقـظ مـن جديـد. مجـددًا نظـر بوجـارد قدمًـا وأحـس القـارب يلتـف ويتجـه مبـاشرة نحـو سـفينة الشـحن بسرعـة هائلـة بينـما روني يمسـك الدفـة بيـد ويرفـع الأخـرى إلى مسـتوى رأسـه. وبـدا لبوجـارد أن اليـد لـن تسـقط أبـدا. جثـم أرضًـا، مراقبًـا بنـوع مـن الرعـب المكتـوم العلـم المرسـوم يقـترب مثـل القطـار. مجـددًا لعلـع المدفـع الرشـاش مـن الطـرادة التـي خلفهـم، والسـفينة أطلقـت النـيران عليهـم

مباشرة.

-يا إلهي! يا إلهي!.

رأى بوجارد مقدم السفينة يرتفع، وهي تدور على محورها؛ توقع أن يرتطم القارب عرضيًا بها لكنه حاد عنها قبل ملامستها. توقع أن يندفع القارب عندئذ إلى عرض البحر، بحيث تصبح السفينة خلفه، وفكر في الطرادة مجددًا:ضعه عرضيًا هذه المرة، ما إن نتجاوز سفينة الشحن. ثم تذكر سفينة الشحن، الطوربيد، ونظر إلى الخلف نحو السفينة لكي يرى الطوربيد حين يصيبها، ورأى لرعبه الزورق يتجه مجددًا نحو السفينة، في حركة التفافية. مثل شخص يحلم شاهد نفسه يمر بمحاذاة السفينة، وهو ما يزال يلتف، قريبًا جدًا، بحيث رأى وجوه من على سطحها. فكر بسذاجة:لقد أخطأوا التصويت وسوف يعيدون الطوربيد إلى مكانه لكي يطلقوه ثانية.

كان على الشاب أن يلمس كتفه قبل أن يعرف أنه يقف خلفه. جاء صوت الأخير هادئًا:

-تحت مقعد روني هناك ثمة مقبض محراك، لو تناولني إياه فحسب....

عثر على المقبض، وناوله إياه؛ واخذ يفكر، بشرود:كان ماك ليقول إن لديهم هاتفًا على متن الزورق. لكنه لم ينظر فورًا ليرى ما الذي يفعله الشاب، ففي خضم رعبه المكتوم راح يراقب روني، متشبثًا بالغليون المنطفئ بين فكيه، وهو يلتف بالقارب بأقصى سرعة حول سفينة الشحن، على مقربة شديدة منها بحيث رأى بوجارد البراغي المثبتة على الصفائح المعدنية في السفينة. ثم نظر إلى مؤخر السفينة، وجهه جامح، متلهف، ورأى ما الذي كان يفعله الشاب بالمقبض. كان قد أوصله برافعة صغيرة على أحد جوانب الأنبوب قرب الرأس. التفت فرأى بوجارد، وصاح بفرح:

-لم ينطلق هذه المرة!.

-لم... الطوربيد....

انغمس الشاب وأحد البحارة فوق الرافعة والماسورة.

-لا. يا للغباء. يحدث دائمًا. ينبغي أن نفكر بذكاء كالمهندسين... يحدث مع ذلك... أدخله وحاول مرة أخرى.

-لكن رأس الطوربيد! ما زال متصلًا بالماسورة أليس كذلك؟.

-بالتأكيد. لكنه بدأ يعمل الآن. بدأ الحلزون يتحرك. علينا أن نسقطه فورًا. إذا ما توقفنا أو تباطأنا فسوف يجرنا معه.

انتصب بوجارد واقفًا، متشبثًا خشية من التفاف المركب. في الأعلى بدت السفينة تدور

علـى نفسـها مثـل الخـدع السـينمائية:

-لا ينبغـي أن نجـره إلى الخلـف بسرعـة أكـثر مـن الـلازم. علينـا أن ندكـه في رأس الأنبـوب بأنفسـنا. مرحـى! مـن الأفضـل أن تدعنـا نفعـل ذلـك. أعـط الخبـز للخبـاز، أليـس كذلـك.

-أجـل بـكل تأكيـد، طبعًـا. شـعر أن شـخصًا آخـر هـو مـن يحـكي. انحنـى، متشـبثًا، يـده عـلى الماسـورة البـاردة، بجانـب الآخريـن. شـعر بالسـخونة في أحشـائه، أمـا مـن الخـارج فشـعر بالـبرد وهـو يراقـب يـد البحـار الخشـنة المتعرقـة تلـف المرفـاع في أقـواس صغـيرة بطـول بوصـة واحـدة، بينـما انحنـى الشـاب عـلى رأس الماسـورة، وراح يطـرق الأنبوبـة بمفـك بـراغٍ، بضربـات خفيفـة، مصيخًـا السـمع مثـل صانـع السـاعات. اسـتمر القـارب بالالتفـاف. رأى بوجـارد خيـط لعـاب طويـل يسـقط عـلى يديـه، قبـل أن يكتشـف أن الخيـط نـزل مـن فمـه هـو. ولم يسـمع الفتـى وهـو يتكلـم، ولا لاحظـه حـين وقـف. فقـط شـعر أن القـارب يمـضي مسـتقيمًا، راميًـا إيـاه عـلى ركبتيـه بجانـب الأنبـوب. وانحنـى الشـاب مجـددًا فـوق أداة الإطـلاق. جثـا بوجـارد، منهـكًا تمامًـا. لم يشـعر بالـزورق حـين تأرجـح ثانيـة، ولا سـمع مدفـع الطـرادة التـي لم تكـن تجـرؤ عـلى إطـلاق الرصـاص والسـفينة التـي لم تكـن قـادرة عـلى إطـلاق الرصـاص، وهـي تطلـق الرصـاص ثانيـة. لم يشـعر بـأي شيء عـلى الإطـلاق حـين رأى العـالم الضخـم المرسـوم أمامـه مبـاشرة يتقـدم ويكـبر بسرعـة خرافيـة، ويـد روني المرفوعـة وهـي تسـقط. لكنـه أدرك عندئـذ أن الطوربيـد قـد انطلـق؛ بحركـة دائريـة والتفافيـة هـذه المـرة بـدا أن الـزورق كلـه يرتفـع فـوق الميـاه؛ رأى مقدمـه يتجـه نحـو السـماء مثـل طائـرة تسـتعد للالتفـاف دائريًـا. ثـم خذلتـه معدتـه وبـدأ يتقيـأ. لم يـر الانفجـار ولم يسـمعه وهـو يسـقط فـوق الماسـورة. فقـط شـعر بيـد تمسـكه مـن كـم معطفـه، وصـوت أحـد البحـارة يقـول لـه:اثبـت يـا سـيدي، إننـي أمسـك بـك.

أيقظـه صـوت، ويـد. كان قاعـدًا في الممـر الضيـق إلى يمـين الـزورق، نصـف ممـدد عـلى الماسـورة. كان هنـاك منـذ بعـض الوقـت، إذ شـعر منـذ مـدة بـأن أحدهـم يفـرد غطـاءًا فوقـه. لكنـه لم يرفـع رأسـه. قال:إننـي بخـير، احتفـظ بـه.

قال الشاب:لست بحاجة إليه، سنعود أدراجنا الآن.

وقال بوجارد:إنني آسف.. لقد....

-بالتأكيـد. هـذه القـوارب العجيبـة المسـطحة تقلـب معـدة أي شـخص مـا لم يكـن معتـادًا عليهـا. لـن تصدق ذلـك. حصـل هـذا معـي ومـع روني في البدايـة. كل مـرة. لـن تصـدق أن معـدة الإنسـان تسـتوعب لـكل هـذه الكميـة. هـاك. وناولـه القنينـة،شراب جيـد، خـذ جرعـة كبـيرة منـه. جيـد للمعـدة.

أخـذ بوجـارد جرعـة. وسرعـان مـا شـعر فعـلًا بالتحسـن وبالـدفء. حـين لمسـته اليـد لاحقًـا،

عـرف أنـه كان نائمًـا. كان الشـاب مـرة أخـرى. كان المعطـف الـكاكي صغـيرًا جـدًا عليـه؛ منكمشًـا ربمـا. تحـت طـرفي الكمـين، كان معصـماه الطويـلان الشـبيهان بمعصمـي بنـت قـد ازرقـا مـن شـدة الـبرد. ثـم أدرك بوجـارد مـا كانـت قطعـة القـماش التـي تغطـى بهـا. لكـن قبـل أن يتمكـن مـن التكلـم، مـال الفتـى نحـوه، هامسًـا ببهجـة:لم يلاحـظ!.

-ماذا؟.

-الأورجانوسـتراس! لم يلاحـظ أنهـم بدلـوا مكانهـم. يـا إلهـي سـيكون قـد سـبقني بنقطـة واحـدة فقـط. حملـق في وجـه بوجـارد بعينـين مشـعتين متحمسـتين.بيفر، كـما تعلـم. أتشـعر بتحسـن؟.

-أجل، أشعر بتحسن.

-لم يلاحظ البتة، يا إلهي!.

نهـض بوجـارد وجلـس عـلى الماسـورة. كان مدخـل الميـنـاء أمامهـم مبـاشرة وقـد أبطـأ الـزورق سرعتـه قليـلًا. كان الغـروب تمامًـا. قـال بهدوء:هـل يحـدث هـذا غالبًـا؟، نظـر الفتـى إليـه. لمـس بوجـارد الماسـورة.هذا. ألا يخـرج الطوربيـد؟.

-أجـل. لهـذا يضعـون الرافعـة عليـه. لكـن هـذا جـاء لاحقًـا. في البدايـة صنعـوا القـارب. فانفجـر الطوربيـد فيـه. فأضافـوا الرافعـة.

-أحيانًا تنفجر الطوربيدات حتى بوجود الرافعات؟.

-مـن يعـرف؟ بالتأكيـد. القـوارب تخـرج. بعضهـا لا يعـود. ربمـا. لم أسـمع بهـذا بالطبـع. لم أسـمع عـن قـارب سـقط في الأسر، ومـع ذلـك هـذا محتمـل. لكنـه لم يحـدث معنـا، ليـس بعـد.

-أجل.

دخلـوا إلى الميـنـاء الغـارق بضـوء الغـروب الشـاحب بالسرعـة نفسـها، لكـن بيـسر أكـبر. مـن جديـد مـال الفتـى نحـوه وهمـس بغبطـة:

-ولا كلمة! اثبت الآن!.

وقف. رفع صوته:أقول يا روني

لم يلتفت روني إليه، لكن عرف بوجارد أنه يصغى.

-تلـك السـفينة الأرجنتينيـة كانـت مسـلية أليـس كذلـك؟ هنـاك. كيـف تظـن أنهـا مـرت بنـا هنـا؟ ربمـا تكـون قـد توقفـت هنـا أيضًـا. ربمـا الفرنسـيون يشـترون القمـح.

توقف عن الكلام، شيطانيًا، ماكيفليًا بوجه ملاك بائس:

-أقول. كم مر من الوقت منذ كان ثمة سفينة غريبة هنا. مرت أشهر أليس كذلك؟. مجددًا مال، وهمسراقب الآن!. لكن بوجارد لم يستطع رؤية وجه روني يتحرك على الإطلاق،لكنه يستطع مع ذلك!، همس الفتى. وكان روني يستطلع، وإن لم يحرك رأسه أبدا. ثم ظهر، قبالة سماء الغسق في ظل الصاري الأمامي الغامض، الشبيه بالسلة، للسفينة الألمانية المعتقلة. فورًا ارتفع ذراع روني، مشيرًا؛ مجددًا تكلم من دون أن يدير رأسه، من طرف فمه، عبر الغليون البارد بين أسنانه، كلمة واحدة:

-بيفر.

انطلق الشاب فورًا، مثل كلب تحرر من قيده، قافزًا من فوق بوجارد نحو روني:

-أوه، اللعنة عليك!، صرخ،أوه، أيها اللئيم! إنها الأورجانوستراس! أوه أيها اللئيم. لقد صرت تسبقني بنقطة واحدة الآن، مضبوط؟.

دنا القارب ببطء من الرصيف، وقد صمت المحرك.

-أليس كذلك يا روني؟ نقطة واحدة الآن؟.

مضى القارب؛ زحف البحارة مجددًا إلى الأمام نحو سطحه. روني تكلم للمرة الثالثة والأخيرة.مضبوط؟.

-أريد صندوقًا من الويسكي. أفضل ما لدينا. وأريد رجلًا يتمتع بحس المسئول. أشار بوجارد إلى الصندوق قائلًا:هذا لطفل، ستجده في شارع تولف أورز، في مكان ما على مقربة من قهوة تولف أورز. سيكون على الرصيف، ستعرفه. طفل بطول ستة أقدام تقريبًا. أي شرطي عسكري إنجليزي سيدلك عليه. إذا وجدته نائمًا لا توقظه. فقط انتظره حتى يصحو. ثم أعطه هذا. قل له إنه من الكابتن بوجارد.

بعد نحو شهر حملت صحيفةالإنجليش جازيتالتي وصلت إلى القاعدة الجوية الأمريكية اللائحة التالية بالخسائر:

مفقود: قاذف توربيداتXOOO1. ضابطا البحرية آر. بويس سميث وآل سي دبليو هوب، والملاحان مات بورت وآبل سيمان ريفز. أسطول القناة. قسم الطوربيدات. أخفق في العودة من دورة ساحلية.

بعد فترة من ذلك نشرت قاعدة القوات الجوية الأمريكية نشرة إخبارية أيضًا:

بسبب الشجاعة النادرة وخارج إطار الواجب، النقيب إتش إس بوجارد، مع فريقه المكون من الملازم ثانٍ داريل ماك جينيز وضابط المدفعية واتس وهاربر، في غارة جوية في وضح النهار وبلا أي غطاء، دمروا بالقنابل مخزن ذخيرة على بعد أميال في عمق خطوط

العدو. من هناك، محاطين بعشرات الطائرات المعادية، تقدم هؤلاء الرجال بما تبقى معهم من قنابل إلى مقر العدو في بلانك ودمروه جزئيًا، ثم عادوا سالمين بدون خسارة أي منهم.

وبخصوص هذه البسالة، كان يمكن أن يضاف، في حال فشل الهجوم، وخرج النقيب بوجارد منه على قيد الحياة، لكان حوكم أمام محكمة عسكرية على الفور. حاملًا القنبلتين المتبقيتين كان قد انقض بطائرتهاهاندلي بيج، على القصر حيث الجنرالات يتناولون الغداء، حتى صاح به ماك جينيز منتظرًا إشارته. لم يهوِ بيده قبل أن يميز جيدًا قرميد السقف الجرانيتي. ثم هبط بها واقترب بالطائرة، وأبقاها هكذا، في هجومها الضاري وشفتاه منفرجتان، بينما يلهث، مفكرًا:يا إلهي! يا إلهي! لو أنهم جميعًا هنا - جميع الجنرالات، والأدميرالات والرؤساء والملوك - الذين يخصونهم والذين يخصوننا معًا - جميعهم!!.

العربي
جيمس جويس

شارع ريتشموند نورث، مظلم، يلفهُ الهدوء بالكامل فيما عدا تلك الساعة التى يخرج فيها التلاميذ من مدرسة الأخوة كريستيان. فى بيت غير مأهول يتكوَّن من طابقين يقع فى النهاية المظلمة من الشارع، منفصلا عن جيرانهِ فى مساحة مربعة عن البيوت الأخرى، مدركاً لمَن يعيشون حياة كريمة داخلها، وتطل على بعضها البعض بوجوه بنية هادئة.

وكان الساكن السابق لبيتنا قسيسًا، وافته المنية فى غرفة الرسم الخلفية. الهواء تعفَّن من طول فترة غلقه، ينتشر فى كل حجرة، تطفح غرفة العادم الموجودة خلف المطبخ بالأوراق القديمة الرطبة عديمة الجدوى. وجدت من بينها القليل من أغلفة الكتب، صفحات سميكة مطوية الأطراف ورطبة تحمل عناوين مثل الأب الكاهن، لوالتر سكوت، الراهب، ومذكرات فيدوسك. الكتاب الأخير أحبه كثيرا لأن أوراقه كانت صفراء. خلف المنزل كانت في الحديقة الوحشية شجرة تفاح فى الوسط تتناثر حولها الشجيرات، وتحت إحداها مضخة هواء صدئة لدراجة المستأجر السابق. الذى كان لفترة طويلة قسيساً طيِّبًا؛ ففى وصيته ترك أكثر ماله للمؤسسات الخيرية كما أوصى بأثاث منزله لشقيقته.

هبط الغسق أول أيام الشتاء قبل أن نتناول العشاء براحة، عندما نلتقي فى الشارع كانت المنازل قد صارت أكثر تجهماً. وسطح السماء فوقنا كان يتميز اكتسى بقرمزي دائم التغير وفى مواجهته مصابيح الشوارع رافعة مصابيحها الشاحبة. يلسعنا الهواء البارد ونحن نلعب حتى تتورد أجسامنا وكانت أصواتنا لها صدى فى الشارع الهادىء وكان من أساسيات اللعب أن نذهب إلى الحارات الموحلة خلف البيوت حيث كنا نجر تلك القفازات الصلبة من الأبواب الخلفية للحدائق المبتلة، كانت تفوح برائحة الرماد المحترق، بالإضافة إلى رائحة الحظائر عديمة النور حيث كان الحوذى يُحمم ويُمشط شعر جواده أو يضرب أحزمة اللجام الجلدية في أنغام موسيقية. عندما عدنا للشارع كان النور ينبعث من نوافذ المطبخ و يملأ المكان وإذا ما لاح عمي وهو يعبر جانب الشارع كنا نختبئ فى الظل حتى يلج المنزل في هدوء. وكنا نتابع ظل شقيقة مانجان على درج الباب لتنادي أخاها ليتناول الشاى؛ كنا نرقب ظلها يتحرك أعلى وأسفل الشارع وكنا ننتظر لنرى عما إذا كانت ستبقى أو ستدخل أما إذا بقيت فكنا نغادر ظلنا ونتجه أعلى إلى درجات سلم ماجنان بتسليم وانكسار. كأنها تنتظرنا وكانت هيئتها تبدو من الباب النصف مفتوح وكان أخوها يضايقها قبل أن يذعنلها، كنتُ أقف جوار درابزين السلم أنظر إليها وكان فستانها يتموج على جسدها وهى تتمايل في حركتها والوشاح الصغير على شعرها يتهادى من جانب إلى آخر.

كنتُ أتمدد كل صباح على الأرض أمام حجرة الجلوس أراقب بابها. وكنت أشد الستارة لأسفل قليلا حتى لا يرانى أحد وكانت عندما تتجه نحو درج الباب للخارج كان قلبى يقفز من مكانه ويسقط في قدمي. وأركض نحوها؛ أمسك كتبى وأتبعها نحو الصالة. كنت أحتفظ بظلها الناعس فى عيني وعندما نقترب من النقطة التي يفترض فيها أن نفترق, كنت أسرع من خطوتى وأتجاوزها. كان هذا ما يحدث كل صباح ويوما بعد يوم. لم أتحدث معها على الإطلاق, فيما عدا جمل عابرة لا معنى لها, وحتى الآن كان اسمها وحده يستدعي كل خلايا دمى الخرقاء!

صاحبنى طيفها حتى فى الأماكن الأكثر عداءً لامور الحب فى أمسيات السبت عندما كانت عمتى تذهب للسوق وكنتُ مضطراً للذهاب لحمل بعض الأغراض، كنا نمشى خلال الشوارع الصاخبة نُواجَه المساطيل الرعاع والدلالات ولعنات الكادحين والصيحات العالية من الأولاد الذين كانوا يحرسون البراميل الخاصة بأفخاذ الخنازير, والغناء الشعبي السخيف من الأنف لمطربى الشوارع الذي يعبر عن المشاكل وأحوال بلادنا العزيزة.

ذات مساء ذهبتُ للمرسم الذي مات فيه القس. كان مساءً مظلماً يغرق في زخات المطر ولم يكن هناك أي صوت فى المنزل. خلال كسر في زجاج إحدى النوافذ سمعت صوت سقوط المطر على الأرض وخرير تجمعات الماء في الأصص النائمة. كانت بعض المصابيح البعيدة أو الشبابيك المضيئة تومض تحتي. كنت فى غاية الرضا بأننى أستطيع ان أرى القليل. كانت نفسي ترغب فى إخفاء ما تعتمل عليه, شعور كان يوشك أن ينفلت رغما عنها. ضغطت على قبضة يديَّ معاً أوقف رعشتهما، متمتما: أيها الحب! أيها الحب!

في النهاية تكلمت معى. مع أول كلمة قالتها لي ارتبكت لدرجة أننى لم أعرف الرد المنطقي على سؤالها عما إذا كنت سأذهب إلى عربي. بالأحرى

نسيت أذا كنتُ قد قلت نعم أم لا. قالت أنه سيكون معرضاً رائعاً , وأنها تود الذهاب هناك .

-ولماذا لا يمكنك ذلك؟ سألتها بينما لفت انتباهي وجود سواراً فضياً حول معصمها. أجابت بالنفي، لا يمكنها الذهاب ,لأنه سيكون هناك قداس عظة هذا الأسبوع فى الدير.

كان هناك شجاراً بين أخيها وأثنين من الأولاد يدور حول قبعاتهم, وكنت بمفردى على درابزين السلم. أمسكت هى بأحد المقابض, تدير رأسها في إتجاهي. الضوء المنبعث من المصباح كان مواجهاً الباب الذى التقط إنحناءة عنقها وأضاء شعرها المستقر هناك كالإكليل, وينسدل على الكتفين، ويلقي الضوء على اليد التى تستند على درابزين السلم. وسقطت على جانب من فستانها, وممسكاً على الحيز الأبيض من المعطف الواضح للعيان عندما وقفت فى هدوء. وتمتمت: إنه جميل في نظرك.

قلت لها: إذا ذهبت, سأُحضر لكِ شيئاً.

ألم أقل لكم أنني أخرق لعين، ويا لكم الحماقات التى لا تُحصى ولا تُعد تلك التي أضاعتنى بين يقظتى ومنامى بعد ذاك المساء! تمنيتُ أن أمحو تلك الأيام المتداخلة المضجرة. وكانت واجبات المدرسة تكاد تصيبني بالفالج. كان خيالها يأتى ليلاً فى فراشى ونهاراً في حصص المدرسة, مقاطع كلمة (عربي) كانت بينى وبين الصفحة التى أجتهد فى مطالعتها. والتي كانت تراودني عن نفسي خلال الصمت الذى تسبح فيه روحى وتفيض فيهِ بسحر الشرق وبهائه وروعته. طلبتُ الخروج لكى أذهب للمعرض مساء السبت. دُهِشت عمتى وكانت تأمل أن لا تكون لتلك الزيارة علاقة بالقضايا الماسونية. لقد أجبت على بعض الأسئلة داخل الفصل. كنت أرقبُ وجه المعلم يتحول بين اللطف والتجهم، كان يأمل أنى لا أكون قد بدأت فى التكاسل والاستهتار كالعادة. لم أتمكن من استدعاء أفكارى الهائمة معاً. لم يعد لى أدنى درجة من درجات الجلد على العمل الجاد فى الدنيا, التى كانت تقف حائلاً بينى وبين رغبتي, التي كانت تبدو لي نزوة صبيانية، لعبة مراهقة مكررة ومملة.

فى صباح السبت ذَكَّرتُ عمي برغبتى فى الذهاب للمعرض فى المساء الذي كان مستنداً على درابزين السلم, يبحثُ عن فرشاة خاصة بقبعته, ورد فى اقتضاب: نعم ياولدي, أعرف. ولأنه كان فى الصالة لم أستطع الذهاب إلى صالة الإستقبال الأمامية وأرقد جوار النافذة. شعرت أن البيت كان فى حالة مثيرة للغثيان ومشيتُ ببطء للمدرسة. كان الهواء وقحاً لا يرحم, أما قلبي فكانت تتنازعه الهواجس وتلعبُ به الظنون. وعندما رجعتُ للمنزل للعشاء لم يكن عمي قد عاد بعد. كان الوقتُ لم يزل مبكراً. ظللتُ أحملقُ فى الساعة لبعض الوقت، وعندما بدأت فى إثارة غيظى؛ غادرتُ الغرفة. وصعدت الدرج واحتللت الدور العلوى من المنزل. شعرت بالحرية فى تلك الغرف العالية ,الباردة كالقبر, الفارغة والمقبضة، وكنت أغنى وأنا اخرج من غرفة لأخرى. ومن النافذة العليا كنت أشاهد رفاقى وهم يلعبون أسفل فى الشارع. وصلتنى صرخاتهم ضعيفة وغير مميزة, مرتكزاً بجبهتى على الزجاج البارد. نظرت هناك على البيت المظلم حيث كانت تسكن. ربما أكون قد وقفت لما يزيد عن الساعة, لم أر شيئاً سوى ذلك الشكل الملفوف المتمَثل من خيال ثابت يخلقه ضوء المصباح عند تقوس الرقبة, عند اليد التى كانت على قضبان الدرابزين والأخرى تحت الفستان.

عندما هبطت السلم مرة ثانية وجدت السيدة ميرسير جالسة جانب المدفأة. كانت سيدة عجوز, سيدة ثرثارة, أرملة مغرمة بالقمار, تجمع الطوابع المستعملة لأغراض دينية مصطنعة. كان عليَ أن أتحمل تلك الثرثرة على مائدة الشاي. امتدت الوجبة لأكثر من ساعة.

قال عمى أنه آسف لأنه نسى. قال لعمتي أنه يؤمن بالمثل القديم :العمل المتواصل بدون لعب يجعلُ من جاك ولداً بليدْ. سألنى أين كنت أود الذهاب؛ وعندما أخبرته

للمـرة الثانيـة, سـألني إذا كنـت أعـرف قصيـدة وداع العـربى لجـواده. عندمـا غـادرت المطبـخ كان عـلى وشـك أن يترنـم بالأبيـات الأولى. أمسـكت بشـدة بورقـة نقديـة مـن فئـة الفلوريـن فى يـدي بينـما كنـت أخطـو بسرعـة عـبر شـارع بكنجهـام تجـاة المحطـة. منظـر الشـوارع المزدحمـة بالمشـترين والمتوهجـة بالغـاز دكرتنـى بالغـرض مـن رحلتـى. أخـذت مقعـدى فى عربـة بالدرجـة الثالثـة لقطـار منعـزل. وبعـد تأخـير لا يُحتَمـل تحـرك القطـار خارجـاً مـن المحطـة ببطء. زحـف متقدمـاً بـين منـازل كسـيحة وفـوق نهـر يتـلألأ. وفى محطـة ويسـت لانـد رو ضغـط حشـد مـن النـاس فى محاولـة لفتـح بـاب العربـة, لكـن العـمال أرجعوهـم للخلـف, قائلـين لهـم أنـه قطـار خـاص للمعـرض. بقيـت وحيـداً فى المحطـة العاريـة.

خـلال عـدة دقائـق اقـترب القطـار إلى جـوار رصيـف خشـبي مؤقـت. مـررت عليـه إلى الطريـق ورأيـت وجـه السـاعة المنـير وعقاربهـا تشـير إلى العـاشرة إلا عـشر دقائـق. وأمامـي كان مبنـى واسـع كان يعـرض الاسـم السـحرى. لم أسـتطع أن أجـد أي مدخـل للسـت بنسـات, خائفـاً مـن أن المعـرض يكـون قـد أغلـق أبوابـه, فدخلـت بسرعـة مـن أحـد الأبـواب الـدوارة, معطيـاً شـلناً لرجـل يبـدو عليـه التعـب. وجـدت نفسـى فى صالـة كـبرى محاطـة عنـد منتصـف ارتفاعهـا بمعـرض. معظـم الأجنحـة تقريبـاً كانـت مغلقـة والجـزء الأكـبر مـن الصالـة كان يسـبح فى ظـلام أسـود حالك. تعرفـت عـلى مثـل هـذا الصمـت الـذى يعـم الكنيسـة بعـد العظـة. تجولـت في قاعـة المعـرض فى حيـاء. بينـما تجمـع عـدد قليـل مـن النـاس بجانـب الأجنحـة التـى كانـت ماتـزال مفتوحـة أمـام السـتارة التـى كُتـب عليهـا كلـمات المقهـى المغـرد بلمبـات ملونـة، ورجـلان كانـا يعـدان النقـود عـلى صينيـة. كنـت أسـمع صـوت سـقوط العمـلات المعدنيـة. تذكـرت بصعوبـة سـبب مجيئـي, توجهـت لأحـد الأجنحـة وقمـت بتفحـص الزهريـات الخزفيـة وأطقـم الشـاى الورديـة. عنـد بـاب الجنـاح كانـت هنـاك سـيدة تضحـك مـع أثنـين مـن الشـباب.

اسـتمعت لحوارهـم بوضـوح؛ فلاحظـت لهجتهـم الإنجليزيـة: -أوه, أنـا لم أقـل مطلقـا شـيئاً كهـذا. –لكنـك فعلـت. –لا، لم أفعـل. -ألم تقـل هـي ذلـك؟ –هـذه فريـة!

عندمـا لمحتنـي, اتجهـت الفتـاة نحـوي وسـألتني عـما إذا كنـت أرغـب فى شراء شـيئاً مـا. كانـت لهجتهـا ملـول حانقـة وكان يبـدو أنهـا تتكلـم معـى بدافـع مـن شـعورها بالواجـب المكلفـة بـه ليـس إلا. نظـرت بـشيء مـن الخجـل جهـة الأواني الفخمـة التـى تقـف منتصبـة كحـرس مـن الـشرق عـلى كلا الجانبـين فى المدخـل المظلـم للجنـاح وغمغمـت: لا، شـكراً لـك. ثـم أن الفتـاة بتغيـير وضـع مزهريـة مـا وعـادت مـرة ثانيـة إلى الشـابين وعـاودوا الثرثـرة. نظـرت لي شـذرا مـرة أو مرتـين مـن فـوق كتفهـا. تمهلـت أمـام جناحهـا رغـم يقينـي أن وجـودي لا معنـى لـه, وذلـك كي أجعـل شـغفي بمعروضاتهـا يبـدو أكـثر صدقـاً. بعـد ذلـك اسـتدرت ببـطء وتمشـيت لمنتصـف القاعـة، وسـمحت لبنسـين أن يقعـا عـلى السـت بنسـات فى جيبـي. سـمعتُ صوتـاً ينـادي مـن أحـد جوانـب المعـرض

أن الضـوء قـد أُطفـا. وغـرق الجـزء الأمامـى مـن الصالـة في ظـلام مدلهـم.. حملقـت فيـه فرأيـتُ نفـسي كمخلـوقٍ يُدفَـع بـهِ ويُسـاق بـلا رحمـة، مهـان يُسـتهزأ بـهِ، تافـه بـلا وزن; وكانـت عينـاي تشـتعلان وتحترقـان فى لهيـبٍ مـن الحمـم والغضـب.

الظل
هانز كريستيان أندرسون

في المدن الحارة، يا الله!

كم تحرق الشمس الناس بشواظها حتى يغدوا سمر البشرة تماماً كخشب الماهوجاني، وفي المدن الأشد حرارة تحترق جلودهم حتى يصبحوا زنوجاً سودا.

ً لكن الآن، دعونا نسمع فقط قصة رجل متعلم انتقل مباشرة من إقليم بارد إلى إقليم حار، حيث ظن على ما يبدو أن بإمكانه أن يتجول هنا وهناك وكأنه في مسقط رأسه. لكنه سرعان ما أقلع عن تلك العادة.

في أثناء النهار، كان هو والناس العاقلون جميعاً يضطرون للبقاء في بيوتهم وقد أغلقوا أبوابهم ونوافذهم، حتى لتبدو وكأنها كلها في سبات عميق أو هي خالية لا ساكن فيها.

ولكي يزداد الطين بلة، كان شارعه الضيق ذو المنازل الطويلة، قد بني بطريقة تجعله تحت وهج الشمس الحارقة من الصباح حتى المساء، وكان ذلك أشد وطأة فعلاً من أن يتحمله مخلوق.

كان الرجل المثقف القادم من البلاد الباردة، وهو شاب ذكي، يشعر وكأنه في فرن شديد الحرارة ولقد أثر فيه ذلك حتى غدا ناحلاً تماما، بل إن ظله بدأ يتقلص وينكمش، ذلك أن الشمس أثرت فيه كثيراً إلى درجة بدا معها أكثر ضآلة بكثير مما كان في بلاده.

وكان كلاهما، هو وظله، لا يعودان للحياة إلا بعد أن تغيب الشمس.

لقد كان منظراً بالغ العجب بالفعل.

إذ ما إن كان يؤتى بالمصباح إلى الغرفة حتى يمتد الظل على طول الجدار صاعداً حتى السقف، وكان مضطراً لأن يتمدد كي يستعيد قوته. ولذلك، كان الرجل يخرج إلى الشرفة كي يأخذ كامل امتداده وبما أن النجوم كانت تظهر في السماء الرحبة البهيجة، فقد كان يشعر بأنه يعود للحياة مجدداً!! إلى شرفات الشارع كلها ولكل نافذة شرفة في البلدان الحارة. كان الناس يخرجون، إذ لا بد لك من الهواء، حتى وإن كنت قد اعتدت أن تكون كخشب الماهوجاني.

وهكذا، فوق وتحت لايفرق الأمر كثيراً.

كان كل شيء يغدو مفعماً الحياة.

صانع الأحذية،.. الترزي،.. الناس كلهم يتحركون إلى الشارع.

الطاولات تمد، الكراسي تصف والمصابيح تضاء.. مئات المصابيح تضاء.

بعض الناس يتحدثون، بعضهم يدندنون، آخرون يتسكعون، عربات تجر، حمير تمر وأجراسها ترن دِن.. دَن.. دِن.. دَن.. كما تقام هناك مآتم وتسمع ترانيم، فيما يطلق الصبية المفرقعات ويأتي رنين الأجراس من الكنائس.

أجل،.. ثمة الكثير مما يجري هناك في الشارع.

فقط في المنزل المقابل مباشرة لمنزل الرجل المثقف،..لم يكن يسمع صوت ولا يشاهد أثر للحياة. وبالرغم من ذلك، كان هناك من يعيش،..إذ كانت زهور على الشرفة تترعرع برشاقة تحت أشعة الشمس الحارة ولم تكن لتفعل ذلك دون أن تروى بالماء، إذن لا بد أن أحداً يرويها.. لا بد أن هناك سكاناً في المنزل.

عدا عن ذلك، كان الباب يفتح عند كل مساء، لكن الداخل يظل معتماً.. على الأقل الغرفة الأمامية رغم أن نغمة من موسيقى كانت تأتي من الداخل البعيد.

خُيِّل للغريب المثقف أن الموسيقى غريبة تماماً، لكن ربما كان ذلك من بنات خياله فقط، ذلك أنه باستثناء الشمس ذاتها، كان يجد كل شيء غريباً عجيباً هناك في البلدان الحارة.

صاحب منزل.ه قال إنه لم يكن يعلم من يسكن المنزل المقابل. لا أحد يمكن رؤيته هناك، أما الموسيقى فقد كان يجدها شديد الاملال متعبة.. وكأن أحداً ما يجلس ويعزف قطعة موسيقى ليس باستطاعته المضي بها. إنها القطعة نفسها دائما

سأتقن عزفها تماماً، لا يفتأ يقول لنفسه.

لكنه لا يتقنها. مهما يعزف ويمارس التدرب عليها.

ذات ليلة، استيقظ الغريب، إذ كان قد أغفى وباب شرفته مفتوح.

الستارة أمامه كانت قد تحركت جانباً بفعل الريح.

قبس نادر من ضوء بدا وكأنه يأتي من شرفة الجار المقابل.

الزهور كلها كانت تسطع بأزهى الألوان.

وهناك وسط الأزهار..

.. كانت تنتصب فتاة رشيقة رائعة الجمال.

هي نفسها كانت تبدو وكأنها تشع وتسطع فقد بهر منظرها عينيه كل الإبهار.

كان قد فتح عينيه على سعتهما بالواقع، وكان قد أفاق لتوه.

قفز الرجل من فراشه منسلاً خلف الستارة.

لكن الفتاة كانت قد ذهبت.

ألقها ذهب والأزهار فقدت سطوعها الرائع، رغم أنها كانت ما تزال منتصبة كعادتها.

الباب كان مواربـاً ومـن ركـن قـصي للغرفـة جـاء لحـن الموسـيقى رقيقـاً سـاحراً إلى درجـة يمكنهـا أن تمهّـد الطريـق في الحـال للأفـكار الرومانسـية. مـع ذلـك كان ثمـة نـوع مـن السـحر.. مـن تـراه يعيـش هنـاك؟ أيـن تـراه الطريـق الصحيـح إلى الداخـل؟ الطابـق الأرضي كلـه كان مشـغولاً بالحوانيـت، والنـاس، ربمـا لم يكـن باسـتطاعتهم أن يظلـوا داخلـين خارجـين منهـا.

ذات مساء، كان الغريب يجلس على شرفته وخلفه مصباح مشتعل بالغرفة.

وهكذا انعكس ظله بشكل طبيعي على جدار جاره.

أجل، هناك انعكس، قبالته بين أزهار الشرفة.

تحـرك الغريـب فتحـرك ظلـه، بالأسـلوب نفسـه الـذي تتحـرك بـه الظـلال. أظـن أن خيـالي هـو الـشيء الوحيـد الحـي الـذي يمكـن رؤيتـه هنـاك قـال الرجـل المثقـف انظـر مـا أروع جلسـته هنـاك بـين الأزهـار. البـاب نصـف مفتـوح، فـأي حـظ أن يختلـس الظـل نظـرة إلى الداخـل. يتطلـع في مـا حولـه ثـم يعـود ويخـبرني بمـا رأى!

قال ساخراً:

- هيا إذن كن مفيداً لنفسك! ادخل... حسن.. ألن تدخل؟

أومـأ برأسـه للظـل فـرد الظـل بإيحـاءة مماثلـة.. حسـن، هلـم إذن.. لكـن فكـر بالعـودة. وانتصـب الغريـب واقفـاً ففعـل الظـل عـلى شرفـة الجـار مثلـه. دار الغريـب حـول نفسـه فـدار الظـل، وكان باسـتطاعة كل مـن يراقـب بحـذر أن يـرى أن الظـل دخـل عـبر بـاب الشرفـة المـوارب في اللحظـة نفسـها التـي دخـل فيهـا الغريـب غرفتـه وأنـزل السـتارة الطويلـة خلفـه.

في الصبـاح التـالي، خـرج المثقـف كي يـشرب قهوتـه ويقـرأ الجرائـد... يـا اللـه! هتـف وهـو يتمـشى تحـت أشـعة الشـمس: عجبـاً، أيـن ظـلي؟ إذن، هـو حقـاً ذهـب الليلـة الماضيـة ولم يعـد. أي شيء مزعـج مخيـف!.

في غايـة الانزعـاج كان، ليـس لاختفـاء الظـل، بـل لأنـه كان يعلـم، أن هنـاك قصـة يعرفهـا القـاصي والـداني في الوطـن، حيـث البلـدان البـاردة، حـول رجـل بـلا ظـل وإذا عـاد الآن وروى لهـم قصتـه، فمـن المؤكـد أنهـم سـيقولون إنـه مجـرد مقلـد، وذلـك آخـر مـا يرغـب فيـه، لذلـك عقـد

العزم على أن لا يأتي على ذكر الأمر كله وكان ذلك عين العقل.

حين هبط الظلام، خرج إلى شرفته مرة أخرى، بعد أن وضع المصباح في المكان المناسب خلفه تماماً، لعلمه أن الظل يجب دائماً أن يتخذ من صاحبه ستاراً، لكنه أخفق في جعله يخرج، قام بتطويل نفسه، بتقصيرها. لكن، ليس هناك ظل، بل لا أثر لظل. سعل.. كح.. كح... لكن دون جدوى.

الأمر مزعج للغاية.

لكن الأشياء تنمو بسرعة كبيرة في البلدان الحارة.

بعد أسبوع لاحظ، بكثير من الغبطة، أن ظلاً جديداً له بدأ ينمو، بدءاً من قدميه حيثما سار.

لا بد أن الجذور كانت ما تزال هناك، في غضون أسابيع ثلاثة، وجد أنه صار له ظل جيد جداً، وحين بدأ يشق طريقه إلى البلدان الشمالية حيث وطنه، راح الظل ينمو وينمو إلى أن بات ضعف ما يرغب حجماً وثقلاً. وصل المثقف إلى الوطن ودوّن الكتب عن الحق والخير والجمال في العالم، وعن الأيام والسنين التي مضت. أجل، عن السنين الكثيرة.

وذات مساء كان يجلس في غرفته، حين جاءته نقرة لطيفة على الباب.

- ادخل

هتف الرجل لكن دون أن يدخل أحد.

من فوره مضى إلى الباب، فتحه، وهناك كان.. حسن، كان شخص نحيف إلى درجة مدهشة جعلته يشعر بالانزعاج والضيق.

لكن الزائر كان أنيق الثياب على كل حال.. ولم يكن ثمة شك في أنه رجل ذو اعتبار.

سأل المثقف:

- من لي الشرف بمخاطبته؟ .

قال الغريب ذو المظهر الأنيق:

- أجل.. كنت على يقين أنك لن تعرفني..فأنا الآن لي جسدي الخاص بي، جسدي الذي اكتسى باللحم. والملابس أيضاً. أنت لم تتوقع أن تراني مزدهياً على هذا النحو، أليس كذلك؟ ترى، ألا تعرف ظلك القديم؟ كلا، طبعاً، أنت لم تفكر قط بأنني سأعود ثانية. على أية حال، أنا الآن في أحسن حال، وإن أردت أن أشتري حريتي، استطعت ذلك.

عندئذ حرك حزمة كبيرة من الأختام الثمينة كانت تتدلى من ساعته فخشخشت، ثم

مرر يده على السلسلة الذهبية الطويلة التي كانت تحيط بعنقه. أصابعه كلها كانت تتألق بخواتم الماس. وبطريقة بديعة جداً كذلك.

هتف المثقف :

-وحق الله، أنت تفزعني.. ما معنى هذا الهراء؟

-حسن، إنه من وراء الطبيعة.. لكن، كما ترى، أنت نفسك من وراء الطبيعة أيضاً، وأنا، مذ كنت أدرج طفلاً صغيراً، كنت أدرج في إثر خطاك. أنت تعرف ذلك جيداً. لكن ما إن شعرت أن باستطاعتي أن أشق طريق لنفسي في هذا العالم، حتى انفصلت عنك. لقد عملت جيداً لنفسي، لكن تملكني نوع من الحنين لأن أراك ولو مرة واحدة قبل أن تموت. لأنك ستموت، ذات يوم. كذلك شعرت بالرغبة في أن أزور من جديد هذا الجزء من العالم، لأن المرء، كما تعلم، يتعلق دائماً بالبلد الذي جاء منه. أنا أدرك أنه صار لك ظل جديد. فهل أنا مدين لك، أو ل.ه. بأي شيء؟ إن كان كذلك، قل لي من فضلك

صاح المثقف:

-حسن، أنا لا أصدق... أهو حقاً أنت؟ أجل، هو أمر خارق للعادة. فأنا لم أتصور. قط أن يستطيع ظل رجل قديم أن ينقلب كائناً بشرياً من جديد.

قال الظل:

-قل لي بماذا أدين لك فأنا أكره أن أكون مديناً لك بأي شكل.

أجاب المثقف:

-كيف يمكنك أن تتكلم على هذا النحو؟ ما هذا الدين الذي تهذي حول.ه؟ أنت لا تدين لي بشيء. بل أنا مسرور غاية السرور بنجاحك. اجلس، أيها الصديق القديم، ودعني أسمع كيف حدث هذا كله وما الذي رأيته في منزل جارنا المقابل، هناك في قلب البلدان الحارة.

قال الظل وهو يجلس:

-حسن، سأقول لك...لكن في هذه الحالة، عدني أنك لن تخبر أحداً، إن رأيتني في أي مكان هنا في المدينة، أنني كنت ظلك. أنا أفكر بأن أتزوج. فلدي من السعة ما يكفي لأن أعيل عائلة.

أجاب:

-لا تقلق، فلن أخبر أحداً من أنت حقاً. وأعاهدك على ذلك أجل أعدك والحر يفي

بوعـده.

قال الظل، معبراً بالطريقة الوحيدة الممكنة:

-وهكذا الظل.

لقد كان شيئاً مدهشاً، حين تفكر كم كان الظل يشبه الكائن البشري.

كانـت ملابسـه كلهـا سـوداء مصنوعـة مـن أفخـر الأقمشـة، وكان حـذاؤه مـن الجلـد المتـين وقبعتـه تنثنـي إلى الأعـلى بطريقـة التـاج والحافـة. هـذا عـدا عـن الأختـام. السلسـلة الذهبيـة، والخواتـم الماسـية التـي سـبق وذكرناهـا، أجـل، لم يكـن ثمـة شـك فيـه، فالظـل كان غايـة في الأناقـة، وذلـك مـا جعلـه رجـلاً كامـلاً.

-حسن، الآن ستسمع القصة الكاملة.

قالهـا الظـل، داقـاً بحذائـه الجلـدي المتـين عـلى كـم الظـل الجديـد للرجـل المثقـف الـذي كان يسـتلقي ككلـب مدلـل عنـد قدميـه. ولعلـه فعـل ذلـك بدافـع الكبريـاء، أو لأنـه كان يأمـل أن يجعلـه يلتصـق بقدميـه. لقـد كان الظـل يسـتلقي هنـاك سـاكناً تمامـاً كارهـاً أن يفتقـد أي شيء، وقبـل كل شيء كان يرغـب في أن يكتشـف كيـف يمكـن للظـل أن ينفصـل عـن صاحبـه ويكسـب الحـق في أن يكـون سـيد نفسـه.

-مـن تحسـب أننـي وجـدت هنـاك في المنـزل المقابـل؟ رائعـة الروائـع.. ربـة الشـعر! لقـد مكثـت هنـاك ثلاثـة أسـابيع، وكان ذلـك يعنـي وكأننـي عشـت ثلاثـة آلاف سـنة وأنـا أقـرأ كل مـا تخيلـه الإنسـان ودوّنـه. صدقنـي، هكـذا كان الأمـر. لقـد رأيـت كل شيء وعرفـت كل شيء.

هتف الرجل المثقف:

-ربـة الشـعر...أجل... أجـل في المـدن الكبـيرة، هـي دائمـاً تحيـا مثـل ناسـك، ربـة الشـعر هـذه! أجـل، لقـد لمحتهـا للحظـة عابـرة، لكـن النعـاس كان مـلء عينـي. هنـاك، عـلى الشرفـة كانـت تنتصـب متلألئـة تلألـؤ أنـوار الشـمال. تابـع يـا صديقـي الطيـب تابـع كنـت عـلى الشرفـة، ولجـتَ البـاب، ثـم..؟.

قال الظل:

-وجـدت نفسـي في حجـرة الانتظـار.. فالغرفـة التـي كنـت تتطلـع إليهـا دائمـاً كانـت حجـرة انتظـار ولم يكـن فيهـا مصبـاح أو شـمعة، بـل فقـط نـوع مـن نـور الشـفق. كان بإمكانـك أن تـرى صفـاً طويـلاً مـن غـرف مختلفـة الأحجـام، سـاطعة الإنـارة إلى درجـة تبهـر النظـر لـو أننـي مضيـت مبـاشرة إلى مخـدع الشـعر. لكننـي كنـت حـذراً.. تريثـت قليـلاً كـما ينبغـي للمـرء أن يفعـل.

سأل الرجل المثقف:

-أجل، أنت بطيء الحركة، لكن ما تراك رأيت بعد ذلك؟ رأيت كل شيء، ولسوف تسمع ذلك كله. لكن فكر، أنا لست تابعاً لك أبداً. أنا مستقل، حسن الاطلاع ، فضلا عن مركزي الجيد وعلاقاتي الممتازة ولسوف أكون أكثر امتناناً لك إن تخاطبني بمزيد من الاحترام.

أجاب الرجل المثقف:

-أوه! أرجو المعذرة! إنها قوة العادة فقط، تلك التي لا أستطيع التخلص منها. أنت على حق. كل الحق؛ يا سيدي ولسوف آخذ هذا في اعتباري. لكن، الآن، من فضلك.. حدثني عن كل ما رأيت.

-أجل، كل ما رأيت. لأنني رأيت كل شيء وعرفت كل شيء.

-كيف كانت الغرف الداخلية؟ ماذا تشبه؟ هل كنت وكأنك في غابات خضراء؟ أم في ما يشبه كنيسة مقدسة؟ والصالات هل كانت أشبه بسماء تنيرها النجوم والمرء يقف على ذروة جبل؟

-كل شيء كان هناك قال الظل لكنني لم أستطع المضي إلى الداخل. بل مكثت في ضوء شفق تلك الغرفة الأمامية، وكان مكاناً مناسباً خصيصاً لي، ذلك أنني رأيت كل شيء وعرفت كل شيء، لقد كنت في حجرة الانتظار لبلاط ربة الشعر.

-نعم. لكن ماذا رأيت يا سيدي؟ هل كانت الآلهة القديمة تعبر بخطاها الواسعة تلك الصالات الكبيرة؟ هل كان أبطال لعصور القديمة يخوضون المعارك هناك؟ هل كان الأطفال الأحباء يلعبون ثم قصوا عليك أحلامهم؟

- أكرر، قد كنت هناك وعليك أن تفهم أنني رأيت كل شيء يُرى هناك. لو أنك عبرت لما كنت ستصير رجلاً.. لكنني أنا صرت، كذلك تعلمت أن أعرف طبيعتي في الصميم، مثلما تلقيتها عند ولادتي، قرابتي من ربة الشعر، لا.. حينما كنت معك لم أفكر بها لحظة واحدة لكن كما تتذكر عند كل شروق الشمس وغروبها، كنت دائماً أغدو أكبر وأكبر بل في ضوء القمر كنت أنتصب دائماً وأنا أكثر وضوحاً منك.

في تلك الأيام لم أكن أفهم طبيعتي الحقيقية، لكن هناك في حجرة الانتظار، انبثقت فجأة أمامي. لقد كنت رجلاً.. وحين ابتعدت عنك، تغيرت، نضجت، لكنك في ذلك الحين كنت قد تركت البلد.. وكرجل، خجلت من أن أتجول كما كنت أفعل. لقد كنت بحاجة لحذاء، لملابس، لكل ذلك المظهر البشري الذي يتميز به الإنسان. لقد اتخذت لنفسي ملجأ. وأنا أصدقك القول لأنك لن تسجل ذلك في كتاب مختفياً تحت تنورة امرأة تبيع الكعك دون أن تلحظ المرأة ما كانت تخفي. حين حل الظلام فقط غامرت بالخروج، جريت في الشوارع هنا وهناك في ضوء القمر، مددت نفسي على الجدار. وهو أمر يدغدغ ظهرك دغدغة

ممتعـة. إلى الأعـلى والأسـفل جريـت، مبصبصـاً عـبر النوافـذ العاليـة مختلسـاً النظـر إلى غـرف الطوابـق الأرضيـة والغـرف الواقعـة تحـت السـقوف.

اختلسـت النظـر حيـث لا يسـتطيع أحـد آخـر أن يفعـل ورأيـت مـا لم يـره أحـد. ولـن يـراه. والخلاصـة.. أنـه عـالم وضيـع واطـئ، هـذا العـالم الـذي نعيـش فيـه. أبـداً مـا كنـت لأصـير رجـلاً، لـو أن ذلـك لا يعتـبر عمومـاً أنـه يسـتحق العنـاء لقـد رأيـت أغـرب الأشـياء تحـدث بـين النسـاء، الرجـال، بـين الآبـاء وأولادهـم الأحبـاء. رأيـت.. مـا لا يفـترض بأحـد أن يعرفـه، لكـن مـا يمـوت الـكل مـن أجـل أن يعرفـوه.مشـكلة في المنـزل المجـاور.. لـو كان لـدي جريـدة إذن لغـدا لهـا الكثـير مـن القـراء! لكننـي تعـودت أن أكتـب مبـاشرة للشـخص، صاحـب العلاقـة. وان يـدب الذعـر حيثـما أذهـب. كانـوا يرتعبـون منـي. و.. أوه! كانـوا يولعـون بي. أسـاتذة الجامعـة نصبـوني أسـتاذاً، الخياطـون قدمـوا لي الملابـس الجديـدة، فـصرت في أحسـن هنـدام. المسـؤول عـن سـك النقـود أعطـاني المـال والنسـاء بـتن يتغزلـن بي وبذلـك صرت كـما أنـا الآن. حسـن. الآن أسـتودعك اللـه. هـذه بطاقتـي. إننـي أعيـش في الجانـب المشـمس مـن الشـارع، وأنـا دائمـاً في المنـزل وقـت المطـر.

قال الظل ذلك ثم رحل.

تمتم الرجل المثقف:

-كم هو غريب!!

بعد حين من الزمن، عاد الظل فظهر.

-كيف الأمور؟

سأل الظل فتنهد المثقف قائلاً

-أوه!! لا بأس!!

إننـي أكتـب عـن الحـق والخـير والجـمال، لكـن مـا مـن أحـد يبـالي قيـد شـعرة بذلـك كلـه، مـما يجعلنـي أشـعر باليـأس، لأنهـا تعنـي كثـيراً لي.

-ذلك لا يزعجني..

قال الظل:

- لقـد بـدأت أسـمن. وهـو تمامـاً مـا ينبغـي عـلى المـرء أن يحـاول.ه. أنـا أخـشى أنـك لا تفهـم العـالم، وأنـك سـتمرض. يجـب أن تسـافر. إننـي مسـافر هـذا الصيـف فهـلا جئـت معـي. أنـا أحـب كثـيراً أن يكـون معـي رفيـق سـفر. تعـال معـي كظـلي! سـأكون في غايـة السـرور أن تصحبنـي، ولسـوف أدفـع نفقاتـك.

لا، هذا كثير بالتأكيد.

الأمر يتوقف على الزاوية التي تنظر منها..فالسفر يجعل عالمك كله سعداً وهناءة وإن كنت ظلي ستحصل على كل شيء في رحلتك دون أن تدفع شيئاً.

قال المثقف:

-لا..لقد طفح الكيل

-حسن، هذا ما توصلنا إليه اليوم وليس هناك من خط رجعة

قالها الظل ثم مضى.

ساءت أمور الرجل المثقف، فقد هده الهم والغم، بل أن أفكاره حول الحق والخير والجمال لم تجذب الناس إلا بقدر ما تجذب الورود البقرة.

فانتهى به الأمر لأن يسقط صريع المرض.

-انظر إلى نفسك، أنت لست أكثر من ظل صار الناس يقولون ل.ه، مما جعله يرتعش دافعاً به إلى التفكير أكثر فأكثر.

عليك أن تذهب وتأخذ المياه المعدنية في مكان ما! قال الظل الذي جاء يعوده ذات يوم. ذلك هو الشيء الوحيد. ستأتي معي كرمى للأيام القديمة. سأتحمل عنك النفقات، فيما يمكنك أنت أن تدوّن أشعاري وتقوم بنوع من التسلية لي في رحلتي. أريد أن أذهب إلى منتجع، لحيتي لم تنمُ كما ينبغي. وتلك علّة مزمنة أيضاً. فالمرء لا يُستحسَن بغير لحية. الآن، كن عاقلاً وقل إنك ستأتي. وبالطبع، سنسافر كصديقين.

وهكذا سافرا! لكن الظل سيد والسيد ظل وهما دائماً معاً، في العربة، على ظهور الخيل، على الأقدام، هما معاً جنباً إلى جنب، أو الواحد في أثر الآخر طبقاً لموقع الشمس، فالظل كان يعلم دائماً كيف يتخذ مكان السيد، فيما كان الرجل المثقف لا يعطي الأمر أي اهتمام. لقد كان غاية في الطيبة، نبيلاً وودوداً.

ذات يوم، قال للظل:

-بما أننا الآن نسافر معاً كندين، وبما أننا ترعرعنا منذ الطفولة معاً، ألا ينبغي أن نشرب نخب الصداقة؟ ذلك سيكون أكثر وداً وأحسن أنساً.

قال الظل الذي بات هو السيد الحقيقي:

اسمح لي أن أقول لك...أنت تبدو بالغ الصراحة، وأنا على يقين أنك لا تقصد شراً، أنا أيضاً لا أقصد شراً ولسوف أكون صريحاً مثلك. إنك تعلم، كرجل متعلّم، كم هي طبيعة

الإنسـان غريبـة عجيبـة. بعـض النـاس لا يمكنهـم أن يتحملـوا ملامسـة ورقـة رماديـة. ذلـك يقلـب مزاجهـم. آخـرون تقشـعر أبدانهـم إن تحـك مسـماراً بلـوح مـن زجـاج. وهـذا تمامـاً مـا أحـس بـه حـين تحدثنـي بنـبرة النـد والألفـة. إننـي أشـعر وكأننـي ارتـددت إلى مكانتـي الوضيعـة الأولى بالنسـبة إليـك. هـي ليسـت كبريـاء طبعـاً، لكـن هـذا فقـط مـا أحـس بـه. لهـذا السـبب لا أسـتطيع أن أسـمح لـك برفـع الكلفـة معـي، إلا أننـي أرغـب تمامـاً في أن أتسـاهل معـك قليـلاً علّنـا نلتقـي، أنـا وأنـت، في منتصـف الطريـق بالنسـبة إلى رفـع الكلفـة.

لكن، منذ تلك اللحظة بدأ الظل يعامل سيده السابق على أنه الأدنى مكانة.

إنـه نـوع مـن الانحـدار حقـاً، فكّـر الرجـل المثقـف أن تضطـر لمناداتـه سـيدي فيـما يحـق ل.هـ أن يناديـني مـا يشـاء.

بالرغم من ذلك كان عليه أن يتكيف مع الأمر.

بعد برهة وجيزة وصلا إلى المنتجع حيث كان هناك كثير من الزائرين.

من بينهم أميرة حسناء، كانت تشكو من حدّة البصر، وكان ذلك يقلقها أشد الإقلاق.

في الحـال لاحظـت الأمـيرة أن القـادم الجديـد يختلـف كل الاختـلاف عـن الآخريـن جميعـاً، يقولـون إنـه جـاء كي يجعـل لحيتـه تنمـو. لكننـي أعـرف السـبب الحقيقـي. هـو لا يسـتطيع أن يكـون ل.هـ ظـل.

ولقـد أثـار ذلـك فضولهـا، لهـذا لم تُضـع الوقـت إذ سرعـان مـا قامـت بجولـة مـع السـيد الغريـب وتحدثـت معـه. ولأنهـا أمـيرة، لم تكـن مضطـرة لأن تتكلـف وتتصنّـع بـل قالـت مباشرة ل.هـ

-... مشكلتك أنك ليس لك ظل...

-سـمو الأمـيرة يجـب أن تكـون أفضـل بكثـير قـال الظـل أنـا أعلـم أن مـا تعانـين منـه هـو أنـك تريـن بحـدة ووضـوح أكـثر مـما يلـزم، لكـن شـكوكك هـذه ولّـت. لقـد شـفيت...الحقيقـة أن لـدي ظـلاً غـير مألـوف عـلى الإطـلاق. ألم تلحظـي الشـخص الـذي يصحبنـي دائمـاً؟ النـاس الآخـرون لهـم ظـلال عاديـة. لكـن، أنـا لا أحـب كل مـا هـو عـادي. السـيد النبيـل يعطـي خادمـه مـن الملابـس أحسـن مـما هـو يلبـس وهـذا هـو السر في أننـي جعلـت ظـلي يظهـر ككائـن بـشري. أجـل... انظـري.. لقـد أعطيتـه ظـلاً أيضـاً. ولقـد كان أمـراً مكلفـاً لكننـي أحـب أن يكـون لي مـا لا يسـتطيع غـيري امتلاكـه أبـداً.

-يـا إالهي!..أشـفيت أنـا حقـاً؟... منتجـع الميـاه المعدنيـة هـذا أفضـل منتجـع في الوجـود. المـاء هنـا لـه خصائـص مدهشـة. لكننـي لـن أرحـل عنـه لقـد بـدأ المـكان يسـليني. وهـذا الغريـب

يـروق لي كثـيراً. آمـل أن لا تنمـو لحيتـه فحينـذاك سـيرحل عـلى الفـور.

في القاعـة الكبـيرة. رقصـت الأمـيرة ذلـك المسـاء مـع الظـل، لقـد كانـت خفيفـة، لكنـه كان أكـثر خفـة، بـل هـي لم تعـرف قـط مراقصاً بخفتـه. لقـد حدثتـه عـن بلادهـا فتبـيّن أنـه يعرفهـا بـل سـبق ل.هـ أن زارهـا وهـي بعيـدة عنهـا، كـما اختلـس النظـر عـبر نوافذهـا وشـاهد مـا شـاهد فيهـا إلى درجـة جعلتـه قـادراً أن يجيـب الأمـيرة وأن يمـرر تلميحـاً هنـا وتلميحـاً هنـاك مـما أدهـش الأمـيرة. لابـد أنـه أحكـم رجـل في العـالم، فكـرت الأمـيرة، وكـبر احترامهـا ل.هـ لشـدة مـا كان يعلـم. بعدئـذ رقصـا معـاً مـرّة ثانيـة فوقعـت في غرامـه. الأمـر الـذي كان واضحـاً للظـل كل الوضـوح. إذ باتـت لا تـكاد تـرى شـيئاً إلا مـن خلالـه. بعـد ذلـك، قامـا برقصـة أخـرى، فأوشـكت أن تقـول ل.هـ. لكنهـا ضبطـت نفسـها أخـيراً. لقـد تذكـرت بلادهـا ومملكتهـا وكل النـاس الذيـن كانـت سـتحكمهم. إنـه رجـل حكيـم قالـت لنفسـها وهـذا أمـر حسـن. هـو يحسـن الرقـص، وهـذا أمـر حسـن أيضـاً، لكننـي أتسـاءل إلى أي مـدى تصـل معرفتـه، إنـه أمـر بالـغ الأهميـة أيضـاً، لهـذا لابـد مـن إخضاعـه لامتحـان، وهكـذا بـدأت بالتدريـج تطـرح عليـه أصعـب الأسـئلة. مـما لا تسـتطيع هـي نفسـها الإجابـة عنـه، فطغـت عـلى سـيماء الظـل علائـم الاسـتغراب والفضـول.

هتفت الأميرة:

-لا تستطيع الإجابة!

-لقـد تعلمـت ذلـك وأنـا في الحضانـة...بـل حتـى ظـلي هنـاك قـرب البـاب يمكنـه الإجابـة عـلى مـا أعتقـد.

-ظلك! قالت الأميرة سيكون ذلك مدهشاً للغاية

-حسـن، لـن أقـول مـن المؤكـد أن يسـتطيع، قـال الظـل لكننـي أتصـور ذلـك. لقـد أمـضى معـي سـنوات كثـيرة، مصغيـاً لي طـوال الوقـت. أتصـور أنـه يسـتطيع، لكـن. يمكننـي أن ألفـت انتبـاه سـموّك إلى أمـر واحـد: كثـير مـن الكبريـاء تعتـوره حـين ينتقـل إلى الكينونـة البشريـة، ولـكي نحافـظ عـلى مزاجـه المناسـب (وهـو أمـر لابـد منـه إذا أردنـا أن يجيبنـا الإجابـة الصحيحـة) لابـد مـن معاملتـه معاملـة الكائـن البـشري تمامـاً.

أود ذلك.

بعدئـذ مضـت إلى الرجـل المثقـف قـرب البـاب، ثرثـرت معـه قليـلاً حـول الشـمس والقمـر والنـاس، في الداخـل والخـارج عـلى السـواء، فكانـت أجوبتـه في غايـة الدقـة والصحـة.

فكـرت الأمـيرة: أي رجـل هـذا الرجـل إن كان ظلّـه فقـط عـلى هـذا النحـو مـن الحكمـة والعقـل! وأيـة نعمـة سـتحل بشـعبي ومملكتـي إن اخترتـه زوجـاً لي. لأفعلـن ذلـك.

وسرعـان مـا توصـلا، الأمـيرة والظـل، إلى تفاهـم، عـلى ألا يسـمع بـه أحـد إلى أن تعـود إلى مملكتهـا. لا أحـد، ولا حتـى ظـلي قـال الظـل، ولقـد كانـت لديـه أسـبابه كي يقـول ذلـك، أخـيراً وصـلا إلى البـلاد التـي كانـت الأمـيرة تحكمهـا، صـارت في الوطـن.

اسـمع يـا صديقـي قـال الظـل للرجـل المثقـف الآن أصبـح سـعيداً وقويـاً كـما يمكـن للرجـل أن يكـون. الآن أود أن أفعـل شـيئاً خاصـاً لـك. إذ عليـك أن تعيـش معـي في القـصر باسـتمرار، تسـوق بي العربـة الملكيـة ولـك عـشرة آلاف جنيـه في السـنة. لكـن عليـك أن تـدع الجميـع ينادونـك ب.الظـل. عليـك أن لا تقـول أبـداً أنـك كنـت رجـلاً، ومـرّة واحـدة في السـنة، حـين أجلـس في الشرفـة تحـت الشـمس كي أعـرض نفـسي للشـعب، عليـك أن تسـتلقي عنـد قدمـي مثلـما تفعـل الظـلال. دعنـي أخـبرك. سـأتزوج الأمـيرة، العـرس هـذا المسـاء.

يـا الهـي! قـال الرجـل المثقـف مـاذا يمكـن أن يكـون أسـوأ مـن هـذا؟ لا، لا، لـن أفعـل ذلـك، نحـن نخـدع البـلاد كلهـا، نخـدع الأمـيرة والنـاس جميعـاً، سـأخبرهم بـكل شيء. سـأقول إننـي أنـا الرجـل وأنـت الظـل وأنـك فقـط تظهـر بمظهـر الرجـل.

لن يصدقك أحد. قال الظل كن عاقلاً أو دعوت الحرس.

سـأذهب مبـاشرة إلى الأمـيرة، قـال الرجـل المثقـف لكننـي سـأذهب قبلـك. قـال الظـل ولسـوف تذهـب إلى السـجن ولقـد ذهـب، ذلـك أن الحـرس أطاعـوا مـن كانـوا يعلمـون أن الأمـيرة تريـد أن تتزوجـه.

قالت الأميرة حين جاء إليها الظل:

أنت ترتعش... هل حدث شيء؟ يجب ألا تمرض هذه الليلة. ليلة زفافنا.

قال في براءة:

لقـد مـررت بأسـوأ تجربـة يمكـن أن يعانيهـا مخلـوق...تصـوري فقـط. وبالطبـع، عقـل ظـل بائـس كذلـك الظـل، لا يسـتطيع تحمّـل الكثـير... تصـوري، ظـلي أصيـب بالجنـون. هـو يفكـر أنـه هـو الرجـل وأننـي. فقـط تخيـلي هـذا. أننـي ظلـه.

صاحت الأميرة:

هذا فظيع! أرجو أن يكون في موضع يؤمن شرّه!.

غمغم موافقاً:

أجل... أجل... وأخشى أنه لن يشفى أبداً.

تمتمت الأميرة مشفقة:

يـا للظـل المسـكين!! كـم هـو تعيـس الحـظ!! سـيكون لطفـاً منـا أن نخلصـه مـن هـذه البقيـة البائسـة مـن حياتـه! الآن توصلـت إلى فكـرة مناسـبة أعتقـد أن مـا يجـب فعلـه. هـو تصفيتـه بـكل هـدوء.

تنهد الظل قائلاً:

يبدو ذلك قاسياً.. فقد كان نعمَ الخادم المخلص.

قالت الأميرة:

أنت رجل نبيل

في الليـل، كانـت المدينـة كلّهـا متلألئـة الأنـوار. المدافـع أطلقـت. بـوووم! والجنـود رفعـوا الأسـلحة، وبـدا العـرس وكأنـه إلى الأبـد. خرجـت الأمـيرة والظـل إلى الشرفـة كي يراهـما النـاس وكي يتلقيـا دفقـة أخـرى مـن هتافـات الإعجـاب والفـرح. هيييييييييييييييـه!!.

لكن الرجل المثقف لم يسمع أي شيء من هذا الصخب، إذ كان قد تم اعدامه.

محاكم التفتيش
إدجار آلان بو

بلغ بي الضيق درجة تمنيت عندها الموت، من جراء ما عانيت من عذاب.. وعندما حلّوا وثاقي في نهاية الأمر، وسمحوا لي بأن أجلس، شعرت وكأنني فقدت كل حواسي! كان الحكم رهيباً..كان الحكم بموتي..! وهذا كان آخر ما وصل إلى سمعي بنبرات واضحة.. بعد ذلك اختلطت عليّ الأصوات وتداخلت الكلمات وأصبحت خليطاً من الهمهمة الغير مفهومة وطنيناً حالماً لا حدود له.. لقد حمل إليّ هذا الطنين بذور ثورة نارية.. ربما لآن هذا الطنين كان يرتبط في خيالي بصوت الطاحون.. على أن ذلك لم يستمر طويلاً..

فسرعان ما فقدت حاسة السمع.. لكنني لم أفقد الصبر..! ظللت أرى الموجودات في مبالغة مسرفة! رأيت شفاه القضاة وهم يتشحون بالسواد.. وكانت وجوههم بيضاء – أبيض من الورق الذي أكتب عليه!.. وكانوا نحفاء نحافة تدعو إلى الضحك.. نحافة ساخرة فيها من الحزم والعزم وفيها من الاحتقار العجيب لعذاب الإنسان.. رأيت الكلمات والأحكام التي تنساب من بين شفاههم.. رأيتهم ينطقون بألفاظ الموت.. يصرخون بمقاطع اسمي.. وارتجفت فزعاً! فتوقف انبعاث الصوت من بين شفاههم للحظة!

رأيت كذلك [وللحظات قليلة من الهلع الفظيع القاتل] الستائر الكثيفة الناعمة المتماوجة التي تغطي جدران القاعة.. ثم وقع بصري على الشموع السبع العالية التي انتصبت على المائدة.. في البداية كانت تبدو كملائكة سبعة نحيلة تحمل معني الشفقة جاءت لتنقذني.. لكن.. فجأة انسل إلى داخل روحي غثيان فتاك، شعرت معه أن كل خلية وكل نشيج في كياني ترتجف كأنما قد لمست سلك بطارية مشحونة.. أما أشكال الملائكة فقد أصبحت أطيافاً لا معني لها.. أصبحت خيالات لها رؤوس من الشرر.. وقدرت أنه لا يرتجي منها عون.. ثم راحت تنساب إلى خواطري – كانسياب لحن موسيقي جميل – فكرة الراحة الحلوة الممتعة التي لابد أن تتوفر في القبر.. كانت الفكرة تنساب في تسلل ونعومة وخلسة، لدرجة أن وقتاً طويلاً قد مر – أو هكذا شعرت – قبل أن أدرك أهميتها تمام الإدراك... غير انه ما كادت روحي آخر الأمر تحس الفكرة وتأنس لها حتى اختفت أشباح القضاة من أمام وجهي.. كأنما بعصا ساحر..

واختفت الشموع العالية في العدم وخبا شررها.. وغمر سواد الظلام كل شيء.. وبدا وكأن كل الحواس قد دفعت إلى الجحيم بموجة هوجاء هاوية.. ولم يبق من الكون إلا صمتا وسكونا وسواد.. ودارت بي الأرض!..

لكنني لا أزعم أنني فقدت كل وعيي.. لا أعرف كيف أقدّر كم بقي لي منه أو حتى

أصف لك هذا الباقي.. لكني رغم كل شيء لم أفقد الوعي كله.. كأنني نائم.. ونحن في سباتنا لا نفقد وعينا بالكامل.. وفي الغيبوبة لا نفقده!.. وفي الغشية لا نفقده!.. بل وأننا في الموت لا نفقده كذلك!! وإلا فأين يكون خلود الإنسان إذاً؟..

إننا حين نستيقظ من أعمق سباتنا، إنما نتخلص من نسيج نسجته حولنا الأحلام. على أننا سرعان (مهما يكن هذا النسيج واهياً) ما ننسي أننا كنا نحلم.

إننا في عودتنا إلى الحياة من إغماءة نمر بمرحلتين:

المرحلة الأولى: مرحلة الإحساس العقلي أو الروحي.

المرحلة الثانية: مرحلة الشعور بوجودنا المادي.

ويبدو إننا إذا استطعنا أن نتذكر عند وصولنا للمرحلة الثانية ما انطبع من المرحلة الأولى؛ لوجدنا أن تلك الانطباعات تفضح ذلك الوجود الثاني البعيد..

لكن..

ذلك الوجود الثاني.. ما هو؟!!

وكيف في القليل نحدد ظلاله ونميز أشباحه من ظلال القبر وأوهامه؟

أما إن كانت ما أسميناه بالمرحلة الأولى انطباعات لا يمكننا أن نستعيدها بإرادتنا؛ ألا يمكن أن تسعي هي إلينا طواعية بعد فترة ما؟... وندهش نحن من أين أتت! إن ذلك الذي لا يسقط فاقداً للوعي؛ ليس بالرجل الذي يري قصوراً غريبة ووجوهاً مألوفة له في جمرات النار التي تومض.. وليس بالرجل الذي يري في الهواء رؤى حزينة قد لا يراها سواه.. ولا هو بالذي يمعن تفكيره في رائحة زهرة برية جديدة.. ولا هو بالذي يحير عقله بمعني نغم موسيقي لم يسترع انتباهه من قبل..

حدث ذلك ليلا، وكانت تمطر؛ وحين كانت تمطر كان الذي يتساقط قطرات من الماء، لكنه حين يصل إلى الأرض يصير دماً. وكنت في المستنقع أجلس بين أزهار النيلوفر الكبيرة، والمطر يسقط فوق رأسي، وكل زهرة نيلوفر.. تحن إلى أختها في وحدتها الحزينة المكللة بالجلال. وفجأة نهض القمر من وراء النسيج الناعم لضباب حزين، وكان لونه قرمزياً، ووقعت عيناي على صخرة كبيرة رمادية قرب ضفة النهر كان يضيئها القمر. كانت صخرة رمادية، مشئومة، ناهضة، وكانت رمادية، نقشت عليها بضعة حروف؛ وتقدمت عبر مستنقع النيلوفر، إلى أن أصبحت قرب الضفة، كي أقرأ الحروف المحفورة، لكنني قرأت ولم أستطع أن أفك رموزها. وكنت عائداً إلى المستنقع حينما شعّ القمر بحمرة أكثر شدة، فالتفت وتطلعت من جديد إلى الصخرة والحروف؛ وكانت هذه الحروف: ا ل أ ل م.

نظـرت إلى أعـلى، فرأيـت رجـلاً عـلى قمـة الصخـرة؛ اختبـأت بـين أوراق النيلوفـر كي أراقـب حركاتـه. كان ذا هيئـة جليلـة مهيبـة، يتلفّـع مـن كتفيـه حتـى قدميـه بحلـة رومـا القديمـة. وكانـت حـدود شـخصه غـير واضحـة، إلا أن قسـمات وجهـه كانـت قسـمات إلهيـة تتـلألأ رغـم عبـاءة الليـل والضبـاب والنـدى والقمـر. وكانـت جبهتـه عاليـة غارقـة في التأمـل؛ وعينـه فريسـة الهواجـس، قـرأت في تقاطيـع وجنتيـه أسـاطير الكآبـة والتعـب والسـأم مـن الإنسـانية، والميـل الجـارف إلى الوحـدة. جلـس الرجـل عـلى الصخـرة وأسـند رأسـه إلى يـده، وأخـذ يطـوف بعينيـه فيـما حولـه. رأى الشـجيرات الصغـيرة التـي لا يهـدأ قلقهـا، والأشـجار الكبـيرة البدائيـة، وفي الأعـلى رأى السـماء المليئـة بالحفيـف، والقمـر القرمـزي. وكنـت مختبئـاً بـين أزهـار النيلوفـر أراقـب حركاتـه. كان الرجـل يرتجـف في الوحـدة، والليـل يتقـدم، ومـع هـذا بقـي جالسـاً عـلى الصخـرة. وحـوّل الرجـل الجليـل عينيـه عـن السـماء، واتجـه بهـما إلى نهـر زائـير الحزيـن، وإلى الميـاه الداكنـة العابسـة، وإلى النيلوفـر الشـاحب. وكان يصغـي إلى تنهـدات النيلوفـر وهمسـه. وكنـت في مخبئـي، أترصـد حركاتـه وهـو يرتجـف في الوحـدة، والليـل يتقـدم، ومـع هـذا ظـل جالسـاً عـلى الصخـرة. حينـذاك أوغلـت في أطـراف المسـتنقع البعيـدة، ومشـيت فـوق غابـة النيلوفـر الطـريّ، وناديـت أفـراس النهـر التـي تسـكن أعـماق المسـتنقع. وسـمعت الأفـراس نـدائي وجـاءت إلى الصخـرة، وزمجـرت بصـوت عـال ومرعـب تحـت القمـر. كنـت لا أزال مختبئـاً أراقـب حـركات الرجـل، وكان يرتجـف في الوحـدة، والليـل يتقـدم، غـير أنـه، مـع ذلـك، بقـي جالسـاً عـلى الصخـرة. هنـا لعنـت عنـاصر الضوضـاء المزعجـة، فتراكمـت في الجـو عاصفـة مخيفـة، ولم تعـد هنـاك أيـة نسـمة في أي مـكان، وأصبحـت السـماء الزرقـاء سـوداء مـن عنـف العاصفـة، مـن المطـر الـذي يـضرب رأس الرجـل، وفاضـت أمـواج النهـر، وأزبـد النهـر المعـذب، وأخـذ النيلوفـر يـصرخ في سريـره، وتبعـثرت الغابـة في الريـح، وهـدر الرعـد، ولمـع الـبرق، ومـادت الصخـرة. وكنـت لا أزال غائصـا في الوحـدة، والليـل يتقـدم؛ ومـع ذلـك بقـي الرجـل جالسـاً عـلى الصخـرة. ازداد هياجـي، ولعنـتُ لعنـة صمـت النهـر، والنيلوفـر، والريـح، والغابـة، والسـماء، والرعـد، وتنهـدات النيلوفـر. وصعقتهـا اللعنـة جميعـاً وصـارت خرسـاء. وتوقـف القمـر عـن السـير بعنـاء في طريقـه في الفضـاء، وتـلاشى الرعـد، وتولّـت الغيـوم جامـدة، وعـادت الميـاه إلى مجاريهـا وهـدأت فيهـا، وتوقفـت الأشـجار عـن التمايـل، ولم يعـد النيلوفـر يتنهـد، ولم يعـد يتصاعـد مـن جموعـه أدنى همـس أو صـوت في الصحـراء الواسـعة التـي لا تحـد. ونظـرت إلى حـروف الصخـرة وكانـت قـد تغـيّرت؛ فأصبحـت تشـكل كلمـة: ي أ س.

وسـقطت عينـاي عـلى وجـه الرجـل، وكان شـاحباً مـن الرعـب، وسرعـان مـا رفـع رأسـه عـن راحتيـه، ونهـض عـن الصخـرة، وأصغـى. لكـن لم يكـن هنالـك صـوت في هـذه الصحـراء الواسـعة التـي لا تحـدّ، وكانـت الحـروف المنقوشـة عـلى الصخـرة: الصمـت. ارتعـد الرجـل، وتلفَّـت، وهـرب بعيـداً، بعيـداً، بسرعـة حتـى لم أعـد أراه.

إذاً، هنـاك عـدد كبـير مـن الحكايـات الجميلـة في كتـب الملـوك، في كتـب الملـوك الحزينـة

المجلّدة بالحديد. أقول هناك حكايات رائعة عن السماء والأرض والبحر الزاخر، والجن الذين ملكوا على البحر والأرض والسماء. ثمة أيضاً كثير من الحكمة في الكلمات التي لفظتها العرّافات؛ وأشياء مقدسة، مقدسة سمعتها من الأوراق التي كانت تهتز حول هيكل دودونا؛ لكنني كما أعتبر أن الله علي قدير، أعتبر أن هذه الأسطورة التي قصّها عليّ الشيطان، حين جلس قربي في ظلام القبر، هي لعمري أكثر الأساطير عجباً!

وحين أنهى الشيطان قصته في ذلك اليوم، غاص في أعماق القبر، واستغرق في الضحك، وما استطعت أن أضحك معه، ولعنني لأنني لم أقدر على الضحك. وخرج الوشقُ من القبر الذي يسكن فيه إلى الأبد، ونام عند قدميّ الشيطان وهو يحدق في عينيه.

وخلال تلك المحاولات العقلية العقيمة الجاهدة في أن تتذكر، وبين سلسلة الكفاح المتواصل لاستجماع الدلائل على حالة العدم التي لجت فيها النفس، كانت تزورني فترات أحلم فيها بالنجاح الساحق..

وفترات أخرى قصيرة تخطر لنفسي فيها ذكريات تؤكد صفاء عقلي واتصاله بتلك الحالة الواضحة من فقدان الوعي..

إن تلك الظلال التي تهيم في فضاء الذاكرة تنبيء في غير وضوح عن أشباح طويلة حملتني لأعلى.. ثم هوت بي لأسفل..ثم إلى أسفل.. وإلى أسفل.. وإلى أسفل.. حتى أصابني دوار عنيف من مجرد التفكير في تلك الهوة التي لا نهاية لها.. إنها تنبئ عن رعب غامض في أعماقي.. عن ذلك السكون الغريب فيه.. ثم إحساس بالجمود.. بتحجر الحركة في كل شيء.. كأن الذين حملوني جيش رهيب.. تجاوزوا في هبوطهم حدود ما لا حدود له.. وتوقفوا من شدة ما عانوه.. ثم أذكر الانبساط والرطوبة.. ثم يعود الجنون فيشمل كل شيء.. جنون ذاكرة تشغل ذاتها بكل ما هو محظور!

ثم فجأة تعود روحي إلى.. الحركة والصوت.. الحركة الدائبة من القلب.. والصوت المنبعث من دقاته إلى الأذن.. ثم فترة من التوقف غاب فيها كل شيء.. ثم صوت مرة أخرى.. ثم حركة.. ثم لمس.. فإحساس بخدر يشمل كل كياني..

ويجئ وعيّ بالوجود بغير قدرة حقيقة على التفكير أو حتى استيعاب الأمور.. حالة طالت، بعدها جاءت فترة من التمييز والقدرة على فهم الأشياء والتفكير فيها.. إحساس مفاجئ جداً..

رعب ممزق.. جهد جبار لأفهم معالم الحالة الصحيحة التي ترديت فيها.. ثم واتتني رغبة طاغية في أن أعود إلى بلادة الشعور...

ثم صحت روحي صحوة مباغتة دافقة..ومعها أحسست بجهد ناجح في أن أتحرك،

وتواتيني ذكريات المحاكمة كاملة.. للقضاة..

للستائر الناعمة.. للحكم بالإعدام.. للضيق.. للإغماءة.. وفترة نسيان لهذا كله.. ولم أعد أذكر منه إلا صوراً غامضة باهتة..

وحتى هذه اللحظة لم أفتح عيني!

لكني شعرت بنفسي مطروحاً على ظهري من غير قيود.. وعندما مددت يدي لمست شيئا.. صلب.. رطب.. ناعم.. وهنا شعرت بثقل غريب في يدي ومعاناة قوية في أن أرفعها مرة أخرى.. ولم أنجح في ذلك إلا بعد دقائق.. وفي هذه الأثناء حاولت أن أتخيل أين أنا..! ومن أنا !!

تمنيت لو استطعت أن أفتح عيني وأعمل بصري في الحياة من حولي.. لكني لم أجرؤ على فتحها.. خشيت النظرة الأولى إلى الموجودات من حولي.. لم أكن راغبا في أن أفتح عيني لأشاهد أمامي كابوساً شنيعاً.. بل إن ما كان يقتلني رعباً هو أن أفتح عيني فلا يكون هناك ما أراه!.. وانتهي الأمر بأن أفتح عيني ببطء شديد.. ويأس أشد!.. وهنا يتفتت الوهن من أبشع أفكاري.. لقد أحاط بي سواد ليل مستديم.. حاولت أن أتنفس فلم أستطع.. كانت شدة الظلام تقبض أنفاسي وتخنقني.. وكنت لا أزال ساقطاً على ظهري معدوم الحيلة أحاول أن أبدأ في التفكير مستعيداً ذكريات التحقيق، فبدأت أتبيّن حالتي الحقيقية كما هي..

لقد صدر الحكم، إلا أنني على الرغم من هذا لا اعتقد أنني رجل ميت..

إن هذه الفرضية – التي تقرأها كثيراً في الروايات – لا وجود لها فعلاً.. إذن فأين أنا؟.. وفي أي حالة أكون؟..

إنني على يقين من أن المحكوم عليه بالموت يموت في الحال.. لكنني رأيت أن ذلك لم يحدث وخطر لي خاطر جعل الدم يصعد إلى رأسي فوراً ثم أعود إلى حالة التجمد مرة أخرى، عندما أفقت منها حاولت النهوض على قدمي المتهالكتين، وكل خيط في بدني يرتعد.. دفعت ذراعي بعنف فيما حولي وفي كل اتجاه..

لم أحس بأي شيء.. لكنني خشيت أن أمضي إلى الأمام خطوة فأصطدم بجدران مقبرتي!.. من كل مسامي نضح العرق وحط في قطرات باردة على جبيني.. واشتد علي عذاب الانتظار.. ورغم ذلك تحركت بأقصى ما لديّ من حذر ولا تزال ذراعي ممدودتان للأمام.. وعيناي مشدودتان في محجريهما بخيوط خفية وكلهما أمل في أن تلتقطان شعاعاً من النور..

وتقدمت للأمام عدة خطوات.. وكان الظلام لا يزال فاحم السواد.. فتنفست بعض الحرية.. وخطر لي أن مصيري ربما لا يكون أسوأ المصائر ولا أكثرها إثارة للكرب.

وإذ واصلت الخطي، تزاحمت في ذاكرتي ألوف الإشاعات والأحاديث عن الخرافات المفزعة التي يثرثرون بها عن (توليدو)..

لقد سمعت حكايات عما يحدث بداخل سجون (توليدو) أقل ما توصف به هو أنها ربما تقتلك من الفزع في لحظة لمجرد سماعها..!

كنت اعتقد أنها خرافات.. لكنها غريبة، رهيبة، لا يمكن أن أتكلم عنها إلا هامساً.. تري هل يجب أن أموت جوعاً في هذا العالم السفلي الأسود؟! وأي نهاية أكثر عذاباً تتهددني؟... أعرف أن النهاية هي الموت... الموت بأكثر الأساليب شفاعة وأكثر مرارة مما هو معروف.. وذلك ما لم أكن أشك في أن يصدره قُضاتي..

لم يكن الحكم بالموت هو ما يشغل بالي وقتها.. بل الطريقة التي سوف ينفذ بها!

وأثناء هيامي اصطدمت يداي الممتدتان بجسم بارد، صلب.. جداراً من الحجر كان، ناعماً، لزجاً، صلباً..

تبعته في حذر وهياب وبداخلي ريبة أوحت لي بها الروايات القديمة.. على أن ذلك لم يوفر لي ما أطمئن به على الأبعاد الحقيقية لحدود زنزانتي.. لا أعرف.. ربما كنت أطوف بجدرانها وأعود إلى حيث بدأت.. فقد كان الحائط متجانساً في كل مكان، وبحثت عن المدية التي كانت في جيبي حين قادوني إلى قاعة التحقيق، لكنني - بالطبع - لم أجدها، فقد استبدلت ثيابي كلها بثوب خشن.. فكرت في أن أنفذ سلاح مديتي في ثقب غير ظاهر من شقوق البناء أعتبره مبدأ طوافي..

إلا أن الأمر لم يكن صعباً إلى هذه الدرجة.. فقط اضطراب أعصابي جعله يكاد يكون مستحيلاً..مزقت جزءاً من الثوب الذي وجدته على بدني، ومددته بطوله على الحائط.. وبدأت في الزحف أشق طريقي حول زنزانتي.. فلن أعدم أن أجد مزقه الثوب حين أتم الدورة حول الحائط..

هكذا قررت..

إلا أنني لم أضع في اعتباري أبداً مساحة الزنزانة ولا وهني الظاهر..

كانت الأرض رطبة زلقة، فكدت أترنح في بداية سيري.. وبعد خطوتين تعثرت وسقطت على وجهي بالفعل..

وأغراني تعبي الشديد على أن أظل مطروحاً حيث وقعت على الأرض.. فأخذني النوم.. ورحت في سبات عميق...

وعندما استيقظت مددت أحدي ذراعي، فوجدت كسرة خبز ووعاء به ماء.. وكنت

في حالـة مـن التعـب والإعيـاء لم تكـن لتسـمح لي بـأي أفـكار سـوي أن آكل الخبـز وأجـرع المـاء في نهـم.. ثـم عـدت أواصـل رحلتـي الخرقـاء حـول زنزانتـي.. وبعـد جهـد جهيـد وصلـت إلى خرقـة الثـوب.. وهكـذا كانـت الرحلـة تسـتغرق مائـة خطـوة.. وأضفـت إليهـا خطوتـين إلى الفنـاء، فقـدرت أن محيـط الزنزانـة خمسـين يـاردة تقريبـاً..

وكنـت قـد قابلـت أثنـاء سـيري زوايـا كثـيرة في الجـدار، لم اسـتطع أن أخمـن شـكل القبـو.. أقـول قبـو.. لأننـي لم أسـتطع أن أغـير رأيـي في أنـه قبـو..

كان هـذا الطـواف بـلا معنـي أو هـدف في الواقـع.. ولم تكـن لي أيـة غايـة أو أمـل مـن هـذا الاستكشـاف.. إلا أن حـب الاسـتطلاع والفضـول رفعـاني إلى المـُضي.. فتركـت الجـدار مصمـماً عـلى أن أقطـع الزنزانـة بالعـرض..

وكـمان فعلـت في السـابق.. تقدمـت في حـذر شـديد وريبـة أشـد، فـالأرض وإن كانـت تبـدو صلبـة في البدايـة، إلا أن لزوجـة سـطحها كانـت تعطـي الإحسـاس بـأن خدعـة عـلى وشـك أن تحـدث..

وفي النهايـة اسـتجمعت شـجاعتي وبـدأت في أن أتقـدم بخطـى ثابتـة.. وحاولـت السـير في خـط مسـتقيم، وتقدمـت عـشر خطـوات أو اثنتـي عـشرة، حتـى تداخـل ذيـل ثـوبي الممـزق بـين قدمـي فوطأتـه أثنـاء سـيري، فـكان أن سـقطت عـلى وجهـي بعنـف.

شـعرت باضطـراب عظيـم، لم يجعلنـي أفكـر في توابـع هـذه السـقطة، فقـد حـدث أن التصـق وجهـي بـأرض السـجن.. بـل أعنـي ذقنـي هـو الـذي أسـتقر هنـاك، أمـا شـفتي وجبهتـي وأنفـي فكانـت مرتفعـة قليـلاً عـن سـطح الأرض..

وعـلى الرغـم مـن هـذا خيل التـي أن جبهتـي كانت تسـبح في بخار كثيـف.. وامتلأت خياشـيمي برائحـة الفطـر العفـن... ومـررت ذراعـي، فانتفضـت رعبـاً حـين تبينـت الحقيقـة المفزعـة.. لقـد وقعـت عـلى حافـة حفـرة مسـتديرة!!.. لم أعـرف محيطهـا، لكنـي حاولـت أن أتحسـس البنـاء مـن تحـت الحافـة.. أيضـاً حاولـت أن أخلـل منـه قطعـة مـا.. ولقـد نجحـت في هـذا!

اسـتطعت أن أخلـع قطعـة مـن مكانهـا.. وألقيـت بهـا داخـل الحفـرة.. وأرهفـت السـمع بضـع ثـوان إلى ذبذباتهـا وهـي تترنـح هاويـة في قـرار الحفـرة.. ثـم انتهـي بهـا المطـاف أن تسـقط في المـاء!.. وأختلـط صـوت صداهـا المرتفـع مـع صـوت آخـر كأن كـوة تفتـح في السـقف عـلى عجلـة.. ثـم توقـف الصـوت فجـأة.. ولمـع في سـواد وميـض خافـت سرعـان مـا تـلاشي.. ورأيـت في وضـوح المصـير الـذي كان ينتظـرني..

وشكرت الله على السقطة التي أنقذتني من موت محقق..

لو كنت تقدمت خطوة واحدة لما عرف العالم عن خبري شيئاً..

كان الموت الذي يتربص بي هو الذي أراه خرافة من التي تروي عن محاكم التفتيش، التي تسمح لضحايا طغيانها بالاختيار بين الموت البدني شنيع العذاب.. وبين الموت النفسي المروّع.. ويبدو أنني كنت أتعرض للنوع الثاني..!

لقد تهالكت كل قواي وتفتتت أعصابي تماماً من طول ما عانيت من عذاب.. وقد أصبحت حطاماً مجهزاً تماماً لما كان ينتظرني!.

وحاولت أن أتسند للعودة إلى الحائط مرة أخرى.. وكل طرف من أطرافي يرتجف.. وجسدي بالكامل يهتز.. لقد قررت أخيراً أن أموت جوار ذلك الجدار!

هذا – على كل حال – أفضل من السقوط في البئر التي يعلم الله وحده ما بها!

* * *

اعتقد أنني لو كنت أكثر شجاعة – من الناحية العقلية على الأقل – لوضعت حداً لكل هذا البؤس.. وذلك بأن ألقي بنفسي في هاوية من تلك الهاويات.. لكنني كنت أجبن الرجال في هذه الساعة..

عرفت من قراءاتي الكثير عن هذا البئر.. وعرفت أن الموت ليس هو أسوأ مصير ينتظرك فيه.. واضطربت روحي اضطراباً جعل عيني تظلان مفتوحتين لساعات طويلة دون أن يغمض لهما جفن.. وعندما استيقظت وجدتني في حالة سيئة من الإعياء وقررت أن المحيط ضعف ما كان عليه في المرة السابقة.. ومنعني اضطراب عقلي من ملاحظة أنني بدأت رحلتي من الجدار الأيسر وانتهيت منها بالحائط الأيمن..

ولقد خدعت أيضاً في هيئة السجن نفسها.. فقد وجدت – وأنا أتحسس طريقي – زوايا لا حصر لها.. واستنتجت من هذا أن الحجرة غير منتظمة الشكل..وكان تأثير الظلام شديداً عليّ وأنا أفيق من السبات العميق..

* * *

وإذ أمعنت النظر مرة أخرى في الزوايا الموجودة بين الجدران، فاكتشفت أنها ليست إلا كوات قليلة غير نافذة، على مسافات متباينة.. واكتشفت أن الزنزانة مربعة كما هو معتاد وما ظننت أنه بناء اتضح الآن أنه مكوّن من معدن ما ربما الحديد..

معدن في شكل ألواح ضخمة متراصة، وكانت المفاصل بينها هي التي تبدو كأنها كوات.. وكان السطح الحديدي لهذا السجن ملطخاً بصور لأدوات التعذيب التي تفتق عنها ذهن هؤلاء الرهبان وأفكارهم المذعورة.

أيضاً انتشرت صور لأشباح وعفاريت تهدد السجين وتتوعده بسوء العذاب!.. وكذلك

عـدد لا بـأس بـه مـن الهيـاكل العظميـة وغـير ذلـك مـن الصـور الرهيبـة.

ولاحظـت أن مظاهـر الوحشـية كانـت واضحـة بشـكل جيـد.. عـلى الرغـم مـن ألوانهـا الباهتـة المضطربـة، ويبـدو وأن ذلـك كان مـن أثـر الرطوبـة التـي شـملت المكان..ولاحظـت أيضـاً أن الأرض مـن الحجـر.. وفي وسـط أرضيـة الحجـرة كانـت هنـاك تلـك الهاويـة التـي كـدت أسـقط فيهـا.. وذلـك الجـب الـذي كـدت أقـضي فيـه نحبـي.. فاغـراً فـاه.. ولا يوجـد في الحجـرة سـواه..

* * *

كل ذلـك رأيتـه وأنـا في حالـة الإعيـاء التـي أصابتنـي.. وبجهـد جهيـد، فقـد تغـيرت حـواسي بالكامـل أثنـاء النـوم.. ورقـدت عـلى ظهـري، وتمـددت بطـولي كلـه عـلى مـا يشـبه إطـاراً منخفضـاً مـن الخشـب.. وربطـت نفسي إليـه بحبـل طويـل يشـبه سـير الحقيبـة، التـف في مواضـع كثـيرة حـول ذراعـي وسـاقي وجسـدي.. ولم يـترك شـيئاً خالصـاً إلا رأسي ويـدي اليـسرى أمدهـا كـما شـئت كي أصـل لطعامـي..

كان وعـاء المـاء قـد أختفـي.. وعـاء الطعـام اكتشـف أنـه مصنـوع مـن الطـين.. شـعرت برعـب وتقـزز.. وكان الظـمأ قـد اسـتبد بي اسـتبداداً لا يحتمـل.. يبـدو أن هـذا الظـمأ كان مدبـراً مـن قبـل خصومـي، لأن الطعـام الـذي وجدتـه في الانـاء كان عبـارة عـن لحـماً حريفـاً لاذعـاً!

* * *

تأملت سقف الزنزانة..

وكان عـلى ارتفـاع أربعـين قدمـاً عـلى الأقـل.. يشـبه الجـدران في مـادة بنائـه.. وقـد اسـترعى انتباهـي لـوح مـن الواحـه ثُبـتّ فيـه بشـكل غريـب للغايـة!!..

كانـت صـورة للمـوت كـما يصـوّر عـادة فيـما عـدا المنجـل.. وبـدلاً مـن المنجـل كان هنـاك بنـدول ضخـم كالـذي تـراه في السـاعات الأثريـة العتيقـة.. عـلى أن شـيئاً في شـكل تلـك الآلـة جعلنـي أمعـن النظـر فيهـا..

كان فوقي مباشرة وأنا أحملق فيه..

ولم تمض إلا برهة يسيرة حتى تحقق ما توقعته وكنت أظنه خيالاً..

كان البندول يتحرك!

ذبذبـة قصـيرة وبطيئـة جـداً، راقبتهـا عـدة دقائـق في خـوف ورعـب، وتعبـت مـن ملاحظـة حركتهـا البليـدة، فاسـتدرت بعينـي إلى مـا في الحجـرة بخـلاف ذلـك المشـهد المقبـض!

وجذب انتباهي صوت واهن، فنظرت إلى الأرض و.. ورأيت ما جعل قلبي يقفز في حلقي..

كان هنـاك عـددا مـن الفـئران يعربـد عـلى الأرض.. كانـت الفـئران تـأتي مـن الفتحـة في الأرض الموجـودة عـلى يمينـي.. كانـت تتقـدم في طوابـير مسرعـة بعيـون بـان فيهـا التوحـش تغريهـا رائحـة اللحـم في انـاء الطعـام.. وكان لابـد مـن جهـد يفـوق الوصـف حتـى تـولي الأدبـار عائـدة مـن الوجـل!

* * *

يبـدو أنـه قـد مـضي عـلى ذلـك نصـف سـاعة - أو ربمـا هـي سـاعة كاملـة، لا أدري بالتحديـد، قبـل أن أعـود بعينـي إلى السـقف..

وكان ما رأيته يوقف الدماء في العروق..

لقـد زاد اتسـاع ذبذبـة البنـدول بمـا يقـرب مـن مـتر.. وكان مـن نتيجـة ذلـك أن ازدادت سرعتـه.. لكـن مـا أزعجنـي فعـلاً هـو الاعتقـاد بأنـه قـد هبـط هبوطـاً اضطراريـا! ولاحظـت – في فـزع شـنيع – أن طرفـه الأسـفل كان عبـارة عـن هـلال مـن المعـدن المسـنون طولـه قـدم واحـده.. وأن حافتـه السـفلي عبـارة عـن حـد مـوسي لامـع!.. وكان يتعلـق بقضيـب مـن النحـاس.. والبنـدول بالكامـل يئـز أزيـزاً خافتـاً وهـو يتأرجـح في الهـواء..!

* * *

الآن لم يعـد لـدي أي شـك فيـما ينتظـرني مـن سـوء العـذاب!.. هـذا المصـير الـذي أعـده لي ذكاء زبانيـة الجحيـم في التعذيـب..

لقـد أصبحـت معرفتـي للهاويـة معلومـة قديمـة عنـد رجـال التفتيـش.. الهاويـة التـي كانـت مخاوفهـا مقـدرة لمـن كان في مثـل شـجاعتي..

الهاويـة التـي كانـت صـورة للجحيـم!.. الهاويـة التـي كانـوا يقولـون إنهـا أقـصي مـا تخيـل الرهبـان مـن أنـواع العـذاب!

أما وقد نجوت – بمحض الصدفة – من هذه الهاوية.. فلابد من نهاية أخرى!

فناء آخر.. أكثر بساطة!

وابتسمت متهكماً..

* * *

لا داعـي لأن أصـف لـك تلـك السـاعات الطويلـة مـن الفـزع الرهيـب التـي كنـت أعـد فيهـا التموجـات البطيئـة للنصـل المعـدني.. بوصـة بوصـة!.. إنهـا تهبـط.. تهبـط!.. في دقائـق كأنهـا دهـور.. ربمـا إنهـا أيـام قـد مضـت قبـل أن تهبـط لتحـط عـلى مقربـة مـن أنفـي.. ونفـذت رائحـة

الحديـد المسـنون إلى خياشـيمي..

أقلقـت السـماء بدعـائي وتضرعـي بـأن ينـزل النصـل الجـاد بسرعـة.. بسرعـة.. أصابنـي هلـع مجنـون.. وكافحـت محـاولاً رفـع النصـف العلـوي مـن جسـدي إلى حافـة النصـل البتّـار.. لم أقـدر.. فوقعـت سـاكناً في مـكاني..

وابتسمت للموت اللامع كما يتبسم الطفل أمام لعبة فريدة!

* * *

سقطت مغشياً عليّ..

كانـت فـترة قصـيرة جـداً.. وحـين اسـتعدت حـواسي لم يكـن ظاهـراً أن البنـدول قـد هبـط.. ولمـاذا لم تكـن فكـرة طويلـة جـداً؟

لم أعـد واثقـاً مـن قـدرتي عـلى معرفـة الوقـت ولا حتـى الإحسـاس بـه.. لكـن كنـت أعـرف إن عـدداً مـن الشـياطين كان يراقـب غشـيتي.. وأنهـم كان باسـتطاعتهم وقـف تأرجـح البنـدول متـى أرادوا هـذا.. وشـعرت حـين أفقـت بهـزال شـديد لا يوصـف.. ربمـا هـو بسـبب الجـوع.. ربمـا أنـسي وجـودي المـادي مـن جـراء هـذا العـذاب الشـديد.. لكـن طبيعتـي البشريـة لا زالـت تعـرف معنـي الحاجـة إلى الطعـام..

حاولـت أن أصـل إلى الإنـاء.. مـددت ذراعـي بأقـصى مـا أسـتطيع وبـكل مـا لـدي مـن قـوة بقيـت.. وبأقـصى مـا سـمحت بـه قيـودي..

وأخـذت تلـك الفضلـة الصغـيرة التـي تركتهـا الفـئران في الوعـاء.. ومـا إن وضعتهـا بـين شـفتي حتـى خطـر لي مـا جعـل قلبـي ينتعـش بالأمـل!

* * *

كانـت خاطـرة سـاذجة غـير واعيـة ماتـت في مهدهـا.. حاولـت عبثـاً أن أسـتعيدها.. ولكـن.. بـلا جـدوى.. قـضى طـول العـذاب والإرهـاق عـلى كل مـا بقـي مـن طاقـة في عقـلي.. فـصرت كالغبـي.. كالمعتـوه.. كالأحمق!

* * *

وكانـت ذبذبـة البنـدول تتحـرك بطـولي تمامـاً.. ورأيـت أن النصـل الهـلالي الشـكل كان مصممـاً بحيـث يمـر في موضـع القلـب تمامـاً!.

يلمـس نسـيج الثـوب.. يحـز فيـه مـرة بعـد مـرة.. ببـطء شـديد.. جعـل مـن هـذا الحديـد المسـنون القـادر عـلى أن يفتـت معـدن ذلـك البنـاء لا يفعـل أكـثر مـن أن يحـز في الثـوب لعـدة

دقائـق.. يـا للعـذاب!

توقفـت عـن التفكـير وتشـبثت في مـكاني.. كأن هـذا التشـبث كان كافيـاً لجعـل النصل المسـنون يتوقـف عـن الهبوط!

ورحـت أسـلي نفسي بالاسـتمتاع بصـوت النصـل الهـلالي وهـو يعـبر ثـوبي.. وحملـت نفـسي عـلى أن أنعـم النظـر في منظـر البنـدول وهـو يمـزق النسـيج الـذي يسـتر بـدني.. وإحسـاس غريـب ينبعـث مـن احتـكاك القـماش بالمعـدن إلى الأعصـاب.. وبقيـت عـلى هـذه الحالـة مـن الاسـتخفاف حتـى بـدأت أسـناني تصطـك!

* * *

وهبط النصل.. وهبط!

وسررت سروراً لا حـد لـه مـن مقارنـة هبوطـه بسرعـة وهـو يتذبـذب ذات اليمـين وذات اليسـار – صرخـة روح مجنونـة شـيطانية!.. إلى قلبـي في سرعـة نمـر متسـلل.. ورحـت أضحـك كالمجنـون مـن جـراء عـدة أفـكار صغـيرة سريعـة..!

واسـتمر النصـل يهبـط ببـطء.. كلـه يهبـط!.. بينـما أنـا أتـأوه وأنقـل عينـي مـع كل ذبذبـة.. وانقبـض وانفـرج مـع كل أرجحـة! وراحـت عينـاه تتابعـان حركـة النصـل المسـتوي بقنـوط شـديد.. وتتعلقـان بالهـلال المعنـي في تشـنج صامـت.. تخيلـت وقتهـا أن في المـوت راحـة كبـيرة مـن كل هـذا..

لكني لم أمت بعد..

وظللـت أرتعـد بـكل عصـب في جسـدي وأنـا أتصـور كيـف أن هبـوط هـذا النصـل وانغراسـه في صـدري هـو الأمـل الـذي كان يهـز قلبـي.. وهـو الـذي يقبـض كل كيـاني.. كان الأمـل.. الأمـل الـذي يفـوت كل شـعور آخـر.. هـو الـذي يهمـس إلى المحكـوم عليـه بالمـوت..

حتى في زنازين محاكم التفتيش!

* * *

ورأيـت أن عـشر ذبذبـات كافيـة لأن تحـدث الاحتـكاك المبـاشر بـين حافـة الهـلاك وثـوبي.. وبهـذه الملاحظـة طغـي عـلى روحـي سـكون رهيـب.. سـكون اليـأس هـو.. ولأول مـرة منـذ سـاعات طويلـة.. وربمـا أيـام.. رحُـت أفكـر.. فكـرت في أن القيـد الـذي كان يحزمنـي كان نـادراً مـن نوعـه.. فلـم يكـن حبـل واحـد يحيـط بي.. وأي ضربـه مـن النصـل المسـنون بعـرض أي جـزء مـن الربـاط لابـد أن تقطعـه بحيـث يمكـن رفعـة عـن بـدني بيـدي اليـسرى..

ولكن..

لو أخطأت لمسافة بسيطة فقد تكون النتيجة قاتلة!

.. هل أن إجرام هؤلاء الذين ابتكروا أدوات التعذيب فاته التدبير لمثل هذا؟..وهل من الممكن أن الرباط قد عبر صدري في طريق البندول.. وخشية أن يضيع آخر أمل لي وأضعفه.. رفعت رأسي قدر ما استطعت لأري مكان صدري.. كان الحزام يلف أطرافي وجسمي لفاً محكماً في كل مكان.. إلا في طريق النصل القاتل!..

وما كدت أعيد رأسي إلى سابق وضعه.. حتى لمع في ذهني ما لا يمكن أن أصفه إلا بأنه فكرة الخلاص العجيبة التي سبق أن أشرت إليها.. والتي هام بعضها في خيالي حين رفعت الطعام إلى شفتي الملتهبتين..

أما الآن..

لقد حضرت الفكرة كلها ضعيفة.. واهنة.. مشوشة..

لكنها كاملة..

وبدأت على الفور في حمي اليأس العنيف - أحاول تنفيذها!..

* * *

كان الإطار الذي أرقد عليه محاطاً بجيوش من الفئران لا حصر لها.. وكلها من النوع المتوحش.. كلها جائعة.. نهمة.. عيونها الحمراء تحملق في وجهي كأنما تنتظر هموداً من جانبي لتنقض بلا رحمة.. لتلتهمني..!

وخطر لي تساؤل:

أي طعام اعتادت عليه تلك الجرزان في البئر؟

واستطاعت - رغم جهدي العنيف لمنعها - أكل ما كان في الوعاء (إلا القليل).. كنت ألوح بيدي بصفة مستمرة أحاول أن أهش الفئران.. إلا أن انتظام حركة يدي جعلها تفقد تأثيرها.. وكانت الفئران من نهمها تطبق أسنانها الحادة أحياناً على أطراف أصابعي.. وبقطع الشحم التي بقيت دلكت الرباط حيثما استطعت.. ثم أنني قد رفعت يدي من على الأرض واستسلمت للسكون..

واحتارت الفئران الجائعة في أول الأمر لهذا التغير الطارئ.. فزعت منه.. فزعت من توقف الحركة.. وأسرع الكثير منها إلى البئر.. لكن ذلك كله إلى حين.. لم أحفل كثيراً بشراستها... ولاحظ فأر أو فأران جريئان أنني ساكن من أي حركة، فوثبا إلى الإطار الذي أرقد فوقه.. وراحا يتشممان الرباط..

وكانت هذه هي الإشارة لهجوم شامل.. اندفعت من البئر جيوش جديدة!

تعلقت الفئران بالخشب.. ووثب إلى صدري المئات منها.. لم تزعجها حركة البندول على الإطلاق..وتحاشت ضرباته، شاغله نفسها بالرباط المدهون بالشحم أو النذر اليسير منه.. وضغطت على جسدي أسرابها الهائلة..

كنت أختنق تحت جسدها الزاحف..

رحت أنفخ صدري..

وأصبر..

* * *

لم تمض إلا دقيقتان حتى شعرت بأن النتيجة قد تحققت.. ذلك أنني أحسست بالرباط يتسع.. وعرفت أنه لابد قد تقطع في أكثر من موضع.. وبقيت في مكاني صابراً.. إذ لم أخطيء في تقديري، ولم يكن انتظاري بلا معني.. فقد وجدتني حراً في آخر الأمر.. وتعلق الرباط ممزقاً بجسمي.. لكن ضربة البندول لامست صدري.. وقطعت ثوبي.. بل قطعت القميص من تحته..

وتذبذب مرتين.. واستولى على نفس الشعور بالرهبة في كل جوارحي.. لكن لحظة الخلاص قد دنت.. وخرجت من قبضة القيد بعيداً عن حد النصل المسنون.. وهكذا نجوت..

ولو للحظات.

* * *

نجوت!

وأنا في قبضة رجال التفتيش!

ما كدت أخطو بعيداً عن ذلك الإطار الخشبي الرهيب، على أرض السجن حتى توقفت حركة الآلة اللعينة.. ورأيتها ترتفع إلى السقف بفعل قوة خفيفة.. وكان هذا درساً وعيته يائساً في أعمق أعماق روحي.. لأن كل حركة من حركاتي كانت تحت المراقبة.. نجوت! إنما نجوت من أحد أشكال الموت وأنواعه الفظيعة.. لأتردى في نوع آخر أكثر فظاعة..!

وبهذه الفكرة درت بعيني في قلق مرة أخرى في تلك الحواجز المعدنية التي تحيط بي..

وهنا لاحظت شيئاً غريباً!

* * *

هناك تغير ما لم ألحظة في أول الأمر..

بقيت لدقائق في غموض غريب، أملاً في اليأس..

وللمرة الأولى في تلك الفترة أتبين أصل ذلك الضوء المتوهج الذي ومض في زنزانتي..

كان ينفذ من شق سعته نصف البوصة يمتد حول الزنزانة من أسفل الجدران التي بدت الآن منفصلة عن الأرض بشكل كلي..

وكانت كذلك فعلاً.. فحاولت عبثاً أن أطل من ذلك الشق..

وبدأت أفهم سر التغيير الذي طرأ على الغرفة وأنا أنهض من محاولتي، إلا أن الألوان كانت باهتة غائمة.. أما الآن.. فإن الألوان قد صارت تومض بلمعان شديد يخلع على تلك المشاهد اللعينة منظراً يهز أقوي الأعصاب وأكثرها ثباتاً.. كانت عيون الجن تحملق في وجهي ببريق شرس متوحش يثير الهلع... من كل الجهات.. وليس من وراء هذه العيون أحد.. تضيء بضوء نار ضارية لم أستطع أن أحمل خيالي على أنه لا حقيقة لوجوده!

* * *

لا حقيقة له!

عندما كنت أتنفس كانت تصل إلى خياشيمي رائحة بخار حديد ينصهر.. رائحة خانقة تنتشر في الزنزانة.. تجتاح السجن.. وميض عميق نافذ يحط كل لحظة في العيون التي كانت تحملق في عذابي!.. انتشر لون أحمر قاتم على صور الدم المفزعة اللعينة.. توقف قلبي للحظة!.. سحبت أنفاساً ثقيلة واهنة.. إن نية هؤلاء القائمين على تعذيبي واضحة لا شك فيها.. يا لهم من مجرمين!!.. مصاصي الدم الملاعين!.. تراجعت من الحديد المذاب إلى وسط الزنزانة.

وفي معمعان تفكيري في الموت محروقاً، خطرت لي فكرة باردة كالبلسم.. أسرعت إلى حافة الهاوية وألقيت نظرة قلقة إلى جوفها.. كان الوهج المنبعث من السقف قد أضاء جوانبها.. ظلت روحي للحظات ترفض أن تفهم ما أراه.. ولكنه شق طريقة إلى عقلي المضطرب في آخر الأمر..

يا إلهي..

ماذا أقول؟

أي رعب!!

أي رعب غير هذا هين بسيط!

وصرخت صرخة مدوية من الأعماق.. وتراجعت بعيداً عن حافة الهاوية..

دفنت وجهي في يديّ واستسلمت لبكاء مر حار..

اشتدت الحرارة بسرعة.. وتطلعت إلى السقف أرجف من الألم..

كان قد حدث تغير واضح في الحجرة.. في شكلها هذه المرة.. وكما حدث في المرة السابقة، حاولت عبثاً أن أقدر أو أتفهم معني ما حدث من تغيير.. إلا أن شكوكي لم تطل.. فانتقام رجال التفتيش قد أشتد وتضاعف نتيجة نجاتي في المرتين السابقتين.. ولم يعد لي مجال لمقاومة زبانية الجحيم..

كانت الحجرة مربعة الشكل.. أما الآن فقد لاحظت أن زاويتين من زواياها حادتان.. وزاويتان منفرجتان.. فراح الفرق يزيد في سرعة وبصوت منخفض كأنه الأنين.. وفي لحظة تحولت الحجرة إلى ما يشبه شكل المعين..

على أن التغير لم يقف عند هذا الحد.. ولم أكن أود مل أن يقف.. ولا أريده أن يقف..!

وكنت أستطيع أن أضم الجدران المنصهرة إلى صدري فأحقق لنفسي سلاماً إلى الأبد.. وقلت لنفسي: إن الموت.. أي موت.. أبسط وأسهل من التردي في الهاوية! يا للحمق! ألم أكن أعرف أن ما في الجُب ما يغريني على الخلاص من النار المشتعلة؟.. هل أستطيع أن أقاوم وهجها؟ وحتى إن استطعت، فهل أقدر على تحمل ضغطها؟..

وفجأة..

راحت الجدران تضيق وتضيق.. بسرعة لم تدع لي مجالاً للتأمل.. وأخذ وسطه – وهو أوسع مكان فيه – يطبق على الهوة الفارغة.. وتراجعت.. إلا أن جدرانه أغلقت عليّ ودفعتني للأمام.. ولم يعد أمام جسمي الذي يتلوى ما يزيد على بوصة واحدة أتشبث فيها بقدمي بأرض الغرفة.. لم أعد قادراً على مقاومة أخرى..

ووجد عذاب روحي متنفساً له في حشرجة طويلة عالية أخيرة، بشكل اليأس الذي في أعماقي.. أحسست بعدها أنني قد ترديت في الهاوية..وأغمضت عيني.. كانت هناك همهمة أصوات آدمية متناثرة هنا وهناك.. وكانت هناك دقات طبول كثيرة عالية.. صرير رعود خارقة..

تراجعت الجدران الملتهبة.. امتدت ذراع لتمسك بذراعي وأنا أهوي.. كانت ذراع الجنرال (لاسال)..

لقد دخل الجيش الفرنسي مدينة (كوليدو).. ووقع رجال التفتيش في قبضة أعدائهم!!

كتاب حياتي
سيرجيو كارتيوزوني

العنوان

كان يا ما كان، وأنا عائد من المدينة ذات ليلة إلى إنچينيونوفو، في قطار البرازيل العمومي، وتصادف أن التقيت بشاب من الجوار كان بيني وبينه تعارف عابر في حدود انحناءة التحية، تكلّم وجلس إلى جانبي ثم أنه تحدَّث عن القمر والحكومة وانتهى بقراءة بعض الأشعار عليّ. أحمد الله أن الرحلة كانت قصيرة، ولعل الأشعار لم تكن رديئة تماما. مع ذلك -لأنني كنت متعبا- حدث أن أغمضت عيني ثلاث أو أربع مرات - كان ذلك كافيا لجعله يتوقف عن القراءة ويعيد الأشعار إلى جيبه.

قلت وأنا أوقظ نفسي: لا، لا، استمر.

غمغم الشاب: لقد انتهيت.

-أشعارك رائعة جدا! ورأيته يأتي بحركة لإخراجها من جيبه مرة أخرى، لكنها لم تتجاوز مجرد كلمة، كان يشعر بالحنق. في اليوم التالي قال بعض الأشياء البشعة عني ومنحنى لقب (دون كازمورُّو) المكان، أحبه الجيران الذين لا يطيقون طبعي الصموت المتحفظ والشبيه بطبع الرهبان، تلقفوا اللقب فالتصق، أغضبني هذا جدا، رويت القصة لأصدقائي في المدينة، وبه ينادون علي ويكتبون إليّ، متهكمين: (دون كازمورو، سآتي لأتغدى معك يوم الأحد)، (سأذهب إلى مكاني القديم في بتروپوليس يا دون كازمورُّو، فكّر فيما إذا كان بوسعك أن تنتزع نفسك من ذلك الكهف في إنچنيونوفو وتأتي لقضاء أسبوعين معي)، (عزيزي دون كازمورُّو لا تتخيل أنك ستفلت من حفلي المسرحي مساء غد، يمكنك أن تبقى حتى صباح اليوم التالي في المدينة، أعدك بمقصورة في المسرح، وشاي، وسرير، الشيء الوحيد الذي لا أعدك به..بنت!

لا تبحث في القواميس، إنهم لا يستخدمون كازمورُّو هنا بالمعنى الذي تذكره قواميسك لهذه الكلمة، بل المعنى الذي يستخدمها به رجل الشارع: شخص متجهم صموت منسحب إلى داخل نفسه كأنه يعيش في قوقعة، أما كلمة دون فكانت للتهكم لي إلا؛ لإضفاء طابع أرستقراطي عليّ. كل هذا لأن النعاس يغلبني! حسنا، لم أجد عنوانا أفضل لقصتي؛ وإذا لم يظهر عنوان أفضل فيما بعد فليبق العنوان كما هو! سيعرف شاعري الذي التقيت به في القطار أنني لا أحمل له ضغينة، وسيكون قادرا، بقليل من الجهد، مادام العنوان عنوانه، على أن يقرر أن هذا الكتاب كتابه، هناك كتب لا تدين بأكثر من ذلك لمؤلفيها؛ أقول

بعضها!

الكتاب

الآن بعد أن أوضحت لك المقصود بالعنوان، سأنتقل إلى الكتاب ذاته. فقط اسمحوا لي أولا أن أدقّق في الدوافع التي وضعت قلما في يدي. إذا أردت أن تعرف، أنا أعيش وحدي، مع خادم واحد، أملك المنزل الذي أقيم فيه وكنت قد بنيته في الأساس لإشباع رغبة شخصية جدا يخجلني أن أخطها على الورق -لكن لنتوكل على الله. ذات يوم، منذ عدة أعوام، قررت أن أبنى في إنچينونوفو نسخة طبق الأصل من البيت الذي تربيت فيه في شارع ماتاكافيوس القديم. لذلك كان على البيت الجديد أن كون له نفس المظهر والتصميم اللذين كانا للبيت الأخر، الذي كان قد اندثر. فهم البنّاء والنقاش توجيهاتي. إنه نفس المبنى المرتفع؛ بثلاث نوافذ في الواجهة، وشرفة في الخلف، ونفس الحجرات فوق وتحت، في حجرة الجلوس، زخرفة السقف والجدران متماثلة إلى درجة كبيرة وهي تيجان من الزهور الصغيرة جدا تستقر، على مسافات، من مناقير طيور بدينة، في أركان السقف، ترمز للفصول الأربعة، في وسط الجدران منحوتات بارزة لقيصر، وأغسطس، ونيرون، وماسينيسا، وتحتهم أسماؤهم.... ولا أذكر في الحقيقة السبب وراء اختيار هذه الشخصيات بعينها. عندما انتقلنا إلى بيت ماتاكافيوس كان مزخرفا بها فعلا؛ كانت تلك الرسوم من العهد البائد. ربما كان من ذوق ذلك الزمن إضافة سمة كلاسيكية وشخصيات قديمة إلى التهاويل الأمريكية، وباقي المكان في نفس الجو. عندي عزبة صغيرة، وحديقة خضروات، وشجرة جازوارينا، وبركة حول البئر، وصابون للغسيل، وأنا أستعمل الصينى العتيق والأثاث القديم. والآن، كما كان فيما مضى، هناك نفس الاختلاف الصارخ بين الحياة داخل البيت - وهى ناعمة ودود، والحياة خارج البيت - وهى مليئة بالضوضاء مزعجة.

مبتغاي هو أن أوصل طرفي حياتي ببعضهما، لأستعيد عهد الصبا في سن الشيخوخة. حسنا، يا سيدي، لقد فشلت في استجماع ما كان ولا ما كنته. إذا كان الوجه هو نفس الوجه فالتعبير مختلف. لو اقتصر الموضوع على أن يكون الآخرون فقط هم المفقودين، لكان الأمر أهون. الإنسان يتعزى إلى هذا الحد أو ذاك في أولئك الذين فقدهم، لكنني أنا نفسي مفقود. هذا النقص جوهري. الوضعية التي لدينا هنا أقرب إلى صبغة على الشعر أو اللحية؛ إنها تحافظ بالكاد على المظهر الخارجي، كما يقولون في تشريح الجثث؛ أما البنية الداخلية فلن تتأثر بالصبغة بتاتا. يمكن لشهادة تقرر أنني في العشرين من عمري أن تخدع غريبا، كأي مستند مزور، لكنها هيهات أن تخدعني. الأصدقاء الذين تركتهم تاريخهم معي قريب، أما الأصدقاء القدامى فقد ذهبوا جميعا ليدرسوا چيولوچيا التربة المقدسة. فيما يتعلق بصديقاتي من الجنس الناعم، يرجع بعضهن إلى خمس عشرة سنة مضت، وأخريات إلى اقل

مـن ذلـك، وكلهـن تقريبـا يعتقـدن أنهـن شـابات، يمكـن لاثنـين أو ثـلاث منهـن جعـل الآخريـن يعتقـدون ذلـك، لكـن اللغـة التـي يسـتخدمونها تجـبر المـرء في كثـير مـن الأحيـان عـلى البحـث في قامـوس، ومثـل هـذا التعامـل يسـبب الإجهـاد الشـديد.

بيـد أنـه لا تعنـى حيـاة مختلفـة حيـاة أسـوأ؛ إنـه ليـس نفـس الـشيء تمامـا. تلـك الحيـاة القديمـة تبـدو الآن – مـن بعـض الزوايـا- مجـردة مـن كثـير مـن السـحر الـذي كنـت أجـده فيهـا؛ لكنهـا فقـدت أيضـا الكثـير مـن الشـوك الـذي كان يجعلهـا مؤلمـة، وأنـا احتفـظ في ذاكـرتي ببعـض الذكريـات الحلـوة والسـاحرة. والآن، أخـرج قليـلا؛ وأتحـادث مـع النـاس نـادرا. اللهـو النـادر، الجانـب الأكـبر مـن وقتـي أقضيـه في العمـل في الحديقـة وفي القـراءة. آكل جيـدا ونومـي ليـس سـيئا أبـدا. لكـن،لأن كل شيء يصيبنـي بالملـل، فهـذه الرتابـة أيضـا أضنتنـي.

في نهايـة الأمـر داهمتنـي رغبـة في التغيـير، مـاذا لـو ألفـت كتابـا؟ القانـون، والفلسـفة، والسياسـة، اقترحـت نفسـها عـليّ؛ لكنهـا لم تجلـب معهـا الحـماس الـلازم. عندئـذ فكـرت في وضـع كتـاب عـن تاريـخ الضواحـي، تاريـخ أقـل جفافـا مـن مذكـرات الأب لويـس جونزالفيـس دوس سـانتوس عـن مدينتنـا! سـيكون عمـلا متواضعـا، لكنـه سـيحتاج إلى وثائـق وتواريـخ كإجـراءات تمهيديـة – مهمـة بطيئـة طويلـة نوعـا. عندئـذ فقـط كلمتنـي التماثيـل النصفيـة المنقوشـة عـلى الجـدران وقالـت أنـه مادامـت هـي أخفقـت في إرجـاع الأيـام الخـوالي، يتوجـب عـلي أن امسـك بقلمـي وأروى قصـة تلـك الأزمـان. وربمـا اسـتطاع ممارسـة السـرد أن يسـتدعى الوهـم لي، فتـأتي الأطيـاف تخطـو تهفـو متواليـة، كـما فعلـت مـع الشـاعر، ليـس شـاعر القطـار بـل شـاعر فاوسـت: هـا هـي ذي، هـل جئـت مـرة أخـرى أيتهـا الأرواح الهائمـة؟

كنـت أطـير فرحـا بفكـرة أن القلـم لا يـزال يرتعـش في يـدي. نعـم يـا نـيرون، نعـم يـا أغسـطس، نعـم يـا ماسينيسـا، وأنـت أيهـا القيـصر العظيـم، أنتـم يـا مـن تحثوننـي عـلى تأليـف مذكـراتي، أشـكركم عـلى نصيحتكـم، وسـأضع عـلى الـورق الذكريـات التـي تـأتي متزاحمـة متدافعـة. بهـذه الطريقـة سـأعيش مـا كنـت عشـته، وسـأقوي يـدي في سـبيل عمـل الغايـة الأهـم، فلنبـدأ إذن نفـخ الحيـاة في المـاضي بأصيـل جديـر بالذكـر في توفمـبر، أصيـل لم يغـادر الذاكـرة قـط. كانـت لي أوقـات أخـرى أفضـل، وأسـوأ، لكـن ذلـك الأصيـل لم يتـلاش أبـدا مـن روحـي.

لا تبحث في القواميس
سيرجيو كارتيونزوني

-1-

كنت على وشك الدخول عندما سمعتهم يذكرون اسمي فاختبأت وراء الباب. كان ذلك في بيتنا القديم بشارع ماتاكافيوس، الشهر هو نوفمبر، والسنة - السنة مسألة تافهة قديمة، لكنني لست بالشخص الذي يغير تواريخ حياته لمجرد إرضاء أولئك الذين لا يحبون القصص القديمة - كانت السنة1857.

-دونا جلوريا، هل عقدت العزم أخيرا على إلحاق عزيزنا بنتينيو بالمعهد الديني؟ لقد آن الأوان، وحتى الآن ربما كانت بعض العسر.

-أي عسر؟

-صعوبة كبيرة في الواقع.

كانت أمي تريد أن تعرف ما هي المشكلة بالضبط. بعد لحظات من التردد، أتى چوزيه دياس ليرى ما إذا كان هناك أحد في الصالة؛ لم يشعر بوجودي فعاد ليقول، بصوت خفيض، أن العسر كامن في البيت المجاور، أسرة پادوا تحديدا.

-أسرة بادوا؟

-كنت أريد أن أقول هذا منذ زمن، لكن لم تكن عندي الشجاعة اللازمة، لا يبدو لي أنه من صواب الرأي لعزيزنا بنتينيو أن يختبيء دائما في الأركان مع ابنة ظهر السلحفاة العجوز، وهذه هي الصعوبة، لأنه إذا حدث وانطلقا في ممارسة الحب سيكون عليك أن تخوضي بنفسك صراعا لفصلهما عن بعض.

-أوه، لا! الاختباء في الأركان؟

-هذه طريقة في الكلام، يتهامسان سرا، دائما معا، دائما تقريبا لا يغادر بنتينيو ذلك المكان، البنت حمقاء طائشة، أبوها يتظاهر بأنه فقد البصر؛ وهو يود أن تمضى الأمور إلى أبعد حد بأسرع ما يكون... أنا أفهم إشارتك؛ أنت لا تعتقدين أن هناك أشخاصا ماكرين إلى هذا الحد، أنت تظنين أن كل شخص ذو طبيعة صريحة، وواضحة ومفهومة.

-لكنني، يا سنيور چوزيه دياس، رأيت الصغيرين يلعبان، لم أر مطلقا شيئا يجعل المرء يقع في أي سوء تفاهم من أي نوع أو يسيء الظن – عمرهما فقط – بنتينيو في الخامسة

عشرة بالكاد. كابيتو كان عيد ميلادها الرابع عشر في الأسبوع الماضي. إنهما بعد طفلان.لا تنس أنهما تربيا معا، من أيام الفيضان الكبير منذ عشر سنوات، عندما فقدت أسرة پدوا الكثير جدا؛ ذلك ما أدى إلى بداية صلتنا الحميمة، أم ينبغي أن أفكر في...؟ أخي كوزمو، ما رأيك؟

هتف الخال كوزمو: أوه! والذي كان يعنى، مترجما إلى لغة الشارع الدارجة: يا لخيال چوزيه دياس الخصب! الصغيران يسليان نفسهما! وأنا أسلي نفسي! أين الطاولة؟

-نعم، أعتقد أنه قد جانبك الصواب يا سنيور.

-ربما. أرجو من الله أن يكون الحق إلى جانبك؛ لكنني، بمنتهى الأمانة، لم أتكلم إلا بعد الكثير من الملاحظة الدقيقة.

قاطعته أمي: على أي حال، لقد أزفت الآزفة، ويجب أن أتدبر إلحاقه بالمعهد الديني بأسرع ما يمكن.

-حسنا، إذا كنت لم تتخلي بعد عن فكرة جعله قسيسا، هذه هي المسألة الأهم. بنتينيو مُلزم بأن يُطيع رغبات أمه. كما أن الكنيسة البرازيلية سيكون لها بالتالي مستقبل مُشرِّف. لا ينبغي أبدا أن ننسى أن أسقفا تولى رئاسة الجمعية التأسيسية، وأن الأب فيچو حكم الإمبراطورية نفسها.

-حَكَم بكل غباوة! قاطع الخال كوزمو، مفسحا المجال للأحقاد السياسية القديمة.

-معذرة يا دكتور، أنا لا أدافع عن أحد، أنا فقط أستشهد بأمثلة من أرض الواقع. ما أريد قوله هو أن رجال الدين لا يزال لهم دور كبير في البرازيل.

-ما تريده حقا هو أن أغلبك في الطاولة؛ بالنسبة للولد، إذا كان لابد له من أن يصبح قسيسا، فمن الأفضل له طبعا أن يبدأ تلاوة القداس وراء الأبواب. لكن أنظري يا أختي، هل من الضروري حقا جعله قسيسا؟

-إنه نذر؛ يجب الوفاء به!

-أنا أعرف انك نذرت نذرا.. لكن نذرا كهذا.. لا أدرى.. أعتقد أنه، عندما يفكر المرء فيه.. ما رأيك، يا ابنة العم چوستينا؟

-أنا؟

-الحقيقة أن كل شخص يعرف أفضل فيما يخصه، الرب وحده هو الذي يعرف ما هو الأفضل للجميع. بيد أنه، هناك نذر قديم، نذر منذ سنين طويلة مضت... لكن ما هذا، يا أختي جلوريا؟ أنت تبكين! يا الله، والآن، هل هذا شيء يستحق أن نبكى من أجله؟

نشـقت أمـي الدمـع مـن أنفهـا دون أن تجيـب. وأعتقـد أن ابنـة العـم چوسـتينا نهضـت وذهبـت إليهـا. أعقـب ذلـك صمـت عميـق كنـت أتحـرق خلالـه شـوقا إلى دخـول الحجـرة؛ لكـن قـوة كـبرى أخـرى، عاطفـة أخـرى صدمتنـي... لم أسـتطع أن اسـمع مـا كان يقولـه الخـال كوزمـو. كانـت ابنـة العـم چوسـتينا تقـف أمـام أمـي، وكان جوزيـه ديـاس يأسـف ويعتـذر:

-ابنـة العـم جلوريـا! ابنـة العـم جلوريـا! لـو كنـت أعـرف، مـا كنـت تكلمـت، لكننـي تكلمـت بدافـع مـن عميـق احترامـي، وكل تقديـري، بسـبب عاطفتـي الجيّاشـة، أن أقـوم بواجـب مقيـت لا أطيقـه!

-2-

كان چوزيـه ديـاس يحـب صيـغ التفضيـل دائمـا. وكان ذلـك وسـيلة لإضفـاء سـمة الأهميـة عـلى أفـكاره؛ وعندمـا لم تكـن عنـده أفـكار، كان ذلـك يسـاعده عـلى إطالـة عباراتـه. ذهـب لإحضـار الطاولـة، التـي كانـت في جانـب أخـر مـن البيـت، بينـما التصقـت بالحائـط أراقبـه وهـو يسـير متجـاوزا مـكاني بسروالـه الأبيـض المنـشى الـذي كان مشـدودا تحـت الحـذاء، وچاكيتـة القطـن، وربطـة العنـق اللامعـة. كان واحـدا مـن آخـر مـن يلبسـون مثـل هـذه البنطلونـات في نواحـي ريـو دى چانـيرو، وربمـا في العـالم أجمـع.

كان يلبـس سروالـه قصـيرا إلى حـد أنـه كان مشـدودا جـدا. كانـت ربطـة العنـق السـاتان الأسـود، بالزنـبرك المصنـوع مـن الصلـب داخلهـا، تشـل حركـة عنقـه؛ هكـذا كانـت الموضـة. أمـا الجاكيـت البسـيط المصنـوع مـن القطـن المطبـوع فـكان يبـدو عليـه أشـبه بسـترة كاملـة. كان نحيـلا، ممطوطـا، وكانـت لـه صلعـة لا بـأس بهـا. كان يمـشى بخطوتـه البطيئـة المعتـادة؛ ليسـت البطيئـة المتلكئـة لشـخص كسـول، بـل كان بطئـا محسـوبا، مدروسـا؛ قيـاس منطقـي كامـل، المقدمـة الكـبرى قبـل الصغـرى، المقدمـة الصغـرى قبـل نتيجـة القيـاس. إنـه الواجـب المقيـت.

لم تكـن خطوتـه بطيئـة ثابتـة عـلى الـدوام. بـل كان في بعـض الأوقـات يفسـح المجـال لحـركات مثـيرة، وكان في كثـير مـن الأحيـان رشـيقا ومرحـا في تنقلاتـه، طبيعيـا في هـذا الأسـلوب تمامـا كـما في الآخـر. وكان يضحـك بصـوت مرتفـع، إذا لـزم الأمـر، ضحكـة ضخمـة جوفـاء، لكـن مُعديـة لدرجـة يبـدو معهـا أن الخديـن، والأسـنان، والعينـين، والوجـه كلـه، والشـخص ذاتـه، والعـالم بأكملـه، تضحـك جميعـا فيـه في المواقـف الخطـيرة، الأكـثر خطـورة، والأخطـر.

كان تابعـا لنـا لأعـوام عديـدة. كان أبي لا يـزال في المزرعـة القديمـة بإتاجـواي، وكنـت مولـودا منـذ فـترة قصـيرة جـدا.وذات يـوم ظهـر هو،وقـدم نفسـه بوصفـه طبيـب جرعـات السـم المتصاعـدة؛ وكان يحمـل مرجعـا موجـزا وحقيبـة أدويـة. تصـادف انتشـار وبـاء مـن الحميـات في ذلـك الحـين؛ فعالـج جوزيـه ديـاس ملاحـظ المزرعـة وخادمـة مـن العبيـد، لكنـه لم يكـن ليقبـل مكافـأة، اقـترح

أبي أن يبقى الرجل معنا، في المزرعة، بأجر صغير. لكن چوزيه دياس رفض بدعوى أن واجبه يحتم عليه أن يعيد الصحة إلى أكواخ القش التي يعيش فيها الفقراء.

-نحن لا نمنعك من الذهاب إلى أي مكان؟ اذهب إلى حيث تشاء، لكن عش معنا.

-سأعود في غضون ثلاثة أشهر.

لكنه عاد في بحر أسبوعين. رضي بالمأكل والمسكن بدون أجور إضافية، باستثناء ما كانوا يعطون له كهدايا. عندما انتخب أبي نائبا وجاء إلى ريو دي چانيرو ومعه أسرته، جاء هو أيضا، واتخذ لنفسه حجرة في الجزء الخلفي من العزبة.

وذات مرة عندما أخذت الحمى تتفشى من جديد في ربوع إتاجواي طلب منه أبي أن يذهب لرعاية عبيدنا. صمت چوزيه دياس، وتنهد وفي النهاية أقر بأنه ليس طبيبا.

كان قد انتحل لقب دكتور ليساعد على انتشار نظريات المدرسة الجديدة، هو لم يفعل ذلك دون قدر كبير من الدراسة؛ لكن ضميره لم يسمح له بعد ذلك بقبول مرضى.

-لكنك شفيت الآخرين.

-ربما كان ذلك؛ لكنه إحقاقا للحق لابد أن ننسب الفضل إلى الأدوية الموصوفة في الكتب. هي التي قامت بالعلاج؛ نعم، هي بعد يد الله. كنت مشعوذا... لا تنكر ذلك. ربما كانت دوافعي أسمى ما تكون؛ العلاج بالجرعات المتدرجة هي الحقيقة؛ ولأخدم الحقيقة كذبت؛ لكن آن الأوان لوضع النقاط على الحروف.

لم يُستجب له؛ فلم يُطرد. لم يعد أبي قادرا على أن يمضى في الحياة بدونه، كانت لديه موهبة أن يجعل نفسه موضع الترحيب ولا غنى عنه؛ كنا نشعر بغياب فرد من أفراد الأسرة. عندما مات أبي، كان حزنه هائلا، هذا ما قيل لي، فأنا لا أتذكر. كانت أمي ممتنة للغاية، ولم تكن تود أن تسمع عن مغادرته لحجرته التي في العزبة. في اليوم السابع بعد القداس، ذهب ليستأذنها في الرحيل.

-لا ترحل، ياچوزيه دياس.

-فقط إذا كانت هذه رغبتك، يا سنيوره.

ثم أنه تلقَّى ميراثا صغيرا في الوصية، ورقة مالية من الدرجة الأولى وأربع كلمات إطراء. نسخ كلمات الإطراء، وعمل لها بروازا، وعلقها في حجرته، فوق سريره. واعتاد أن يردد: هذه أفضل سندات مالية ممتازة، مع الوقت، اكتسب سلطة نافذة في الأسرة، كان يُصغى إليه على الأقل. لم يكن يستغل ذلك؛ كان يعرف كيف يبدى رأيه ثم ينزل عند رغبة الغير.

بالمختصر المفيد، كان صديقا، لن أقول الصديق الأفضل، لكن ليس كل شيء هو الأفضل في

هـذا العـالم. ولا تتصـوَّر أنـه كان لـه روح شـخص متملـق، كان انحنـاؤه وخضوعـه محسـوبين أكـثر منهـما طبيعيـين. وكانـت ملابسـه تبقـى إلى الأبـد. بخـلاف أولئـك الذيـن يمزقـون بدلـة جديـدة مـن أول مـرة يلبسـونها فيهـا، كان يلبـس البدلـة القديمـة منظفـة بالفرشـاة، خاليـة مـن التجاعيـد، ملسـاء البطانـة، مـزررة بعنايـة، بأناقـة بائسـة ومتواضعـة. كان يقـرأ، بـلا اهتـمام، لكـن بمـا يكفـى ليكـون مسـليا في سـهرة أو أثنـاء تنـاول المرطبـات، أو ليفـسر إحـدى الظواهـر، أو ليتكلـم عـن تأثـيرات الحـر والـبرد، أو عـن القطبـين الشـمالي والجنـوبي أو عـن روبسـبير. وكثـيرا مـا حـكى عـن رحلـة كان قـام بهـا إلى أوروبـا، واعـترف بأنـه لولانـا نحـن لـكان عـاد إلى هنـاك منـذ وقـت طويـل؛ كان لـه أصدقـاء في لشـبونة، لكـن أسرتنـا، عـلى حـد قولـه، هـي تحـت عنايـة الـرب مبـاشرة، كل شيء.

سأل الخال كوزمو ذات يوم: تحت أم فوق؟

-تحـت، كـرر چوزيـه ديـاس بصـوت متهـدج. سـعدت أمـي، وكانـت متدينـة، بـأن تـرى أنـه وضـع الـرب في المـكان الصحيـح. ابتسـمت بامتنـان. شـكرها چوزيـه ديـاس بانحنـاءة رأس. اعتـادت أمـي أن تعطيـه مبالـغ صغـيرة مـن النقـود مـن حـين إلى آخـر. وعهـد إليـه الخـال كوزمـو، وكان محاميـا، بنسـخ الأوراق القانونيـة.

-3-

عـاش خـالي كوزمـو مـع أمـي منـذ اللحظـة التـي صـارت فيهـا أرملـة. هـو نفسـه ترمَّـل في تلـك الفـترة، شـأنه في ذلـك شـأن ابنـة العـم چوسـتينا؛ كان البيـت بيـت المترملـين الثلاثـة. في كثـير مـن الأحيـان، تغـير المصادفـة نوايـا الطبيعـة. والخـال كوزمـو، الـذي نشـأ عـلى الوظائـف الرأسـمالية المريحـة، لم يصبـح غنيـا في قاعـات المحاكـم، كـوَّن فقـط مصـدرا للـرزق. كان لديـه مكتـب في شـارع فيـولا القديـم، بجـوار دار القضـاء، التـي كانـت في سـجن الچـوبى المهجـور، كان متخصصـا في القانـون الجنـائي، ولم تفـت جوزيـه ديـاس قـط مرافعـات الخـال كوزمـو أمـام المحلفـين. بـل كان هـو الـذي يعاونـه في ارتـداء وخلـع روب المرافعـات، ويغرقـه بكثـير مـن كلـمات الإطـراء وهـما يغـادران قاعـة المحكمـة، وفي البيـت كان يصـف المناقشـات.

عـلى أن الخـال كوزمـو لم يتحمّـل أكـثر، رغـم كل محاولاتـه لأن يبـدو متواضعـا، فلـم يسـتطع منـع نفسـه مـن الابتسـام قليـلا. كان رجـلا سـمينا، ثقيـل الأنفـاس، ضيـق الصـدر، بليـد العينـين. واحـدة مـن أقـدم ذكرياتـه كانـت مراقبتـه وهـو يمتطـي، كل صبـاح، الفـرس التـي أعطتهـا لـه أمـي والتـي كانـت تحملـه إلى مكتبـه. العبـد الـذي أحـضر الدابـة مـن الحظـيرة كان يمسـك اللجـام بينـما رفـع هـو قدمـه ووضعهـا في الـركاب؛ أعقـب ذلـك دقيقـة مـن الراحـة أو التفكـير. ثـم قفـز قفـزة، الأولى؛ وعـد جسـمه بالصعـود لكنـه لم يفعـل؛ ثـم قفـز ثانيـة، بنفـس النتيجـة. وأخـيرا بعـد

لحظات عديدة كالدهر مضت، استجمع الخال كوزمو كل قواه، الجسمانية والمعنوية، وقفز قفزة أخيرة من الأرض وفى هذه المرة هبط على السرج، وكان من النادر أن تمتنع الركوبة عن أن تبين بحركة من حركاتها أنها تلقت الجرم الهائل في التو واللحظة. عدّل الخال كوزمو وضعية مؤخرت، وانطلقت الدابة تعدو لا تلوي على شيء.

لم أنس أيضا ما فعله بي ذات أصيل. مع أنني ابن الريف (تركته عندما كنت في الثانية) ورغم عادات ذلك الزمن، لم أكن أعرف كيف أركب، وكنت خائفا من الفرس. أمسك بي الخال كوزمو ذات يوم، وكنت في التاسعة، وقذف بي منفرج الساقين على صهوة الدابة. عندما رأيت نفسي فوق، وحيدا ومهجورا، بدأت أصرخ في ذُعر: ماما! ماما! جاءت لنجدتي، شاحبة ترتعد، معتقدة أنهم يقتلونني.

أنزلتني، وداعبتني، بينما سأل أخوها : أختي جلوريا، ولد بهذا الحجم خائف من حيوان لطيف ؟

-إنه لم يعتد بعد هذه الأشياء.

-من الأفضل أن يتعود عليها. حتى إذا كان قسيسا، إذا كان قسيسا ريفيا سيكون عليه أن يركب ظهر الفرس؛ وهنا في المدينة، مع أنه ليس قسيسا بعد، إذا أراد أن يظهر بمظهر مشرف مثل بقية أمثاله من الشبان ولم يعرف كيف يركب، سيلومك على ذلك، يا أختي جلوريا.

-إذن سيكون عليه أن يلومني؛ أنا خائفة.

-خائفة! يا سلام، خائفة مم؟

في الواقع لم أتعلم إلا بعد ذلك بكثير، ليس حبا في ذلك بل كنت أخجل من التسليم بأنني لا أعرف كيف أركب. وقالوا عندما بدأت الدروس:

-الآن سيهتم حقا بالفتيات؟

لم يكن من الممكن قول نفس الشيء عن الخال كوزمو. في حالته، كان ذلك عادة وضرورة. فهو لم يعد يميل إلى العلاقات الغرامية. يقولون أنه، عندما كان شابا، كان ألعوبانا بين البنات، إلى جانب كونه حزبيا متهورا. لكن السنين أخذت منه الجانب الأكبر من حماسه، السياسي والجنسي على حد سواء، ووضعت سمنته حدا لبقية أفكاره، العامة والخاصة. وكان في تلك الأثناء يؤدى واجبات عمله ليس إلا، وبدون شغف. وفى ساعات فراغه كان يتفرج على ما حوله، أو يلعب الطاولة، ومن حين لآخر كان يبدى ملاحظة ظريفة.

قصص من بورخيس
بحث ابن رشد

يكتب أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد (لقد تأخر هذا الإسم الطويل قرنا من الزمن ليصبح أفيروس، مرورا ببنرايست وببنريفز وبابن راصد وفيليوس روسادوس) الباب الحادي عشر من مخطوط كتابه تهافت التهافت حيث يتصدى فيه للمتصوف الغزالي صاحب تهافت الفلاسفة وبرهن ردا عليه بأن الذات الإلهية تعلم القوانين العامة للكون، ذلك فيما يخص الأنواع لا الأفراد. كان يكتب بثقة بطيئة من اليمين إلى اليسار، ولم يكن تمرين القياسات المنطقية ولا وَصْل الفقرات الطويلة لفلسفة العلوم الاستقرائية يمنعه من الشعور بالجهد، وكأن المسألة هي سعادة عنده، وهو بمنزلة المتأمل الحكيم، وفي عمق القيلولة يهدل الحمام العاشق ومن فناء لا مرئي يرتفع خرير الماء في نافورة، شيء ما في لحم ابن رشد، الذي لا ينقطع التدفق في وريده، وفي الأسفل توجد حدائق الوادي الكبير منهمر المطر وبعده تقع قرطبة الغالية التي لا تقل صفاء عن بغداد أو القاهرة، قرطبة الشبيهة بأداة معقدة ورقيقة كان ابن رشد يشعر بهذا كله، ومن حوله تمتد تخوم أرض إسبانيا، التي توجد بها أشياء قليلة، ولكن حيث يبدو كل شيء في شكل حقيقي وإلى الأبد. سن القلم يجري على الصفحة، البراهين متماسكة غير قابلة للدحض إلا أن شيئا ما عكَّر صفو ابن رشد، لم يكن السبب في ذلك كتاب التهافت لأنه عمل عرضي يمكنه أن ينتظر، بل مُعضلة لُغوية مرتبطة بالكتاب العظيم، الذي سيعلله أمام الناس، وهو يترجم أرسطو للناس، الإغريقي النابغة مصدر كل فلسفة، جاء ليعلمهم كل ما يمكن تعلُّمه، وكان ابن رشد قد وضع نصب عينيه هدفا مستحيل التحقيق هو تفسير وشرح كتبه مثلما يشرح علماء الدين القرآن الكريم. من المرات القليلة التي سيُسجِّل التاريخ أشياء نادرة الجمال وتأثيرها خرافي كالعمل الذي قام به طبيب وفيلسوف عربي في شرحه لأفكار رجل تفصله عنه أربعة عشر قرنا، وبغض النظر عن صعوبات ترتيب المسارد كان ابن رشد يجهل السريانية واليونانية فالمشكلة هي أنه يشتغل في كتابه بترجمة عن ترجمة، بالأمس وقف عند كلمتين مريبتين في بداية كتاب الشعر وهما تراجيديا وكوميديا. لقد وجدهما من قبل في الكتاب الثالث من البلاغة منذ عدة أعوام، تجاهلهما لأنه لم يسبق لأحد في بلاد الإسلام أن خمن معناهما، وبدون جدوى، كادت صفحات كتاب الإسكندر الأفروديسي تهترىء بين يديه وهو يقارن، بدون جدوى، بين الترجمتين اللتين قام بهما النسطوري حنين بن إسحاق وأبو بشر بن متى، دعك من أن الكلمتان اللغزان تتكرران مرارا في كتاب الشعر بشكل يجعل استبعادهما عند الترجمة وهذه كارثة ومحض استهتار لا يمكن أن يصدر عن الفيلسوف العربي العظيم.

اهتـزت ثقتـه؛ فـترك ابـن رشـد القلـم في المحـبرة، وقـال لنفسـه بـأن مـا نبحـث عنـه يكـون عـادة أقـرب الأشـياء إلينـا، خبَّـأ مخطـوط التهافـت بـين أوراق قديمـة، واتجـه صـوب الخزانـة حيـث تراصـت مجلـدات بـلا حـصر مـن كتـاب المُحكـم للأعمـى ابـن سـيدة منسـوخة بأقـلام خطاطـين فـرس، لـن نخـدع أنفسـنا بفكـرة أن ابـن رشـد لم يراجعهـا مـن قبـل ولكـن اسـتهوته الآن نشـوة عابـرة ورجـع إلى تصفُّحهـا مـن جديـد، وسـمع صياحـا رفيـع النـبرات فأطـل مـن الشرفـة، ورأى في الفنـاء الأرضي الضيـق بعـض الأطفـال يلعبـون شـبه عـراة، كان أحدهـم، واقفـا عـلى كتفـي آخـر، يمثـل المـؤذن بصـورة بـارزة: عينـاه مغمضتـان في خشـوع، وهـو يرفـع عقيرتـه بقـول لا إلـه إلا اللـه أمـا الصبـي الـذي كان يحملـه ولا يتحـرك فـكان يمثـل الصومعـة. وكان الآخـر راكعـا عـلى ركبتيـه في الغبـار، يُمثِّـل جماعـة المؤمنـين في هيئـة الصـلاة. تأمـل اللعـب الـذي اسـتمر وقتـا قليـلا، فقـد كان كلهـم يريـد أن يكـون المصلـين أو الصومعـة، سـمعهم ابـن رشـد يتشـاجرون ويتعاركـون في صخـب طفـولي بـريء، يمكـن القـول إنهـا الإسـبانية البدائيـة التـي يتكلـم بهـا عـوام المسـلمين في إسـبانيا. فتـح ابـن رشـد كتـاب العـين للخليـل، وفكـر بكبريـاء أنـه حتـما لا توجـد في قرطبـة، وربمـا الأندلـس قاطبـة، نسـخة أخـرى مـن هـذا المؤلـف الكامـل الـذي أرسـله إليـه مـن مدينـة طنجـة الأمـير يعقـوب المنصـور. ذكـره اسـم هـذا المينـاء بـأن الرحالـة أبـا القاسـم الأشـعري، الـذي جـاء مـن المغـرب سـيتناول في حضرتـه طعـام العشـاء هـذه الليلـة في بيـت فـرج عـالم القـرآن. يقـول أبـو القاسـم إنـه بلـغ مهالـك امبراطوريـة الصـين، ويـكاد يجـزم المشـنعون، اسـتنادا عـلى ذلـك المنطـق الـذي لا ينجـم عنـه سـوى الحقـد، أنـه لم يصـل أرض الصـين قـط. سـوف يسـتغرق الاجتـماع سـاعات ولا ريـب ولهـذا رجـع ابـن رشـد إلى كتابـة التهافـت عـلى عجـل. وظـل يعمـل حتـى غربـت شـمس النهـار.

انتقـل الحـوار، في منـزل فـرج، مـن فضائـل الحاكـم الفريـدة، إلى مزايـا أخيـه الأمـير، ثـم أنهـم تحدثـوا وهـم في الحديقـة عـن الزهـور فأقسـم أبـو القاسـم، الـذي لم يكـن رآهـا قـط، أنـه لا توجـد زهـور في روعـة الزهـور التـي توجـد بالحدائـق الأندلسـية. لم يـترك فـرج لنفسـه فرصـة الاغتبـاط، فـرأى بـأن الفقيـه ابـن قتيبـة قـد وصـف أشـكالا وأنواعـا مـن الـوردة الدائمـة التـي تنمـو في حدائـق الهندوسـتان، والتـي تعـرض وريقاتهـا ذات الحمـرة الشـديدة، مكتوبـا عليهـا لا إلـه إلا اللـه، محمـد رسـول اللـه مضيفـا بـأن أبـا القاسـم يعـرف هـذه الزهـور بـكل تأكيـد. نظـر إليـه أبـو القاسـم بجـزع. لـو أجـاب بنعـم، اعتـبره الجميـع، بـلا جـدال، مـن أكـبر الدجالـين نفاقـا وخبثـا وإن كان النفـي جوابـه اعتـبروه مـن الكُفَّـار. آثـر السـلامة فغمغـم في النهايـة بـأن سـيد الكـون يملـك مفاتيـح الغيـب وأنـه لا يوجـد شيء في الأرض، أخـضر أو يابـس لم يُـدوَّن في كتابـه، قالهـا بعبـارات تنتمـي إلى إحـدى أوائـل السـور ولـذا قوبلـت بهمهمـة إجـلال وتمتمـة إكبـار، وقـرر أبـو القاسـم، مفتخـرا بهـذا النـصر في الجـدال، أن يتلفَّـظ بـأن اللـه كامـل في أعمالـه متعـذر التخمـين، فـصرح ابـن رشـد عندئـذ، مسـتبقا العلـل القاصيـة لـ..هليـوم الـذي كان لا يـزال بعـد في علـم الغيـب:

-قد أقبل بمنتهى اليُسر، بوقوع الفقيه ابن قتيبة أو نساخه في الخطأ، ولا أقبل إلا بمشقة أن تعطي الأرض زهورا تعلن أسماءها!

-صدقت، إنها كلمات عظيمة وحقيقية.

وقال الشاعر عبد الملك:

-ذكر أحد الرحالة شجرة ثمارها طيور خضر ولست أجد في الاعتقاد بما يقول مقدار المشقة التي أجدها في الاعتقاد بزهور ذات أحرف.

اعترض ابن رشد:

-يبدو لي أن لون الطيور يجعل الأعجوبة قابلة للتصديق، بالإضافة إلى أن الثمار والطيور تنتميان إلى عالم الطبيعة. أما الكتابة فهي فن. والانتقال من الأوراق إلى الطيور أسهل من الانتقال من الزهور إلى الحروف.

انتتر ضيف آخر واقفا، واعترض بغضب، أن تكون الكتابة فنا، إذ أن أصل القرآن المكنون سابقا على الخلق ومحفوظا في السماء. وتكلَّم آخر عن الجاحظ البصري الذي قال إن القرآن ماهية يمكن أن تتشكَّل في صورة إنسان أو صورة حيوان، وهذا الرأي يوافق رأي الذين ينسبون إليه وجهين. وقام فرج بتقديم عرض مستفيض عن المذهب السني، فقال إن القرآن هو صفة من صفات الله مثل عدله وجبروته ورحمته، يُنسخ في كتاب ويُقرأ باللسان ويُذكر بالقلب؛ أما اللغة والعلامات والكتابة فهي من عمل الإنسان. أما القرآن فهو قطعي خالد. وبإمكان ابن رشد الذي علَّل وشرح كتاب الجمهورية أن يقول إن أم الكتاب شيء من قبيل نموذجه الأفلاطوني. ولكنه لاحظ أن علم اللاهوت لم يكن في متناول أبي القاسم وقتها. وتنبَّه آخرون إلى ذلك أيضا، فطلبوا من أبي القاسم أن يحكي لهم عن معجزة ما، وعندئذ، كما هو الحال في يومنا هذا، كان العالم فظيعا، بإمكان الشجعان المُضي فيه وأيضا البؤساء الذين يستطيعون ترويض أنفسهم لكل شيء. إن ذاكرة أبي القاسم كانت عبارة عن مرآة لجين خالص، فماذا عساه أن يحكي؟ بالإضافة إلى أنهم طلبوا منه، فضلا عن ذلك، الأعاجيب، والأعجوبة ليست قابلة للتبليغ، فقمر بلاد البنغال لا يشبه قمر اليمن، ولكن سمح أن يطلق عليه نفس الاسم. ارتبك أبو القاسم، ثم قال:

-إن من يسافر في الأقطار والمدن يرى أمورا كثيرة تستحق التصديق، رويت هذه الأعجوبة ذات مرة لملك التركمان. حدثت في مدينة كانطون بالصين، حيث يندلق نهر ماء الحياة في البحر.

وسأل فرج ما إذا كانت المدينة تبعد أميالا عديدة عن السور الذي بناه الإسكندر ذو القرنين لإيقاف يأجوج ومأجوج، فرد أبو القاسم بكبرياء غير عادية:

-تفصل بينهما صحاري، وتستغرق القافلة أربعين يوما لتلمح صوامعها وتستغرق قدر ذلك لبلوغها، ولم أعرف إنسانا في بلاد الصين أنه رآها أو رأى من رآها.

فكر ابن رشد، وقد اعترته لحظة خوف سرمدي، ومن محض المكان ومحض المادة، ألقى نظرة إلى الحديقة الجميلة الهيئة فأدرك أنه شاخ ولم يعد نافعا.

قال أبو القاسم:

-ذهبت ذات مساء بصحبة تجار مسلمين من صين كلان إلى بيت من خشب ملون. يعيش فيه الكثير من الناس، يستحيل وصف هيئة ذلك البيت الذي كان على وجه التقريب حجرة واحدة ذات صفوف من خشب أو شرفات بعضها فوق بعض كالدرج، وكان في هذه الثغرات قوم يأكلون ويشربون وآخرون مثلهم على الأرض، ومثلهم في الساحة، وكان أشخاص في هذه الساحة يدقون على الطبل ويعزفون العود، سوى خمسة عشر منهم أو عشرين على وجوههم أقنعة قرمزية يصلون وينشدون؛ وهم في رسن الأسر، لم يرون سجنا، ويمتطون الفرس فلا ترى الفرس ويتقاتلون بسيوف من قصب، يموتون ثم ينهضون قياما بعد ذلك ويحيُّون بعضهم.

رد فرج:

-إن الغباء البشري لا حدود له، وقد تتجاوز أفعال الحمقى توقعات الإنسان المنطقي.

فكان على أبي القاسم أن يوضح:

-لم يكونوا حمقى، بل كانوا يمثلون قصة.

لم يرد أحد أن يفهمه، ولم يفهم أحد مقصده، فانتقل أبو القاسم من الحكاية المروية إلى الشروحات الخائبة، وقد ارتج عليه الأمر، قال شارحا بحركات اليدين:

-هَبْ أن شخصا قدم قصة بدل أن يرويها، ولتكن القصة، قصة نوم أهل الكهف، نراهم ينسحبون إلى كهف أفسس، يُصلُّون وينامون، نراهم يستفيقون بعد مرور تسع وثلاثمائة عام، نراهم يدفعون للبائع قطعة نقود قديمة، نراهم يستيقظون في الجنة، نراهم يستيقظون صحبة الكلب.

هنا سأله فرج:

-وهل يتحدث أولئك الناس؟

فأجاب أبو القاسم، وقد تحوَّل فجأة إلى مدافع عن قصة لا يتذكرها إلا لماما.

-طبعا يتحدثون! بكل تأكيد؛ بل ويلقون خطبا كذلك!

قال فرج في شيء من التحدي:

-في هذه الحالة، لا يحتاج الأمر عشرين شخصا، فمتحدث واحد يمكن أن يحكي كل شيء، مهما بلغ من التعقيد.

وافق الجميع هذا الرأي واستحسنوه، كما أطريت فضائل اللغة العربية التي هي اللغة الأم التي خاطب بها الله الملائكة، وفيما بعد فضائل شعر العرب، وبعد أن تفحَّص عبد الملك هذا الشعر، ما ينبغي، وصفه بالقدم الشعراء الذين كانوا في دمشق أو قرطبة، يتمسكون بمشاهد رعوية، ومعجم بدوي قائلا إنه من العبث أن يحتفل رجل بماء بئر والوادي الكبير يمتد أمام ناظريه، ودعا إلى تجديد المجازات القديمة بزعم أن زهيرا شبَّه القدر بناقة عشواء. وهذه الصورة البلاغية أدهشت الناس في زمن القصيدة، غير أن مرور خمسة قرون من الإعجاب ابتذلتها. وافق الجميع على هذا الرأي، لذا استمعوا إليه جيدا، عدة مرات ومن أفواه كثيرة، في تلك اللحظة.

كان ابن رشد غارقا في الصمت، في سحابة عالمه الخاص يغوص. وأخيرا خاطب نفسه أكثر من غيره:

-ذات مرة دافعت بحجج من نفس الجنس، عن المسألة التي يؤيدها عبد الملك. يقال في الإسكندرية إن المعصوم عن الزلل هو من زل وتاب، ولكي نتحرر من خطأ فمن اللائق أن نعترف به، يقول زهير في معلقته إنه رأى القدر، خلال انصرام ثمانين حولا من الألم والمجد. يصطدم مرارا فجأة بأناس مثلما تخبط ناقة عشواء، ويعتقد عبد الملك بأن هذه الصورة لم يعد بإمكانها أن تثير دهشة أحد.

بإمكاني أن أجيب عن هذا الرأي بعدة حجج: أولا، إذا كان قصد القصيدة، إثارة العجب والدهشة فزمنها لا يقاس بالقرون وإنما بالأيام والساعات وحتى الدقائق. والأمر الثاني هو أن هذا الذائع الصيت مُكتشَف أكثر مما هو مُختَرَع. وبغرض مدح ابن شرف البرجي، قيل وكرر إنه استطاع وحده أن يتخيَّل النجوم في الفجر تتساقط مهلا كأوراق الأشجار، وإن كان صحيحا، يبرهن على أن الصورة مبتذلة حقا، إن الصورة التي يستطيع إنسان تشكيلها هي تلك، التي لا تؤثر في أحد.

هناك أشياء على الأرض لا تحصى ولا تُعد. إن تشبيه النجوم بالأوراق أقل تعسفا من تشبيهها بأسماك أو طيور. وعكس ذلك فإن أحدا لا يمكنه أن يشعر بأن القدر قوي، شارد اللب، ولا إنساني. وبهذه القناعة، التي يمكن أن تكون صدفة، لكن لا أحد يستطيع تجنبها، ومثل بيت زهير، لن يقال أفضل منه، بالإضافة إلى ذلك (وربما هذا هو بيت القصيد وقلب فكرتي) أن الزمن الذي يرشي القصور، يثري الشعر، إن زهير الذي صاغ هذا البيت في جزيرة العرب أراد منه مقابلة بين صورتين هما صورة الناقة العجوز وصورة القدر، كان للصورة

البلاغية طرفان فأصبح لها اليوم أربعة أطراف. إن الزمن يثري الشعر، مثل الموسيقى هي من الأشياء المشتركة بين كافة الناس، حينما تذكرت وأنا بمراكش كنت أردد البيت الذي قاله عبد الرحمن بحدائق الرصافة، نخلة إفريقيا:

نشأت بأرض أنت فيها غريبة فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي

إنها فائدة شعرية منقطعة النظير؛ إن الكلمات التي قالها أمير مشتاق إلى الشرق فيها فائدة لي، أنا المنفي في أفريقيا، بسبب التعبير عن حنيني إلى الأندلس.

وتكلَّم ابن رشد، بعد ذلك عن الشعراء الأوائل، الذين قالوا في عصر الجاهلية كل شيء بواسطة لغة الصحراء، وبما أن مهاترات ابن شرف أزعجته. فقد أكَّد أن:

-الشعر كله اختصر في القدماء وفي القرآن الكريم.

أدان كل محاولة في التجديد بالعبث والغطرسة. واستمع إليه الجميع بحبور لأنه انتقم للتراث ضد الحداثة. وعندما كان المؤذن ينادي لصلاة الفجر عاد ابن رشد إلى مكتبته. إن أمرا كشف له عن معنى الكلمتين الغامضتين، فكتب بخط ثابت وبحرص شديد: يسمي أرسطو قصائد المدح تراجيديا وقصائد الهجاء كوميديا. وصفحات القرآن ومعلقات الكعبة مليئة بتراجيديات وكوميديات غاية في الجمال.

أخذته سنة من النوم، وشعر ببعض البرودة، وعندما فض لفائف عمامته، نظر إلى شخصه في مرآة من معدن. لا أدري ما أبصرت عيناه لأن أحدا لم يصف ملامح وجهه في كتب التاريخ. كل ما أعرفه هو أنه اختفى فجأة، واختفى معه المنزل والكتب والمخطوطات ونافورة الفناء والماء والإماء الحسناوات ذوات الشعر الأسود والجارية المرعوبة الصهباء وفرج وأبو القاسم والورود والطيور وحتى الوادي الكبير أيضا طار ولم يعد له أثر.

الذي أردت سرده في القصة سالفة الذكر هو تاريخ عار الهزيمة والانكسار. فكَّرت أولا في رئيس أساقفة كانتربري الذي اقترح البرهنة على أن هناك إلها واحدا ثم فكرت في خيميائيي العصور الوسطى الذين كانوا يبحثون عن حجر الفلاسفة ثم فكرت في زوايا المثلث الحادة، وقُطر الدائرة. وفكرت، بعد ذلك أن الأكثر شاعرية حالة رجل اشترى غابة لم يحظرها على غيره، لكنه حظرها على نفسه، وتذكرت ابن رشد الذي لم يستطع مطلقا، أن يفقه معنى كلمتي تراجيديا وكوميديا، حكيت ما حدث وفيما كنت أتقدَّم شعرت بما يحتمل أن يكون ذلك الإله الذي ذكره بورتن قد شعر به إذ حكم على نفسه أن يخلق ثورا فخلق جاموسة. شعرت أن ابن رشد حينما أراد أن يتخيل ما هي المسرحية دون أن يرتاب في معنى المسرح لم يكن أكثر عبثا مني أنا الذي أريد تخيل ابن رشد دون أن تكون لدي مادة عنه ما عدا ذلك النذر اليسير الذي عثرت عليه عند رينان ولين وأسين بالاثيوس، كانت قصتي رمزا

للرجـل الـذي كنتـه حينـما كنـت بصـدد كتابتهـا، كان عـلي أن أكـون ذلـك الرجـل، ولـكي أكونـه كان عـلي أن أحـكي لكـم هـذه الحدوتـة، وهكـذا إلى مـا لا نهايـة... في هـذه اللحظـة بالـذات يختفـي ابـن رشـد.

البرلمان

اسمي أليخاندرو فيري، أليخاندرو منطوق الإسكندر وفيري هو الفولاذ المستخدم في المعدات الحربية، لكن لا معادن المجد ولا لظل المقدوني العظيم (العبارة لمؤلف ديوان المرمر الذي شرفت بصداقته) علاقة بهذا الرجل الرمادي البسيط الذي يرتب هذه السطور في الطابق العلوي من فندق كائن في شارع سانتياجو دل إستيرو، في جنوب لم يعد بعد هو الجنوب.

في أية لحظة ربما أكون قد أتممت بعض وسبعين عاماً من عمري، ومازلت أملي دروس اللغة الإنجليزية على حفنة من الطلبة. لم أتزوج، لعله التردد أو الكسل أو أسباب اخرى، وأنا الآن أعيش وحيدا. وحدتي لا تؤلمني في الواقع إذ يكفي المرء عناء احتماله لنفسه ولأطواره الغريبة. إنني أتقدم في العمر ومن علامات ذلك أنني لم أعد ألقي بالاً أو أهتم بالمستجدات، ربما لأنني ألاحظ أن لا جديد فيها فلا تعدو كونها تنويعات هامشية. في شبابي، كانت تجتذبني ساعة الغروب والأحياء النائية والتعاسة؛ واليوم، أُفضِّل الصباح في قلب المدينة والهدوء.

لم أعد أحاول التظاهر بأنني هاملت. انضمت إلى الحزب المحافظ وإلى نادٍ للشطرنج أذهب إليه كمتفرج، شارد أكثر الوقت. من لديه فضول بوسعه أن يجد في رف معتم من رفوف المكتبة الوطنية بشارع المكسيك نسخة من كتابي شرح مدقق للغة جون ويلكنز التحليلية، وهو عمل قد يكون في حاجة إلى مزيد تنقيح ومراجعات في طبعة جديدة. مدير المكتبة الوطنية يقولون لي أنه أديب كرس حياته لدراسة اللغات القديمة؛ كأن اللغات الحالية ليست بدائية بما يكفي! وللتمجيد الغوغائي لبوينس ايرس أحلام يقظة قوامها حاملي السكاكين. لم أرغب في معرفته على الإطلاق، فمرة واحدة فقط منذ جئت هذه المدينة، في عام 1899، واجهتني الصدفة بأحد حاملي السكاكين أو بشخص معروف عنه ذلك. وسوف أقص هذه الحادثة في وقتها إذا جاءت مناسبة لها فيما بعد.

أعيش وحيداً كما ذكرت آنفًا. أخبرني أحد جيراني في الفندق، عندما سمعني اتحدث عن فيرمين إجورن، أن المنية وافته في بونتا دل إسته. أفعم موت هذه الرجل، الذي لم يكن صديقي في الحقيقة، الشعور بالحزن في نفسي. ومن المفارقات أنني الوحيد على ظهر الأرض الحارس الأمين لذكرى ذلك الحدث- أعني البرلمان- التي لن يشاطرني إياها مخلوق؛ فأنا الآن آخر أعضاء البرلمان. صحيح أن كل الناس أعضاء فيه بشكل أو بآخر، فيما يبدو أنه ليس هنالك كائن على الكوكب ليس عضواً في البرلمان، إلا أنني عضو من نوع آخر.

لذلك؛ وهذا ما يميزني عن رفاقي القدامى والحاليين الذين لا حصر لهم. صحيح أننا في

السابع من فبراير عام 1904 أقسمنا بأقدس ما نقدسه؛ (وما معنى أن يكون على وجه الأرض ما هو مقدس أو غير مقدس؟) ألا نكشف لأحد عن تاريخ البرلمان؛ بيد أن مسألة حنثي بالقسم هي أيضاً جزء من البرلمان. أعرف أنه تصريح غامض بعض الشيء ولكنه قد يثير فضول قارئي العزيز المحتمل.

من المؤكد أن المهمة التي أوكلت بها نفسي كانت من أصعب ما يكون؛ لأنني لم اجرب يدي من قبل في كتابة الرواية ولا حتى في صف الرسائل، والأخطر من ذلك بكثير هو أن الحكاية التي سأسردها ها هنا لا تصدق. وكان الأولى أن يتولى قلم خوسيه فرنانديز إيرالا، صاحب ديوان المرمر المنسي دون مبرر واضح، هذه المهمة، لكن ذلك مستحيل الآن بالطبع. لن أتعمد تزييف الحقائق، لكن ثمة شعور يراودني بأن كسلي وقلة مهارتي سوف يقودانني إلى الخطأ في أكثر من مرة.

على كل حال، ليس للتواريخ المحددة أهمية، لنذكر فقط أنني قدمت في عام 1899 من مدينة سانتافي، مسقط رأسي، التي لم أعد إليها قط بعد ذلك. لقد اعتدت بوينس أيرس، التي لا تجذبني إلى هذا الحد، كما يعتاد المرء جسده أو وجعًا مزمناً به. أشعر بلا أدنى تأثر، بدنو أجلي، لذا عليّ أن أكبح ولعي بالإطناب المعتاد وأن أتقدم قليلاً في روايتي.

لا تغير السنون من معادننا، إن كان لنا معدن من الأصل. قد يكون الدافع الذي قادني، في تلك الليلة، إلى برلمان العالم هو نفسه الذي دفع بي في بداية الحكاية إلى دار آخر ساعة. فمن وجهة نظر صبي ريفي فقير قد تكون الصحافة مهنة رومانسية مثلما يكون راعي البقر بطلًا أو العامل الأجير رومانسياً في نظر صبي فقير من المدينة. لا أخجل من إعلان رغبتي في أن أكون صحفياً، وإن كنت أعترف الآن أنها تبدو لي مهنة شديدة الابتذال. أذكر أنني سمعت زميلي فرنانديز إيرالا يقول: إن الصحفي يكتب للنسيان وإن رغبته هو ان يكتب للذكرى وللزمن. كان قد نحت (هذا الفعل كان شائع الاستخدام بمعنى الاقتباس الجارف) بعض السونيتات الرائعة التي ظهرت فيما بعد، ليس قبل تنقيحها بشكل عاجل، على صفحات المرمر.

ليس في مقدوري الآن أن أحدد أول مرة سمعت فيها عن البرلمان.

قد يكون في تلك الأمسية التي سلمني فيها الصراف راتبي الشهري ودعوت فرنانديز إيرالا إلى العشاء إحتفالاً بذلك الدليل على أن بوينس أيرس قد قبلتني في رحابها، واعتذر إيرالا بدعوى أنه هكذا سوف يتأخر عن البرلمان. على الفور، فهمت أنه لا يقصد بذلك المبنى المتغطرس بعنجهية قبته والموجود في نهاية الطريق التي يسكنها الإسبان، وإنما يقصد شيئاً أشد سرية وأعظم خطورة بما لا يقاس ولا يمكن وصفه. البرلمان! ماهو؟ كان الناس يتحدثون عن البرلمان؛ فما هو؟! بعضهم يتكلمون عنه بسخرية صريحة، وبعضهم بصوت

خفيض حذر، وبعض ثالث بشفقة وشيء من الفزع الممزوج بالفضول، وجميعهم، حسب ظني، على جهل تام بحقيقته.

مرت عدة أسابيع، نسيت فيها موضوع البرلمان، ثم حدث أن دعاني إيرالا إلى الذهاب معه؛ أبلغني بأنه تم اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة. كانت الساعة تدور في العاشرة ليلاً عندما قال لي في الترام، إن الاجتماعات التحضيرية تنعقد أيام السبت وإن دون إليخاندرو جلنكوي وقَّع على قبولي ربما بسبب تشابه الأسماء!

دخلنا كافتيريا الغاز. كان المجتمعون حوالي الخمسة عشر أو العشرين فردا، يتحلَّقون حول منضدة طويلة، ولا أعرف إن كانت هناك منصة أم أن الذاكرة تتخيل وجودها. تعرَّفت في الحال على الرئيس رغم أنني لم أره من قبل. كان دون إليخاندرو سيداً ذا مهابة ووقار، كبير في السن، ذا جبهة عريضة وعينين رماديتين ولحية مائلة إلى الإحمرار يمر بها الشعر الأشيب. دائماً يرتدي ذات الحلة السوداء، واعتادت يداه الاثنان أن تستريحا إلى عصاه. كان قوى البنية فارع الطول. جلس إلى يساره رجل أصغر منه في السن لدرجة ملحوظة، أحمر الشعر أيضاً، وكان لونه العنيف يوحي بالنار أما لون لحية السيد جلنكوي فأشبه بأوراق الخريف. إلى يمينه، جلس شاب استطال وجهه وضاقت جبهته على نحو فريد، يرتدي حلة جعلته يبدو مضحكا.

نزلت أقداح القهوة للجميع، وطلب البعض شراب الأبسنت.

كان أول ما لفت نظري وجود سيدة وحيدة بين هؤلاء الرجال. على الطرف الآخر من المائدة، جلس صبي في العاشرة من العمر يرتدي زي البحارة ما لبث أن راح في النوم. وكان ثمة أيضاً قس بروتستانتي ويهوديان هيئتهما مثيرة للنفور، وزنجي بمنديل من الحرير وملابس ضيقة على طريقة رعاع الأزقة. كان هناك قدحان من شراب الكاكاو أمام الزنجي والطفل. لا أتذكر الآخرين، فيما عدا سيداً يدعى مارثيلو دل ماثو، وهو جنتلمان حقيقي، يتحدث بتهذيب جم، لكنني لم أعاود رؤيته قط. مازلت احتفظ بصورة فوتوغرافية مطموسة وغير واضحة المعالم لأحد الاجتماعات؛ لن أنشرها لأن ملابس ذلك الوقت والشعر المسترسل والشوارب قد تعطي انطباعاً سطحيًا زائفًا بأن الأمر كله سخيفا يدعو للضحك.

كما جرت العادة؛ تميل كافة التجمعات إلى ابتكار لغة خاصة بها وطقوس تميزها، بينما ظهر أن البرلمان، الذي كنت أراه دائماً كالحلم، كأنه يريد من أعضائه أن يبحثوا في صبر وأناة عن الهدف الذي يسعى وراءه بل وان يكشفوا كل غامض عن أسماء وألقاب زملائهم! ولم أستغرق وقتاً طويلاً في إدراك أن واجبي ألا أطرح اسئلة، وأمسكت عن سؤال فرنانديز إيرالا الذي لم يرغب من جانبه أن يقول لي شيئا. ولم أتخلف يوماً واحداً عن اجتماعات السبت، وقبل أن أعي ما يحدث كان مر شهر أو شهران. بدءاً من الاجتماع الثاني جلس إلى جانبي

المهندس دونالد أون من مصلحة سكك حديد الجنوب الذي أعطاني فيما بعد دروساً في اللغة الإنجليزية.

كان دون أليخاندرو صموت. ولم يكن الآخرون يتوجهون إليه ولكنني أحسست بأنهم يتحدثون كي يسمعهم وأنهم كانوا ينشدون موافقته بشكل ما. وكانت تكفي إيماءة من يده البطيئة حتى يتغيَّر موضوع المناقشات. ثم أدركت أن الرجل صاحب الشعر الأحمر الجالس إلى يساره كان يحمل هذا الاسم الطريف: تويرل. أتذكر مظهره الرقيق المتهافت، سمة بعض الأشخاص الفارعي الطول، كأن طول القامة يصيبهم بالدوار ويحدب ظهورهم. وأتذكر يديه تعبثان ببوصلة نحاسية كان بين كل حين وحين يتركها تستقر على سطح المائدة. في أواخر عام 1914، استشهد كجندي مشاة في فرقة أيرلندية. من كان يشغل يمين المنضدة دائماً هو الشاب ذو الجبهة الضيقة، فيرمين إجورن، ابن شقيقة الرئيس.

لا أؤمن بأساليب الاكتشاف الواقعية، ذلك الصنف المفتعل من الأبحاث إن كان هناك مصطلح كهذا، وأفضّل أن أعرف دفعة واحدة ما يمكن أن أكتشفه تدريجياً. قبل هذا، أود أن أذكّر القارئ بأوضاعي حينئذ: كنت شاباً فقيرا من كاسيلدا وابناً لمزارعين ثم ما لبثت أن وجدت نفسي أقترب من قلب مدينة بوينس أيرس، ومن يدري؟ ربما من قلب العالم! لقد مر نصف قرن ومازلت أشعر بذات الانبهار الأول والذي لم يكن، في واقع الأمر، الأخير!!

وإليك ماحدث..

سأحكي كل شيء في اختصار شديد. كان الرئيس دون أليخاندرو جلنكوي، من كبار إقطاعيي أورجواي وصاحب ضيعة شاسعة على الحدود مع البرازيل. استقر والده، وهو من أبردين أصلا، في هذه القارة في منتصف القرن الماضي. وأحضر معه مائة كتاب، وأستطيع ان أؤكد أن دون أليخاندرو لم يقرأ غيرها على مدار حياته. (أتحدث عن هذه الكتب الغريبة التي تصفحتها بنفسي لأن أصل حكايتي يكمن في واحد منها). حين وافت المنية أول جلنكوي في أمريكا ترك وراءه ابنة وابناً هو الذي أصبح فيما بعد رئيسنا. وتزوجت الابنة من أحد أبناء آل إجورن وأنجبت فيرمين. وفي أحد الأيام تأمل دون أليخاندرو مقعد نائب شاغر في البرلمان باهتمام وشغف، لكن زعماء الحرب أغلقوا في وجهه أبواب برلمان أورجواي. ثارت ثائرة الرجل وقرر تأسيس برلمان أكبر وأهم وأكثر خطورة. تذكَّر أنه قرأ في إحدى صفحات كارلايل البركانية عن مصير أناكرسيس كلوتز، من عبدة ربة العقل، الذي خطب في ستة وثلاثين أجنبياً كرسول من الجنس البشري أمام المجلس الباريسي. وعلى نهجه؛ عقد دون أليخاندرو العزم على تنظيم برلمان شامل للعالم يمثل كافة البشر في جميع البلدان. وكانت كافتريا الغاز مقر الاجتماعات التحضيرية. أما الجلسة الافتتاحية للبرلمان والتي حدد موعد انعقادها في غضون أربع سنوات أن يكون مقرها ضيعة دون أليخاندرو. وهو، كالسواد

الأعظم من أبناء أورجواي، لم يكن من أنصار خوزيه خيرياسيو أرتيجساس، وكان يحب بوينس أيرس لكنه قرر أن ينعقد البرلمان في وطنه. والغريب أن المدة المحددة سلفاً تمت في دقة كالسحر.

كنا نتقاضى مكافآت في البداية، لم تكن بالقدر الهين، لكن فورة الحماس التي أشعلتنا جميعاً جعلت فرنانديز إيرالا، وكان فقيراً مثلي، يتنازل عنها، وهكذا فعل الآخرون. كان ذلك الإجراء ذو أهمية فقد أدى إلى تخليص البذور من الأعشاب الضارة، فانخفض عدد نواب البرلمان، وبقينا نحن المُخلصين فقط. وكانت الوظيفة الوحيدة المدفوعة الأجر وظيفة السكرتيرة، نورا إرفيورد، التي كانت لا تملك مصدر آخر للرزق وكانت المهام المطلوبة منها مرهقة فعلا. فتنظيم هيئة تضم الكوكب ليست بالأمر الهين، دعك من المراسلات وبرقيات الصادر والوارد التي لم تكن تتوقف. وكانت طلبات الانضمام ترد من كوستاريكا والنرويج وبلاد الهند والسند.. بل أشار بوليفي ما إلى أن بلاده تفتقر إلى منفذ على المحيط وإلى أن هذا العيب المؤسف ينبغي أن يُدرج في جدول أعمال واحدة من مناقشاتنا الأولى.

رأى تويرل، وكان ذكاؤه متوقداً، أن البرلمان يشكل مسألة ذات بعد فلسفي، فالتخطيط لجمعية تمثل كل البشر كان كتحديد الرقم الصحيح لكافة الأمثلة الأصلية الأفلاطونية، أي اللغز الذي شغل بال المفكرين على مدار قرون. واقترح أن دون أليخاندرو مثلاً، إلى جانب تمثيلية للطبقة المرتاحة ماديا بوسعه أيضاً أن يمثل الأرجوائيين وأن يمثل الرواد العظام وذوي اللحى الحمراء والجالسين على مقعد. كانت نورا إرفيورد نرويجية. أكانت تمثل السكرتيرات أم النرويجيات أم ببساطة النساء الجميلات؟ أكان يكفي مهندس واحد ليمثل كافة المهندسين بما فيهم مهندسي فيجي الأسترالية؟

وقتها تدخَّل فيرمين وهو يضحك بثقة:

-إن فيري سووف يمثل الأمريكان من أصل أسباني؛ الجرينجو.

فنظر دون أليخاندرو إليه في صرامة، وقال بحسم:

-إن السيد فيري ليمثل المهاجرين الذين تنهض البلاد بجهودهم.

كان فيرمين يكن لي حقداً شديداً. وكان في صلفه يتباهى بأشياء لا حصر لها: أنه من أوروجواي وأنه ساحر النساء وأنه اختار خياطاً باهظ التكاليف وأنه.. ولا أعرف لماذا؟.. من أصل باسكي فهي أمة على هامش التاريخ لم تشتهر بشيء سوى تربية العجول! ثم وقعت حادثة أشد ما تكون ابتذالاً فوطدت العداوة فيما بيننا. إثر إحدى الجلسات، اقترح إجورن أن نذهب إلى شارع خونين. لم أشأ الذهاب ولكنني فعلت حتى أعفي نفسي التعرض لتهكمه السخيف. وذهبنا مع فرنانديز إيرالا. عند خروجنا من المنزل مررنا برجل ضخم الجثة،

فدفعه أجورن الذي ربما كان مسطولا، فسد الآخر علينا الطريق قائلاً:

-من يرد الخروج عليه أن يمر بهذا السكين.

ما زلت أذكر لمعان النصل في حلكة الدهليز. تراجع أجورن مذعوراً. لم أكن في موقف أحسد عليه، لكن حقدي تغلب على ذعري. رفعت يدي ناحية إبطي كمن يستعد لإخراج سلاح وقلت بلهجة حازمة:

-هذا الأمر سنسويه في الشارع!

فأجابني الرجل المجهول في نبرة مغايرة:

-هكذا يروقني الجدعان. شئت فقط أن أختبركم، أيها الصديق.

في تلك اللحظة كان يضحك في بشاشة صادقة. أجبته:

-هذا هو ما يهمك!

ثم خرجنا.

دخل الرجل الذي كان يحمل السكين الماخور. فيما بعد قيل لي إنه يدعى طابيا أو شيء آخر له معنى القلعة المنيعة، وإنه كان عربيداً شهيراً. في الطريق ربت إيرالا، الذي ظل ساكناً حتى تلك اللحظة، على كتفي وقال بلهجة خطابية:

-كان بين ثلاثتنا فارس! يحيا دارتنيان!

لم يغفر لي فيرمين إجورن قط أن كنت شاهداً على تخاذله.

أحس الآن، والآن فقط، بأن قصتي شارفت على الانتهاء. فالصفحات السابقة كانت تسجل الملابسات التي شاءتها الصدفة أو شاءها المصير كي تقع الواقعة العجيبة وربما الوحيدة في حياتي. كان دون أليخاندرو جلنكوي محور الأحداث دائماً، لكننا تدريجياً وفي غمرة ذهولنا وتخوفنا بدأنا نشعر بأن الرئيس الفعلي كان تويريل. وكان هذا الشخص البريد ذو الشارب اللامع يتزلف إلى جلنكوي كما كان يتزلف إلى فيرمين إجورن، ولكنه كان يفعل ذلك في مبالغة قد تؤخذ مأخذ التهكم وبحيث لا تنال من كرامته. كان جلنكوي أسير غروره بثروته الطائلة، وكان يكفي تويرل، إذا أراد أن يفرض عليه مشروعاً، أن يوحي إليه بأنه فادح التكلفة.

وأحسب أن برلمان العالم، في بداية الأمر، لم يكن إلا إسماً مبهماً. كان تويرل يقترح عمل توسعات مستمرة يقرها دون أليخاندرو دائماً. وبدا الأمر كمن يوجد في مركز دائرة آخذة في الاتساع، دائرة تنمو وتبتعد بلا توقف. على سبيل المثال، صرح تويرل بأن البرلمان ليس في غنى عن مكتبة للمراجع فبدأ نيرنستاين، وكان يعمل في مكتبة يوافينا بمجموعة

أطالس خستس برتس وبمجلدات موسوعية عديدة وضخمة مثل التاريخ الطبيعي لبلينيوس والمرايا لبوفيه، حتى المتاهات العطرة (أعيد قراءة هذه الكلمات بصوت فرنانديز إيرالا) التي سجلها الموسوعيون الفرنسيون العظام، والموسوعة البريطانية وموسوعة ببيسير لاروس وموسوعة بروخاس وموسوعة لارسن وموسوعة مونتانير وسيمون. وأتذكر أنني لامست في احترام مجلدات حريرية لموسوعة صينية لاحت لي رموزها المكتوبة بخط جميل أشد غموضاً من بقع جلد الفهد. ولن أذكر الآن المصير المؤسف لهذه الكتب والتي لا أندم عليها أبدا.

إيما

في الرابـع عـشر مـن ينايـر 1922، عندمـا عـادت إيمـا ثونـث مـن مصنـع الأقمشـة طربـوك ولوفينتـال، وجـدت في قـاع الدهليـز رسـالة موسـومة بطابـع البرازيـل علمـت مـن خلالهـا أن أباهـا قـد انتقـل إلى الرفيـق الأعـلى. خدعهـا في النظـرة الأولى الطابـع البريـدي والغـلاف، ثـم أقلقهـا الخـط المجهـول فيـما بعـد. تسـعة أو عـشرة أسـطر ملطخـة. أرادت أن تـترع الورقـة بسرعـة الـبرق وقـرأت إيمـا مـا يفيـد بـأن السـيد مايـر قـد ابتلـع جرعـة فيرونـال قويـة المفعـول وأنـه تـوفي عـلى أثرهـا في اليـوم الثالـث مـن الشـهر الجـاري بمستشـفي بـاكي.

وقَّـع الخـبر رفيـق والدهـا في البنسـيون، وهـو رجـل يدعـي فيـن أو فايـن، أصلـه مـن ريوكرانـدي، لم يكـن باسـتطاعته أن يعلـم أنـه يتوجـه بالخطـاب إلي ابنـة المرحـوم.

تركـت إيمـا الورقـة تسـقط مـن بـين يديهـا. وكان أول مـا شـعرت بـه هـو غصـة مؤلمـة في البطـن والركبتـين ثـم شـعور بخطـأ أعمـي باللاواقـع والـبرد والخـوف ثـم أرادت أن تكـون في اليـوم التـالي.

فهمـت بعـد ذلـك أن هـذه الإرادة لم تكـن لتجـدي لأن مـوت أبيهـا كان الحـدث الوحيـد الـذي وقـع في هـذا العـالم، وأنـه سـوف يظـل يقـع مـرات لا نهائيـة وإلى الأبـد. التقطـت الورقـة وطـارت إلى غرفتهـا، وهنـاك أخفتهـا خلسـة داخـل درج كـما لـو كانـت بكيفيـة مـا تعـرف مسـبقًا الوقائـع اللاحقـة. لقـد بـدأت تلمحهـا منـذ الآن؛ فصـارت مـن سـتكون فيـما بعـد. في العتمـة المتناميـة بكـت إيمـا حتـى انتهـى نهـار ذلـك اليـوم انتحـار مانويـل مايـر الـذي كان يسـمى في الأيـام الباسـمة الغابـرة إيمانويـل ثونـث. تذكـرت نزهـات الصيـف في مزرعـة بالقـرب مـن كواليكـواي وتذكـرت أمهـا (أو تظاهـرت بذلـك) وتذكـرت البيـت الصغـير الـذي انتـزع منهـم وتذكـرت الفسيفسـاء الصفـراء في زجـاج نافـذة وتذكـرت سـيارة السـجن والشـعور بالمهانـة وتذكـرت الرسـائل المجهولـة المرسـل مـع الراتـب الشـهري والتـي كانـت تتحـدث عـن اختـلاس صاحـب الصنـدوق كـما تذكـرت (وهـو مـا لـن تنسـاه في حياتهـا) أن أباهـا أقسـم في الليلـة الأخـيرة أن المختلـس هـو لوفينتـال هـارون لوفينتـال دون سـواه، وكان مـن قبـل وكيـلا للشركـة فأصبـح الآن مـن المالكـين لهـا. احتفظـت إيمـا بالـسر منـذ سـنة 1916 ولم تفشـه لمخلـوق. بمـا في ذلـك صديقتهـا الأقـرب إلسـا أورسـتاين. ربمـا كانـت بذلـك تتجنـب عـدوى عـدم التصديـق، أو لعلهـا كانـت تعتقـد أن الـسر كان الرابـط المقـدس بينهـا وبـين الغائـب.

لم يكـن لوفينتـال يعلـم أنهـا تعلـم، وكانـت إيمـا ثونـث تسـتمد مـن هـذه المسـألة التافهـة شـعورا بالعظمـة.

لم تنـم تلـك الليلـة وحينـما حـضر النـور في مربـع النافـذة كان مخططهـا قـد اكتمـل. حاولـت أن يكـون هـذا اليـوم الـذي بـدا لهـا غـير متنـاه أشـبه بـكل يـوم آخـر. تـسري بالمصنـع إشـاعات

عـن إضراب، وأعلنـت إيمـا مثلـما فعلـت دائمـا أنهـا ضـد كل عنـف. في السادسـة بعـد انتهـاء العمل ذهبـت صحبـة إلسـا إلي نـاد خـاص بالنسـاء بـه مـكان لممارسـة الرياضـة وحـمام سـباحة متواضـع. سـجلتا اسـميهما وكان عليهـا أن تعيـد اسـمها ولقبهـا مـرة أخـرى كـما كان عليهـا أن تتجاهـل السـخريات المبتذلـة المصاحبـة للتعليقـات. ناقشـت هـي وإلسـا وصغـرى آل كرونفـوس السـينما التـي سـتذهبن إليهـا مسـاء الأحـد ثـم جـاءت سـيرة الخطـاب فلـم يتوقـع أحـد أن تتحـدث إيمـا في هـذا الأمـر. أبريـل القـادم سـيكون التاسـعة عـشرة مـن عمرهـا؛ ومـع ذلـك يرعبهـا الرجـال.

عندمـا عـادت أعـدت الحسـاء وبعـض الخـضر وأكلـت بسرعـة ثـم اضطجعـت وأرغمـت نفسـها عـلي النـوم. هكـذا في عمـل وابتـذال مضـت جمعـة الخامـس عـشر أمـس. يـوم السـبت: أيقظهـا نفـاد الصـبر. ليـس القلـق بـل نفـاد الصـبر والشـعور الخفـي بالراحـة لأنهـا صـارت أخـيرا في ذلـك اليـوم الموعـود. ليـس عليهـا الآن أن تتدبـر أمرهـا وتحتـال وأن تتخيـل فخـلال بضـع سـاعات سـتكون في قلـب بسـاطة الوقائـع. قـرأت في جريـدة لابرينسـا أن السـفينة نوردسـتارنان المُسـجَّلة في مالمـو، سـوف تُبْحِـر هـذه الليلـة مـن الرصيـف رقـم ثلاثـة. ثـم أنهـا هاتفـت إلي لوفينتـال وألمحـت إلى أنهـا تريـد أن تخطـره، مـن وراء زميلاتهـا، بموضـوع الإضراب، ووعـدت أن تمـر بالمكتـب عندمـا يهبـط الظـلام. كان صوتهـا يرتجـف، رجفـة تليـق بواشـية.

عـلى أنـه لم يقـع ذلـك الصبـاح أمـر آخـر ذي بـال: اشـتغلت إيمـا حتـي الثانيـة عـشر واتفقـت مـع إيلسـا وبـيرلا كرونفـوس عـلى تفاصيـل جولـة الأحـد. أخـذت قيلولـة بعـد الغـداء فاسـترجعت، مغمضـة العينـين، الخطـة التـي دبرتهـا. وقـدَّرت أن المرحلـة الأخـيرة سـتكون أقـل رعبـا مـن الأولي وأنهـا سـتذوق معهـا لا محالـة طعـم الظفـر.

فجأة نهضت وهي ترتعش وجرت إلي درج الصوان.

فتحتـه ووجـدت تحـت صـورة ميلتـون سـيلس رسـالة فايـن حيـث تركتهـا الليلـة الماضيـة. لا يمكـن أن يكـون قـد رآهـا أحـد. وشرعـت في قراءتهـا، ثـم مزقتهـا. سـيكون مـن الصعـب وربمـا مـن غـير المناسـب سرد وقائـع ذلـك المسـاء بنـوع مـن الواقعيـة. فاللاواقعيـة صفـة للجحيـم يبـدو أنهـا تلطـف أهوالـه أو تزيـد مـن حدتهـا أحيانـا.

كيـف يمكـن جعـل حـدث مـا محتمـلا مـع أن مُنفِّـذه يـكاد لا يؤمـن بـه، وكيـف يمكـن اسـترجاع ذلـك الهـرج المختـصر الـذي ترفضـه ذاكـرة إيمـا ثونـث ويربكهـا؟

كانـت تعيـش في حـي ألماكـرو بشـارع لينيـيرس وذهبـت ذلـك المسـاء إلى المينـاء. ربمـا شـاهدت نفسـها وهـي تعـبر ممـر خوليـو السـئ السـمعة مضاعفـة في المرايـا تشـهرها الأضـواء وتجردهـا مـن ملابسـها عيـون الجائعـين الشـبقة. بيـد أنـه مـن المعقـول أكـثر الافـتراض بأنهـا ضلـت الطريـق دون أن يلاحظهـا أحـد. دخلـت حانتـين أو ثلاثـا وشـاهدت روتـين نسـاء أخريـات وألاعيبهـن وفي نهايـة المطـاف عـثرت عـلي رجـال مـن السـفينة آنفـة الذكـر. خشـيت أن يبـث فيهـا أكثرهـم شـبابا

حنوا من نوع ما فاختارت آخر لعله كان أشد قصرا منها وسوقي الطبع، وذلك حتي لا يصير الرعب الخالص خفيف الوقع.

قادها الرجل إلى باب يفضي إلى دهليز يقود إلى سلالم متعرجة ثم إلي بهوبه نافذة تدخل نور النهار على معينات زجاجية شبيهة بتلك التي كانت في المنزل الموجود بلانوس، ثم إلى ممر ثم إلى باب انغلق.

إن الوقائع الخطيرة تحدث خارج الزمن إما لان الماضي المباشر يتجلي فيها كما لو كان مبتورا عما يعقبه وإما لأن الأجزاء التي تؤلفها لا تبدو متتالية. هل فكرت إيما ثونث في كل ذلك الزمن الموجود خارج حدود الزمن، وفي ذلك الصخب المحير للأحاسيس المنفرطة والشنيعة؛ هل فكرت مرة واحدة في الميت الذي يحفز تضحيتها؟ على ما أظن أنها فكرت مرة واحدة وأنها في تلك اللحظة خاطرت بحماس اليائس. فكرت، كأنما بفعل قوة أكبر منها، في أن أباها قد فعل في والدتها ما يفعل فيها الآن. تأملت ذلك باستغراب واهن فداهمها الغثيان.

لم يكن الرجل السويدي أو الفنلندي الأصل يتحدث الإسبانية كان أداة بالنسبة لإيما مثلما كانت هي أداة بالنسبة له غير أنها كانت صالحة لاستمتاعه وصلح هو ليأخذ العدل مجراه.

عندما انفردت بنفسها لم تفتح إيما عينيها مباشرة. وكان على المائدة ذات المصباح الأوراق النقدية التي تركها الرجل؛ فانتترت إيما واقفة ومزقتها مثلما مزقت الرسالة من قبل. إن تمزيق النقود كفر صريح؛ شأنه شأن رمي رغيف خبز، لذا استغفرت ربها عن زلتها بعد اقترافها مباشرة، وضاع الخوف في حزن جسدها وفي التقزز الشامل.

بيد أنها نهضت ببطء وشرعت في ارتداء ملابسها. لم تعد بالحجرة ألوان حية إذ كان الغروب الأخير يحتد. وتمكنت إيما من الخروج دون أن يلاحظها أحد وعند المنعطف صعدت إلى حافلة لاكروثي تتجه غربًا. اختارت حسب مخططها المقعد الأكثر تقدما حتي لا يرى وجهها. ربما طمأنها أن تتأكد في تفاهة نشاط الشوارع أن ما حدث لم يصب الأشياء بعدواه.

مرت بأحياء متداخلة كثعابين الماء تبصرها فتنساها حينا ثم ترجلت عند أحد المداخل. لقد غدا تعبها بشكل متناقض قوة لأنه يرغمها علي التركيز في تفاصيل المغامرة ويحجب عنها العمق والغاية. كان هارون لوفينتال بالنسبة للجميع رجلا حادا وكان بالنسبة لخاصته الأقربين رجلا بخيلا. كان يقيم في أعالي المصنع بمفرده. وبما أن الضاحية كانت خلاء فقد كان يخشي اللصوص لذا أطلق في بهو المصنع كلب ضخم ولم يكن ليجهل أن الرجل كان يضع في درج مكتبه مسدسا.

لقد بكى بغزارة خلال السنة المنصرمة موت زوجته غير المتوقع، بيد أن المال كان حبه

الوحيـد. وكان يـدرك بحـرج ذاتي أن قابليتـه للحصـول عـلي المـال أقـل مـن قابليتـه للمحافظـة عليـه. كان بالـغ التديـن ويعتقـد أن بينـه وبـين اللـه ميثاقـا سريـا يعفيـه مـن التـصرف الطيـب مقابـل دعـاء وابتهـالات. أصلـع بدينـا يرتـدي عوينـات غائمـة ولحيتـه شـقراء وكان ينتظـر منتصبـا بالقـرب مـن النافـذة البـلاغ الـسري الـذي سـتدلي بـه العاملـة ثونـث.

رآهـا تدفـع الحاجـز الحديـدي -الـذي واربـه خصيصـا لذلـك- وتعـبر البهـو المعتـم. ثـم أبصرهـا تقـوم بانحـراف صغـير عندمـا نبـح الكلـب المُسلسـل. وكانـت شـفتا إيمـا منهمكتـان مثـل شـفتي مـن يتلـو صـلاة خفيـة، متعبتـان وهـما تكـرران الجملـة التـي سيسـمعها السـيد لوفينتـال قبـل موتـه بلحظـة.

لم تقـع الأمـور عـلى النحـو الـذي توقعتـه إيمـا ثونـث؛ فمنـذ فجـر اليـوم السـابق تخيلـت نفسـها مـرات عديـدة وهـي تصـوب المسـدس بثبـات مرغمـة الرجـل البائـس عـلى الاعـتراف بجرمـه الملعـون، عارضـة الحيلـة الجريئـة التـي تسـمح لعدالـة اللـه أن تنتـصر لعدالـة الإنسـان. وبعـد ذلـك تـزرع رصاصـة واحـدة في منتصـف الصـدر تحـدد مصـير لوفينتـال.

بيد أن الأمور لم تجر علي هذا النحو.

بصـدد هـارون لوفينتـال؛ لم تشـعر إيمـا بـضرورة الانتقـام عـلى عجـل لوالدهـا قـدر شـعورها بالرغبـة في معاقبـة الفعـل الشـائن الـذي عانتـه في سـبيل ذلـك. لم يكـن باسـتطاعتها ألا تقتلـه بعـد تلـك الوصمـة البالغـة الدقـة كـما لم يكـن لديهـا متسـع مـن الوقـت للقيـام بحيـل مسرحيـة. والتمسـت وهـي تجلـس في حيـاء أعـذارا مـن لوفينتـال ثـم ادعـت، بصفتهـا واشـية، واجبـات الـولاء لـه فذكـرت بضعـة أسـماء ولمحـت إلى أخـرى قبـل أن توجـم كـما لـو أن الخـوف قـد اعتراهـا. احتالـت عـلي أن يغـادر لوفينتـال الحجـرة بحثـا عـن قـدح مـاء. وعندمـا عـاد هـذا مـن المطعـم وهـو لا يصـدق –رغـم حلمـه- مزاعـم التأثـر المبالـغ فيـه كانـت إيمـا قـد أخرجـت مـن الـدرج المسـدس الثقيـل.

ضغطت علي زناده مرتين.

خـر الجسـم الضخـم كـما لـو حطمتـه الفرقعتـان والدخـان وتكـسر كأس المـاء وحملـق فيهـا الوجـه في اسـتغراب وغيـظ وشـتمها فـم الوجـه بالإسـبانية. وانفجـر الكلـب المُقيَّـد نابحـا في الفنـاء واندفـع مـن الشـفتين الفاحشـتين دفـق دم مفاجـئ فلطـخ اللحيـة والملابـس. شرعـت إيمـا في النطـق بالاتهـام الـذي هيأتـه..

لقد انتقمت لوالدي؛ وليس بإمكانهم إنزال العقاب بي...

.. غـير أنهـا لم تتممـه لأن السـيد لوفينتـال كان قـد انتقـل إلى الرفيـق الأعـلى. لم يعـرف قـط ولا تمكـن مـن أن يفهـم. ذكرهـا النبـاح المتوتـر أنهـا لـن تسـتطيع الاسـتراحة الآن. ليـس الآن. أخلـت

بنظام الديوان وفكت أزرار سراويل الجثة ثم نزعت نظارتيها الملطختين وتركتهما فوق خزانة البطاقات. بعد ذلك رفعت السماعة وأعادت سبق أن كررته عدة مرات بهذا اللفظ أو غيره:

وقع أمر عجيب.. لقد طلب السيد لوفينتال حضوري بحجة الإضراب.. اغتصبني؛ فقتلته...

لم تكن القصة لتصدق في الواقع لكنها فرضت نفسها على الجميع؛ لأنها كانت بالضرورة صائبة. كانت لهجة إيما ثونث حقيقية كما كان خجلها وحقدها حقيقيين وكذا الإهانة التي لحقت بها ولم يكن الزائف سوى الظروف واسم واحد أو اسمان لا أكثر.

المتهم القاضي

أحضر بيوي كساريس من لندن مدية غريبة ذات حد مثلث ومقبض على شكل حرف H وعلَّق صديقنا كريستوفرديوي- وهو من المجلس البريطاني- بأن استعمال أسلحة من هذا النوع كان أمرا شائعا في بلاد السند والهند. فشجَّعته هذه الفتوي على أن يذكر بأنه عمل بذلك البلد فيما بين الحربين (أتذكر أنه تفلسف باللاتينية مخطئا بيتا من شعر خوفينال). ومن بين القصص التي رواها في تلك الليلة سأتجرأ علي إعادة توليف القصة التالية، ولسوف يكون نصي أمينا بدعاء لله أن يحفظني من غواية إضافة ملامح ظرفية موجزة أو من التشديد باستعمال تذييلات هامشية من نحو ما يستعمله كيبلنج علي المظهر الأجنبي فهي فضلا عن ذلك تتوفر على نكهة عتيق حرِّيف سيكون فقدانه مؤسفا لعلها نكهة ألف ليلة وليلة ذاتها.

إن تحديد جغرافية دقيقة للوقائع التي سأحكيها لاتهم إلا قليلا. فأية دقة ستحتفظ بها في بوينوس آيريس أسماء من قبيل أمريزار أو أوديت؟ لأكتف إذن بالقول إنه وقعت في تلك الأعوام اضطرابات عنيفة في مدينة إسلامية ما وأن الحكومة المركزية بعثت مندوبها السامي لفرض النظام بها. وكان الرجل اسكتلنديا من قبيلة محاربين ذائعة الصيت تجري في عروقه استعدادات البطش. لقد بصرت به عيناي مرة واحدة غير أني لن أنسى ما حييت شعره الفاحم وصدغيه البارزين وأنفه المعقوف وفمه المزموم وكتفيه الواسعين وهيكله الفيكينجي المتين. سيُدعي في قصتي هذه الليلة ديفيد ألكسندر كلينكرن واللقبان متلائمان لأنهما كانا لملكين حكما بصولجان من حديد ونار. إن ديفيد ألكسندر كلينكرن هذا (ويجب أن نعتاد تسميته في حكايتنا) كان وأنا شاك في هذا الوصف رجلا رهيبا يثير الرجفة في قلوب أعتى الرجال؛ إذ أن إعلان استقدامه على هذا النحو كان كافيا لتهئة المدينة.

بيد أن ذلك لم يحل بينه وبين إقرار إجراءات عنيفة على أشكال وألوان. ومضت بضع سنين، كانت المدينة وضواحيها ترفل في سلام إذ وضع السيخ والمسلمون حدا لخلافاتهم القديمة، ثم اختفى كلينكرن فجأة. وأشيع أنه اختطف أو اغتيل كما يمكنك أن تتوقع. لقد اطلعت علي هذه المجريات عن طريق رئيسي المباشر نظرا لأن الرقابة شددت على عدم النشر فلم تعلق الصحف اختفاء كلينكرن (بل لعلها لم تسجل ذلك أصلا إن لم تخني الذاكرة). تقول الأسطورة أن الهند أكبر من العالم! فإذا كان كلينكرن حسب الظن مُطلق التصرُّف في مدينة صيرته إليها مشيئة توقيع في ذيل قرار إداري؛ فإنه لم يكن أكثر من ترس في آلة حكومات الإمبراطورية الشاملة.

أما تحريات الشرطة المحلية فهي والهباء سواء؛ ففكر رئيسي بأن فردا قد يثير القليل

مـن الشـبهات ويحقـق نجاحـا أفضـل. بعـد يومـين أو ثلاثـة (والمسـافات في الهنـد سـخية والزمـن لا نهـائي) أدركنـي التعـب وأنـا أطـوف دون أمـل كبـير بشـوارع المدينـة الثريـة التـي أخفـت في تضاعيفهـا رجـلا.

شـعرت في التـو واللحظـة بالحضـور اللانهـائي لمؤامـرة غرضهـا إخفـاء مصـير كلينكـرن. وفـزت بمزيـة الشـك في أنـه لا توجـد نفـس في هـذه المدينـة لا تعلـم السـر ولم تقسـم عـلي عـدم البـوح بـه. أمـا الأكثريـة حينـما اسـتنطقوا فقـد عـبَّروا عـن جهـل لا مزيـد عليـه: كانـوا لا يعرفـون مـن هـو كلينكـرن ولم يـروه قـط ولم يسـمعوا عنـه في الآونـة الأخـيرة. وأشـيع أن رآه آخـرون منـذ ربـع السـاعة وهـو يتحـدَّث إلى شـخص مـا واصطحبـوني إلى البيـت الـذي دخلـه كلاهـما والـذي لا يـدري أهلـه شـيئا عنهـما أو أنهـما غـادراه منـذ اللحظـة. لقـد ضربـت أحـد هـؤلاء الكذابـين المدققـين بجـماع القبضـة عـلي الوجـه! وافـق الشـهود عـلي انفجـار غيظـي فابتكـروا أباطيـل أخـرى لم أصدقهـا بيـد أني لم أجـرؤ عـلي عـدم الاسـتماع إليهـا. وذات مسـاء تـرك لي أحدهـم مظروفـا طيـه طائفـة مـن ورق كانـت بـه بعـض العلامـات وكانـت الشـمس قـد مالـت عندمـا وصلـت.

كان الحـي الشـعبي متواضعـا والمنـزل واطئـا جـدا ومنـذ الرصيـف تبينـت سلسـلة مـن الأبهـاء المتربـة في قاعهـا فرجـة ضـوء. وكان يجـري في البهـو الأخـير احتفـال بمناسـبة إسـلامية مـا لا أدري مـا هـي، ودخـل أعمـى بآلـة عـود قـدت مـن خشـب أحمـر. عنـد قدمـي تربَّـع رجـل عجـوز في العتبـة بتخشُّـب جديـر بالجـمادات. سـأصف كيـف كان لأنـه جـزء جوهـري مـن قصتـي: لقـد أنحلتـه السـنون العديـدة وصقلتـه مثلـما تصقـل الميـاه حصـوة أو أجيـال الرجـال عبـارة. أسـمال طويلـة تغطيـه أو ذلـك مـا تهيـأ لي والعمامـة التـي تلتـف حـول رأسـه لم تكـن غـير خرقـة زائـدة.

وفي الغـروب أدار نحـوي وجهـا معتـما ولحيـة شـديدة البيـاض كالثلـج. حدَّثتـه عـن دافيـد ألكسـندر كلينكـرن دون مقدمـات لكـوني فقـدت كل أمـل. لم يفهـم (أو لعلـه لم يسـتمع إلي مـن الأصـل) فـكان عـلي أن أشرح بـأن الرجـل كان قاضيـا وأننـي بصـدد البحـث عنـه. وفـور أن تفوهـت بهـذه الكلـمات شـعرت بمـا في اسـتنطاق هـذا الرجـل القديـم مـن العبـث إذ لم يكـن الحـاضر بالنسـبة لـه أكـثر مـن إشـاعة غـير محـددة.

خطـر لي أن بمقـدور هـذا الرجـل أن يـزود بأنبـاء عـن التمـرد لكـن ليـس عـن كلينكـرن. ولقـد صـدق ظنـي إذ تلفـظ باقتضـاب متعجبـا: -قـاض!

قـاض ضـاع ويبحثـون عنـه. لقـد وقـع هـذا الحـادث عندمـا كنـت صبيـا. لا علـم لي بالتواريـخ لكـن لم يكـن قـد قـضى نحبـه بعـد نيـكال سـين (نيكولسـن) عنـد سـور دلهـي. إن الزمـن الـذي مـضى يحيـا في الذاكـرة ولا ريبـة في قلبـي أني جديـر باسـترجاع مـا حـدث أيامهـا. لقـد أمـر اللـه بالرحمـة والصـلاح لكـن شـاءت المقاديـر أن يفسـد النـاس فكانـت الأفـواه غاصـة باللعنـات والمكـر والمكائـد. بالتأكيـد لم يكـن الجميـع فاسـدا. فعندمـا نـودي بـأن الملكـة سترسـل رجـلا يطبـق في هـذا

البلد قانون إنجلترا سُر أقلهم سوءا لأنهم شعروا بأن القانون أفضل من الفوضى على كل حال. وصل الرجل المسيحي فلم يتوان عن مخالفة واجباته وممارسة القمع عن التصدي للجنايات القائمة وإهمال القرارات والفضائل. لم نحمله المسئولية بادئ الأمر فالعدالة الإنجليزية التي كان يدبرها لم تكن معروفة من أحد ولعل العثرات التي وقع فيها القاضي الجديد توافق عللا صالحة وسرية. كنا نحب أن نفكر بأنه لقد جعل الله لكل شيء سببا غير أن مشابهة ذلك القاضي لكل قضاة العالم السيئين كانت بالغة النباهة فكان علينا في النهاية أن نقبل بكونه مجرد شرير تقليدي آخر. لقد غدا وغدًا مستبدا ولكي ينتقم الناس البسطاء للأمل الزائف الذي وضعوه فيه ذات في أحد الأيام، عمدوا إلى تقليب الرأي في فكرة اختطافه ومحاكمته!

الكلام وحده لا يكفي ومن التصورات كان عليهم أن ينتقلوا إلى مرحلة التنفيذ. ربما لم يكن أحد، سواء من أكثرهم سذاجة أو أرجحهم عقلا، يعتقد بأن هذا الاقتراح الجريء يمكن أن يكون محل تنفيذ فعلا؛ بيد أن آلاف السيخ والمسلمين كانوا عند كلمتهم فنفذوا ذات يوم وهم لا يصدقون ما كان يبدو لكل امرئ منهم أمرا من رابع المستحيلات. اختطفوا القاضي وجعلوا محبسه ضيعة في ربع منعزل، وتعهدوا بعدها لجميع من تعرضوا في العهد القديم لعدوانه أو للأيتام والأرامل الذين خلقهم بطشه نظرا لأن سيف الجلاد لم يكن قد خلد إلي الراحة في تلك الأعوام السوداء. وفي خاتمة المطاف، وهو ما كان حسب القول الشائع من أعقد المسائل، بحثوا عن قاض لمحاكمة القاضي فعينوه!

وهنا أزعجه دخول بعض النسوة اللواتي للدار لكنه تابع ببطء:

-من المعلوم أنه لا يوجد جيل لا يتوفر علي أربعة رجال راشدين يدعمون الكون خفية ويبررونه أمام الرب: ومن المحتمل أن يكون أحد هؤلاء الرجال المبجلين أكثر القضاة نزاهة. لكن أين يمكن العثور عليهم وهم يسيرون في الأرض ضائعين نكرات لا يمكن التعرُّف عليهم حين رؤيتهم كما أنهم هم أنفسهم لا يدرون أية مهمة سامية يشغلون؟! لحظتئذ اقترح البعض أنه إذا كان القدر قد حرمنا العارفين فلم لا ننشد الحمقى! وغلب هذا الرأي. التحق بهيأة المحكمة حفظة القرآن وفقهاء الشريعة وسيخ يحملون أسماء الزنوج ويعبدون إلها واحدا وهندوس يعبدون عدة آلهة ورهبان المهافيرا الذين يعلمون بأن شكل الكون رجل قدماه منفرجتان ومجوس ويهود من الفلاشا، بيد أن القرار النهائي عهد به إلي اعتباط مجنون.

هنا احتج بعض الأشخاص الذين كانوا يغادرون الحفل فكرر في تصميم:

-أي نعم، عُهد بها إلى مجنون! كي تتحدث حكمة الله عبر فمه فتخجل الغطرسة البشرية. لقد ضاع اسمه أو لم يُعرف قط من هو، لكنه كان يمشي عاريا في هذه الطرقات أو يجر

أسماله في هيام يحصي الأصابع بإبهامه ويستهزئ بالأشجار. تمرد حسي السليم فقلت بأن إعطاء مجنون حرية القرار سيبطل المحاكمة فكانت الإجابة: لقد قبل المتهم القاضي؛ لعله أدرك مبلغ الخطر الذي قد يتعرض له المتآمرين فيما لو تركوه وشأنه فلم ينتظر صدور حكم بعدم موته إلا من مجنون! سمعت أنه ضحك حينما أخبروه من يكون القاضي. واستمرت المحاكمة أياما وليالي عديدة بسبب تنامي عدد الشهود.

ساد الصمت واحترمه القوم بشكل طاريء. لقد شغله شاغل. وحتى أقول شيئا فقد سألت عن عدد الأيام؛ فأجاب:

-تسعة عشر على الأقل.

وعاد الأشخاص الذين يغادرون الحفل إلى مقاطعته. حرَّم الله الخمر على المسلمين كما عرفت بيد أن الوجوه والأصوات كانت تبدو أشبه بوجوه السكارى، وما هم بسُكارى. وصرخ أحدهم فيه بكلام فيما كان مارا.

قال مصححا:-تسعة عشر يوما بالتحديد. استمع الكلب الكافر إلي الحكم وانغرست المدية في حنجرته.

كان يتحدث بعجرفة مثيرة للضحك؛ ثم أنه أنهى القصة بصوت مختلف:

-مات دون خوف وفي أشد الخلق دناءة قد توجد فضيلة ما.

سألته:

-أين حدث ما حكيته؟ هل في ضيعة ما؟

لأول مرة نظر في عيني. بعد ذلك أوضح ببطء وهو يزن كلماته:

-قلت إنهم حبسوه في ضيعة ولم أقل حاكموه بها. افهم! لقد حاكموه بهذه المدينة وفي منزل شبيه بكل المنازل وشبيه بهذا. إن المنزل لا يمكن أن يتميز عن آخر والمهم هو معرفة ما إذا كان قد انتهى به المقام إلى الجنة أو إلى الجحيم.

سألته عن مصير المتآمرين فقال لي بصبر:

-لا أدري. لقد حدثت هذه الأمور ونسيت منذ سنين عددا. لعل الناس أدانوهم أما الله فلم يفعل.

قال ذلك ثم قام.

شعرت بأن كلماته تودعني وأنني انتهيت بالنسبة له منذ تلك اللحظة.

وفاضت شرذمة مكونة من رجال ونساء ينتمون الي كل أمم البنجاب وهم يبتهلون

وينشـدون فأوشـكت عـلى سـحقنا!

لقـد أربكنـي أيمـا إربـاك أن يخـرج مـن أفنيـة بالغـة الضيـق لم تكـن أكثر مـن دهاليـز طويلـة ذلـك العـدد الغفـير مـن النـاس. وكان غيرهـم يخرجـون مـن دور مجـاورة قـد تخطـوا الأسـوار ولا ريـب.. جعلـت طريقـي سـالكا بتمثـال أصفـر في يـده سـيف وكان الجميـع يقبلـه ويبالـغ في إكرامـه. وكان السـيف متسـخا لأنـه أودى بحيـاة كلنكـرن الـذي عُـثرت عـلى جثتـه الممزقـة في زريبـة للخيـل بقـاع المنـزل.

الغداء
سومرست موم

كان ذلـك في أثنـاء العـرض المسرحـي عندمـا لمحتهـا.. أشـارت إليّ بيدهـا لكـن اذهـب حتـى أجلـس بجوارهـا في الاسـتراحة.. لقـد مـر وقـت طويـل منـذ أخـر مـرة رأيتهـا فيهـا..الواقـع أنـه لـو لم يذكـر اسـمها أمامـي بوضـوح لمـا عرفتهـا قط!..قالـت لي بحـرارة:

- لقـد انقضـت مـدة طويلـة عـلى لقاءنـا الأول! ثـم في شيء مـن الخفـوت: .. وهـا نحـن نتقـدم بالسن.

وعادت لنفس الحرارة :

- ما أسرع مرور الأيام! وصمتت لحظة ثم سألت: هل تذكر لقاءنا الأول؟

وعندما لم أرد بسرعة ذكرتني:

- حين دعوتني للغداء!

وهـل أنـسى تلـك المناسـبة؟ حـدث ذلـك قبـل عشريـن عامـاً..حـين كنـت أعيـش في باريـس في شـقة متواضعـة تطـل عـلى مقـبرة في الحـي اللاتينـي..في هـذا الوقـت لم أكـن أجـد مـا أسـد بـه جوعـي.. ولم أكـن أكسـب إلا الفتـات! وبـدأت القصـة عندمـا بعثـت إليَّ تلـك السـيدة برسـالة حـول كتـاب لي كانـت قـد قرأتـه.. لم أجبهـا بـشيء أكـثر مـن الشـكر العميـق لاهتمامهـا بمـا كتبـت. ثـم حـدث أن تسـلمت منهـا رسـالة أخـرى بعـد فـترة وجيـزة مفادهـا أنهـا سـوف تغتنـم فرصـة مرورهـا بباريـس للحديـث معـي قليـلاً، و أنهـا سـوف تقـضي بعـض الوقـت مـن صبـاح ذلـك اليـوم في لوكسـبورج وبعدهـا يمكنهـا أن تلبـي دعـوتي عـلى الغـداء في فويـو لأن وقتهـا – كـما قالـت – ضيـق جـداً!

وفويـو هـذا هـو أحـد أرقـى المطاعـم الباريسـية.. يرتـاده عليـة القـوم والشـيوخ الباريسـيين وأكابـر فرنسا..وأسـعاره بالتأكيـد تفـوق طاقتـي!! الواقـع لم يخطـر في بـالي أننـي سـوف أكـون أحـد رواد هـذا المـكان في يـوم ما..لكـن الزهـو أخـذ منـي كل مأخـذ!..

كنـت آنـذاك في مقتبـل العمـر، وهـذا يعنـي أن حيـائي كان أقـوى مـن رفـض أي طلـب لسـيدة (وفي الحقيقـة أن معظـم الرجـال لا يمكنهـم التغلـب عـلى هـذا الحيـاء إلا في سـن متأخـرة جـداً، عندمـا يبلـغ الواحـد منهـم أرذل العمـر، ويصبـح رفضهـم وقبولهـم سـيّان!) يومهـا لم يكـن في جبينـي أكـثر مـن ثمانـين فرنـكاً ذهبيـاً كنـت أؤخرهـا لآخـر الشـهر.. ومـن المفـترض أن أي غـداء متواضـع مـا كان ليكلفنـي أكـثر مـن خمسـة عـشر فرنـكاً ذهبيـاً. قلـت لنفـسي: لـو امتنعـت عـن شرب القهـوة في الأسـبوعين القادمـين لاسـتطعت أن أتدبـر الأمـر دون عنـاء!

ووعـدت صديقتـي – بالمراسـلة – أن أقابلهـا في مطعـم فويـو يـوم الخميـس في السـاعة الثانيـة عـشرة والنصـف وأدركـت عندمـا رأيتهـا كـم أنهـا متكلفـة أكـثر منهـا جذابـة.... وأنهـا – كـما توقعـت تمامـاً – تخطـت سـن الشـباب! لقـد بـدا لي أنهـا في العقـد الرابـع مـن عمرهـا.. ورغـم أنـه سـن سـاحر للغايـة إلا أنـه لا يشـعل نـيران عاطفـة مفاجئـة جامحـة مـن النظـرة الأولى.. ومـما لفـت نظـري أكـثر أن أسـنانها كانـت بيضـاء كبـيرة مصفوفـة بعنايـة وإتقـان بشـكل أكـثر غرابـة مـما يمكـن أن يحتـاج إليـه المـرء عمليـاً..صحيـح أنهـا كانـت ثرثارة..لكنننـي لم ألـق بـالاً لذلـك وقتها..الواقـع أننـي كنـت عـلى أتـم اسـتعداد للإصغـاء إليهـا مـا دامـت متحمسـة هـي للـكلام معـي! وجاءنـا النـادل بقائمـة الطعـام..وفي هـذه اللحظـة انتابنـي الذعـر!

لقد كانت الأسعار تفوق أبشع كوابيسي! لكنها طمأنتني حين قالت:

- إنني لا أتناول شيئاً عند الغداء أبداً.

فأجبتها بكرم شديد:

-يا إلهي.. غير معقول.. دعيك من هذا الكلام!!

أكدت كلامها :

-إننـي لا أتنـاول أبـداً أكـثر مـن صنـف واحـد.. في ظنـي أن النـاس يأكلـون أكـثر بكثـير مـما هـم محتاجـين إليـه فعلاً.

هزرت رأسي إعجاباً برأيها لكنها تابعت:

- حسناً!.. ربما سأطلب سمكة صغيرة، هل عندهم سلمون؟

وتنفسـت الصعـداء! إذ أن موسـم السـلمون لم يـأت بعـد، ولم يـزل الوقـت مبكـراً جـداً حتـى أنـه لم يضعـوه في لائحـة الأسـعار بعد..ومـع ذلـك سـألت النـادل في ثقـة:

- هل لديكم سلمون؟

أجاب في فخر:

- أجل يا سيدي!

يا لسوء الحظ!

- لقد وصلتنا للتو كمية من السلمون الممتاز!

اللعنـة ! لقـد وصلتهـم في ذلـك الوقـت بالفعـل أول كميـة مـن السـلمون! ولم أجـد بـداً مـن أن أطلـب السـلمون نـزولاً عنـد رغبـة ضيفتـي. وسـألها النـادل إن كانـت ترغـب في تنـاول بعـض المقبلات ريثـما ينضـج السـلمون، فأجابـت:

- كلا.. أنا لا آكل أكثر من صنف واحد أبداً!

تنهدت ارتياحاً، لكنها قالت:

- إلا إذا كان لديكم بعض الكافيار..فلا بأس!

شعرت وكأن قلب غاص قليلاً من صدري. كنت على يقين بأنه لا قبل لي بالكافيار، لكني – بالطبع – لم أستطع أن أخبرها بهذا صراحة. وطلبت النادل من جديد ليجلب لها الكافيار. أما أنا فأخذت أرخص طبق في قائمة الطعام: قطعة من لحم الضأن! وقالت لي:

- أرى أنك تخطئ في تناول اللحم. لست أدري كيف تستطيع العمل بعد وجبة دسمة كهذه،.. أما أنا فأفضل ألا أرهق معدتي.

وبعدها جاءت مشكلة الشراب،.. قالت:

- أنا لا أشرب شيئاً مع الغداء مطلقاً.

أجبتها بسرعة:

- ولا أنا.

لكنها أردفت وكأنها لم تسمع ما قلت:

- .. سوى نوع معين من الشراب خفيف جداً على المعدة ومفيد جداً للهضم.

سألتها بنبرة المضياف الكريم (ولكن دون إلحاح):

- وماذا تودين أن تشربين؟

سطعت أسنانها البيضاء وهي تجيب:

- إن طبيبي يمنعني من شرب أي شيء عدا هذا الشراب.

امتقع وجهي قليلاً، و لكني على الرغم من ذلك طلبت نصف زجاجة من هذا الشراب، وذكرت لها عرضياً إن طبيبي يمنعني من شرب هذا النوع.

- ماذا ستشرب إذاً؟

أجبت في اقتضاب:

- سأشرب ماء!

أتت على الكافيار.. والتهمت السلمون.. ثم راحت تثرثر عن الفن والموسيقى والأدب.. لكني كنت منشغلاً عنها بالفاتورة والحساب. وعندما وصلت قطعة اللحم التي طلبتها

راحـت تنتقـدني صراحـة:

- أرى أنـك معتـاد عـلى الوجبـات الدسـمة في الغـداء!.. هـذا هـو عـين الخطـأ,.. لم لا تأخـذ فكـرتي وتـأكل صنفـاً واحـداً فقـط ؟.. هـذا سـيجعلك تشـعر بتحسـن كبـير..

أجبتها والنادل يأتي بقائمة الطعام.

- لن أتناول سوى صنف واحداً فقط.

لوحت بيدها أمام النادل علامة الاكتفاء وقالت:

- لا، لا !.. أنـا لا أتنـاول شـيئاً البتـة عنـد الغـداء. لقمـة واحـدة لا أكـثر.. وأنـا آكلهـا لمجـرد فتـح الحديـث. لا يمكـن أن أتنـاول شيء أخـر.. إلا إذا كان لديهـم بعضـاً مـن الهليـون الكبـير.. مـن المؤسـف حقـاً أن آتي إلى باريـس وأغادرهـا دون أن أتنـاول البعـض منـه!

غـاص قلـب في صـدري مـرة أخـرى. كثـير مـا كنـت أرى الهليـون في المحـلات. وأعـرف جيـداً أن ثمنـه يفـوق الخيـال.. وأحيانـاً كان لعـابي يسـيل لمنظـره دون جـدوى. سـألت النـادل :

- السيدة تسأل إن كان لديكم هليون كبير الحجم!

وبذلـت كل مـا بوسـعي لأوحـي لـه أن يجيـب بالنفـي. لكنـه رسـم ابتسـامة عريضـة عـلى وجهـه الـذي يشـبه وجـوه الكهنـة، وأكـد لنـا أن لديهـم هليونـاً كبـير الحجـم مـن النـوع الغـض الممتـاز الـذي لا مثيـل لـه! تنهـدت ضيفتـي وقالـت:

- إنني لا أشعر بالجوع إطلاقاً.. ولكن إن كنت مصراً فلا بأس.. سأتناول الهليون!

طلبت لها الهليون! وسألتني:

- ألن تتناول شيئاً منه؟

غمغمت:

- كلا.. إنني لا آكله بالمرة.

قالت في هدوء:

- أعرف أن بعض الناس لا يحبون الهليون. حقاً إنك تفسر ذوقك بأكلك هذا اللحم.

انتظرنـا حتـى ينضـج الهليـون، ونفسـي يملؤهـا الهلع..فلـم تعـد المشـكلة هـي مـا سـوف يتبقـى لـدي مـن مـال لآخـر الشـهر.. بـل إن كل مـا معـي مـن مـال لـن يكفـي لسـداد الحسـاب.. وسـوف تكـون كارثـة إذا اضطـررت إلى اقـتراض عـشرة فرنـكات مـن ضيفتـي لدفـع الشـيك.. وهـذا مسـتحيل! وقـررت أنـه إذا لم يكـن مـا لـدي مـن المـال كافيـاً لدفـع الحسـاب المطلـوب، فسـوف

أضع يـدي عـلى جيبـي فأتظاهـر بحركـة دراميـة إن حافظتـي قـد سرقـت ! ولكن..مـاذا لـو لم يكـن معهـا هـي الأخـرى مـا يكفـي مـن المـال لسـداد الحسـاب؟ سـيكون وضعـاً محرجـاً لكلينـا بالتأكيد..عندئـذ لـن أجـد مفـراً مـن تـرك سـاعتي وديعـة في المطعـم عـلى أن أعـود لدفـع الحسـاب واسـتردادها فيـما بعـد!

جـاء الهليـون! وخفـق قلبـي لمـرأى حباتـه الكبـيرة الغضة..وسـال لعـابي عندمـا داعبـت رائحـة الزبـدة السـاخنة أنفـي. ورحـت أراقـب تلـك السـيدة وهـي تحشـو حلقهـا بلقـم كبـيرة و بنهـم فظيـع، أمـا أنـا فكنـت أتحـدث بمنتهـى التهذيـب والرقـي عـن المـسرح في بـلاد البلقـان! وسـألتها عندمـا فرغـت مـن الطعـام:

- قهوة ؟

همست في رقة :

- أجل وآيس كريم.. فقط!

كان اليـأس قـد بلـغ منـي مبلغـه.. فطلبـت قهـوة لنفـسي وآيـس كريـم وقهـوة لهـا. وقالـت وهـي تلتهـم الآيـس كريـم:

- أتعـرف؟.. أنـا مؤمنـة بـشيء لا أحيـد عنـه أبـداً.. وهـو أن عـلى المـرء أن ينهـض عـن المائـدة قبـل أن يشـبع.

سألتها بصوت متهدج:

- أما زلت جائعة؟

- لا.. لسـت جائعـة، فأنـا لا آكل وجبـة الغـداء.. أتنـاول فنجانـاً مـن القهـوة في الصبـاح ثـم وجبـة العشـاء.. لكنـي لا آكل أكـثر مـن صنـف واحـد عنـد الغـداء.. كنـت أتكلـم عنـك أنـت!

غمغمت متفهماً:

- آه.

ثـم حـدث شيء فظيـع! فبينـما كنـت أنتظـر وصـول القهـوة، إذ تقـدم منـي النـادل وقـد ارتسـمت عـلى وجهـه المزيـف ابتسـامة ملؤهـا اللـؤم وبيـده سـلة مليئـة بالـدراق الشـهي، كل واحـدة منـه تشـبه وجنتـي فتـاة عـذراء ولهـا ألـوان الطبيعـة الإيطاليـة. ولكـن مهـلاً.. هـذا ليـس موسـم الـدارق، كـما لا يعلـم إلا اللـه ثمنـه! (وقـد عرفـت ثمنـه فيـما بعـد لأن ضيفتـي تناولـت واحـدة منهـا بصـورة عفويـة وهـي تتحـدث)!

- لقـد مـلأت معدتـك بالكثـير مـن اللحـم (وكانـت تشـير إلى قطعـة اللحـم الصغـيرة الهزيلـة)

ويجب ألا تـأكل المزيـد.. أمـا أنـا فلـم أتنـاول سـوى وجبـة خفيفـة، لذلـك سـوف أسـتمتع بدراقـة لذيذة!

وجـاءت الفاتـورة! ووجـدت أن مـا تبقـى معـي مـن المـال لم يعـد يكفي حتـى لدفع البقشـيش. ولمـا رأيتهـا تتأمـل الفرنـكات الثلاثـة التـي تركتهـا للنـادل أدركـت أنهـا ظنـت لي البخـل. لكنـي أيقنـت وأنـا أخـرج مـن بـاب المطعـم أن أمامـي شـهراً كامـلاً أقضيـه مفلسـاً بـلا قـرش واحـد.. وقالـت وهـي تودعنـي:

-افعل مثلي تماماً.. لا تأكل سوى صنف واحد في الغداء!

أجبتها بسرعة:

-بل سأعمل ما هو أفضل.. لن أتناول عشائي نهائياً هذه الليلة!

صاحت وهي تدلف في العربة:

-إنك ظريف للغاية!

لكنـي انتقمـت منهـا في النهايـة! صحيـح أنـا لسـت ممـن يحقـدون عـلى الآخريـن، لكنـي لا أظننـي أرتكـب إثمـاً إذا غمـرني شـعور بالرضا و الحبـور وأنـا أرى.. أن وزنهـا قـد صـار اليوم..مائـة وخمسـة وعشريـن كيلوجرامـاً!!

الفهرس

مقدمة.. ٥
دعابة أنطوان تشيخوف... ٧
وشاية أنطوان تشيكوف...١١
الياناصيب أنطوان تشيكوف..١٥
الكوخ أنطوان تشيكوف...١٩
القوقعة أنطوان تشيكوف..٢١
الإذعان الأخير جابرييل جارسيا ماركيز...٣٣
فك الحصار ج. ج. ماركيز...٤١
أحلام اليقظة جابرييل جارسيا ماركيز..٤٥
الموت يهزم الورد جابرييل جارسيا ماركيز...٥١
بائعة الورد جابرييل جارسيا ماركيز..٥٩
السفينة تمسك النجوم جابرييل جارسيا ماركيز...٦٧
متجر السعادة ألبرتو مورافيا...٧١
يحيا العدل كارلوس ديمتريوس...٧٥
برج الحوت ماتيلدي بيانكي...٧٩
الوردة والبلبلة أوسكار وايلد..٨٣
العملاق الأناني أوسكار وايلد...٨٩
الأرنب البرية جراتسيا ديليدا...٩٣
الطيبون فلاديمير بوجومولوف...٩٩
الأمطار ياسوناري كاواباتا..١٠١
أوراق الخريف دانييل بولانيجييه...١٠٥
صديق وفي باولو جراتسي...١١٣
حلمي ليو تولستوي...١٢٥
رسالتان إلى ميلينا كافكا...١٣٧
سعادة كاثرين مانسفيلد..١٤١
البنت الصغيرة كاثرين مانسفيلد ١٥٥
شكرا يا سيدتي برنادت جونز ١٥٩
قبعة البهلوان راي أبشول خان ١٦٥
كافكا يبوح! كافكا ١٦٩
الجسر نجاتي طوسون ١٧٥
الحافلة الليلية إلى أطلانطا برندان جيل ١٧٧
الساحر دانيلو كيش ١٨٩
العرجاء جي دي موباسان ١٩٩
المجنونة جي دي موباسان ٢٠٥
امرأتان جي دي موباسان..٢٠٩
الأسير جي دي موباسان ٢٢١

شيء عجيب وليام فولكنر ٢٢٩
شمس الليل وليام فولكنر ٢٤٩
تحت نجوم المساء وليام فولكنر ٢٦٧
الشرخ وليام فولكنر ٢٩١
يوم عاصف جدا وليام فولكنر ٢٩٩
العربي جيمس جويس ٣٣١
الظل هانز كريستيان أندرسون ٣٣٧
محاكم التفتيش إدجار آلان بو ٣٥١
كتاب حياتي سيرجيو كارتيوزوني ٣٦٧
لا تبحث في القواميس سيرجيو كارتيونزوني ٣٧١
قصص من بورخيس بحث ابن رشد ٣٧٧
البرلمان ٣٨٥
إيما ٣٩٣
المتهم القاضي ٣٩٩
الغداء سومرست موم ٤٠٥